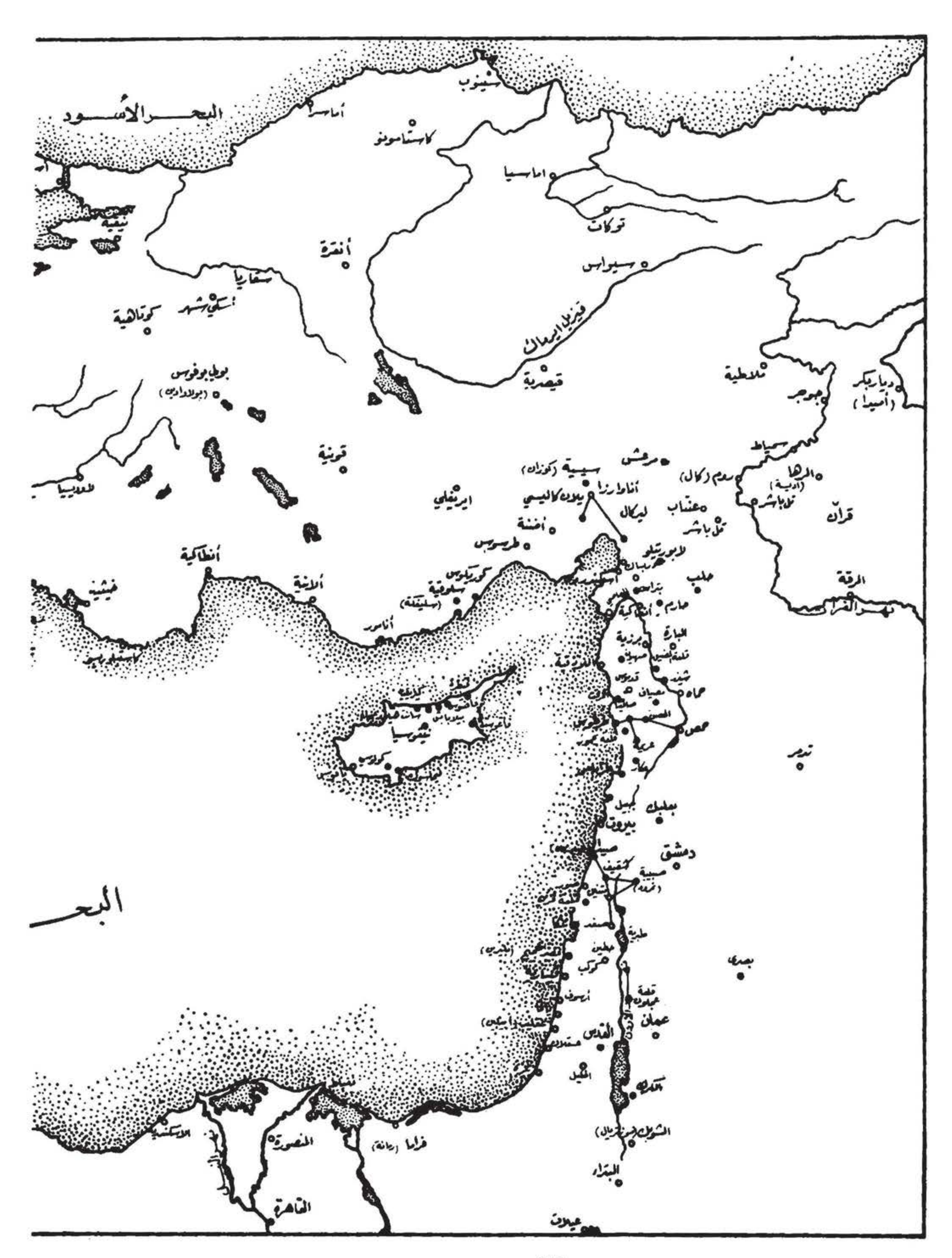
« هُوَ ٱلَّذِي أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ. مَا ظَنَنتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَا نِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ ٱللَّهِ فَأَتَاهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي ٱلْأَبْصَارِ ». صدق الله العظيم

سورة الحشر - الآية: ٢

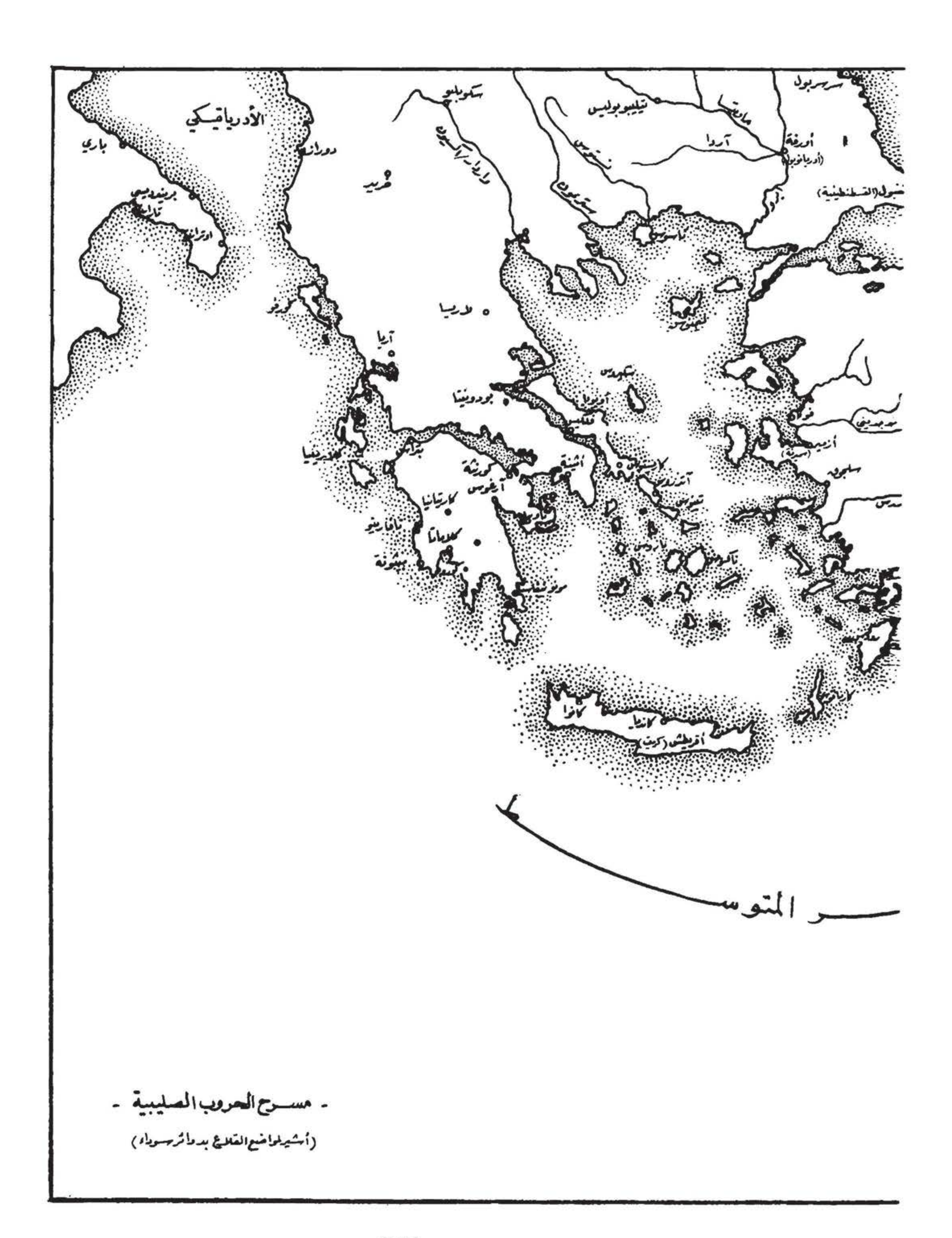
الفصل الثاني

القلاع والحصون أيام الصليبيين

- ١ - القدس.
- ٢ - انطاكية.
- ٣ - الرهاء.
- ٤ - المضيق (أفامية).
- ٥ - قلعة الحصن - حصن الأكراد -.
- ٦ - قلعة المرقب.
- ٧ - قلعة الكرك.
- ٨ - قلعة بعلبك.
- ٩ - قلعة بغراس.
- ١٠ - قلعة دمشق.
- ١١ - قلعة شيزر.
- ١٢ - قلعة شقيف.
- ١٣ - قلعة حلب.
- ١٤ - قلعة حارم.
- ١٥ - قلعة صور.
- ١٦ - قلعة صهيون.
- ١٧ - قلعة طرابلس.
- ١٨ - قلعة طرطوس.
- ١٩ - قلعة عكا.
- ٢٠ - قلعة عثليت.
- ٢١ - قلعة قيسارية.
- ٢٢ - قلعة مصياف.
- ٢٣ - قلعة نمرود.
- ٢٤ - قلعة رودس.
- ٢٥ - قبرص وقلاعها.

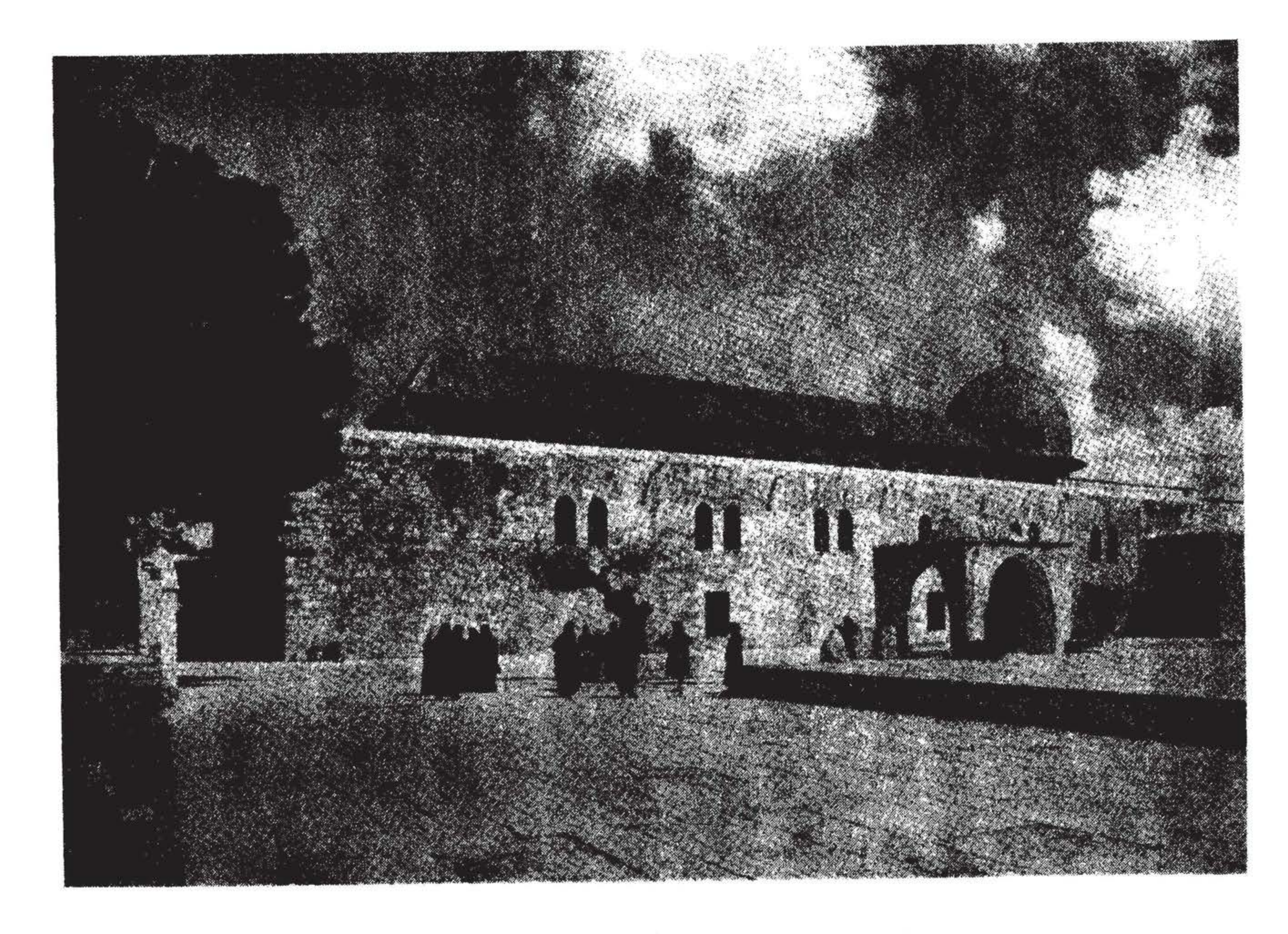


البحر الأسود
سينوب
أماسرا
كاستامونو
اماسيا
توكات
سيواس
أنقرة
سقاريا
أسكي شهر
كوتاهية
قيزيل ايرماك
قيصرية
ملاطية
ديار بكر (أميدا)
قونية
مرعش
الرها (أديسة)
عنتاب
تل باشر
ايرقلي
أضنة
طرسوس
أنطاكية
الانية
أنامور
سلوقية
حلب
الرقة
نهر الفرات
حارم
البارة
حماه
حمص
تدمر
قبرص
بعلبك
جبيل
بيروت
دمشق
بصرى
عمان
القدس
الخليل
الكرك
الشوبك
البتراء
عيلات
المنصورة
القاهرة
البحر

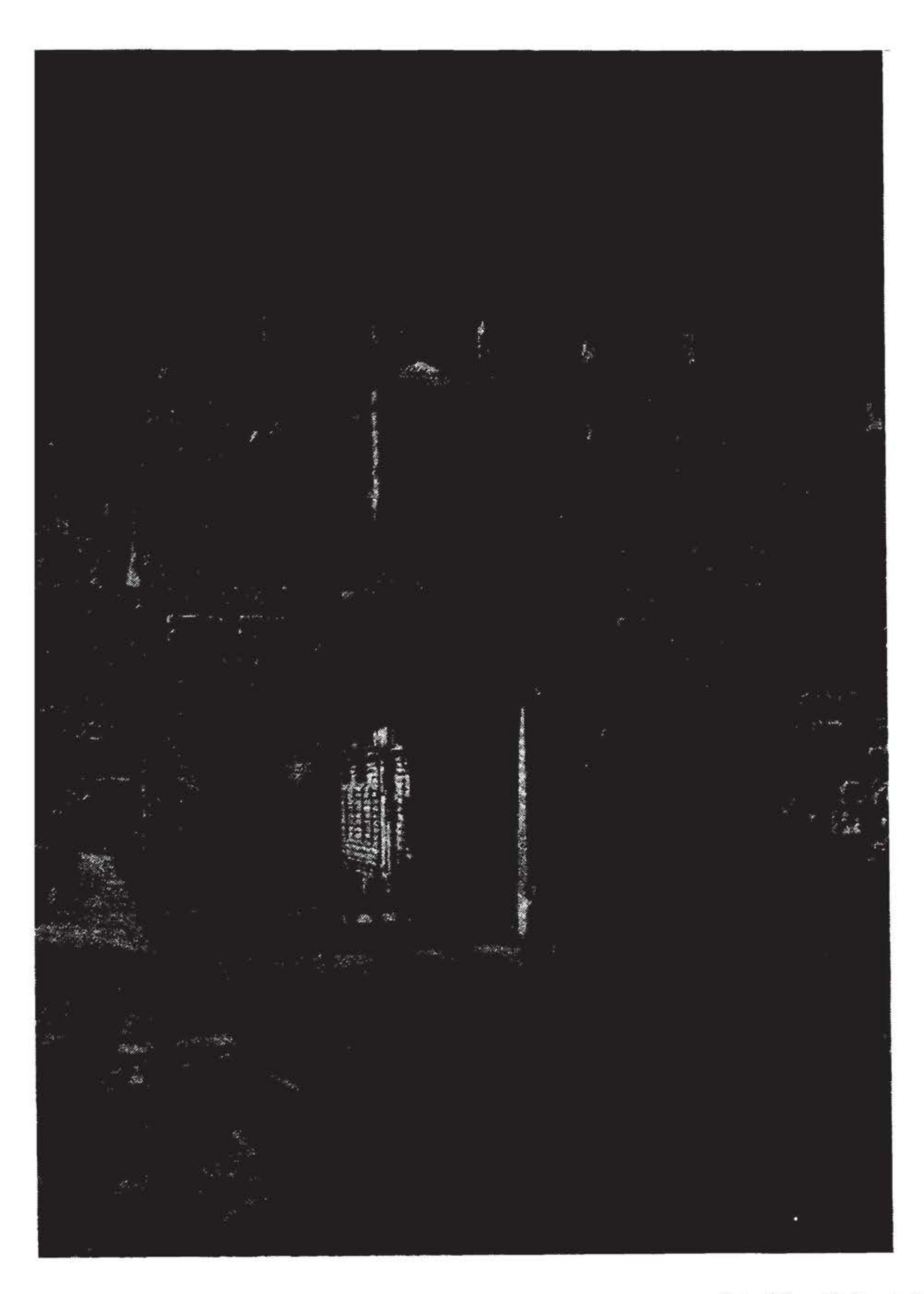


- مســرح الحروب الصليبية -

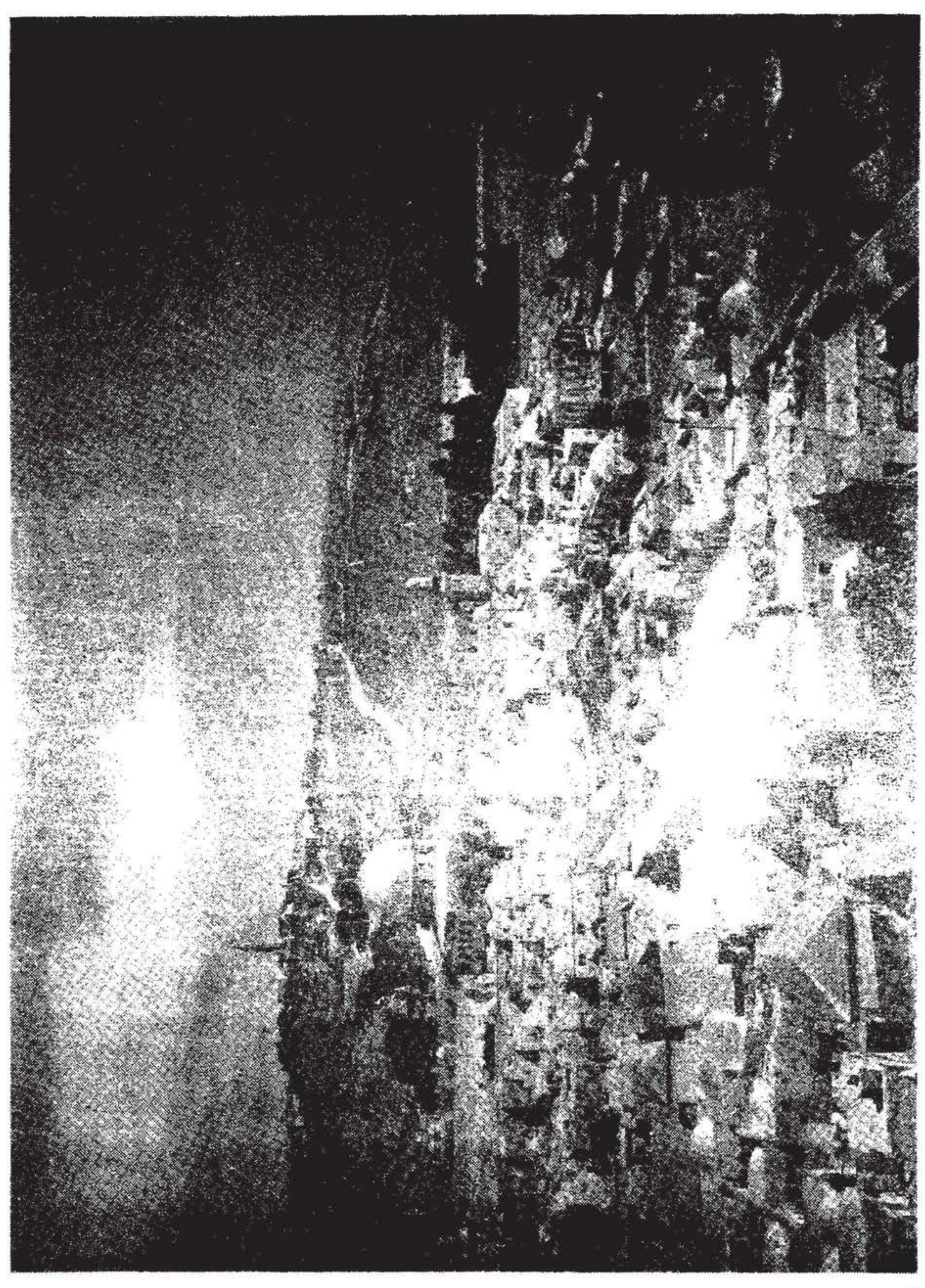
(أشير لمواضع القلاع بدوائر سوداء)



الواجهة الغربية للمسجد الأقصى في ساحة الحرم الشريف.



الواجهة الغربية لبوابة ستي مريم



القدس

منظر للمدينة القديمة ـ ويشاهد جبل الزيتون في خلفية الصورة.

١ ـ القدس وتحصيناتها.

تميزت تحصينات القدس منذ القدم بقوة تحصيناتها ومنعة أسوارها. فقد اهتم الرومان عبر قرون متتالية بتحصين المدينة المقدسة حتى تصمد في وجه هجمات الفرس، حيث كانت الحرب بين الدولتين العظميين (الفرس والروم) سجالاً. وكانت بلاد الشام هي المسرح الأساسي للأعمال القتالية. ولهذا لم يكن غريباً أن تحظى مدن بلاد الشام بالنصيب الأوفى من التحصينات الدفاعية. وبقيت أسوار مدن القدس[١] ودمشق وحمص وحلب من النماذج المميزة لتلك التنظيمات الهندسية الدفاعية. وعندما سارت جحافل المجاهدين في سبيل الله على درب الفتوح. كان لا بد لها وأن تصطدم بهذه الأسوار المنيعة والتحصينات القوية. وقد نهج العرب المسلمون نهجاً مميزاً في التعامل مع أسوار المدن وتحصيناتها. فهم لم يصطدموا بها مباشرة. بل تركوا أمرها حتى تم لهم تدمير الكتل الرئيسة لقوات العدو في اليرموك وفحل وأجنادين وسواها. حيث أتاح لهم تفوقهم في حرب الحركة فرصة تدمير تفوق أعدائهم بالقوى والوسائط. ثم انصرفوا بعد ذلك لعزل المدن الكبرى عن امكانات الدعم الخارجي. وتفرقت جيوش العرب المسلمين بعد معركة اليرموك الظافرة. وبعد موقعة فحل. فسار أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد إلى حمص، وسار شرحبيل بن حسنة لفتح الأردن،

---

(١) تذكر المصادر التاريخية أن الامبراطور الروماني أدريان ADRIAN-OU-HADRIAN الذي ولد سنة ٧٦ م في روما. وحكم من سنة ١١٧ حتى سنة ١٣٨ م هو الذي شيد أسوار القدس سنة ١٣٠ م لمجابهة هجمات الفرس. وأن أدريان هذا هو ابن الامبراطور تراجان بالتبني، فخلفه في الحكم، اشتهر بتشجيع الصناعة والآداب والفنون، واصلاح جهاز الإدارة والحكم. وشيد في روما قصر ادريان المعروف اليوم باسم (قصر القديس الملاك) كما نظم مجموعة القلاع والتحصينات المتصلة على حدود الامبراطورية الرومانية في انكلترا وألمانيا لحمايتها من هجمات الشعوب البرابرة. كما شيّد القلاع ـ الليمات ـ على حدود الامبراطورية في أفريقيا.

فيما سار عمرو بن العاص إلى فلسطين. واجتمع عسكر الروم ـ البيزنطيين ـ بغزة وأجنادين وبيسان بقيادة الأرطبون ـ الذي وصفته مصادر التاريخ العربي ـ الإسلامي بأنه أدهى الخلق ـ. فانتصر عليه عمرو بن العاص في أجنادين، وأرغمه على الفرار إلى القدس. ثم تابع عمرو بن العاص أعمال الفتح، ففتح ايلياء وسبسطيه ـ وبها على ما يقال قبر يحي بن زكريا وجماعة من الأنبياء والقديسين ـ وفتح نابلس واللد وتبني وعمواس وبيت جبرين ويافا ومرج عيون. ثم حصر القدس، وقاتل الحامية المدافعة عن القدس، وقد تجمعت فيها قوات الروم وفلولها. فأشجوا عمرو بن العاص وأشجاهم، إلى أن طلب أهل القدس من عمرو بن العاص أن يصالحهم على صلح أهل مدن الشام. وأن يكون أمير المؤمنين ذاته ـ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه، هو المتولي لعقد الصلح. فكتب عمرو بن العاص إلى أمير المؤمنين: «إني أعالج عدواً شديداً، وبلاداً قد ادخرت لك، فرأيك». فعرف أمير المؤمنين أن عمراً لم يقل ذلك إلا بشيء سمعه فسار عن المدينة، واستخلف عليها علي بن أبي طالب. وكتب إلى أمراء الأجناد أن يوافوه بالجابية ليوم سماه لهم، ويستخلفوا على أعمالهم. فلقوه بالجابية. وبينما عمر معسكر ـ بالجابية، فزع الناس الى السلاح. فقال أمير المؤمنين: ما شأنكم؟ قالوا: «ألا ترى إلى الخيل والسيوف؟» فنظر فإذا كردوس ـ كتيبة ـ يلمعون بالسيوف.

فقال أمير المؤمنين: «**مستأمنة، فلا تراعوا**». فأمنوهم، فإذا هم أهل القدس وحيزها، فصالحهم أمير المؤمنين على الجزية. وفتحوا القدس، فدخلها المسلمون[1] وهكذا فقد عمل عمرو بن العاص على احتلال وفتح فلسطين بكاملها تقريباً قبل أن يتجه الى القدس التي أصبحت معزولة ومطوقة من جميع اتجاهاتها، مما وضع الحامية المدافعة عن المدينة المقدسة أمام موقف صعب لا مخرج منه إلا بالاستمرار في القتال حتى الفناء أو الصلح، ففضل أهل القدس الصلح بشروط مشرفة تتناسب مع المكانة الدينية والعسكرية للمدينة، واستجاب أمير المؤمنين لالتماس أهل المدينة طالما أن ذلك

---

(١) لمزيد من التفاصيل، ولمطالعة وثيقة الصلح مع أهل بيت المقدس ـ ايلياء ـ انظر تاريخ ـ الطبري ـ والكامل في التاريخ ـ أحداث سنة ١٥ للهجرة.

لا يتناقض مع أهداف الفتح، وطالما أن عقد الصلح يحقن دماء المسلمين ويوفر عليهم الجهد والمعاناة. ولقد وصف مصدر عربي مدينة القدس بقوله:

«بيت المقدس، مرتفع على جبال يصعد إليها من كل مكان. وبه مسجد ليس في الإسلام أكبر منه. وبه الصخرة وهي حجر مرتفع مثل الدكة. وعلى الصخرة قبة عالية جداً. وارتفاع الصخرة من الأرض قريب القامة. وينزل إلى تحتها بمراقي إلى بيت يكون طوله بسطة في مثلها. وليس ببيت المقدس ماء جار سوى عيون لا تتسع للزروع. وهي من أخصب بلاد فلسطين، ومحراب داود بها، قال الحسن بن أحمد المهلبي في كتابه المسمى بالعزيزي: إن الوليد بن عبدالملك، لما بنى القبة على الصخرة ببيت المقدس ـ سنة ٨٧ هـ = ٧٠٥ م ـ بنى أيضاً هناك عدة قباب، وسمى كل واحدة باسم؛ فمنها قبة المعراج، وقبة الميزان، وقبة السلسلة، وقبة المحشر الخ... وإنما فعل ذلك ليعظم موقع القدس في نفوس أهل الشام» [(١)].

ويظهر أن تحصين القدس بقي مرتبطاً بمكانة المدينة من الناحيتين الدينية والعسكرية. ولهذا فقد اعتبرت القدس ـ بصورة طبيعية ـ من أضخم الحصون وأقوى المعاقل في عالم العصور الوسطى. وقد اشتهر موقعها بالمتانة والقوة منذ أيام اليبوسيين، وتداولتها يد الاصلاح والتطوير عبر القرون. فالأسوار التي عسكر الفرنج الصليبيون في ظلّها جرت على نفس الرسم الذي سار عليه ما شيده من أسوار فيما بعد السلطان العثماني سليمان القانوني (سنة ٩٣٨ هـ = ١٥٣١ م) والتي تحيط اليوم بالمدينة القديمة، وهي أسوار تكاملت بصورة مثيرة في عهود الروم ـ البيزنطيين ـ ومن بعدهم الأمويين ثم الفاطميين، حيث ضمن وادي كيدرون ـ أو وادي ستي مريم حالياً ـ ومنحدراته، حماية السور من ناحية الشرق، وهي منحدرات حادة شديدة الهبوط. بينما هبطت الأرض الى وادي جهنم من ناحية الجنوب الشرقي ـ ويحاذي

---

(١) تقويم البلدان ـ أبو الفداء ص: ٢٢٧ ـ والقلاع أيام الحروب الصليبية ـ ص: ١٣٧ ـ ١٣٨ وتجدر الإشارة الى أن بناء قبة الصخرة قد حدث في وقت واحد مع بناء المسجد الأموي بدمشق سنة ٨٧ هـ = ٧٠٥ م.

السور الغربي واد آخر يقل عمقاً عن الواديين الآخرين. فتبقى الجهة الجنوبية ـ الغربية هي الجهة الملائمة للهجوم على الأسوار والتحصينات، حيث يجتاز السور جبل صهيون، وعلى امتداد السور الشمالي. أما القلعة ـ وهي برج داود ـ فتقع في منتصف السور الغربي، وتسيطر على الطريق الذي يسير ازاء جانب التل حتى باب يافا. وعلى الرغم من أنه ليس بالمدينة آبار، فان ما توافر بها من الصهاريج ضمن لها الماء الغزير، وإن ما أدخله الرومان من نظام المجاري لازال مستخدماً في القرن العشرين.

كانت مدينة القدس تحت حكم الفاطميين ـ العلويين في مصر ـ يوم جاءتها جحافل الفرنج الصليبيين. وكان يحكمها ـ افتخار الدولة ـ وتحت قيادته حامية قوية من الجند العرب والسودانيين. فعمل افتخار الدولة على اتخاذ الاجراءات الضرورية لتنظيم الدفاع ودعمه. وأرسل إلى مصر بطلب قوات دعم إضافية، ووصل الفرنج الصليبيون فنظموا الحصار المحكم حول المدينة بحيث انتشرت قوات النورمان ـ أو النورماندين ـ في مواجهة السور الشمالي ـ تجاه باب الزهور وهو باب هيرود أو باب الساهرة ـ. في حين انتشرت قوات الفلاندر الى يمين الأولى ومقابل باب الأعمدة (وهو باب دمشق أو باب القديس اسطفان). كما انتشرت قوات اللورين في مواجهة الركن الشمالي الغربي للمدينة حتى باب يافا. وبلغ عدد أفراد قوات الفرنج التي اشتركت في الحصار اثني عشر ألفاً من المقاتلين المشاة ـ الرجالة ـ بالاضافة إلى ألف وثلثمائة فارس، يدعمهم عدد كبير من الرجال غير المقاتلين والنساء والأولاد الذين كانوا يقومون بدورهم في تأمين الغذاء والامداد الإداري ومتطلبات المقاتلين.

بدأ الفرنج الصليبيون بحصار القدس يوم ٧ حزيران ـ يونيو ـ سنة ١٠٩٩ م. ثم قام الفرنج بهجومهم الأول يوم ١٢ حزيران ـ يونيو ـ غير أن هذا الهجوم تحطم أمام أسوار القدس وتحصيناتها. وأسهم في إحباط هذا الهجوم ما توافر للحامية الإسلامية المدافعة عن المدينة من وسائل الدفاع مثل المنجنيقات، علاوة على السهام وغيرها، والتي كان الجند المسلمون يسددونها باحكام على الفرنج. ولكن فشل الهجوم لم يمنع قادة الفرنج من إعادة محاولاتهم، فاستمر الصراع، واستمرت الاشتباكات، وعقد قادة الفرنج وملوكهم وامراؤهم مؤتمراً لهم يوم ١٥ حزيران ـ يونيو ـ قرروا

فيه إعداد متطلبات الهجوم من أبراج وسلالم وسواها من أدوات الحصار. وشاع في وسط الفرنج أن جيشاً اسلامياً كبيراً قد تحرك من مصر لدعم حامية القدس. فقرر الفرنج العمل بسرعة، حتى إذا ما فرغوا من بناء الأبراج الضخمة المتحركة، دفعوها نحو المكان الوحيد الذي يصلح للهجوم، وهو القطاع الشرقي من السور الشمالي حيث مسطح جبل الزيتون، وقام جند الفرنج بردم الخندق، فيما كان جند المسلمين يقذفونهم من فوق الأسوار بالحجارة والسهام والقوارير الملتهبة، والتي قابلها الفرنج برد مماثل، إذ توافرت لهم وسائل الحصار اللازمة وأدواته. ثم بدأ الفرنج انقضاضهم مساء يوم ١٤ تموز - يوليو - أي بعد خمسة أسابيع من الحصار المحكم والدقيق. ونجح الفرنج في اقتحام المدينة فيما استمر الصراع على الأسوار حتى ظهر اليوم التالي، وأظهر الفرنج ما حملوه من حقد دفين فانطلقوا لذبح وقتل كل من صادفهم من الشيوخ والأطفال والنساء. ولم ينج من المذبحة حتى أولئك الذين لجؤوا الى رحاب المسجد الأقصى أو المعابد والكنائس. وتركت مذبحة بيت المقدس أثراً عميقاً في نفوس المسلمين في كل مكان، فزال ما اشتهروا به من التسامح، إذ لم يثر التعصب الإسلامي إلا التعصب الصليبي. وعندما حاول بعض عقلاء الفرنج اللاتين بعد ذلك إيجاد أساس للتعايش بين المسلمين والفرنج الصليبيين، كانت ذكرى هذه المذبحة الأليمة تعترض دائماً سبيل الوصول إلى اتفاق أو تفاهم[1]. وأقام الفرنج مملكتهم في القدس، وحكموها على امتداد تسعين سنة هجرية. لم يتوقف الصراع المسلح خلالها. حتى إذا ما انتصر المسلمون في حطين، انطلقت قواتهم لطرد الفرنج من طبرية وقلعتها، ومن مجدي يابا وعكا والحصون المحيطة بها مثل الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعليا والشقيف ويافا وتبنين ونابلس وسبسطيه وصيدا وجبيل وبيروت بالإضافة إلى عسقلان وأصبح بامكان صلاح الدين الأيوبي بعد وصولهم الوصول إلى الهدف الكبير الذي طالما عمل من أجل بلوغه، وهو طرد الفرنج من القدس. فأرسل أمره إلى أسطوله في مصر للخروج إلى ساحل بلاد الشام. وتولى حسام الدين لؤلؤ الحاجب قيادة الأسطول،

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ٣٩٣/١ - ٤٠٦ والكامل في التاريخ - أحداث سنة ٤٩٢ هـ. وفيه تصوير رائع لما قام به الفرنج، ولبعض ردود فعل المسلمين على المذبحة وأثرها.

لقطع طريق البحر على الفرنج. فكان المسلمون كلما عثروا على مركب للفرنج في البحر غنموه، وكلما وصلوا إلى شانياً ـ سفينة ـ أخذوه. وتوجه صلاح الدين بجيشه إلى القدس. ووقع اشتباك أمام المدينة حيث حاول الفرنج إيقاف تقدم جيش المسلمين، غير أنهم سرعان ما تراجعوا ليحتموا بأسوار القدس القوية وتحصيناتها المنيعة. وباتت هذه الأسوار وهي تحمي وراءها جموعاً كبيرة من مقاتلي الفرنج الذين نجوا من المعارك السابقة فوجدوا في القدس لهم ملجأ وملاذاً، وذكر أن عدد مقاتلي الفرنج فيها تجاوز الستين ألف مقاتل.

بدأ المسلمون بحصار القدس في منتصف شهر رجب سنة ٥٨٣ هـ (٢٠ ـ أيلول ـ سبتمبر ـ ١١٨٧ م) وأمضى صلاح الدين الأيوبي خمسة أيام وهو يستطلع أسوار المدينة وتحصيناتها، ثم قرر الهجوم من جهة جبل الزيتون ـ قرب باب العمود ـ ليس بعيداً عن المكان الذي انطلق منه الفرنج في هجومهم قبل تسعين عاماً. ولما نزل المسلمون على القدس، رأوا على أسوارها من الرجال ما هالهم، وسمعوا لأهلها من الغلبة والضجيج من وسط المدينة ما استدلوا به على كثرة الجمع. ولم يجدوا عليه موضع قتال إلا من جهة الشمال ـ نحو باب العمود أو كنيسة صهيون. وهناك نصبت المنجنيقات، ونصب الفرنج بدورهم منجنيقات على سور البلاد ورموا بها، فقوتلوا أشد قتال رآه أحد من الناس؛ كل واحد من الفريقين يرى ذلك ديناً وحتماً واجباً، فلا يحتاج فيه إلى باعث سلطاني. وكانوا يمنعون ولا يمتنعون، ويزجرون ولا ينزجرون. وكان خيالة الفرنج يخرجون كل يوم إلى ظاهر البلد، يقاتلون ويبارزون، فيقتل من الفريقين. ثم حمل المسلمون حملة رجل واحد، فأزالوا الفرنج عن مواقفهم، فأدخلوهم البلد. ووصل المسلمون إلى الخندق فجاوزوه، والتصقوا إلى السور فنقبوه، وزحف الرماة يحمونهم، والمنجنيقات توالي الرمي لتكشف الفرنج عن الأسوار حتى يتمكن المسلمون من حشو النقب بما جرت به العادة. فلما رأى الفرنج شدة قتال المسلمين، وتحكم المنجنيقات بالرمي المتدارك، وتمكن النقابين من النقب، وأنهم قد أشرفوا على الهلاك، اجتمع مقدموهم للتشاور فيما يأتون وما يذرون، فاتفق رأيهم على

طلب الأمان، وتسليم القدس إلى صلاح الدين. وأرسلوا جماعة من كبرائهم وأعيانهم في طلب الأمان. فلما مثلوا أمام صلاح الدين امتنع عن إجابتهم، وقال لهم:

«لا أفعل بكم إلا كما فعلتم بأهله حين ملكتموه سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة من القتل والسبي، وجزاء السيئة بمثلها»[1].

لكن اليأس لم يداخل قلوب الفرنج من إمكان الوصول إلى الصلح، فتابعوا اتصالاتهم، فيما بقي القتال مستمراً. واستشار صلاح الدين قادته، فتقرر بذل الأمان للفرنج، ولعل صلاح الدين قد أراد بذلك تجنيب المسلمين الاقتتال مع الفرنج اليائسين من الحياة، وتوفير القدرة البشرية لمتابعة القتال، أو لعله أراد تجنب المذابح في الأماكن المقدسة. فتقرر الافراج عن الفرنج، مقابل دفع عشرة دنانير عن كل رجل - يستوي فيه الغني والفقير، وسلمت المدينة للمسلمين يوم الجمعة ٢٧ رجب سنة ٤٩٢ هـ (١١٨٧ م) بعد حصار لم يتجاوز الأثني عشر يوماً. وارتفع صوت المؤذن، فكادت قلوب المسلمين تطير فرحاً. وزال عن المسجد الأقصى الحزن والكآبة، وتطهر مما علق به من الأدران. أظهر العرض السابق ثلاث عمليات مماتعرضت له أسوار مدينة القدس من الحصار، وبرزت من خلال هذا العرض الملامح المشتركة لفن الحصار في العصور القديمة والعصور الوسطى، حيث تبين عدم حدوث تطور كبير في بناء القلاع والأسوار والتحصينات، وكذلك عدم حدوث تطور مماثل في وسائط الحصار مثل المجانيق والأبراج والسلالم وسواها. فبقي فن الحصار معتمداً على الأساليب التقليدية والشائعة ومنها:

أولاً: عزل الهدف عن محيطه الخارجي، وحرمانه من امكانات الدعم. فقد عمل عمرو بن العاص في المرة الأولى على تدمير مقاومات الفرنج في معارك جبهية تصادمية. ثم فتح القلاع والحصون ذات الأهمية الثانوية، ثم انتقل بعدئذٍ إلى الهدف الأكثر

---

(١) الكامل في التاريخ. احداث سنة ٥٨٣ هـ - وتاريخ الحروب الصليبية: ٧٤٨/٢ - ٧٥٤. والروضتين - أبو شامة - نص خطاب القاضي محي الدين بن الزكي في المسجد الأقصى. بحضور صلاح الدين الأيوبي في ذلك اليوم المشهود.

أهمية ـ وهو هنا القدس ـ. وفعل الفرنج مثل ذلك عندما اجتاحوا الساحل وعزلوا القدس عن امكانات دعمها من مصر. وجاء صلاح الدين فسار على النهج ذاته، إذ لم يحاول التعرض للقدس وأسوارها حتى تم له عزلها عزلاً كاملاً، وحتى انتهى من تدمير قوات الفرنج وطردها إلى الساحل، مع فتح القلاع والحصون المحيطة بمدينة القدس.

ثانياً: تتمتع الأسوار بمرتكزات قوتها الواضحة، ولكن لها أيضاً نقاط ضعفها الأكيدة، وتعود نقاط الضعف والقوة إلى الطبيعة الطبوغرافية المحيطة بالأسوار والتحصينات. ولهذا لم يكن غريباً أن تنطلق الهجمات على أسوار القدس من جبل الزيتون ومن باب العمود على وجه التحديد. ويبقى التعامل مع نقاط الضعف والقوة مرتبطاً بقدرة الحامية المدافعة عن الأسوار، قدر ارتباطها بتصميم المهاجمين وما يتوافر لهم من وسائط الحصار.

ثالثاً: تبرز عمليات حصار القدس، واقتحام أسوارها صورة عن تفوق المسلمين في الهجوم بمثل تفوقهم في الدفاع. فقد صمدوا في مواجهة هجوم الفرنج لمدة خمسة أسابيع تقريباً، رغم تفوق الفرنج في القوى والوسائط. في حين لم يصمد الفرنج لهجوم المسلمين لأكثر من اثني عشر يوماً، وذلك رغم ما توافر لهم من الامكانات الدفاعية، ورغم توافر القدرة القتالية البشرية الكبرى، بسبب انضمام فلول الحاميات الممزقة الى حامية القدس.

رابعاً: لم يكن دور الأسوار والتحصينات يتجاوز في الحالات كلها ايقاف تقدم القوات المعادية لمدة معينة، فإذا انقطع الرجاء، أو ضاع الأمل من امكان الحصول على دعم خارجي، ضعفت مقاومة الحاميات المدافعة عن الأسوار والتحصينات، واضطرت للاستسلام.

خامساً: ولقد ظهر في الحالات كلها ارتباط الأعمال القتالية الهجومية بالأعمال القتالية الدفاعية، على نحو ما هو معروف في الأزمنة الحديثة وحروبها، وإذا اختفت الأسوار والتحصينات من فوق سطح الأرض ـ منذ ظهور المدفعية ـ فقد تمت الاستعاضة عنها بالملاجىء والتحصينات في باطن الأرض. وقد جاء هذا التغيير بسبب

تعاظم القدرة التدميرية للأسلحة النارية. وبقي الأساس الثابت وهو ذاك الارتباط الوثيق بين الأعمال القتالية الهجومية والأعمال القتالية الدفاعية. فالدفاع لم يكن قديماً وحديثاً إلا مرحلة مؤقتة لايقاف العدو، ريثما يتم الانتقال إلى الهجوم، أو لتوفير الجهد على محاور ثانوية من أجل التركيز بالقوى والوسائط على اتجاه الضربة الرئيسة ـ وهو أبرز ما تظهره عمليات حصار القدس وفتحها.

٢ ـ انطاكية، وأسوارها.

تقع مدينة أنطاكية على نهر العاصي، على مسافة اثني عشر ميلاً من البحر، أنشأها سنة ثلثمائة قبل الميلاد، سيلوقوس الأول وهو أحد خلفاء الاسكندر المكدوني، وأطلق عليها اسم أبيه أنطيوخس. واحتلت سهلاً بلغ طوله ثلاثة أميال تقريباً. وامتدت بعمق ميل نحو الداخل ـ بين نهر العاصي وجبل حبيب النجار، سيلبيوس ـ أما الاستحكامات الضخمة المحيطة بالمدينة كلها فتعود إلى أيام جوستينيان[1] وجدد البيزنطيون تحصينها على امتداد قرن وفقاً لأحدث ما توافر لهم من الخبرة والمهارة الهندسية. فارتفعت الأسوار في شمالي المدينة ـ بداية من أرض البطائح المنخفضة الواقعة على امتداد النهر. أما في شرقي المدينة وغربيها، فقد ارتفعت الأسوار على منحدرات الجبال، وسارت الأسوار في الجنوب على امتداد قمة الحافة، ومضت قدماً حتى نفذت من تجويف يخترقه خور عفرين إلى السهل، وسارت الى ما فوق الباب الخلفي للمدينة ـ وهو الباب المعروف باسم الباب الحديدي ـ حتى وصلت إلى القلعة المنيعة التي ترتفع عن المدينة بمقدار ألف قدم. واحتلت أربعمائة من الأبراج مواقعها على أعلى الأسوار فضاقت المسافات فيما بينها بحيث كانت كل ياردة في متناول سهامها. ويقع باب القديس بولس الى الشمال ـ الشرقي من المدينة، وهو الباب الذي يؤدي إليه الطريق القادم من الجسر الحديدي وحلب، بينما يقع باب القديس جورج في الطرف الشمالي ـ الغربي، وهو الباب الذي ينتهي إليه الطريق القادم من اللاذقية، أما الطرق المؤدية للاسكندرونة وميناء السويدية فانها تبدأ من الباب الكبير للمدينة والواقع

---

(١) جوستينيان الأول: (JUSTINIEN-I) امبراطور الشرق من سنة ٥٢٧ إلى سنة ٥٦٥ م. اشتهر بفتوحاته، وبظهور عدد من كبار قادة الروم البيزنطيين في عهده من أمثال بيلزير BELISAIRE ونرسيس NARSES ـ وانتصر جوستينيان على الفاندال والفرس وفتح ايطاليا وأفريقيا.

على شاطىء النهر، وتجتاز الجسر المنيع للاستحكامات. على أن الأبواب الصغرى أمثال باب الدوق وباب الكلب، فانها تؤدي الى النهر من أقصى الشرق.

أصبحت أنطاكية[1] بذلك أهم مدينة في آسيا، وبلغ عدد مستوطنيها نصف مليون نسمة. بينما لا يتجاوز عدد سكانها اليوم خمسين ألف نسمة. واحتلت في زمن الروم - البيزنطيين - المرتبة الثالثة بين دول العالم - بعد روما والقسطنطينية - واشتهرت عند المسيحيين بمكانتها الدينية - المقدسة - ذلك لأنهم اتخذوا بها لأول مرة اسم - المسيحيين - وبها أقام القديس بطرس أول أسقفية له. وقد توافرت في المدينة مصادر المياه والأسواق والمتنزهات والمراعي للأغنام، مما كان يمكنها من ايواء جيش كامل، مع ضمان تأمين الامداد والتموين للحصار الطويل. وبالاضافة إلى ذلك، فانه لم يكن من السهل تطويق المدينة بكاملها، إذ ليس باستطاعة القوات التي تعتزم مهاجمة المدينة وحصارها أن ترابط على الأرض الواقعة الى الجنوب من انطاكية بسبب شدة انحدارها.

استولى الفرس - بقيادة كسرى الثاني - على انطاكية سنة ٦١١، ولكن ملك الروم البيزنطيين - هرقل - استعاد انطاكية في السنة الأولى من الهجرة (٦٢٢م) وأخرج الفرس منها ومن سائر بلاد الشام. وعمل على اعادة تحصين انطاكية وترميم أسوارها. وعندما جاءت قوات العرب المسلمين واستولت على انطاكية بقيادة أبو عبيدة بن الجراح سنة ١٧ هـ = ٦٣٨ م، كانت تحصينات المدينة بالغة القوة والمنعة. وقد حفظ تاريخ انطاكية مما حفظه عن تلك الفترة موقف ملك الروم - هرقل -: «حيث كان هرقل في انطاكية عندما بلغته أنباء انتصارات العرب المسلمين. فاستبد به اليأس. لقد امتدت إليه يد الله، لتنزل به العقاب لما أقدم عليه من زواج باطل من ابنة اخته مارتينا... وبعد أن أدى قداس الرحمة في كاتدرائية انطاكية، هرع الى البحر، واستقل السفينة إلى القسطنطينية، وحينما غادر الشاطىء، صاح في مرارة: الوداع، الوداع الى الأبد يا سوريا».

---

(١) انطاكية: (ANTIOCHE) وباللغة التركية (ANTAKIEH).

وهكذا أصبحت حاضرة الشرق ـ كما كانوا يسمونها ـ تحت حكم العرب المسلمين، الذين حكموا بشرع الله على أرض الله، فشاع العدل وانتفى الظلم. ولم يكن غريباً أن يتصدى جاثليق النساطرة لبطريرك انطاكية عندما احتدم الجدل بينهما في مطلع القرن العاشر الميلادي. فقال له: «اننا نحن النساطرة أصدقاء العرب المسلمين، وندعو لهم بالنصر دائماً، فلترع النساطرة الذين ليس لهم من ملك سوى العرب المسلمين»[1].

وقد عرف العرب المسلمون أهمية هذه الحاضرة، وقدروها حق قدرها[2]. ولقد عاشت انطاكية أحداثاً مثيرة منذ الفتح العربي ـ الاسلامي. فقد تابع الروم البيزنطيون حربهم ضد المسلمين في البر والبحر، وكان لا بد لانطاكية بحكم موقعها من الاستئثار بمعظم مشاهد الصراع حيث بقيت هي القاعدة الرئيسة التي تمسك بالدروب الشامية، فكانت جيوش العرب المسلمين تتوقف فيها أثناء ذهابها لغزوات الصوائف والشواتي، وعند عودتها منها، هذا بالاضافة إلى الهجمات الكبيرة التي كان يقوم بها العرب المسلمون كثيراً، ويقوم بها الروم في أحيان أخرى. وكان لا بد من أن يصيب انطاكية بعض وقائع تلك الحروب، فأضافت بذلك إلى إرثها الحضاري وتاريخها الطويل، فصلاً مميزاً من أشكال الحروب التي يصعب إيجازها بكلمات أو اختصار وصف أحداثها بسطور. على أن أشد تلك الأحداث إثارة هو ما عرفته انطاكية خلال المرحلة التي سبقت الغزو الصليبي، عندما عملت بيزنطة ـ الروم ـ على تصعيد الصراع ضد المسلمين وأعطت هذا الصراع أبعاداً جديدة بتوغل جيوشها في بلاد الشام، مع اثارة

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ١/٣٥ و ٤٨.

(٢) وصف أبو الفداء ـ في تقويم البلدان، ص: ٢٥٥ مدينة انطاكية بقوله: «إنها بلدة كبيرة ذات أعين، وسور عظيم، داخله خمسة أجبل، وقلعة، ويمر بظاهرها نهر العاصي والنهر الأسود مجموعين. وبها قبر حبيب النجار. قال ابن حوقل: انطاكية أنزه بلد الشام بعد دمشق. عليها سور من صخر يحيط بها وبجبل مشرف عليها. ويجري مياههم في دورهم: وسككهم ومسجد جامعهم. ولها ضياع وقرى ونواحي خصبة جداً. قال في العزيزي: ومساحة دور السور اثنا عشر ميلاً». القلاع أيام الحروب الصليبية ص: ١٣٦.

الأحقاد ضد حكم المسلمين. وقام ملك الروم ـ نقفور فوقاس ـ بالاستيلاء على انطاكية سنة ٣٥٩ هـ = ٩٦٩ م وذلك في طريقه لاجتياح بلاد الشام. وفي سنة ٤٧١ هـ = ١٠٧٨ م عمل ملك أرمينية ـ بهرام فيلاريتوس ـ على احتلال انطاكية، وقد استثار ذلك غضب المسلمين. فقام السلطان السلجوقي بقيادة جموع التركمان واستعاد فتح انطاكية (سنة ٤٧٨ هـ = ١٠٨٥ م). وتابع السلطان ـ سليمان بن قتلمش أو قطلمش ـ جهاده فطرد الروم ـ البيزنطيين من سائر البلاد التي سبق لهم احتلالها. واستولى ـ ملك شاه ـ على بلاد الشام وانتزعها من حكم الفاطميين حكام مصر. وعين ـ ياغي سيان ـ التركماني، حاكماً على انطاكية. فبقي ياغي سيان على حكم المدينة مدة عشر سنوات. وكان من نصيبه مجابهة هجوم الفرنج الذي تعرضت له انطاكية سنة ٤٩١ هـ = ١٠٩٧ م، والذي ذكرته المصادر العربية وأوجزته بما يلي:

« تجهز الفرنج وخرجوا إلى الشام، وقيل إن أصحاب مصر من العلويين ـ الفاطميين ـ لما رأوا قوة الدولة السلجوقية وتمكنها واستيلاءها على بلاد الشام حتى غزة، ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم من دخول السلاجقة إلى مصر وحصرها، خافوا وأرسلوا إلى الفرنج يدعونهم إلى الخروج إلى الشام ليملكوه، ويكونوا بينهم وبين المسلمين، والله أعلم. فلما عزم الفرنج إلى قصد الشام، ساروا إلى القسطنطينية ليعبروا المجاز إلى بلاد المسلمين، ويسيروا في البر فيكون أسهل عليهم، فلما وصلوا إليها منعهم ملك الروم من الاجتياز ببلاده. وقال لهم: لا أمكنكم من العبور إلى بلاد الإسلام حتى تحلفوا لي أنكم تسلمون إلي أنطاكية. وكان قصده أن يحثهم على الخروج إلى بلاد الإسلام ظناً منه أن الأتراك ـ السلاجقة ـ لا يبقون منهم أحداً، لما رأى من صرامتهم وملكهم البلاد. فأجابوه إلى ذلك، وعبروا الخليج عند القسطنطينية.

ووصلوا إلى بلاد قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش، وهي قونية وغيرها، فلما وصلوا إليها لقيهم قلج أرسلان في جموعه، ومنعهم، فقاتلوه وهزموه. واجتازوا في بلاده إلى بلاد ابن ليون الأرمني فسلكوها، وخرجوا إلى أنطاكية فحصروها. ولما سمع صاحبها ـ حاكمها ـ ياغي سيان بتوجههم إليها، خاف من النصارى الذين بها، فأخرج المسلمين من أهلها، ليس معهم غيرهم، وأمرهم بحفر الخندق.

ثم أخرج من الغد النصارى لعمل الخندق أيضاً، ليس معهم مسلم، فعملوا فيه إلى العصر. فلما أرادوا دخول البلد منعهم، وقال لهم: أنطاكية لكم تهبوها لي حتى أنظر ما يكون منا ومن الفرنج. فقالوا له: من يحفظ أبناءنا ونساءنا. فقال: أنا أخلفكم فيهم. فأمسكوا وأقاموا في عسكر الفرنج، فحصروها تسعة أشهر.

أظهر ياغي سيان خلال فترة الحصار الطويل من الشجاعة ومن جودة الرأي والحزم والاحتياط ما لم يشاهد من غيره. فهلك أكثر الفرنج موتاً، ولو بقوا على كثرتهم التي خرجوا فيها لطبقوا بلاد الإسلام. وحفظ ياغي سيان أهل نصارى أنطاكية الذين أخرجهم، وكف أيدي المتطرقة إليهم. فلما طال مقام الفرنج على أنطاكية، راسلوا أحد المستحفظين للأبراج - واسمه زراد ويعرف باسم بروزبه - وبذلوا له مالاً وإقطاعاً، وكان يتولى حفظ برج يلي الوادي وهو مبني على شباك في الوادي، فلما تقرر الأمر بينهم وبين هذا الملعون الزراد، جاؤوا إلى الشباك ففتحوه، ودخلوا منه، وصعد جماعة كثيرة بالحبال، فلما زادت عدتهم على خمسمائة، ضربوا البوق وذلك عند السحر، وقد تعب الناس من كثرة السهر والحراسة. فاستيقظ ياغي سيان وسأل عن الحال، فقيل له إن هذا البوق من القلعة، ولا شك أنها ملكت، ولم يكن صوت البوق من القلعة وإنما كان من ذلك البرج. فدخله الرعب، وفتح باب البلد وخرج هارباً في ثلاثين غلاماً على وجهه. فجاء نائبه في حفظ البلد وسأل عنه فقيل له إنه هرب، فخرج من باب آخر هارباً، وكان ذلك معونة للفرنج، ولو ثبت ساعة لهلكوا. ثم إن الفرنج دخلوا البلد من الباب ونهبوه وقتلوا من فيه من المسلمين، فما من أحد من الناس يستطيع أن يرتاد الشوارع دون أن تعثر قدماه بالجثث التي لم تلبث أن تعفنت بتأثير حرارة الصيف. وأما ياغي سيان فإنه لما طلع عليه النهار، رجع إليه عقله، وكان كالولهان، فرأى نفسه وقد قطع عدة فراسخ. فقال لمن معه: أين أنا؟ فقيل له: على أربعة فراسخ من أنطاكية، فندم كيف خلص سالماً ولم يقاتل حتى يزيلهم عن البلد أو يقتل، وجعل يتلهف ويسترجع على ترك أهله وأولاده والمسلمين، فلشدة ما لحقه سقط عن فرسه مغشياً عليه، فلما سقط على الأرض، أراد أصحابه أن يركبوه، فلم يكن فيه مسكة وقد

قارب الموت، فتركوه وساروا عنه. واجتاز به إنسان أرمني كان يقطع الحطب، وهو بآخر رمق. فقتله، وأخذ رأسه، وحمله إلى الفرنج بأنطاكية. وكان الفرنج قد كاتبوا صاحب حلب ودمشق بأننا لا نقصد غير البلاد التي كانت بيد الروم، لا نطلب سواها. مكراً منهم وخديعة حتى لا يساعدوا صاحب أنطاكية.

لما سمع قوام الدولة كربوقا بحال الفرنج وملكهم أنطاكية، جمع العساكر وسار إلى الشام. وأقام بمرج دابق، واجتمعت معه عساكر الشام - تركها وعربها سوى من كان بحلب - فاجتمع معه دقاق بن تتش وطغتكين أتابك - حكام دمشق - وجناح الدولة صاحب حمص. وأرسلان تاش صاحب سنجار، وسليمان بن أرتق، وغيرهم من الأمراء ممن ليس مثلهم. فلما سمعت الفرنج، عظمت المصيبة عليهم، وخافوا لما هم فيه من الوهن وقلة الأقوات عندهم. وسار المسلمون فنازلوهم على أنطاكية. وأساء كربوقا السيرة فيمن معه من المسلمين. وأغضب الأمراء وتكبر عليهم ظناً منه أنهم يقيمون معه على هذه الحال. فأغضبهم ذلك. وأضمروا له في أنفسهم الغدر إذا كان قتال، وعزموا على التخلي عنه عند اللقاء. وأقام الفرنج بأنطاكية بعد أن ملكوها اثني عشر يوماً. ليس لهم ما يأكلونه. وتقوت الأقوياء بدوابهم، والضعفاء بالميتة وورق الشجر، فلما رأوا ذلك راسلوا كربوقا يطلبون منه الأمان ليخرجوا من البلد. فلم يعطهم ما طلبوا وقال: «لا تخرجوا إلا بالسيف». وكان معهم من الملوك بردويل وصنجيل - سانت جيل ريموندكونت تولوز - وكندفري - جودفري - والقمص صاحب الرها وبيمنت - بوهمند - صاحب انطاكية وهو المقدم عليهم. وكان معهم راهب مطاع فيهم - اسمه بطرس بارثولوميو - وكان داهية من الرجال، فقال لهم: إن المسيح عليه السلام كان له حربة مدفونة بالقسيان الذي بأنطاكية، وهو بناء عظيم، فان وجدتموها فإنكم تظفرون، وإن لم تجدوها فالهلاك متحقق. وكان قد دفن قبل ذلك حربة في مكان فيه وأخفى أثرها. وأمرهم بالصوم والتوبة. ففعلوا ذلك ثلاثة أيام. فلما كان اليوم الرابع أدخلهم الموضع جميعهم ومعهم عامتهم والصناع منهم. وحفروا في جميع الأماكن، فوجدوها كما ذكر. فقال لهم: أبشروا بالظفر. فخرجوا في اليوم الخامس من الباب متفرقين - من خمسة أو ستة ونحو ذلك -. فقال المسلمون لكربوقا: ينبغي

أن تقف على الباب، فتقتل كل من يخرج، فإن أمرهم الآن وهم متفرقون سهل. فقال: لا تفعلوا، أمهلوهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم. ولم يمكن من معاجلتهم. ونهض إليهم قوم من المسلمين فقتلوا جماعة من الخارجين فجاء اليهم هو بنفسه ومنعهم ونهاهم. فلما تكامل خروج الفرنج، ولم يبق بأنطاكية أحد منهم، ضربوا مصافاً عظيماً. فولى المسلمون منهزمين لما عاملهم به كربوقا أولاً من الاستهانة لهم والاعراض عنهم، وثانياً من منعهم عن قتل الفرنج، وتمت الهزيمة عليهم، ولم يضرب أحد منهم بسيف ولا طعن برمح ولا رمي بسهم. وكان آخر من انهزم سقمان بن أرتق وجناح الدولة لأنهما كانا في الكمين، وانهزم كربوقا معهم. فلما رأى الفرنج ذلك ظنوه مكيدة، إذ لم يجر قتال ينهزم من مثله، وخافوا أن يتبعوهم. وثبت جماعة من المجاهدين. وقاتلوا حسبة وطلباً للشهادة، فقتل الفرنج منهم ألوفاً. وغنموا ما في معسكر المسلمين من الأقوات والأموال والأثاث والدواب والأسلحة. فصلحت حالهم. وعادت إليهم قوتهم»[1]

أصبح باستطاعة الفرنج الصلبيين التقدم إلى القدس بعد أن زالت العقبة الرئيسية التي كانت تجابههم. وواجهت الفرنج مشكلة صعبة. فقد اتفقوا على احتلال انطاكية. وبذل قادتهم وأمراؤهم يمين الطاعة للإمبراطور البيزنطي بأن يعيدوا إليه أنطاكية فور احتلالها، ولكن ما إن تم لهم ذلك حتى ظهر بوهمند النورماندي - وهو ألمع وأبرز جندي صليبي. من عائلة هوتفيل - نزوعه للاستقلال بإمارة أنطاكية. بحيث أنها تشكل مع صقلية التي هي تحت حكم النورمان. مملكة واحدة. لا تدين بالولاء لدولة الروم - البيزنطيين. لاسيما وأن الامبراطور البيزنطي لم يقدم دعماً حقيقياً للفرنج من أجل الاستيلاء على أنطاكية.

هكذا نصب بوهمند (أو بيمند كما تذكره المصادر العربية) نفسه كونتاً أو أميراً على انطاكية، وذلك بفضل ما توافر له من القوة. فانصرف لتوطيد مركزه. ولم يكن ثمة ما يجعله يخشى الترك المسلمين في الوقت الراهن على الأقل. فوجه جهده الرئيسي ضد الروم البيزنطيين، إذ كان يعلم أن الامبراطور البيزنطي لن يغفر له أبداً استقلاله

(١) الكامل في التاريخ - احداث سنة ٤٩١. وتاريخ الحروب الصليبية: ١/٣٠٣ - ٣٥٦.

بحكم انطاكية، وانه لن يشعر بالأمن والطمأنينة طالما أن بحوزة الامبراطور البيزنطي أقوى أسطول في شرق البحر المتوسط، بالاضافة لامتلاكه ميناء اللاذقية والواقع الى الجنوب من انطاكية. فقرر بوهمند أن يحسم الأمر، فتوجه لمهاجمة اللاذقية. وتحرك اسطول الروم بسرعة أكبر، وكادت تقع الحرب بين أمير انطاكية بوهمند من جهة وبين قوات الروم من جهة ثانية. غير أن أمراء الفرنج ورهبانهم تدخلوا للتوفيق بين طرفي الصراع. وأمكن تجاوز الأزمة.

أصبح باستطاعة بوهمند توجيه جهده لتوطيد مركز إمارته على حساب المسلمين وبلادهم. وجاءته الفرصة عندما طلب إليه أرمن ملطية المساعدة، بعد أن كان بوهمند قد وطد مركزه على الطرف الجنوبي الشرقي الواقع وراء نهر العاصي، عندما أحبط هجوما قام به أمير حلب - رضوان - فقرر التوجه لدعم أرمن ملطية الذين تعرضوا لهجمات أمير سيواس (غازي جمشتكين - أنوشتكين الدانشمند). ولكنه عمل قبل مغادرة أنطاكية على اتخاذ الاجراءات الوقائية في أنطاكية ذاتها، حتى لا تخرج على إرادته. فقد علم أن بطريرك أنطاكية يوحنا الرابع يميل إلى تشجيع الأرثوذكس في بطريركيته على أمل الخلاص على يد امبراطور الروم - البيزنطيين -. فطرده بوهمند من المدينة. وعين مكانه بطريرك من اللاتين. اسمه برنارد فالنس. فتمكن بذلك من إحداث صدع لا يجبر بين الكنيستين اليونانية واللاتينية.

وسار بوهمند ومعه خمسة آلاف مقاتل (سنة ٤٩٤ هـ = ١١٠٠ م) حتى إذا ما اقترب من ملطيه، لقيهم أنوشتكين الدانشمند، فانهزم بوهمند وأسر وأصبحت انطاكية بدون حاكم.

ووصل من البحر سبعة قمامصة من الفرنج وأرادوا تحرير بوهمند، فتقدموا إلى قلعة أنكورية فاستولوا عليها وذبحوا من بها من المسلمين وساروا إلى قلعة أخرى كان يدافع عنها إسمعيل بن الدانشمند وحصروها. فجمع ابن الدانشمند جمعاً كثيراً ولقي الفرنج، وجعل له كميناً، وقاتلهم. وخرج الكمين عليهم فلم يفلت أحد من الفرنج، وكانوا ثلثمائة ألف، غير ثلاثة آلاف هربوا ليلاً، وأفلتوا مجروحين. وسار ابن

الدانشمند إلى ملطية فملكها وأسر صاحبها. ثم خرج عليه عسكر الفرنج من انطاكية فلقيهم وكسرهم.

وبقي أمير أنطاكية بوهمند أسيراً في قبضة المسلمين لمدة سنتين، ثم أطلق سراحه مقابل فدية قدرها مائة ألف دينار وبشرط اطلاق سراح ابنة ياغي سيان الحاكم السابق لانطاكية، والتي وقعت في أسر بوهمند عندما استولى الفرنج على المدينة[١].

بقيت إمارة أنطاكية أغنى إمارات الفرنج وأكثرها أمناً وطمأنينة، فعلى الرغم من أنها لم تضم مساحة كبيرة من الأرض، ولم تتجاوز حدودها سهل أنطاكية والوادي الأسفل لنهر العاصي وسلسلة جبال الأمانوس وميناء الاسكندرونة بالاضافة الى ميناء السويدية، إلا أن مدينة أنطاكية ذاتها كانت مدينة وافرة الثروة. ولم تؤثر فيها كثيراً الاضطرابات والحروب، فاستمرت مصانعها الشهيرة بانتاج المنسوجات الحريرية والبسط والزجاج والفخار والصابون. وما نشب من حروب بين المسلمين والفرنج الصليبيين لم يمنع القوافل التجارية القادمة من حلب والجزيرة من اجتياز أبواب أنطاكية في طريقها الى البحر الأبيض المتوسط. وكان سكان المدينة بعد ذبح المسلمين، من المسيحيين فقط، فكان منهم اليونانيين والسريان الأرثوذكس والسريان اليعاقبة وفئة قليلة من النساطرة، غير أنه اشتد بينهم من الحقد والكراهية ما يسر للنورمان ضبطهم والسيطرة عليهم. ولكن المسيحيين الأرثوذكس بداخل أنطاكية حرصوا على متابعة التحريض لإعادة انطاكية لحكم الروم البيزنطيين، بينما تابع بوهمند دوره في تحريض الأرمن والمسيحيين اليعاقبة ضد دولة الروم. ما إن رجع بوهمند من الأسر، ووصل إلى حاضرته أنطاكية، حتى أخذ في الاعداد لحرب المسلمين، وتحالف مع جيش الرها، وتوجهت جيوش الفرنج الصليبيين سنة ٤٩٧ هـ = ١١٠٤ م لقتال المسلمين حيث وقعت معركة كبيرة على نهر البليخ، انتصر فيها المسلمون انتصاراً حاسماً. ولكن جيش

---

(١) الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة: ٤٩٣ و ٤٩٥.

انطاكية خرج من المعركة سالماً، فقد هرب من القتال ولم يخسر من قوته شيئاً ووقع ثقل المعركة بكامله على جيش الرها.

تجدد الصراع بين أنطاكية والقسطنطينية، فقد عمل بوهمند على قيادة جيشه ـ من النورمان ـ وتوجه لغزو بلاد الروم، ولكن جيش الروم نجح في تطويق بوهمند وجيشه أمام حصن دورازو ـ وهو مفتاح شبه جزيرة البلقان ـ وتبع ذلك إجراء مفاوضات انتهت بمعاهدة (ديغول سنة ١١٠٨ م) والتي أقرت الابقاء على بوهمند أميراً على انطاكية ـ بشرط ان يحكمها تحت سيادة الامبراطور البيزنطي. وتشمل ولاية بوهمند: أنطاكية ذاتها ومبناءها السويدية، وما يقع إلى الشمال الشرقي من البلاد حتى مرعش، فضلاً عن كل ما يغنمه من البلاد من أيدي أمراء حلب وسائر الإمارات الداخلية في بلاد الشام، مع إعادة مدن قليقية وساحل اللاذقية لسلطة امبراطور الروم.

تابعت أنطاكية بعدئذ أعمالها العدوانية ضد أقاليم المسلمين، وانطلق جيشها في هجمات منظمة حتى فرض سيطرته على وادي العاصي، وحتى بات يتهدد حلب، بعد أن انتصر على المسلمين بهجوم مباغت في معركة تل دانث (سنة ٥٠٩ هـ = ١١١٥ م). وجاء ردّ فعل المسلمين سريعاً، لاسيما بعد أن استولى جيش أنطاكية على بزاغة (سنة ٥١٣ هـ = ١١١٩ م) فعمل ايلغازي على حشد جموع التركمان والأكراد والقبائل العربية الضاربة ببادية الشام، وسار بهم للقاء الفرنج حيث دارت المعركة عند تل عفرين ـ وهي المعركة التي اشتهرت عند الفرنج باسم (معركة ساحة الدم)(١) والتي أوجزت وصفها المصادر العربية بقولها:

«سار الفرنج إلى نواحي حلب، فملكوا بزاغة وغيرها، وأخربوا بلاد حلب

(١) معركة ساحة الدم: (AGER-SANGUINIS). وقد ورد وصف أحداثها بصورة تفصيلية في الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة ٥١٣ هـ ـ وفي تاريخ الحروب الصليبية: ٢/٢٣٤ ـ ٢٤٣. وقد أثارت المعركة انفعالاً مثيراً في أوساط المسلمين والفرنج على السواء. ومدح العظيمي حاكم حلب ـ ايلغازي ـ بقصيدة طويلة جاء فيها:

قـل مـا تشـاء فقـولـك المقبـول	وعليـك بعـد الخالـق التعـويـل
واستبشر القـرآن حيـن نصرتـه	وبكـى لفقـد رجـالـه الانجيـل

ونازلوها، ولم يكن بحلب من الذخائر ما يكفيها شهراً واحداً. وخافهم أهلها خوفاً شديداً، ولو مكنوا من القتال لم يبق بها أحد. لكنهم منعوا من ذلك، وصالح أهل حلب الفرنج على أن يقاسموهم أملاكهم التي بباب حلب وأرسل أهل حلب إلى بغداد يستغيثون ويطلبون النجدة، فلم يغاثوا. وكان الأمير ايلغازي صاحب حلب ببلد ماردين، يجمع العساكر والمتطوعة للغزاة، فاجتمع عليه نحو عشرين ألفاً. فلما علم الفرنج، وكانوا ثلاثة آلاف فارس وتسعة آلاف راجل، ساروا فنزلوا قريباً من الأثارب، بموضع يقال له تل عفرين، بين جبال ليس لها طريق إلا من ثلاث جهات يبعد عن حلب خمسة عشر ميلاً لا أكثر. وظن الفرنج أن أحداً لا يصل إليهم لضيق الطريق ووعورته، فأخلدوا إلى المطاولة والمماطلة، وكانت عادة لهم إذا رأوا قوة من المسلمين. وراسلوا ايلغازي يقولون: «لا تتعب نفسك بالمسير إلينا، فنحن واصلون إليك). فأعلم ايلغازي أصحابه واستشارهم فيما يفعل، فأشاروا بالركوب من وقته، وقصدهم. ففعل ذلك وسار إليهم، ودخل المسلمون من الطرق الثلاثة. فلم يشعر الفرنج إلا وأوائل المسلمين قد غشيهم، فحمل الفرنج حملة منكرة، فانهزم المسلمون، فلقوا باقي العساكر متتابعة، فعادوا معهم، وجرى بينهم وبين الفرنج حرب شديدة. وأحاطوا بالفرنج من جميع جهاتهم، وأخذهم السيف من سائر نواحيهم، فلم يفلت منهم غير نفر يسير. وقتل الجميع وأسروا. وكان في جملة الأسرى نيف وسبعون فارساً من مقدميهم حملوا إلى حلب. فبذلوا في نفوسهم ثلثمائة ألف دينار، فلم يقبل منهم، وغنم المسلمون منهم الغنائم الكثيرة. وقتل أمير أنطاكية - روجر - وحمل رأسه إلى حلب. وأسرع ايلغازي ففتح حصن (أرتاح) وانتزعه من قبضة الفرنج، ثم فتح حصن زردنا. وتابع إغاراته على أرباض أنطاكية، مما دفع كونت طرابلس للتحرك بسرعة من أجل إنقاذ انطاكية. وخاض جيش طرابلس معركة طاحنة (معركة هاب) تعرض فيها للخسائر الكبيرة، وعاد ايلغازي إلى عاصمته حلب وقد جرّ وراءه رتلاً من الأسرى. لكن أنطاكية بقيت في قبضة الفرنج».

لم تكن هذه الأحداث بمجموعها أكثر من سطور قليلة في بداية ملحمة الصراع الطويل الذي استمر زهاء مائة وسبعين عاماً. ولقد تطور هذا الصراع بصورة ثابتة.

فكل عمل استفزازي يقوم به الفرنج في انطاكية يرد عليه المسلمون بعنف أكبر. وقد حدث على سبيل المثال أن قام أمير انطاكية ـ بوهمند الثاني ـ بقيادة هجوم للاستيلاء على (عين زربة) سنة ٥٢٥ هـ = ١١٣٠ م. فانقض عليه المسلمون التركمان، وذبحوه وأبادوا قواته. فتولت ابنته ـ أليس ـ الحكم، وأرسلت إلى عماد الدين زنكي في حلب رسولاً مع هدية، وأعلنت عن استعدادها للخضوع لحكم زنكي إذا تعهد بابقاء انطاكية في حوزتها. لكن ملك القدس تدخل وأوقف عقد هذا الاتفاق الذي لم يكن إلا برهاناً جديداً على فاعلية الاسلوب ـ أو النهج ـ الذي أخذ به المسلمون للرد على التحدي بتحد أكبر، وعلى العدوان بعدوان أشد وأقوى. ولم يكن صراع المسلمين ضد الفرنج هو صراع عسكري معزول عن عامله الديني (العقائدي). وقد استثمر الفرنج تفرق كلمة المسلمين للاستيلاء على انطاكية، ومنها إلى سائر بلاد الشام. فقام المسلمون بعدئذ بممارسة الدور ذاته وقد عرفوا ما بين الفرنج ذاتهم من اختلاف وعداء، وأخذوا في ضرب بعضهم ببعض لاستخلاص المكاسب. وأدرك قادة الفرنج ـ ملوكهم وأمراءهم ـ ما يمثله ذلك من خطر على وجودهم. فحاولوا بذل كل جهد مستطاع لتجنب الصراع فيما بينهم، وتوجيه الجهد الصليبي بكامله ضد المسلمين. ومارس رجال الكنيسة دورهم للتوفيق بين الأطراف المتصارعة أحياناً، ولاذكاء الخلاف والصراع في أحيان أخرى وفقاً لما كانت تتطلبه مصالحهم. وأخذ الصراع يتكامل في إطار جبهة إسلامية واحدة ضد جبهة صليبية متكاملة.

وقد بدأ عماد الدين زنكي وابنه نور الدين زنكي العمل من أجل توحيد الجبهة الإسلامية. فقام الفرنج بالرد على ذلك في تنظيم جهد الجبهة الصليبية الموحدة. وهذا ما ظهر سنة ٥٣٢ هـ = ١١٣٧ م، عندما هاجم المسلمون أنطاكية، فأرسل حاكمها نداء استغاثة عاجل الى ملك القدس (فولك) وإلى كونت طرابلس (ريموند). فتحرك فولك بسرعة نحو الشمال، وانضم إليه جيش طرابلس. وسارت قوات الفرنج مجتمعة. وطافت حول سفوح تلال النصيرية حتى بلغت (حصن بعرين). وباغتهم المسلمون بالهجوم، واستبسل الفرنج في القتال، غير أن المعركة لم تلبث أن انتهت لمصلحة المسلمين. ولقي معظم جند الفرنج مصرعهم على أرض المعركة. ووقع في الأسر

آخرون - منهم كونت طرابلس - بينما هرب فولك وحرسه الى حصن بعرين. وألقى عماد الدين زنكي الحصار على هذا الحصن، ونصب عليه عشرة مجانيق تقذف أسوار القلعة ليلاً ونهاراً. وأسرع جيش أنطاكية وجيش الرها، غير أنهما لم يتمكنا من التدخل. ووافق ملك القدس - فولك - على تسليم الحصن للمسلمين مقابل السماح له بالانسحاب، فعاد إلى القدس وهو يجر أذيال الخيبة، ويتجرع مرارة الهزيمة.

لقد أخذت القوات الإسلامية بالتعاظم، وبات من المحال ايقاف تطورها. ولقد جاءت الحملات الصليبية المتتالية في محاولة لايقاف المد الإسلامي المتعاظم. غير أن ملامح النهاية الحتمية لهذا الصراع بدت واضحة تماماً للطرفين للمتصارعين، ولم تعد القضية للوصول إلى هذه النهاية أكثر من قضية زمن. وقد يكون بالمستطاع تجاوز أحداث الصراع المرير والطويل للوصول بقفزة واحدة إلى ما حدث عند وصول المغول التتار الى بلاد الشام.

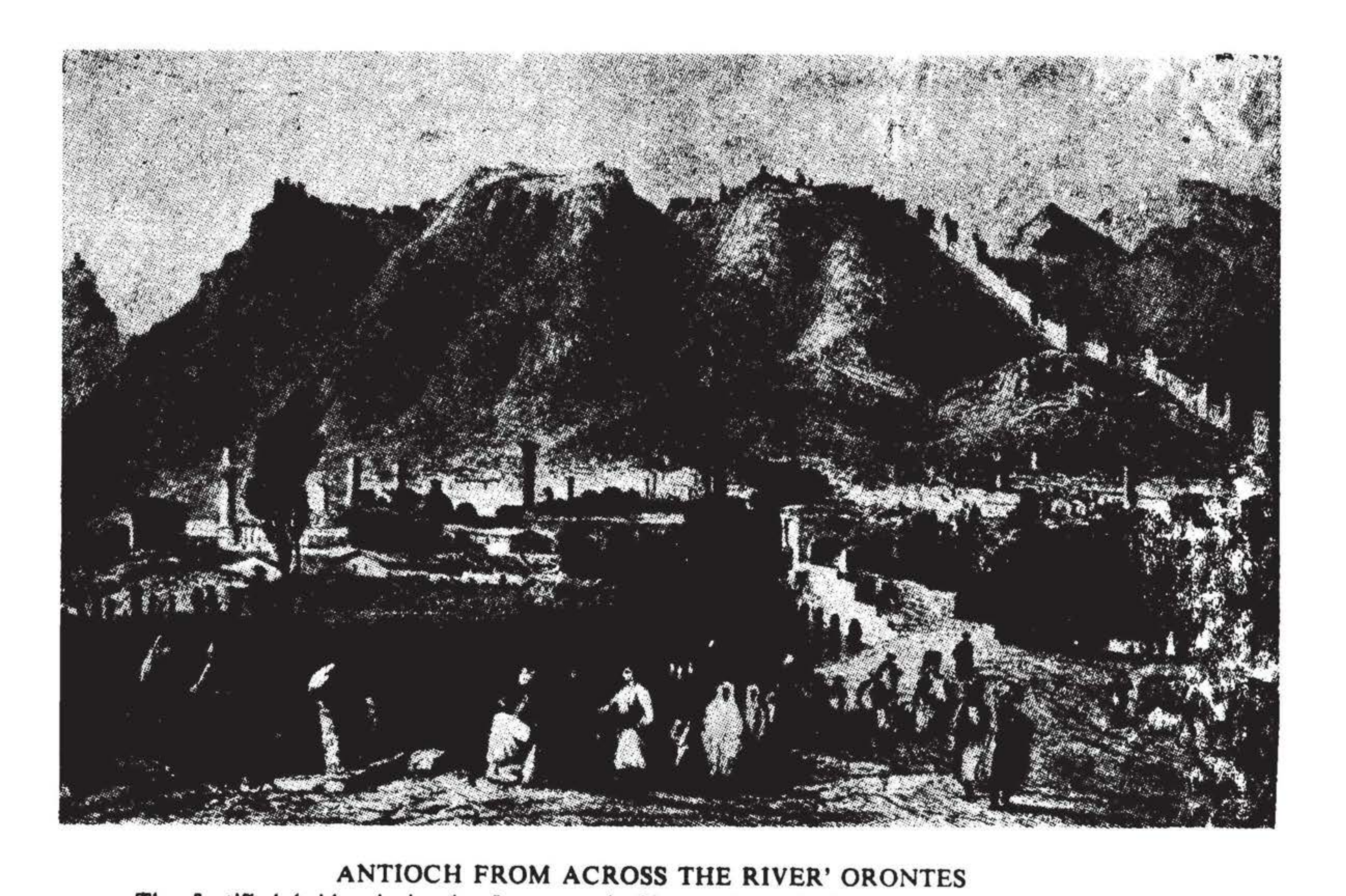
فقد تحالف الفرنج في أنطاكية والرها مع المغول، وساروا في ركابهم، واقتحموا معهم مدن بلاد الشام، حتى إذا ما أسفرت معركة (عين جالوت) عن انتصار المسلمين، جعل السلطان الظاهر بيبرس هدفه الأول هو في إنزال العقاب الحق والجزاء العادل بانطاكية - وأميرها بوهمند - لقاء ما قدمه هذا للمغول من المساعدة. فأرسل في سنة ٦٦٠ هـ = ١٢٦١ م جيشاً للإغارة على أملاك أنطاكية، وتكررت الغارات في صيف السنة التالية، وتعرض ميناء السويدية للنهب والتدمير، وجرى تهديد أنطاكية ذاتها، فاستنجد كونت أنطاكية بقائد المغول - هولاكو - الذي أرسل قواته في الوقت المناسب لانقاذ أنطاكية. فانصرف بيبرس لحرب الفرنج في بلاد الشام، غير أنه عاد سنة ٦٦٥ هـ = ١٢٦٦ م فأرسل قواته لمهاجمة أنطاكية، وأظهر قادته تهاوناً مما أثار غضب بيبرس ودفعه لاتخاذ قراره بقيادة حملة يتولى هو قيادتها. ونفذ قراره في السنة التالية، فقاد جيشه، ووصل أنطاكية، وقسم قواته الى ثلاثة جيوش، توجه واحد منها إلى السويدية، وعزل أنطاكية عن البحر، وتوجه الجيش الثاني إلى دروب الشام لمنع وصول أي دعم من قليقية إلى أنطاكية، بينما تولى بيبرس ذاته قيادة الجيش الثالث

الذي حدد له مهمته بحصار انطاكية ذاتها وتطويقها. وكان أمير ـ كونت ـ أنطاكية في طرابلس يوم وقع هجوم المسلمين. وكان العمل في إصلاح أسوار المدينة وتحصيناتها قد اكتمل، غير أن الحامية المدافعة عن انطاكية لم تكن كافية لشحن أسوارها الممتدة. وزاد من ضعف هذه الحامية ما قام به قائدها ـ الكندسطبل سيمون مانسل ـ عندما قاد قواته إلى خارج المدينة لمهاجمة المسلمين، حيث لم يلبث أن وقع أسيراً في قبضة المسلمين الذين أمروه بتدبير أمر استسلام الحامية. ولكن نوابه داخل الأسوار رفضوا إطاعة أوامره. فقام المسلمون ـ المماليك ـ بأول هجوم لهم في اليوم التالي، غير أن حامية المدينة تمكنت من صدّه وإحباطه. فاستؤنفت المفاوضات من جديد، ولكن هذه المفاوضات لم تصب النجاح المطلوب. فشنّ المسلمون هجوماً عاماً في مستهل شهر جمادي الثاني سنة ٦٦٦ هـ (١٨ ـ أيار ـ مايو ـ سنة ١٢٦٨ م) وشمل الهجوم القطاعات جميعها، واشتد القتال، ثم حدثت ثغرة في الأسوار الممتدة على منحدر جبل سلبيوس. وتدفق المسلمون إلى داخل المدينة. وبات من العسير كبح جماح الغضب المتفجر، لقد حانت ساعة الثأر وأزف موعد الانتقام لانزال العقاب العادل. ودارت رحى مذبحة بلغت من القسوة ما صدم المؤرخين المسلمين أنفسهم، ولم ينافسها في قسوتها إلا المذابح التي قام بها الفرنج يوم اقتحموا انطاكية وأبادوا مسلميها. فبناء على أمر الظاهر بيبرس، تقرر إغلاق أبواب المدينة حتى لا يهرب أحد من السكان، وتم قتل الفرنج بالشوارع على الفور، أما الآخرون الذين لزموا بيوتهم فقد وقعوا في أسر المسلمين، على أن ألوفاً من السكان هربوا مع عائلاتهم إلى القلعة الضخمة الواقعة على قمة الجبل. فتقرر الابقاء على حياتهم. وجمعت الغنائم، فحاز المسلمون مقادير كبيرة من الذهب والفضة والحلي. وكان عدد الأسرى من الوفرة بحيث بيع الغلام الصبي باثني عشر درهماً.

لقد ماتت أنطاكية الفرنج الصليبيين وتم تدميرها، ومات معها كيان الفرنج في شمال بلاد الشام. وكان انهيار بناء الفرنج في انطاكية لطمة عنيفة للصليبيين بقدر ما كان أيضاً لطمة عنيفة للمغول التتار. إذ لم يعد باستطاعة انطاكية مطلقاً تحريض المغول الذين شكلوا في تلك المرحلة خطراً على المسلمين لا يقل عن خطر الفرنج. ولما كانت

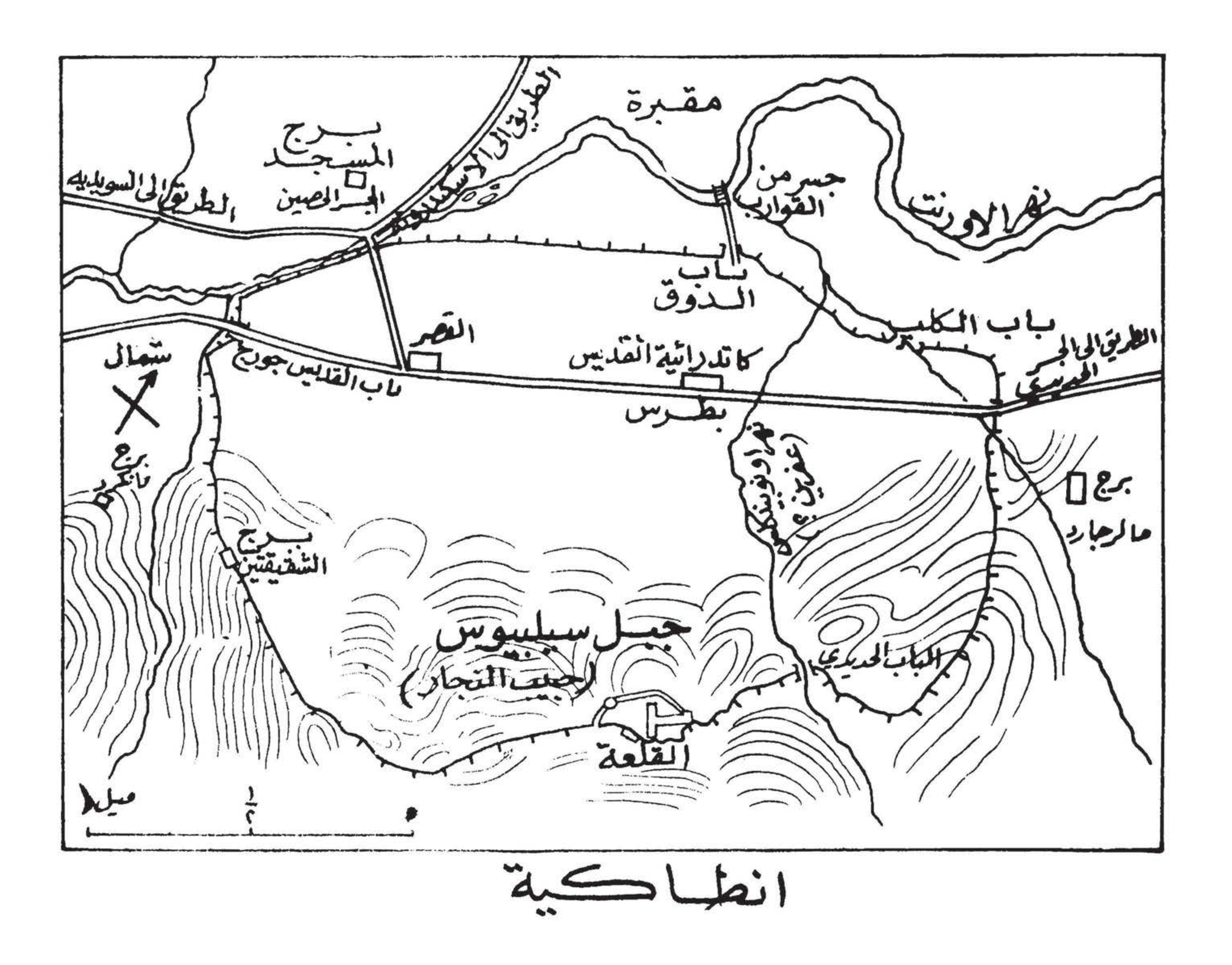
أنطاكية هي مقرّ كل من الكنيستين الارثوذكسية واليعقوبية، فانه لم يبق أمام بطاركة الكنيستين المذكورتين إلا الانتقال إلى دمشق.

لقد كانت انطاكية أول امارة - كونتية - أقامها الفرنج الصليبيون في بلاد الشام لتكون حجر المرتقى في طريق الفرنج، الى القدس وسائر بلاد الشام. فكان استعادة المسلمين لها وطرد الفرنج منها، هو بداية تصفية مرتكزات الفرنج وقواعدهم على ساحل بلاد الشام. واحتفظت انطاكية ببعض الحجارة - الآثار - التي تذكر بحقد الفرنج الصليبيين وجرائمهم وما أعقب ذلك من أعمال انتقامية أزالت من النفوس، ومن على الأرض، ما خلفه الفرنج من جراحات في كيان الأمة الإسلامية.



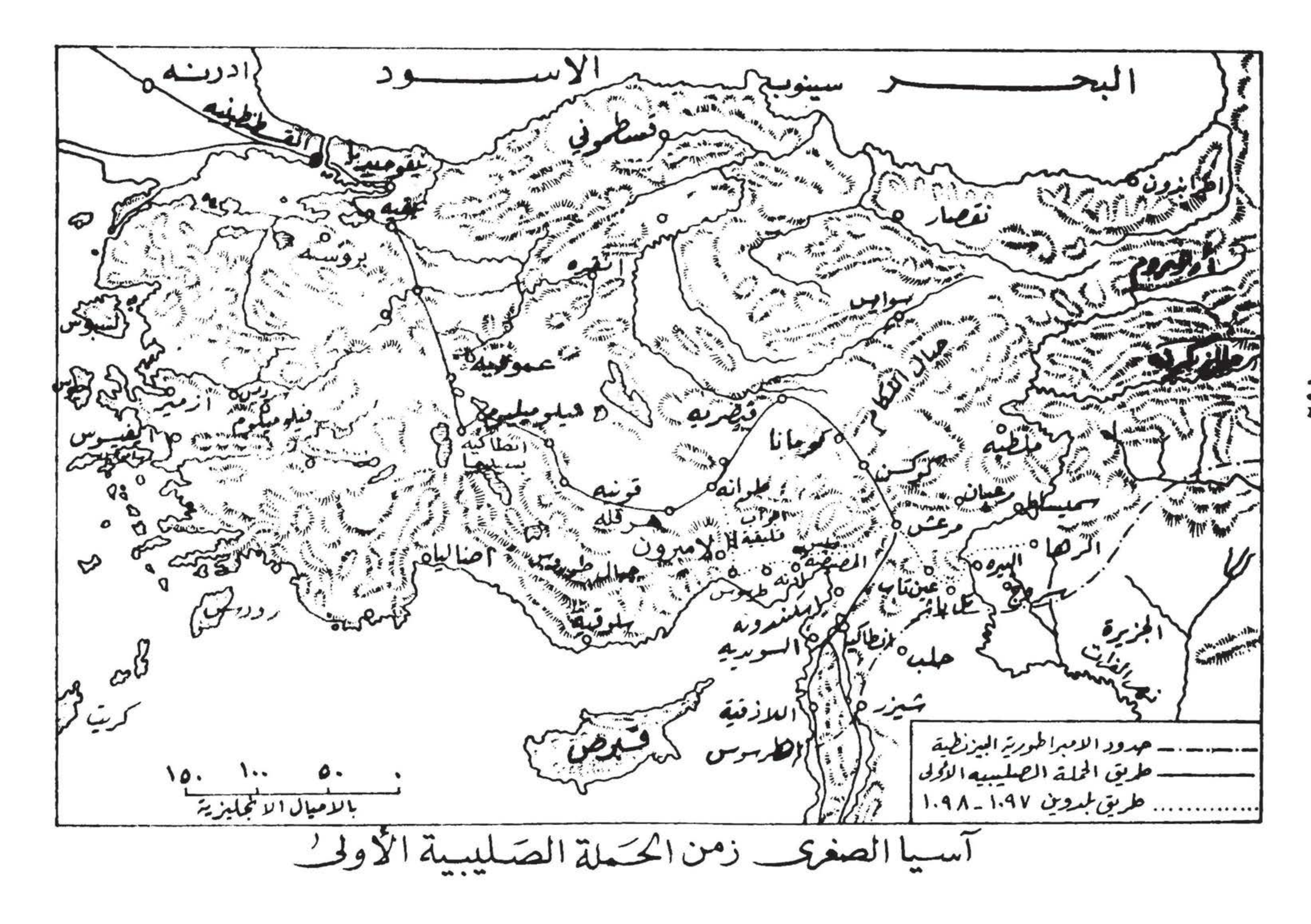
ANTIOCH FROM ACROSS THE RIVER' ORONTES
The fortified bridge is in the foreground. The section of the wall where the Crusaders entered the city is on the right, on the slope behind the city buildings.

انطاكية ونهر الأورنت (العاصي)

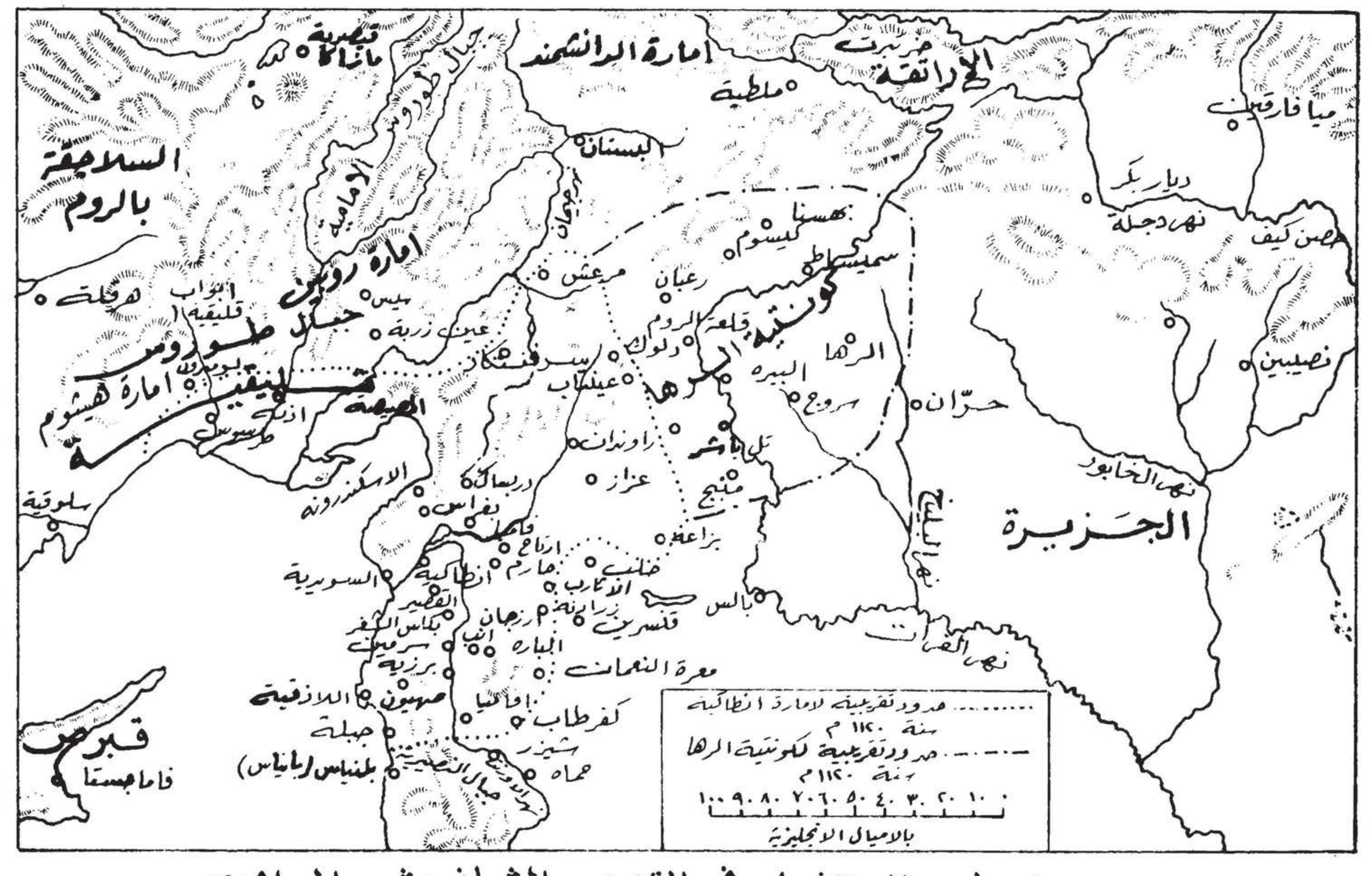


نهر الاورنت
جسر من القوارب
مقبرة
برج المسجد
الجسر المحصن
الطريق الى السويدية
باب الدوق
باب الكلب
الطريق الى الجسر الحديدي
القصر
كاتدرائية القديس بطرس
باب القديس جورج
شمال
برج
برج الشقيقتين
جبل سلبيوس
(حبيب النجار)
القلعة
الباب الحديدي
ميل
١/٢

انطاكية



آسيا الصغرى زمن الحملة الصليبية الأولى



١ شمال الشام في القرن الثاني عشر الميلادي

٢ ـ الرهاء.

كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى عامله وقائد جنده في العراق ـ سعد بن مالك بن أبي وقاص رضي الله عنهما: «سرح سهيل بن عدي إلى الجزيرة في الجند وليأت الرقة.فإن أهل الجزيرة هم الذين استثاروا الروم على أهل حمص. وإن أهل قرقيساء لهم سلف. وسرح عبدالله بن عبدالله بن عتبان إلى نصيبين، ثم لينغضا حران والرهاء. وسرح الوليد بن عقبة على عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ. وسرح عياضاً ـ ابن غنم ـ فإن كان قتال فقد جعلت أمرهم جميعاً إلى عياض»[١]. وكان ذلك رداً على هجوم الروم الكبير سنة ١٧ هـ = ٦٣٨ م. وهو الهجوم الذي تعاون فيه الروم مع عرب الجزيرة، فوصلوا حتى مدينة حمص. وسار المسلمون ففتحوا الجزيرة ثم تقدموا في أرمينية، فنزل عياض بن غنم على (الرهاء) فصالحه أهلها على الجزية، وفتح المسلمون حران على مثل صلح الرهاء. وفتح المسلمون نصيبين ورأس العين. فخضعت (أرمينية)[٢] للمسلمين. وقد حاول الروم إخراج المسلمين من أرمينية (سنة ٢٤ هـ = ٦٤٤ م) فحشدوا جيشاً من مائة ألف مقاتل من الروم والترك ـ بقيادة الموريان الرومي ـ فوجه أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضوان الله عليه جيشاً من الشام بقيادة حبيب بن مسلمة وآخر من العراق بقيادة سلمان بن ربيعة الباهلي. فتم للعرب المسلمين تدمير تجمع الروم، وفتح المسلمون أرمينية. ووصلت قواتهم الى باب الأبواب (باكو

---

(١) تاريخ الطبري، والكامل في التاريخ، أحداث سنة ١٧ هـ.

(٢) كانت أرمينية يوم فتحها العرب المسلمون تنقسم إلى أربعة أقاليم من الشرق الى الغرب، وتحمل تسلسلاً بالأرقام. فأرمينية الأولى تضم شمشاط وقاليقالا وخلاط وأرحبيش وباجنيس. وتضم أرمينية الثانية السفرجان وديبل وسراج طير وبغروند. أما أرمينية الثالثة فكانت تضم جرزان. وتضم الرابعة السيسجان وأران. وكانت أرمينية الأولى والثانية تحت حكم الخزر. أما الثالثة والرابعة فكانتا تحت حكم الروم (البلاذري ص: ١٩٨).

حالياً على بحر قزوين) ووصلت الى تفليس. وخضعت أرمينية بكاملها لحكم العرب المسلمين.[1]

كانت تلك هي البداية فقط لقصة الصراع الطويل بين المسلمين والروم على أرض أرمينية. فكانت ثغور المسلمين المتقدمة (العواصم) على أرض أرمينية هي: شمشاط وملطية وطرنده ومرعش وزبطرة والحدث وسواها، والتي باتت برهاناً على استقرار الفتح العربي - الإسلامي في أرمينية، وثبات جذوره. وأما الرهـا فلم تكن إلا ثغراً من هذه الثغور التي طالما تعرضت لهجمات الروم وإغاراتهم الكثيرة، والتي كان منها على سبيل المثال هجوم الروم سنة ٣٣١ هـ = ٩٤٢ م ووصولهم إلى الرهاء ثم رجوعهم عنها. وكذلك هجومهم سنة ٣٣٦ هـ = ٩٤٧ م وتهديدهم للرها، وهجومهم بعدئذ سنة ٣٦١ هـ = ٩٧١ م واحتلالهم للرهاء ونهبها وتدميرها، بالاضافة الى استيلائهم على أرزن وميافارقين ونصيبين حيث قتلوا من المسلمين وسبوا، وعملوا بعدها على طلب منديل. كان في كنيسة الرها ثم استقر في دار الخلافة. وزعموا أن السيد المسيح كان قد مسح وجهه به، فارتسمت صورته فيه، وذلك مقابل إطلاق سراح أسرى المسلمين الذين تم سبيهم جميعاً. ووافق الخليفة العباسي على الطلب وأرسل المنديل لهم، فأطلق الروم سراح من بأيديهم من أسرى المسلمين، فرجعوا إلى بلادهم. غير أن الروم قاموا بهجوم كبير سنة ٤٢٣ هـ = ١٠٣١ م، وأفادوا من انقسام العالم الإسلامي بين الشيعة الفاطميين في مصر والسنة في بغداد والمشرق. فاستولوا على الرها، وضموها الى ممتلكاتهم. ويظهر أن ملك الأرمن قد شعر بضعف موقفه، فقام بتسليم عاصمة بلاده (آني) للروم البيزنطيين سنة ٤٣٧ هـ = ١٠٤٥ م وذلك مقابل الحصول على بعض الضياع - القرى - بجبال طوروس. وقد صحبه إلى موطنه الجديد عدد كبير من الأرمن. وترتب على ذلك أن بات حصن الرهاء عرضة للهجوم في كل سنة. وقد تولى التركمان - السلاجقة بقيادة ألب أرسلان، أعباء الأعمال القتالية ضد الروم بهدف الحد من نزعاتهم العدوانية وما لبث السلاجقة طويلاً حتى بسطوا نفوذهم على أرمينية. وكان

(١) تاريخ الطبري، والكامل في التاريخ - أحداث سنة: ٢٤ هـ.

فتح الترك - السلاجقة لأرمينية - أو بالأحرى إعادة فتحها - بمثابة لطمة عنيفة للتحالف البيزنطي - الفاطمي الذي كان هدفه اضعاف حكم السنة والخلافة الإسلامية ببغداد. وأدى ضعف هيمنة الروم البيزنطيين على أرمينية إلى تحرك الأرمن من جديد، فخرج أحد أقارب الامبراطور البيزنطي (روبين) على حكم الامبراطور، واستقر في التلال الواقعة إلى الشمال الغربي من قليقية. في حين ظهر زعيم أرمني آخر (اسمه أوشين ابن هيثوم) فأقام إمارة له غرب الإمارة السابقة، وعلى مسافة غير بعيدة عنها. ومارس كل من (آل روبين) و(آل هيثوم) دوراً مميزاً في الصراع الذي سيقع بعد فترة قريبة، عندما سيصل الفرنج الصليبيون إلى المشرق. غير أنه طمس اسم روبين وهيثوم اسم زعيم أرمني آخر هو (بهرام) أو فيلارتيوس كما تذكره مصادر الروم البيزنطيين، والذي استولى على طرسوس والمصيصة وعين زربة والرها وأنطاكية، وأصبح أمراء آل روبين وآل هيثوم من أتباعه.

ولم يكن باستطاعة الاتراك - السلاجقة - تجاهل هذه القوة المتعاظمة التي باتت تتهدد أقاليمهم المجاورة. فاجتاحوا أرمينية سنة ٤٥٨ هـ = ١٠٦٥ م. ووقعت بعد سنتين معركة ملازكرد (٤٦٠ هـ = ١٠٦٧ م) التي سجل فيها المسلمون انتصارهم الرائع، والتي كان من نتيجتها اخضاع أرمينية بكاملها لحكم المسلمين. وإعادة فتح الرها. ومارس الأرمن إدارة بلادهم تحت إشراف المسلمين. وأقامت حامية تركية في الرها للمحافظة على الأمن في هذا الاقليم المضطرب. وبقي الأرمن في الرهاء كما في غيرها نهباً لولاء مزدوج، بين الولاء للترك المسلمين الذين ضمنوا لهم الحماية والاستقلال الاداري، وبين التبعية للروم بحكم الخضوع للكنيسة الارثوذكسية، غير أنهم لم يكونوا في الحالين بمعزل عن التحريض الصليبي القادم من الغرب. وقد جابه الأرمن موقفاً حرجاً سنة ٤٨٣ هـ = ١٠٩٠ م. عندما توفي بهرام - أو فيلارتيوس - الذي نجح في إقامة كيان شبه مستقل للأرمن، فتمزقت إمارة أرمينية وتوزعت على مجموعة من الإمارات الصغرى التي كان من أبرزها إمارة الرها التي خضعت لحكم (ثوروس) وإمارة ملطية التي حكمها صهره (جبريل). وكانت تبعية هؤلاء الأمراء لكنيسة الروم الارثوذكسية، وعدم اتباعهم للكنيسة الأرمنية الانفصالية، سبباً

من أسباب ضعفهم أمام شعبهم الأرمني. فحاولوا دعم ضعفهم بالتحالف مع الأتراك المسلمين المجاورين لهم. وأظهر (ثوروس) كفاءة عالية في تأجيج نار العداء بين الروم وبين المسلمين.

وهكذا وبينما كان جبريل قد أرسل زوجته في سفارة إلى بغداد لتظفر باعتراف أعلى سلطة إسلامية، كان أوشين بن هيثوم الذي أقام إمارته إلى الغرب من أبواب قليقية وجعل من قلعة لامبرون المنيعة مقراً له، نظراً لوقوع هذه القلعة على نشز يطل على جبال طوروس وسهل قليقية، قد تابع توطيد ارتباطه بالقسطنطينية. أما قسطنطين ابن روبين والذي امتدت امارته نحو الشرق حيث جبال طوروس، فقد جعل من قلعة (بارتزربرت) الواقعة الى الشمال الغربي من سيس قاعدة له، وقد تابع هذا بدوره ارتباطه بكنيسة أرمينية الانفصالية، فكان من أشد أنصارها [1]. وتجدر الإشارة هنا إلى توجه أسقف أرمني إلى روما - قبل عشرين سنة من وقوع الغزو الصليبي، ليظفر بدعم البابا غريغوري السابع. وحمل البابا على التفكير بارسال حملة لانقاذ العالم المسيحي في الشرق. وقد أبرز ذلك ميل أمراء الأرمن. - حتى من كان يحمل منهم ألقاباً أو أسماء بيزنطية - للتحالف مع الغرب. ولكن من المعروف أن أمبراطور الروم البيزنطيين - الكسيوس - قد حرص على الزام قادة الحملة الصليبية الأولى على القسم باعادة ما يتم فتحه من أقاليم الروم التي حكمها المسلمون الى حكم الروم، ولما كانت أرمينية خاضعة لحكم الروم - ولو نظرياً -. فقد كان لا بد لقادة الحملة الصليبية من إعادة الإمارات الأرمنية الى حكم الروم. هذا فيما كان أمراء الأرمن يستخدمون كافة الوسائل للحصول على السيادة الاقليمية. ولم يكن من المهم بالنسبة لهؤلاء من أن تكون هذه السيادة بضمان من الفرنج الصليبيين، أو تحت اشراف امبراطور الروم - الكسيوس -. أو حتى بالتحالف مع الترك المسلمين.

خصص امبراطور الروم مجموعة من الأدلاء لمرافقة الحملة الصليبية. وقد ظهر فضل هؤلاء الأدلاء الذين توافرت لهم الخبرة بقتال الأتراك المسلمين، إذ لو لم يقوموا

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ١/٢٧٧ - ٣٠١.

بارشاد الصليبيين، ولو لم يقدموا لهم النصيحة الصادقة، لما استطاع هؤلاء أن يشقوا لهم طريقاً عبر آسيا الصغرى. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فقد قدم الأرمن مساعدات ضخمة للفرنج الصليبيين خلال تقدمهم. وكان (بلدوين البولوني)[1] قد أظهر منذ البداية اهتماماً بأمر أرمينية، وضم لحملته بعض كبار رجال الأرمن، وسار نحو الشرق. فاستقبله الأرمن في قيصرية وكومونا وكوكسن استقبالاً حافلاً. وقدم الأرمن مساعدة كبيرة للفرنج مما ساعدهم على الوصول الى طرسوس والمصيصة ومرعش وعينتاب. وهناك ثمة شك كبير في أن يكون بلدوين قد أعد خطة مسبقة لإقامة إمارة صليبية على نهر الفرات تكون ذات فائدة له وللحركة الصليبية بكاملها. غير أن ما قدمه الروم والأرمن من مساعدة، وما شاهده في بلاد الأرمن من الغنى والثراء، قد أغراه على متابعة تقدمه نحو الشرق. وكان أمير ملطية - جبريل - قد التمس على الأرجح المساعدة من الفرنج، كما أن صاحب الرهـا - ثوروس - كان على اتصال مستمر بالفرنج. وهكذا، وبينما كان بلدوين في تـل باشر، قدمت إليه سفارة من الرهـا، تستعجله للتحرك في مسيره، فقد انتاب - ثوروس - القلق عندما علم بأن امير الموصل - كربوقا - قد أخذ في حشد جموع المسلمين لنجدة أنطاكية، وأن بامكان - كربوقا - ازالة الرها وسائر الامارات الأرمنية الواقعة في طريقه - دونما جهد كبير أو عناء.

ولكن بلدوين أظهر التمهل والتريث، فهو لن يذهب إلى الرهـا إلا بالشروط التي تلائمه. وظهر بوضوح أن ثوروس كان يأمل في استخدام بلدوين، على أنه من المرتزقة، بما يبذله له من الأموال. وما يغمره به من المنح والهدايا الثمينة. في حين كان بلدوين، ولو أنه من المرتزقة، يطمع بالحصول على ما هو أكثر من ذلك. وتلقت سفارة الرهـا في تل باشر تفويضاً بزيادة قيمة العرض - وأن - ثوروس - على

---

(١) بلدوين البولوني: (BAUDOUIN-DE-BOULOGNE) دوق اللورين الأسفل (١٠٦١ - ١١٠٠م) وهو أحد كبار قادة الحملة الصليبية الأولى. أقام إمارة للفرنج الصليبيين في الرها، ثم أصبح ملكاً للقدس. وهو شقيق جيودفري دوبويون البولوني: GODEFROY-DE-BOUILLON الذي أصبح أول ملك لمملكة القدس الصليبية بعد استيلاء الفرنج عليها. فلما مات سنة ١١٠٠م. تم استدعاء شقيقه بلدوين، وجرى تنصيبه ملكاً على القدس.

استعداد لتبني بلدوين وجعله ابناً له ووريثاً. وأن يشاركه في حكم بلاده. ووافق بلدوين على العرض، وغادر - تل باشر - سنة ٤٩٤ هـ. ووصل إلى الرهـا يوم ٦ شباط - فبراير - سنة ١٠٩٨ م. فاستقبله الأرمن بحماسة مثيرة، وأقام - ثوروس - على الفور مراسم تبني ثوروس[١]. غير أن هذا التبني لم يمنع بلدوين من تنظيم مؤامرة لإشعال نار الثورة ضد ثوروس وقتله (يوم ١٠ - آذار - مارس - سنة ١٠٩٨ م. أي بعد شهر فقط من دخول بلدوين إلى الرهـا). وأصبح بلدوين أميراً على الرهـا. وارتاع أمير سميساط (بالدك أو بلق) حينما علم بارتقاء بلدوين عرش الرهـا، فأرسل فوراً إلى بلدوين وعرض عليه بيع إمارته له مقابل عشرة آلاف دينار. وقبل بلدوين بهذا العرض، فقد وجد في الرهـا كميات مذهلة من الثروة والأموال والجواهر. فدفع المبلغ ودخل سميساط منتصراً بأموال الرهـا. ثم ما لبث أن غدر ببالدك - أو بلق - واتهمه بالتآمر ضده وقتله.

هكذا تشكلت إمارة - كونتية - الرهـا، لتكون الإمارة الصليبية الثانية للفرنج بعد أنطاكية، ولتصبح الحاجز الذي يحمي أنطاكية من المسلمين، وقد بلغت من المساحة والاتساع مازادت به على إمارة أنطاكية حيث امتدت أملاكها على جانبي نهر الفرات: من راوندان وعينتاب إلى موضع غير معروف بالجزيرة الشامية - الى الشرق من مدينة الرهـا -. وقد افتقرت الرهاء إلى الحدود الطبيعية قدر افتقارها إلى التجانس بين سكانها، إذ كان هؤلاء يتألفون أساساً من المسيحيين - من السريان اليعاقبة والأرمن -. كما دخل في نطاقها مدن اسلامية مثل: سروج. ولم يأمل الفرنج الصليبيون في أن يقيموا بالرهاء حكومة مركزية، واستعاضوا عن ذلك بما شيدوه مِن حصون منيعة شحنوها بالعساكر. ومن هذه الحصون تولى الجند جباية الضرائب والجزية

---

(١) وردت قصة هذا التبني في تاريخ الحروب الصليبية: ١/٢٩١ - كما يلي: (وفقاً لشعائر الأرمن - وقتذاك - تقرر أن يجري من طقوس احتفال التبني ما يلائم طفلاً صغيراً، لا شخصاً مكتمل الرجولة، إذ تجرد بلدوين من ثيابه - حتى الوسط - بينما ارتدى ثوروس قميصاً بلغ من الاتساع أن دخل فيه بلدوين، وأخذ كل من الوالد الجديد والابن الجديد، بحك صدره في صدر الآخر، وكرر بلدوين الاحتفال مع الأميرة - زوجة ثوروس».

من القرى الإسلامية المجاورة. واستطاعوا أن يشنوا الغارات على ما يلي الحدود من الأقاليم الإسلامية، فظفروا منها بالكسب والغنيمة. وكانت هذه المنطقة بكاملها تعتبر اقليم حدود. فتعرضت لحروب متصلة. ومع ذلك فقد اشتملت على أراض خصبة ومدن مزدهرة. وإن ما حصل عليه أمير ـ كونت ـ الرهـا من الضرائب ومن الغنائم قد ضمن له مورداً مالياً وافراً، زاد على ما أحرزه ملك القدس من الأموال والثروات[1]. على أن هـذه الأمـوال والموارد لم تكـن لتضمـن لمدينـة (الرهـا)[2] وإمارتها، الأمن والاستقرار. حيث بقيت من أكثر امارات الفرنج الصليبيين هيجاناً واضطراباً.

لقد ظهر للفرنج الصليبيين في بداية الأمر أن كل شيء هو على أحسن صورة وأبهج منظر. فقد اتخذ بلدوين لنفسه لقب كونت الرهـا. وبات واضحاً أنه قد بدأ العمل ليتفرد بالحكم، وأنه لا أهمية عنده لليمين التي حلفها للامبراطور البيزنطي الكسيوس. وكان لنجاح بلدوين صداه الواسع في وسط قوات الفرنج الصليبيين. فما إن انتشر خبر قيام ـ كونتية الرهاء ـ حتى عمل كثير من فرسان الغرب وهم في طريقهم لدعم الجيش الصليبي في أنطاكية، على تغيير اتجاههم والسير الى الرهاء لمشاركة بلدوين حظه من النجاح ونصيبه من الثروة، بينما تخلى آخرون عن حصار أنطاكية العنيف، ولحقوا ببلدوين الذي كافأهم بما ضمته خزائن الرهـا من الهدايا الثمينة والمنح السخية وذلك من أجل إغرائهم على الإقامة بالرهـا، كما شجعهم على الزواج بالأميرات الأرمنيات، وجعل من نفسه نموذجاً لهم، فتزوج من ابنة أحد زعماء الأرمن. أما الأرمن ذاتهم فقد خاب أملهم باخوانهم في الدين، إذ كرهوا تدفق فرسان الفرنج إلى ممتلكاتهم. وزاد من الكراهية سلوك الفرنج الذين أخذوا في معاملة الأرمن بالازدراء والاحتقار، بل وحتى استخدام العنف معهم في كثير من الأحيان. واكتشف أعيان الأرمن أنه جرى استبعادهم من مجلس الكونت بلدوين، حيث اقتصر التمثيل فيه على

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ٢٥/٢.

(٢) الرهاء: (EDESSA) وهي اليوم بتركيا وتحمل اسم اورفة: (URFA).

الفرنج. وزاد الأمر سوءاً بزيادة الضرائب التي فرضها بلدوين وبالاضافة الى ذلك، فقد تقرر منح ضياع وقرى الأرمن في الريف إلى الفرنج القادمين حديثاً. فتحول الفلاحون الأرمن إلى أقنان ـ عبيد ـ للسادة الفرنج، وفقاً لما كان سائداً في الغرب من عرف اقطاعي بالغ المتانة والشدة. ولما حاول أعيان الرهـا تنظيم مؤامرة ضد الفرنج الصليبيين، بالتعاون مع المسلمين في ديار بكر، أسرع بلدوين فأمر بالقبض على الزعماء المتآمرين، وسمل عيونهم وجدع أنوفهم وقطع أرجلهم، كما ألقى بالسجن عدداً كبيراً من الأرمن الذين حامت الشبهات بشأن اشتراكهم في المؤامرة. وتقرر مصادرة أموالهم. واستذكر الأرمن بعاطفة قوية أيام ثوروس وجبريل وغيرهما من الزعماء الذين توافر لهم من الخبرة والتجربة في الحكم ما ضمن لهم المحافظة على استقلال الأرمن على الفرات، وفي وسط المسلمين، وإذا كانت جماهير الأرمن قد أنكرت جهود قادتها في السابق، وكرهت دولة الروم البيزنطيين، وأظهرت استعدادها للتسامح مع اللاتيني، وأن تغفر له إلحاده وما كانت تنكره دائماً على اليوناني، فانه لا ينبغي لهذه الجماهير إلا أن تلوم نفسها إذا ما جرها أصدقاؤها ـ أو إخوانها في الدين ـ من الفرنج، الى الكارثة ـ.

لقد امتلك الفرنج الصليبيون (الرهـا) بمكاتبة أهلها لهم، واتصالهم بهم، ذلك لأن أكثرهم من الأرمن، وليس بها إلا قليل من المسلمين. فلما كانت سنة ٤٩٤ هـ = ١١٠٠ م عمل سقمان أمير سروج على حشد جمع كبير من التركمان ـ الأراتقة ـ وسار بهم الى الرهـا. فقاتله الفرنج، وهزموه. وساروا الى سروج فحصروها وتسلموها وقتلوا كثيراً من أهلها، وسبوا حريمهم ونهبوا أموالهم، ولم يسلم إلا من مضى منهزماً[١] فلما كانت سنة ٤٩٧ هـ = ١١٠٣ م، سار الفرنج إلى حران وحصروها. ولما علم معين الدولة سقمان وشمس الدولة جكرمش، أرسل كل منهما إلى صاحبه يدعوه الى الاجتماع معه لتلافي أمر حران، ويعلمه أنه قد بذل نفسه لله تعالى وثوابه. فكل واحد منهما أجاب صاحبه إلى ما طلب منه، وسارا فاجتمعا على الخابور وتحالفا، وسارا إلى لقاء الفرنج. وكان مع سقمان سبعة آلاف فارس من التركمان، ومع جكرمش ثلاثة آلاف

---

(١) الكامل في التاريخ. احداث سنة: ٤٩٤.

فارس من الترك والعرب والأكراد، فالتقوا على نهر بليخ. وكان المصاف بينهم هناك، فاقتتلوا، فأظهر المسلمون الانهزام، فتبعهم الفرنج نحواً من فرسخين فعاد عليهم المسلمون فقتلوهم كيف شاؤوا وامتلأت أيدي التركمان من الغنائم، ووصلوا إلى الأموال العظيمة، لأن سواد الفرنج كان قريباً. وكان بيمند ـ بوهمند ـ صاحب انطاكية، وطنكري ـ تانكرد ـ صاحب الساحل قد انفردا وراء جبل ليأتيا من وراء ظهور المسلمين إذا اشتدت الحرب، فلما خرجا رأيا الفرنج منهزمين وسوادهم منهوباً. فأقاما إلى الليل، وهربا، فتبعهم المسلمون وقتلوا من أصحابهما كثيراً وأسروا كذلك، وأفلتا في ستة فرسان. وكان القمص بردويل ـ بلدوين ـ صاحب الرها قد انهزم مع جماعة من قمامصتهم، وخاضوا نهر البليخ، فوحلت خيولهم، فجاء تركماني من أصحاب سقمان فأخذهم أسرى، وحملهم إلى خيم سقمان. وأما جكرمش فإنه سار إلى حران، فاستعادها واستخلف بها صاحبه، وسار الى الرها، فحصرها خمسة عشر يوماً، ثم عاد إلى الموصل. وكان عدة القتلى من الفرنج أثني عشر ألف قتيل [1] .

مضى على الرها زها ست وأربعين سنة وهي تحت حكم الفرنج الصليبيين، وشهدت خلال هذه الفترة صراعات قاسية ومعارك كثيرة، منها تلك الحرب التي وقعت بين امارتي الفرنج: أنطاكية والرها (سنة ٥٠٢ هـ = ١١٠٦ م) ومنها عودة المسلمين لحصار الرها سنة ٥٠٥ هـ = ١١٠٩ م. وكذلك ما حدث سنة ٥١٢ هـ = ١١١٦ م عندما تعاون الأرمن مع المسلمين ضد الفرنج. على أن أكثر الأحداث اثارة هو ما حدث سنة ٥١٦ هـ = ١١٢٢ م حيث وقع أمير الرها ـ جوسلين ـ أسيراً في قبضة المسلمين. ففي هذه السنة، خرج جوسلين وصاحب البيرة واليران راكبين في جماعة من الفرسان ـ قليلة العدد ـ ووصلا إلى قرب سروج، حيث التقيا بجماعة من الترك المسلمين. فهاجوهم، غير أن ما هطل من المطر الغزير عمل على تحويل المنطقة الى بحيرة من الطين ـ الوحل ـ. فانزلقت الخيول وتعثرت، ولم يجد التركمان المتخففون صعوبة في تطويق الفرنج وأسر جوسلين وواليران. وتظاهر الفرنج الصليبيون في الرها بعدم تأثرهم لأسر أميرهم، وعملوا على تطوير اغاراتهم على الأراضي

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ٦٩/٢ ـ ٧٥ ـ والكامل في التاريخ ـ احداث سنة: ٤٩٧ هـ.

الإسلامية المجاورة لهم. ووقع عبء أسر جوسلين على ملك القدس ـ بلدوين ـ الذي اضطر لرعاية شؤون إمارة الرهـا، فسار إليها في السنة التالية، وأعاد تنظيم الإدارة فيها، ثم خرج ليستطلع المكان الذي أسر فيه جوسلين، غير أنه وجد نفسه مطوقاً بفرسان المسلمين، فلقي معظم أفراد جيش بلدوين مصرعهم، ووقع الملك نفسه أسيراً. فجرت معاملته بما يليق به من الاحترام، وتقرر إرساله ليلحق بجوسلين في مقر اعتقاله ـ في قلعة خرتبرت ـ ولكنه تمكن بعد فترة من الفرار.

تعاظم ضرر الفرنج فعم بلاد الجزيرة، واستطار شرهم فوصلت إغارات جيش الرهـا إلى أقاصي البلاد ـ فبلغت آمد ونصيبين ورأس العين والرقة. وكانت بلاد الرهـا في هذه الفترة تمتد من قرب ماردين إلى الفرات مع ما خضع لحكم الفرنج من غربي الفرات. وقد تمكن جوسلين ـ بعد فراره ـ من ضبط حكم إمارته بما اشتهر به من الشجاعة والمكر.

قرر أمير الموصل أتابك عماد الدين زنكي بن آقسنقر فتح مدينة الرهـا، ووضع حد لشرور الفرنج واستفزازاتهم.

وكان يعرف أنه متى قصد حصرها اجتمع من الفرنج من يحميها ويمنعها، فيتعذر عليه فتحها لما هي عليه من الحصانة والقوة. فتظاهر بالانصراف الى ديار بكر ـ لخداع الفرنج، وأنه غير متفرغ لقتالهم. فلما رأوه أنه غير قادر على ترك ملوك ديار بكر ـ الأراتقة ـ وانشغاله بحربهم، اطمأنوا. وخرج جوسلين فغادر الرهـا وعبر الفرات الى بلاد الغربية، فجاءت عيون أتابك ـ جواسيسه ـ فأخبروه الخبر، فنادى في العسكر بالرحيل، وأن لا يتأخر عن الرهـا أحد من غد يومه، وجمع الأمراء عنده وقال لهم:

«هاهو الطعام، ولا يأكل معي على مائدتي هذه إلا من يطعن معي غداً على باب الرهـا».

وسار العسكر معه، ووصل إلى الرهـا، وكان هو أول من حمل على الفرنج، فكاد يقتله فارس من الفرنج لولا أن بادر أحد مجاهدي المسلمين فقتل فارس الفرنج وأنقذ أتابك عماد الدين الذي نازل الرهـا وقاتل أهلها ثمانية وعشرين يوماً. وزحف إليها

عدة دفعات، وقدم النقابين فنقبوا أسوار البلد، ولجّ في قتاله خوفاً من اجتماع الفرنج ومسيرهم إليه واستنقاذ البلد منه. فسقطت البدنة ـ الدعامة ـ التي نقبها النقابون. وأخذ البلد عنوة وقهراً، وحصر قلعتها فملكها أيضاً، ونهب الناس الأموال، وسبوا الذرية. وقتلوا المقاتلة. فلما رأى أتابك عماد الدين الرهـا أعجبته، ورأى أن تخريبها هو أمر غير جائز في السياسة، فأمر فنودي بالعساكر برد ما أخذوه من الرجال والنساء والأطفال إلى بيوتهم، وإعادة ما غنموه من أثاثهم وأمتعتهم، فردوا الجميع عن آخره لم يفقد منه شيء إلا الشاذ النادر، فعاد البلد على حاله الأول، وجعل فيه عسكراً لحفظه، وتسلم مدينة سروج وسائر الأماكن التي كانت قد خضعت للفرنج في شرقي الفرات (سنة ٥٣٩ هـ = ١١٤٤ م). وأقام أمير الرهـا السابق ـ جوسلين ـ بتل باشر، وجعلها مقراً لحكم ما يجاور تل باشر، وشرع في ارسال الرسائل إلى أهل الرهـا وعامتهم من الأرمن، وأخذ في تحريضهم على العصيان والتمرد ضد المسلمين وتسليم البلد إليه، فأجابوه إلى ذلك. وواعدهم يوماً يصل إليهم فيه، وسار في عساكره الى الرهـا (سنة ٥٤١ هـ = ١١٤٦ م) وتمكن من اقتحام البلد غير أن القلعة وحاميتها من المسلمين استمرت في مقاومتها. وبلغ الخبر إلى نور الدين محمود بن زنكي ـ وهو بحلب ـ فسار مجداً إليها في عسكره. فلما قاربها خرج جوسلين هارباً وعاد إلى بلده ـ تل باشر ـ ودخل نور الدين الرهـا، ونهبها حينئذ وسبى أهلها. فخلت الرهـا من أهلها الأرمن. ودفعت الرهـا الثمن غالياً لقاء ما قدمته للفرنج من دعم ومساعدة. فقتل المسلمون كل من حمل السلاح. ولم يبق على قيد الحياة منهم أحد، إلا من وقع في السبي من نسائهم وأطفالهم. وتقرر إخراج كل سكان الرهـا المسيحيين وأبعادهم إلى المنفى. فأضحت المدينة الكبيرة ـ الرهـا ـ التي زعم الفرنج الصليبيون أنها أقدم مدن المسيحيين في العالم، خاوية موحشة، ولم تسترد مكانتها بعد ذلك أبداً. وكانت هذه أول ثمرة من ثمار الحملات الصليبية على بلاد الشام والتي جاءت بحجة انقاذ المسيحيين. فكانت وبالاً عليهم وكارثة لهم. [١].

---

(١) الكامل في التاريخ احداث سنة ٥٣٩ واحداث سنة ٥٤١ وتاريخ الحروب الصليبية: ٣٧٧/٢ ـ ٣٨٨.

تردد صدى إعادة فتح المسلمين للرهـا في جميع بلاد العالم الغربي والشرقي. فتجدّد أمل المسلمين بعد أن تحطمت إمارة صليبية جاءت دخيلة في جوف بلادهم. واقتصر وجود الفرنج على البلاد التي تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط. وجرى تطهير الطرق الممتدة ما بين الموصل وحلب من الفرنج. وتم انتزاع الأسفين الذي دقه الفرنج بين الترك في بلاد فارس والترك في الأناضول. وحاز زنكي عن جدارة لقب (الملك المنصور ـ أو الغازي). ومقابل ذلك، أدى طرد الفرنج من الرهـا الى تدهور روحهم المعنوية، وأثار خوفهم وقلقهم، وشكل صدمة كبيرة للفرنج الصليبيين في أوروبا. إذ أدركوا، ولأول مرة، ضعف البنيان الصليبي الذي أقاموه في بلاد المشرق. وأرسلت ملكة القدس ـ ميليسيند ـ فور سماعها خبر فتح المسلمين للرهـا رسولاً الى انطاكية للتشاور مع حكومتها فيما يجب عمله، ولارسال سفارة الى روما لتنهي هذا النبأ الى البابا، واظهار ضرورة توجيه حملة صليبية جديدة. ولم يتأخر ردّ فعل اوروبا عـلى فتح الرهاء. فجاءت الحملة الصليبية الثانية (سنة ٥٤٣ هـ = ١١٤٨ م). ولكن هذه الحملة لم تتمكن من إعادة العجلة الى الوراء.

٤ ـ قلعة المضيق ـ أفامية ـ.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ ٱلْقُرونِ يَمْشُونَ في مَساكِنِهِمْ إنَّ في ذَلكَ لآيَاتٍ أَفَلاَ يَسْمَعونَ﴾ [١] صدق الله العظيم.

تلك هي قصة الحياة على الأرض، وتلك هي أيضاً قصة قلعة أفامية. التي تشكلت عبر الأزمنة الغابرة السحيقة، كلما ذهبت قرون، جاء من بعدهم آخرون مشوا في مساكنهم، وعمره فوق ما عمره السابقون، حتى إذا ما أذهبهم الله واستبدلهم بآخرين، جاء قوم في أعقاب من سبقهم. وهكذا، فكلما كشف الباحثون عن مساكن لفترة معينة، ظهر لهم مساكن أقدم وبيوت أعتق. ولعل ما هو أكثر وضوحاً من بين تلك الآثار، تلك التي تركها ملك الفرس (كسرى الأول) [٢] الذي دمر ـ أفامية ـ [٣] عندما أجتاح بلاد الشام في حروبه ضد الروم البيزنطيين سنة ٨٦ ق.هـ = ٥٤٠ م. حيث كانت أفامية إحدى تلك اللمات ـ القلاع ـ التي كان يستند إليها الروم في حروبهم ضد إغارات العرب وضد هجمات الفرس. إذ كانت الدولتان العظميان الفرس والروم في حالة حرب دائمة ـ مسرحها الأساسي هو بلاد الشام والعراق ـ وتذكر المصادر التاريخية أن العرب المسلمين لما

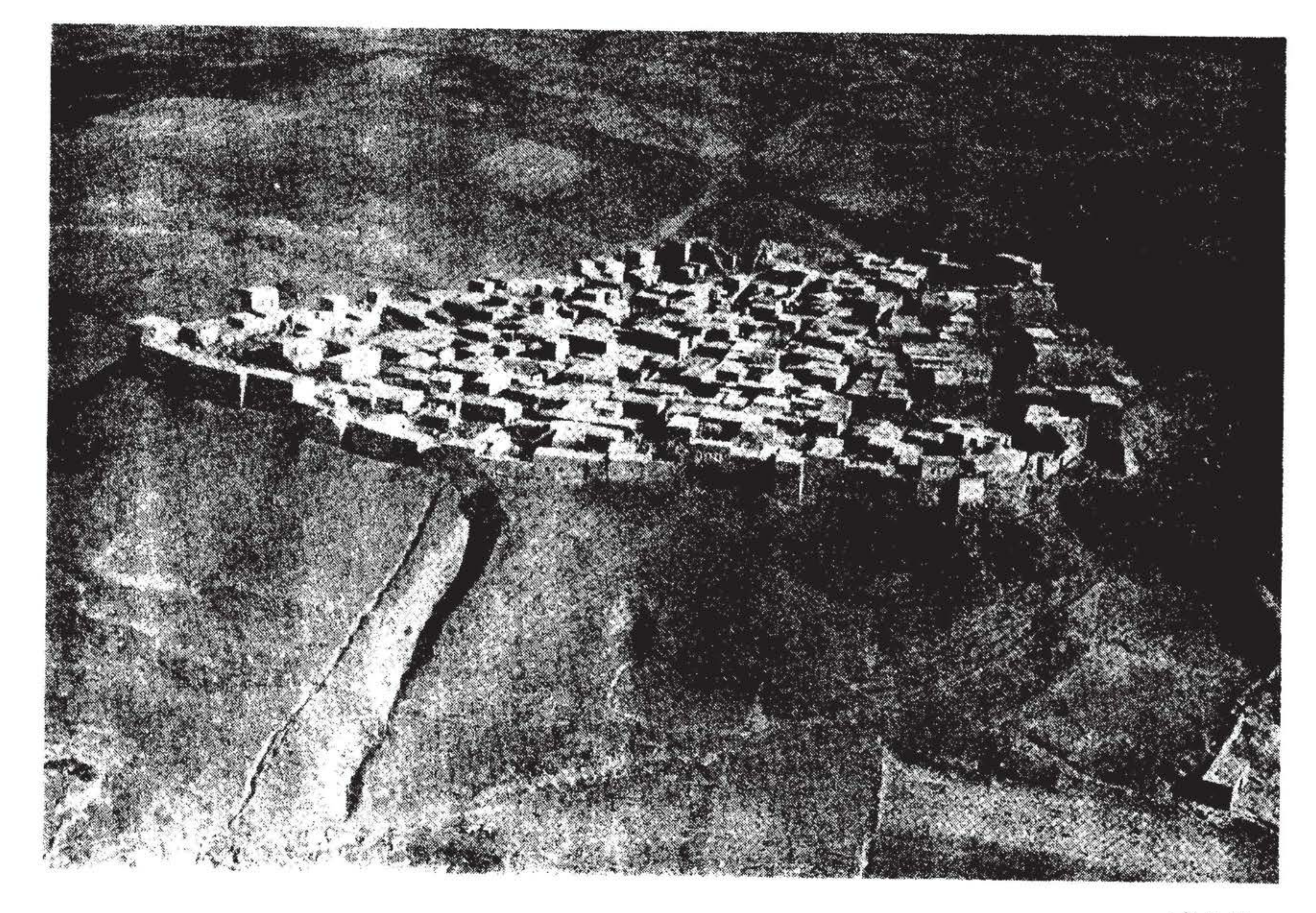
---

(١) الجزء الحادي والعشرين ـ سورة السجدة ـ الآية: ٢٦.

(٢) كسرى الأول: (KHOSROSES I -LE GRAND) ملك من ملوك الفرس، من سلالة الساسانيين، حكم بلاد الفرس من سنة ٥٣١ حتى سنة ٥٧٩ م. قاد حروباً ظافرة ضد الروم. وجاء بعده كسرى الثاني: (٥٧٩ ـ ٦٢٨ م) أي أنه مات بعد الهجرة بست سنوات. وهو الذي انتصر على هرقل، ثم انتصر عليه هرقل في قصة الرهان المعروفة التي راهن فيها أبو بكر رضي الله عنه على انتصار الروم ـ فنزلت الآية الكريمة: ﴿أَلَم ★ غُلِبَتِ الرُّومُ في أَدْنَى ٱلأَرضِ وَهُمْ مِنْ بَعدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ★ في بِضْعِ سِنينَ لله الأمر من قَبْلُ ومن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المُؤْمِنونَ﴾ صدق الله العظيم ـ الجزء الحادي والعشرين ـ الروم ـ الآية: ١ ـ ٤.

(٣) أفامية: (AFÂMIYA) والاسم القديم أباميا APAMEA وبالفرنجية أفامية AFAMIA أو الأفامي LA FAMIE.





قلعة المضيق

فتحوا بلاد الشام والعراق قد أفادوا من البقايا القديمة لهذه القلعة ـ حجارتها ـ فنقولها وشيدوا بها مدينة ـ سامراء (أو سر من رأى)[1]. وأفامية هي مدينة صغيرة محصنة في الشعاب الجنوبية الغربية المرتفعة في شمالي بلاد الشام، وهي تربض فوق تلة صخرية معزولة تطل على وادي نهر العاصي المستنقعي (الغاب) ويعتقد أن المستوطنة التي كانت قائمة في العصور الوسطى كانت تشغل منطقة المدافن من أفامية القديمة. وهو بالذات موقع المستوطنة الأقدم، لأن التل الذي تقوم عليه المدينة الحالية مدين بلا شك بقسم من ارتفاعه إلى الأطلال التي تركها المستوطنون على مرّ العصور وتتألف دفاعات القرون الوسطى من سور خارجي بسيط مدعم بأبراج زاوية مستطيلة، والبوابة الرئيسة في الجنوب التي حصنت تحصيناً قوياً بإضافة برجين ضخمين إليها. ولقد شيدت التحصينات بأكملها تقريباً من مواد أخذت من المباني القديمة. وقد حملت القلعة اسم (قلعة المضيق) في القرن السادس عشر أو السابع عشر الميلادي على ما يعتقد، ذلك أن المصادر العربية أيام الحروب الصليبية القديمة لا تذكرها إلا باسم (فامية ـ أو أفامية). وقد وصف أبو الفداء في مؤلفه تقويم البلدان قلعة أفامية بقوله: «يقال لفامية ـ أو أفامية ـ بزيادة الهمزة في أولها، وهي مدينة قديمة. ويطلق هذا الاسم على كورتها ـ ناحيتها ـ أيضاً. وفامية قرية من قرى فم الصلح من نواحي واسط أيضاً ـ. وقال في العزيزي: وكورة فامية لها مدينة كانت عظيمة على نشز من الأرض. ولها بحيرة حلوة يشقها النهر المقلوب المعروف بنهر العاصي».

عندما اجتاحت جحافل الفرنج الصليبيين بلاد الشام. شرع أمير انطاكية ـ الكونت بوهمند ـ[2] على الفور ببذل جهوده لتوسيع حدود إمارته على حساب بلاد المسلمين، فهاجم أفاميه (سنة ٤٩٤ هـ = ١١٠٠ م) ولكنه فشل في الاستيلاء

---

(١) القلاع أيام الحروب الصليبية: ٧٠ و ٧١.

(٢) بوهمند: (BOHEMOND) اسم حمله عدد من امراء النورمان من عائلة هوتفيل.
أمراء انطاكية واللاذقية وطرابلس، وأولهم بوهمند الأول الذي ولد سنة ١٠٥٢ ومات سنة ١١١١ م. وهو ابن روبرت جيسكار الذي تولى قيادة في الحملة الصليبية الأولى، وتزوج من إبنة ملك فرنسا فيليب الأول ـ واسمها كونستانس ـ وهو الذي استولى على قلعة أفامية.

عليها. وكان عليه الانتظار حتى سنة ٤٩٩ هـ = ١١٠٥ م إلى أن تمكن من ضمها لممتلكاته، مستفيداً من التناقضات والصراع بين المسلمين والباطنية - الاسماعيلية - فاستولى على أفامية، وجعلها قاعدة متقدمة للعدوان على بلاد المسلمين، وقد ذكرت المصادر العربية قصة استيلاء الفرنج على أفامية بما يلي: «ملك الفرنج حصن أفامية من بلد الشام سنة تسع وتسعين وأربعمائة. وسبب ذلك أن خلف بن ملاعب الكلابي كان متغلباً على حمص، وكان الضرر به عظيماً، ورجاله يقطعون الطريق، فكثر الحرامية - اللصوص - عنده. فأخذها منه تتش بن ألب أرسلان وأبعده عنها. فتقلبت به الأحوال إلى أن دخل إلى مصر الفاطميين، فأقام بها. واتفق أن المتولي لأفامية من جهة رضوان بن تتش أرسل إلى صاحب مصر، وكان يميل إلى مذهبهم، يستدعي من يسلم إليه الحصن، الذي هو من أمنع الحصون. وطلب ابن ملاعب منهم أن يكون هو المقيم به، وقال: إنني أرغب في قتال الفرنج وأوثر الجهاد. فسلموه إليه وأخذوا رهائنه. فلما ملكه خلع طاعتهم ولم يرع حقهم. فأرسلوا إليه يتهددونه بما يفعلونه بولده الذي هو عندهم. فأعاد الجواب: إنني لا أنزل من مكاني، وابعثوا إليّ ببعض أعضاء ولدي حتى آكله، فأيسوا من رجوعه إلى الطاعة. وأقام بأفامية، يخيف السبيل ويقطع الطريق، واجتمع عنده كثير من المفسدين، فكثرت أمواله. ثم إن الفرنج ملكوا سرمين وهي من أعمال حلب - وأهلها من الغلاة في التشيع -. فلما ملكها الفرنج تفرق أهلها. فتوجه القاضي الذي بها إلى ابن ملاعب وأقام عنده، فأكرمه ابن ملاعب وأحبه ووثق به، فأعمل القاضي الحيلة. وكتب إلى أبي طاهر المعروف بابن الصائغ - وهو من أعيان أصحاب الملك رضوان ووجوه الباطنية - الاسماعيلية - ودعاتهم، واتفق معه على الفتك بابن ملاعب، وأن يسلم أفامية إلى الملك رضوان. فظهر شيء من هذا. ووصل إلى ابن ملاعب أولاده، وكانوا قد تسللوا إليه من مصر. وقالوا له: قد بلغنا عن هذا القاضي كذا وكذا، والرأي أن تعاجله وتحتاط لنفسك فإن الأمر قد اشتهر وظهر. فأحضر ابن ملاعب، فأتاه في كمه مصحف، لأنه رأى أمارات الشر. فقال له ابن ملاعب ما بلغه عنه. فقال القاضي: أيها الأمير! قد علم كل أحد أني أتيتك خائفاً جائعاً، فأمنتني وأغنيتني وعززتني، فصرت ذا مال وجاه، فإن كان بعض من حسدني

على منزلتي منك، وما غمرني من نعمتك، سعى بي إليك، فأسألك أن تأخذ جميع ما معي وأخرج كما جئت، وحلف له على الوفاء والنصح، فقبل عذره وأمنه. وعاد القاضي إلى مكاتبة أبي طاهر بن الصائغ. وأشار عليه أن يوافق رضواناً على إنفاذ ثلثمائة رجل من أهل سرمين، وينفذ معهم خيولاً من خيول الفرنج، وسلاحاً من أسلحتهم، ورؤوساً من رؤوس الفرنج، ويأتون إلى ابن ملاعب ويظهرون أنهم غزاة، ويشكون من سوء معاملة الملك رضوان وأصحابه لهم، وأنهم فارقوه فلقيهم طائفة من الفرنج فظفروا بهم، ويحملون جميع ما معهم إليه. فإذا أذن لهم في المقام، اتفقت آراؤهم على إعمال الحيلة عليه.

ففعل ابن الصائغ ذلك، ووصل القوم إلى أفامية، وقدموا إلى ابن ملاعب بما معهم من الخيل وغيرها، فقبل ذلك منهم، وأمرهم بالمقام عنده، وأنزلهم في ربض أفامية. فلما كان في بعض الليالي نام الحراس بالقلعة، فقام القاضي ومن بالحصن من أهل سرمين، ودلوا الحبال وأصعدوا أولئك القادمين جيعهم، وقصد أولاد ابن ملاعب وبني عمه وأصحابهم فقتلوهم. وهرب ابنا ـ ابن ملاعب ـ فقتل أحدهما، والتحق الآخر بأبي الحسن بن منقذ ـ صاحب شيزر ـ فحفظه لعهد كان بينهما. ولما سمع ابن الصائغ خبر أفامية سار إليها، وهو لا يشك أنها له، فقال له القاضي: إن وافقتني وأقمت معي فبالرحب والسعة ونحن بحكمك، وإلا فارجع من حيث جئت. فأيس ابن الصائغ منه. وكان أحد أولاد ابن ملاعب بدمشق ـ عند حاكمها طغتكين ـ وهو غضبان على أبيه. فولاه طغتكين حصناً بعد أن تعهد بالمحافظة على الأمن ـ ولكنه لم يفعل، وقطع الطريق وأخذ القوافل، فاستغاث الناس إلى طغتكين منه. فأرسل من طلبه، فهرب إلى الفرنج، واستدعاهم إلى حصن أفامية، وقال لهم: ليس فيها غير قوت شهر، فأقاموا عليها يحاصرونها، وجاع أهلها، وملكها الفرنج. وقتلوا القاضي المتغلب عليها، وأخذوا ابن الصائغ وقتلوه ـ وكان هو الذي أظهر مذهب الباطنية ـ الاسماعيلية ـ بالشام»[1].

---

(١) الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة تسع وتسعين وأربعمائة ـ.

لم يكن النقص في المواد التموينية هو الذي أغرى أمير أنطاكية ـ بوهمند ـ بالهجوم على أفامية واحتلالها. كذلك لم يكن الحصار المتطاول هو الذي أدى إلى سقوط أفامية في قبضة الفرنج. ولكن بوهمند عرف أن أفامية قد باتت معزولة عن محيطها الإسلامي، وأنه ما من أحد سيسرع لنجدتها إذا ما عمل على مهاجمتها. ولهذا قام بقيادة قواته واستولى عليها، ثم استخدامها قاعدة متقدمة للهجوم منها على ما يجاورها من مدن المسلمين وقراهم. ففي سنة ٥٠٥ هـ = ١١١١ م جمع المسلمون جموعهم ونزلوا على نهر العاصي. وجمع الفرنج جموعهم. وتم اللقاء قرب قلعة شيزر. وبدأت قوات المسلمين باستثارة الفرنج واستفزازهم لحملهم على خوض المعركة. ولما عرف الفرنج قوة المسلمين أحجموا عن القتال، ورجعوا إلى أفامية. وتبعهم المسلمون فتخطفوا من أدركوه من ساقتهم ـ مؤخرتهم ـ وهذا ما تكرر حدوثه أيضاً سنة ٥٠٨ هـ = ١١١٤ م. إذ حشد الفرنج حشودهم بقيادة ملوك وأمراء انطاكية وطرابلس والقدس وغيرهم من شياطين الفرنج. فلما رأوا كثرة حشود المسلمين، اتفق رأيهم على ترك اللقاء. وقالوا إنهم عند قدوم الشتاء سيتفرقون. واجتمعوا بقلعة أفامية، وأقاموا نحو شهرين. فلما انتصف شهر ايلول ـ سبتمبر ـ ورأوا عزم المسلمين على المقام تفرقوا. ولما تولى أمير حلب نور الدين محمود بن زنكي قيادة الجهاد في سبيل الله، قدر خطورة أفامية، فقرر إعادة فتحها وطرد الفرنج منها، وقاد جيشه سنة ٥٤٤ هـ = ١١٤٩ م وخاض معركة حاسمة ضد جيش أنطاكية، فقتل أميرها ـ بوهمند ـ إذ كان عاتياً من عتاة الفرنج. حتى إذا ما كانت السنة التالية (٥٤٥ هـ = ١١٥٠ م) قاد نور الدين جيشه إلى حصن أفامية فحصره وقاتل الفرنج، وضيق على من بها منهم، فاجتمع من بالشام من الفرنج، وساروا نحوه ليبعدوه عنهم.

فلم يصلوا إلا وقد ملكه وملأه ذخائر وسلاحاً ورجالاً وجميع ما يحتاج إليه. فلما علم نور الدين بسير الفرنج إليه، رحل عن أفامية، وقد فرغ من أمر تحصينها. وسار إليهم يطلبهم، فحين رأوا أن الحصن قد ملك، وعرفوا تصميم نور الدين على لقائهم، عدلوا عن طريقه، ودخلوا بلادهم، وراسلوه في المهادنة وعاد سالماً مظفراً. ومدحه

الشعراء. وذكروا هذا الفتح. وأشادوا به.[1]

وعادت أفامية إلى أهلها. وكان طرد الفرنج من أفامية هو بداية التحول الحاسم، إذ وجد المسلمون في أنفسهم القدرة على مجابهة الفرنج بقوة أكبر من قواتهم، وما هي إلا سنوات حتى طرد الفرنج من عدد كبير من قلاع شمال بلاد الشام. نجح المسلمون بطرد الفرنج من أفامية ولما تتجاوز مدة احتلالهم لها أكثر من أربع وأربعين عاماً وإن وجود بعض الحجارة التي وضعها الفرنج (الآثار) لا يشكل دليلاً على رسوخ قدم الفرنج الصليبيين في بلاد الشام، شمالها وجنوبها. فهذه الفترة القصيرة لا تشكل شيئاً من عمر الزمن، وهي فترة طارئة تؤكد أن بلاد الشام التي أطلقت جيوش الفتح الإسلامي خلال العهد الأموي، ما كانت إلا قاعدة ثابتة وقوية للعرب المسلمين. وإن طرد الفرنج منها إنما هو البرهان على أنه لا مكان للغزاة فيها. وأنه لا مكان فيها إلا للإسلام وأهله.

تناوبت يد الأحداث - أفامية - بعد ذلك، وضربتها الزلازل ثلاث مرات متواليات، وكان المسلمون يسرعون في كل مرة لاصلاحها وترميمها ودعم أسوارها وتحصيناتها حتى إذا ما فرغوا من انجاز أعمالهم جاءتها الضربة التالية فأنزلت فيها الدمار. وبقيت أفامية صامدة في وجه أحداث الزمن. ثم جاءها المغول التتار، فاجتاحوها ودمروها كمثل تدمير الزلازل والأعصار، وذلك على نحو ما فعلوه في كل مكان. ويذكر أنه حدث في سنة ٦٧٠ هـ = ١٢٧١ م. أن قام المغول التتار بقيادة أباقا

---

(١) الكامل في التاريخ - أحداث سنة ٥٤٥ هـ - وفيه ما قاله الرومي في مديح نور الدين عند فتح أفامية - في قصيدة طويلة منها:

أسنى الممالك ما أطلت منارها	وجعلت مرهفة الدسار دسارها
وأحق من ملك البلاد وأهلها	رؤوف تكنف عدله أقطارها.

ومنها في وصف حصن أفامية:

أدركت ثأرك في البغاة وكنت يا	مختار أمة أحمد مختارها.
ضاءت نجومك فوقها ولطالما	باتت تنافثها النجوم شرارها.
عارية الزمن المعير سمالها	منك المغيرة فاسترد معارها.
أمست مع الشعرى العبور وأصبحت	شعراء تستفلي الفحول شوارها.

بشن هجوم على شمال بلاد الشام وذلك بالتعاون مع الفرنج الصليبيين. فانطلقوا من الأناضول ووصلوا إلى حلب، واستطاعوا انزال الهزيمة بالحامية المدافعة عن المدينة، وفرت بقايا الحامية المملوكية المدافعة عن حلب. وتابع المغول تقدمهم حتى بلغوا معرة النعمان وأفامية، وساد الذعر والخوف بين المسلمين، إذ كان هدف المغول التتار من هجومهم هو الانتقام لهزيمتهم في عين جالوت. وعلم الظاهر بيبرس بأمر الهجوم، فانطلق بجيشه من دمشق نحو الشمال، وعندها أسرع المغول بالانسحاب، والعودة بقواتهم إلى الأناضول[1].

وبعد ذلك بعشر سنين (٦٨٠ هـ = ١٢٨١ م) علم السلطان قلاون - الذي جاء بعد الظاهر بيبرس أن الفرنج الصليبيين قد اتصلوا بالمغول التتار، ونسقوا التعاون معهم للقيام بهجوم ضد بلاد الشام. فأسرع لأعادة تنظيم قوى الشمال وأسند إلى حاكم حلب (سنقر) مهمة الدفاع عن أنطاكية وأفامية وأقطعه اياهما[2]. ويبرهن ذلك على أن أفامية قد احتلت في تلك الفترة خاصة-مركز الثقل في الصراع ضد الفرنج الصليبيين وضد من عمل معهم وتحالف وإياهم. ولهذا لم يكن غريباً أن يحاول أعداء المسلمين بدورهم السيطرة على هذا المركز، غير أن كافة المحاولات باءت بالفشل أمام تصميم المسلمين وعزمهم على احباط أي عمل عدواني يستهدف أرضهم وبلادهم. ويظهر ذلك أن أفامية وقلعتها لم تكن مجرد موقع جيو استراتيجي هام، احتل مرتبة مميزة في الصراع الإسلامي - الصليبي - ولم تكن أيضاً مركزاً من مراكز القوى خلال تلك الحقبة التاريخية التي تكاثرت فيها مراكز القوى، فتكاملت وتلاحمت أحياناً، وتنافرت واختلفت في أحيان أخرى. وإنما كانت بموقعها، وبما توافر لها من القوى، نموذجاً لالتقاء الزمان والمكان في صنع الحدث التاريخي. وعلى هذا فان فتح نور الدين زنكي لأفامية، واستخدامه لها قاعدة لهجوم المسلمين، قد جعل من أفامية، وخلال تلك الفترة، نقطة الانعطاف في ايقاف مدّ الفرنج الصليبيين، وتحويل انتصاراتهم إلى هزائم.

فقد كان فتح أفامية هو بداية مرحلة تصعيد الجهاد ضد الفرنج. ففي السنة التالية

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ٥٧٦/٣.

(٢) المرجع السابق: ٦٦١/٣.

لفتح أفامية، جمع نور الدين زنكي عسكره، وسار إلى بلاد جوسلين الفرنجي، وهي شمال حلب؛ منها تل باشر وعين تاب وإعزاز، وكان جوسلين لعنه الله فارس الفرنج غير مدافع، قد جمع الشجاعة والرأي، فاحتال عليه نور الدين حتى أوقعه بكمين وأخذه أسيراً. وكان أسره من أعظم الفتوح، لأن جوسلين كان شيطاناً عاتياً شديداً على المسلمين، قاسي القلب. وأصيبت النصرانية كافة بأسره. ولما أسر، سار نور الدين إلى قلاعه فملكها وهي (تل باشر وعين تاب وإعزاز وتل خالد وقورس والراوندان وبرج الرصاص وحصن البارة وكفرسود وكفرلاثا ودلوك ومرعش ونهر الجوز) وغير ذلك من أعماله في مدة يسيرة. وكان نور الدين كلما فتح منها حصناً نقل إليه من كل ما تحتاج إليه الحصون خوفاً من نكثة تلحق المسلمين من الفرنج [١].

حشد الفرنج حشودهم سنة ٥٤٧ هـ = ١١٥٢ م، وساروا نحو نور الدين، ودارت معركة قرب دلوك انتصر فيها المسلمون، واستولوا على دلوك. وبدأت مدن بلاد الشام في تسليم قيادها لنور الدين زنكي، حتى إذا ما كانت سنة ٥٤٩ هـ = ١١٥٤ م، خضعت دمشق لحكم نور الدين، فتوحدت بلاد الشام كلها تحت قيادة نور الدين، مما مهد له السبيل لاخضاع مصر لحكمه، وتوحيدها تحت قيادته، فرسم الطريق لصلاح الدين الأيوبي، الذي جاء بعده، وسار على نهجه. ولم يكن الفاصل الزمني بين فتح أفامية (قلعة المضيق) وبين توحيد بلاد الشام قد زاد على أربع سنوات. وقد لا تكون هناك حاجة لابراز مدى الدور الذي تركه فتح أفامية في التحول الحاسم بانتقال المسلمين من الدفاع المحدود وغير المنسق الى الهجوم العام والشامل (الاستراتيجي).

وبعد، فما من مكان أو موقع يحتل مرتبة ثابتة بصورة مستمرة. وكثيراً ما تقفز بعض المواقع الى المرتبة الأولى من القيمة والأهمية خلال فترة زمنية معينة ـ مثل ستالينغراد ولينينغراد في الحرب العالمية الثانية، أو سنغافوره ـ حتى إذا ما تجاوزها الزمن، وتجاوزتها الأحداث عادت لتحتل مرتبة ثانوية، وقد تضيع في زوايا التاريخ المجهولة. أو قد تزول من على الخارطة الجغرافية للبلدان. ولعل (قلعة أفامية ـ أو

(١) الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة ٥٤٦ هـ.

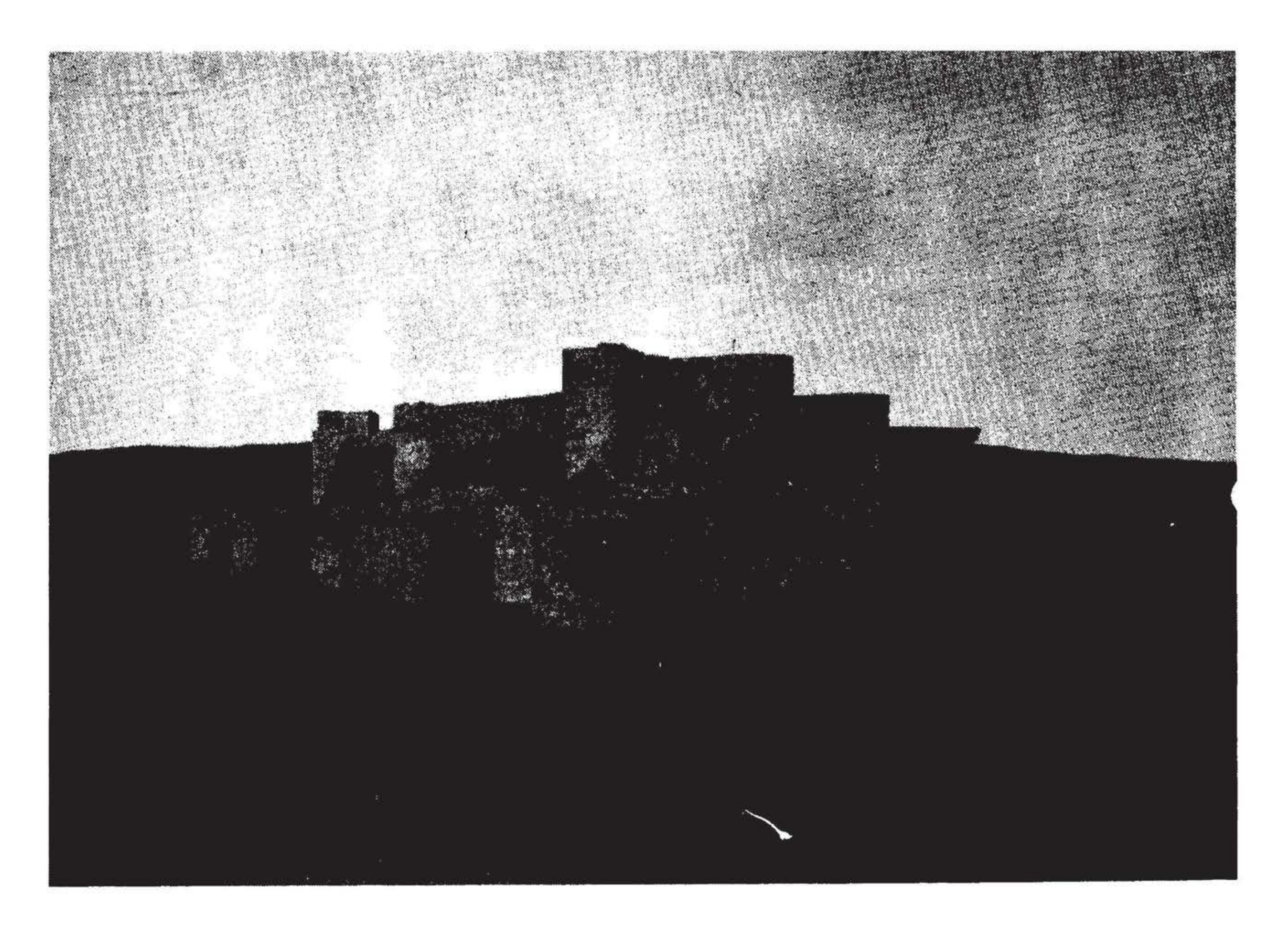
قلعة المضيق) هي أفضل نموذج يصور هذه الحقيقة. ذلك أن أفامية تنام اليوم هادئة، متناسية أنها كانت في يوم من الأيام هي قطب الرحى في صراعات دامية. وأنها رسمت على جدار الزمن نقطة التحول الحاسمة في صراع المسلمين ضد الغزاة من الفرنج الصليبيين ومن المغول التتار. ولا بد من القول أيضاً أن هذا الارتباط الزمني والمكاني قد التحم بدوره أيضاً باسم القائد الذي صنع التحول (وهو نور الدين زنكي ـ الشهير بالشهيد). إنها يد القدر التي صنعت نور الدين ليكون رجل التحول. وهي ذات اليد التي جعلت من قلعة المضيق ـ أفامية ـ نقطة التحول وذلك سنة ٥٤٥ هـ = ١١٥٠ م. وقد استمر الصراع بعدئذ زمناً طويلاً. وليس من المبالغة في شيء القول أن البداية التي انطلقت من أفامية قد أخذت مداها في حطين وفي عين جالوت وعلى أسوار عكا، حيث تم طرد آخر بقايا الفرنج الصليبيين من بلاد الشام.

٥ ـ قلعة الحصن [حصن الأكراد].

تقع قلعة الحصن (حصن الأكراد)[١] وقريتها في شعاب جبال النضارة ـ أو النصيرية ـ (جبال العلويين حالياً) في وسط سورية. وتحتل موقعاً ممتازاً فوق ذروة مرتفعة يزيد ارتفاعها على ألفي ومائة قدم. وتحيط بها المدرجات المتوسطة الانحدار من جميع جهاتها. وهي على اتصال مباشر بالنظر مع قلعة صافيتا (القصر الأبيض) المجاورة لها. وتعتبر قلعة الحصن واحدة من أفضل القلاع التي عاشت تجربة الحرب الصليبية القديمة، رغم أنها ليست أكبر القلاع التي اشتهرت خلال تلك الحقبة الزمنية ـ من حيث اتساع المنطقة المسورة ـ. وتضم بقايا القلعة قناة مائية قدت في الصخر، وهي التي تعزل القلعة عن الجرف الممتد بعيداً باتجاه الجنوب. وهي تتألف من حلقتين متحدتي المركز من التحصينات، موصولتين بمدخل طويل منحدر، يمكن للفرسان ـ الخيالة ـ الصعود عليه للوصول من بوابة الحصن الخارجي الى الفناء الداخلي. وتأخذ الحلقة الخارجية شكل مضلّع اهليليجي، وهي تتألف من سور يضم عدداً من الشرفات الدفاعية، ومقواة بحصون بارزة نصف دائـريـة. وهنـاك حصنـان بـارزان ملاصقان تماماً للبوابة الثانوية الصغيرة في الواجهة الشمالية يضمنان حراستها وحمايتها. أما الواجهة الشرقية التي تتمتع بحماية طبيعية أفضل من بقية الاتجاهات، فيحرسها ثلاث حصون بارزة مستطيلة الشكل صغيرة تحوي أحدها المدخل الرئيسي. وقد وصف المؤرخ أبو الفداء في مؤلفه تقويم البلدان قلعة الحصن بقوله: «حصن الأكراد هو قلعة حصينة مقابل مدينة حمص، من غربيها، على الجبل المتصل بجبل لبنان، ولها ربض، وكانت مقر ولاية السلطنة قبل فتح طرابلس، وهي على مرحلة من حمص وكذلك عن

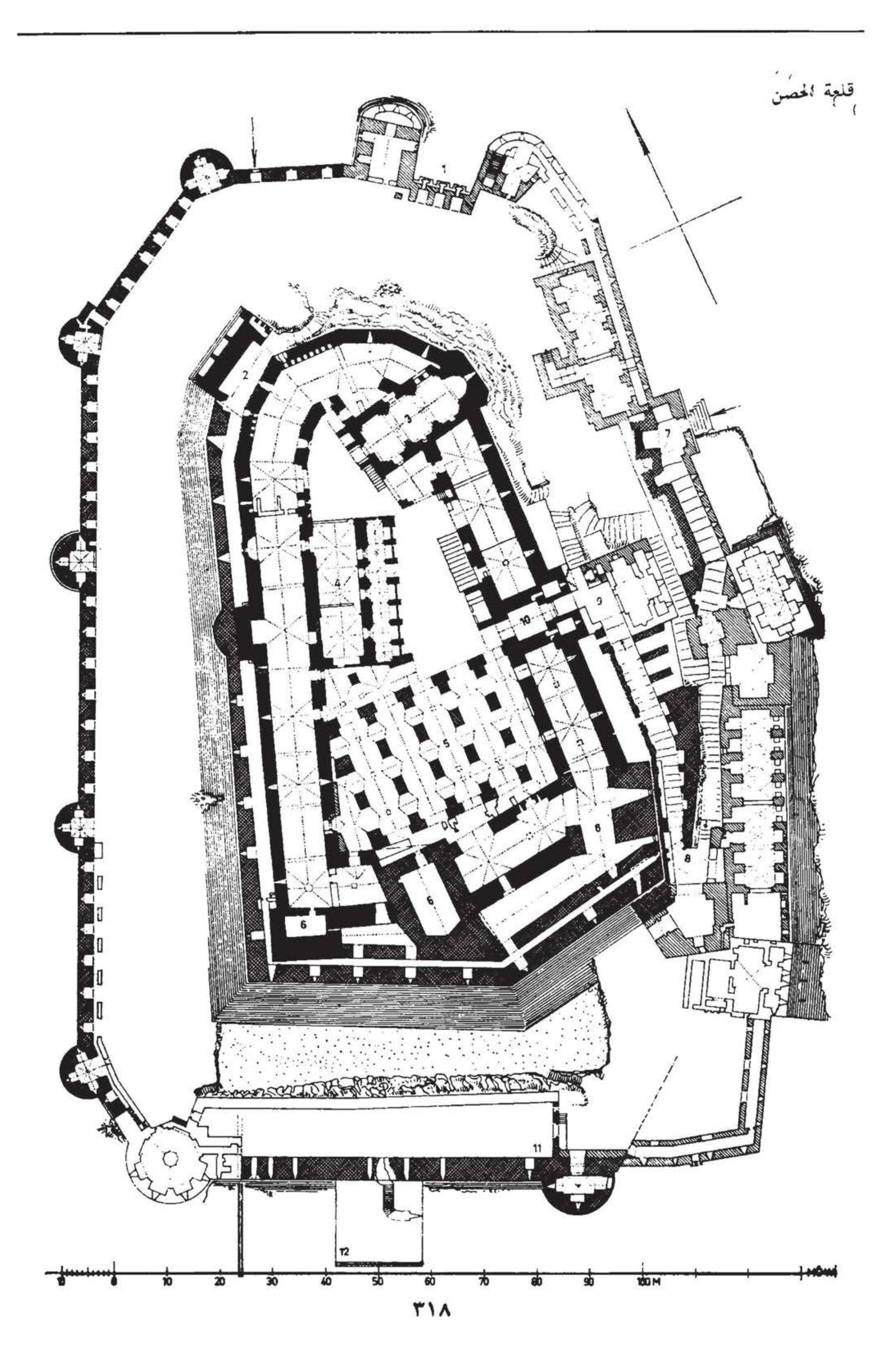
---

(١) قلعة الحصن ـ وباللغة الافرنسية CRAC أو حصن الاسبتارية: CRAC DE L'OPITAL وباللاتينية ـ كراتوم CRATUM ـ وكاستروم كراتي CASTRUM-CRATI.

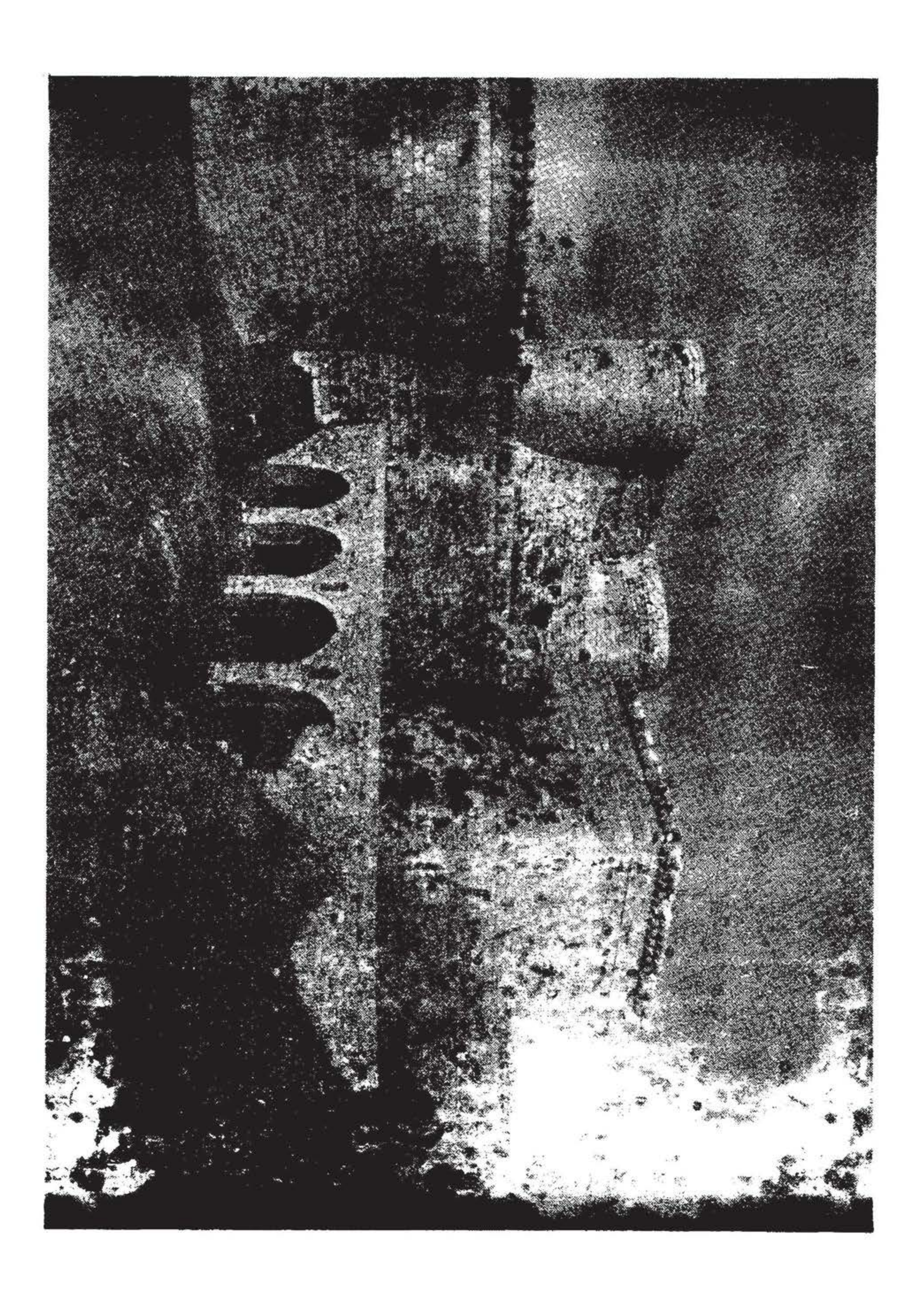


قلعة الحصن

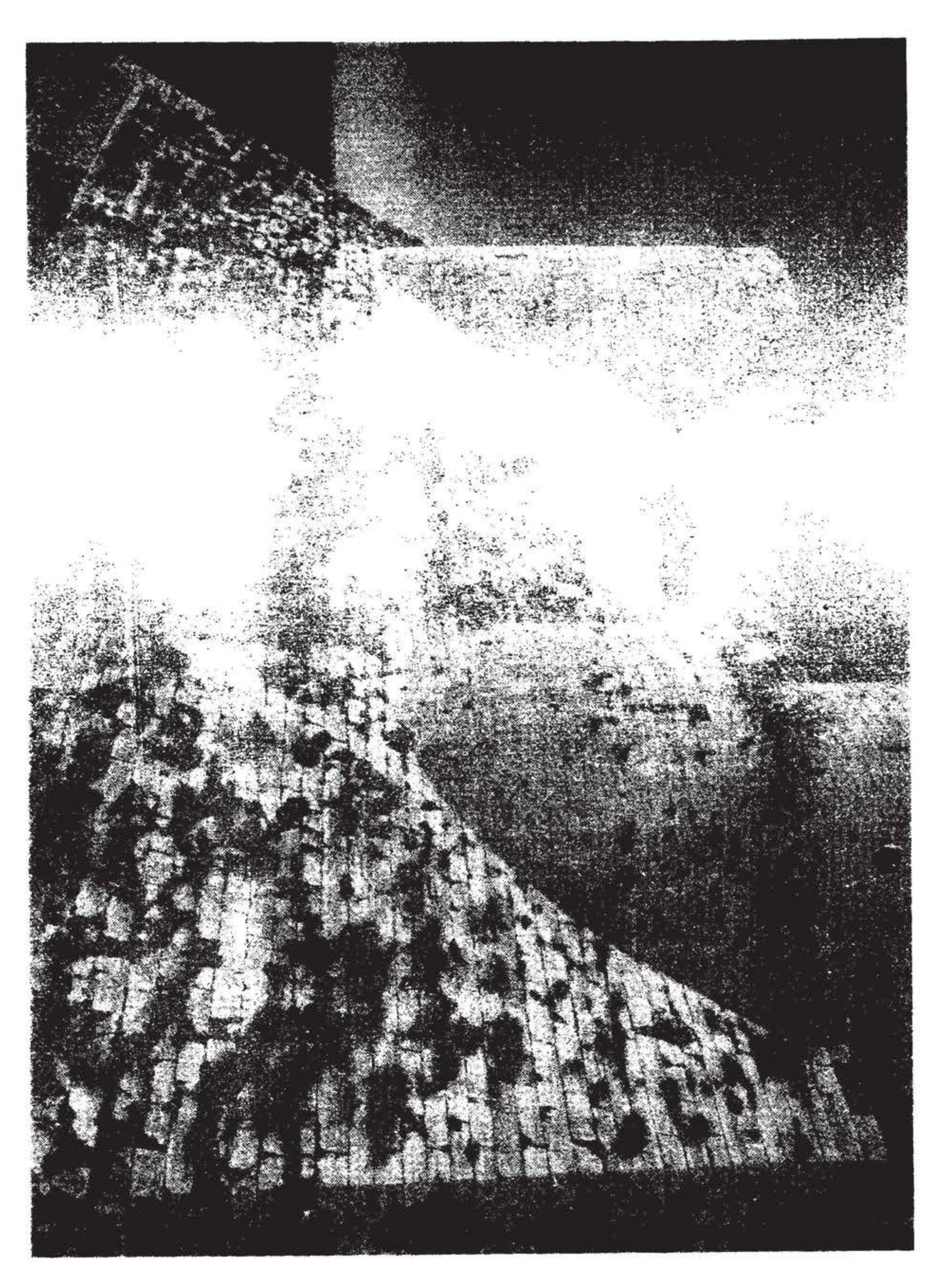
قلعة الحصن



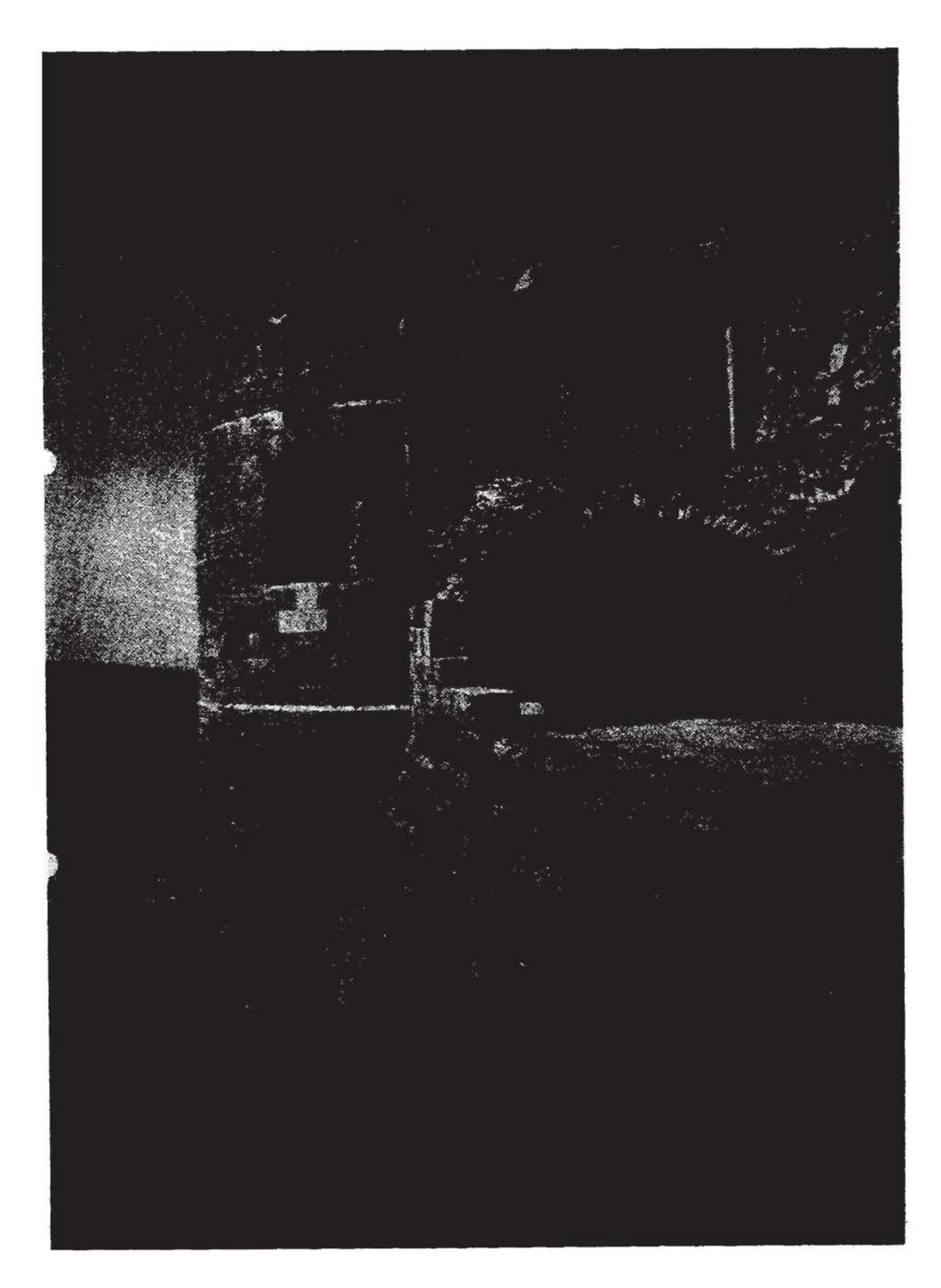
قلعة الحصن



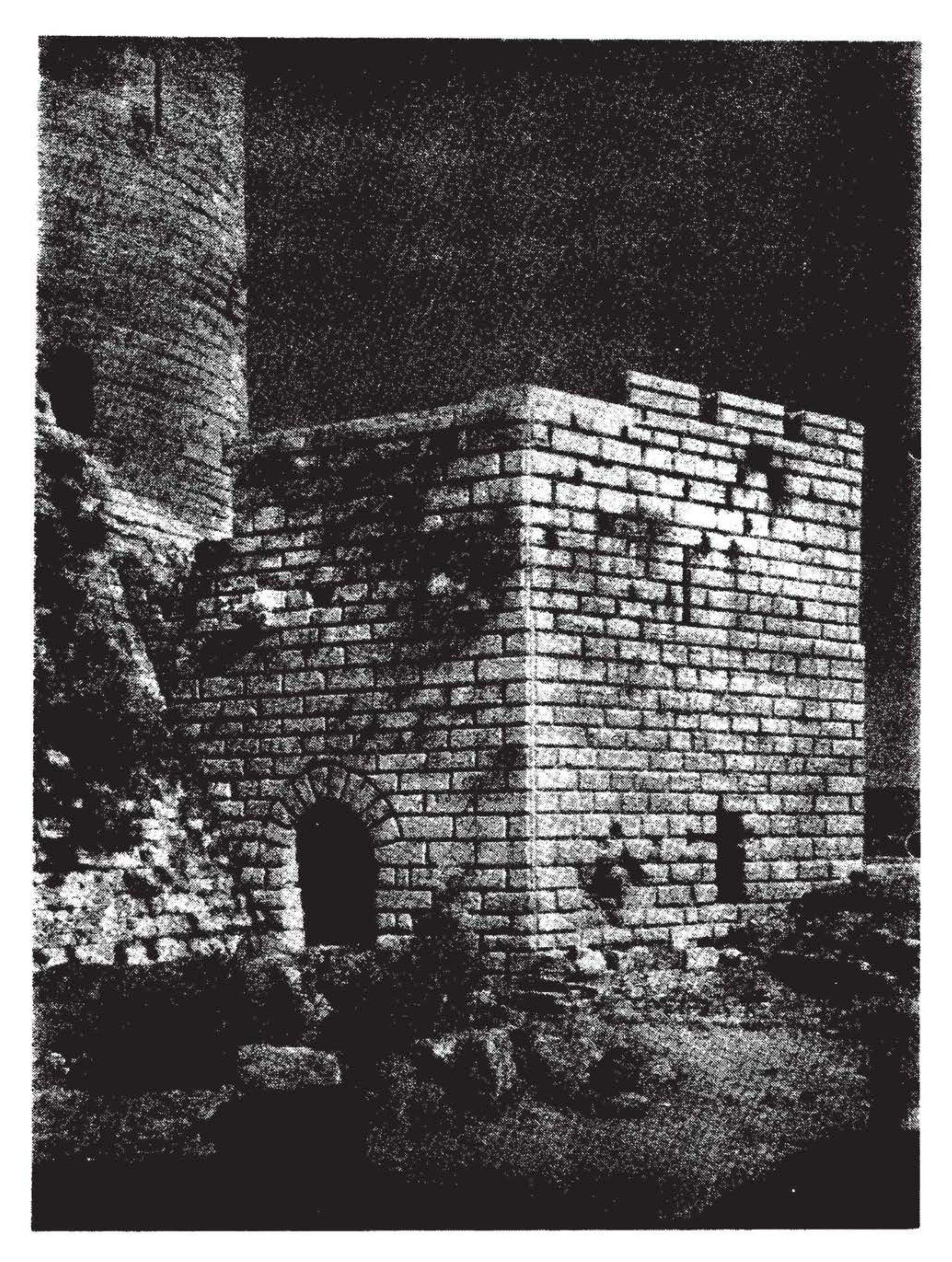
٢,٢٠



قلعة الحصن



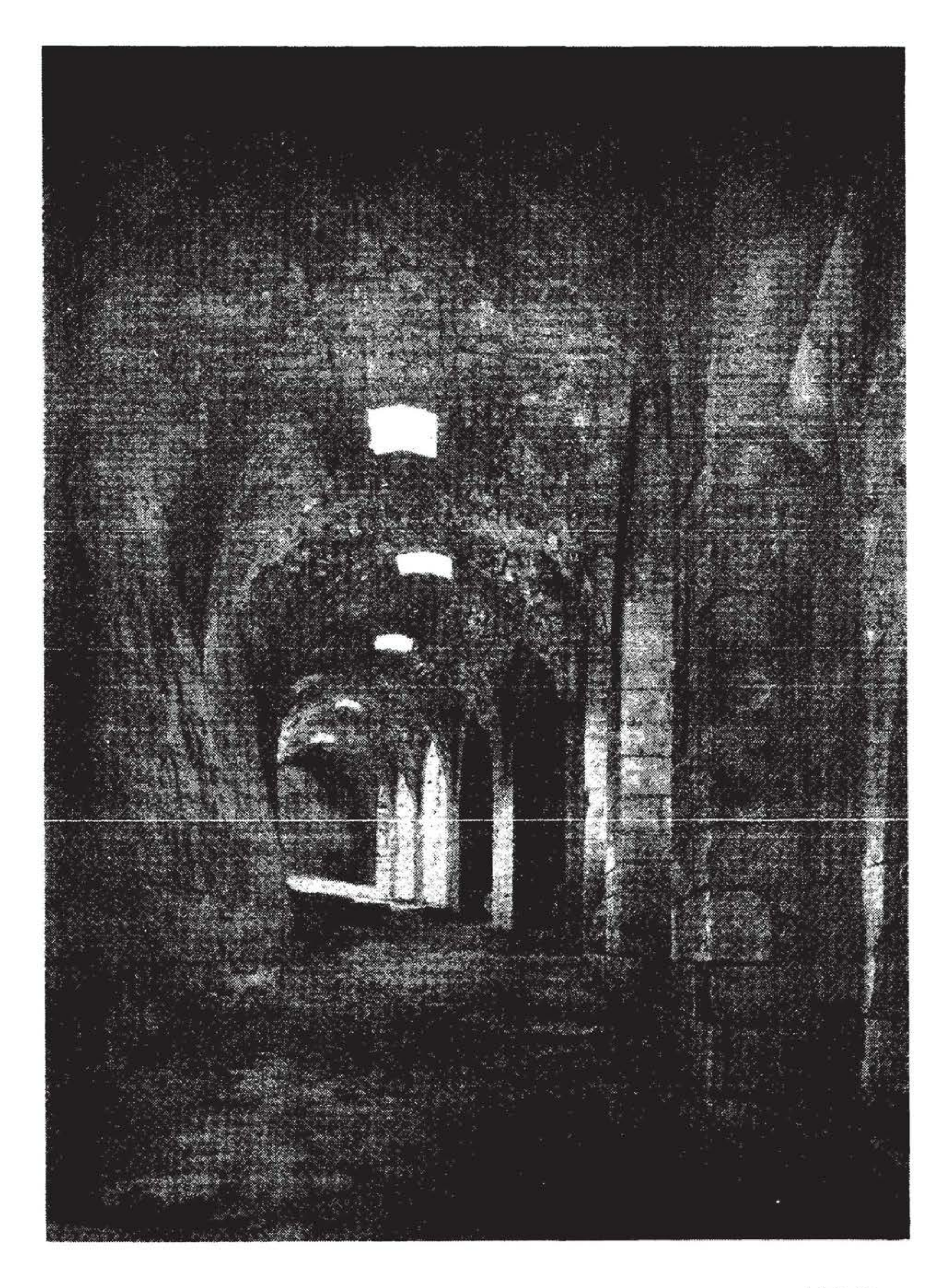
قلعة الحصن



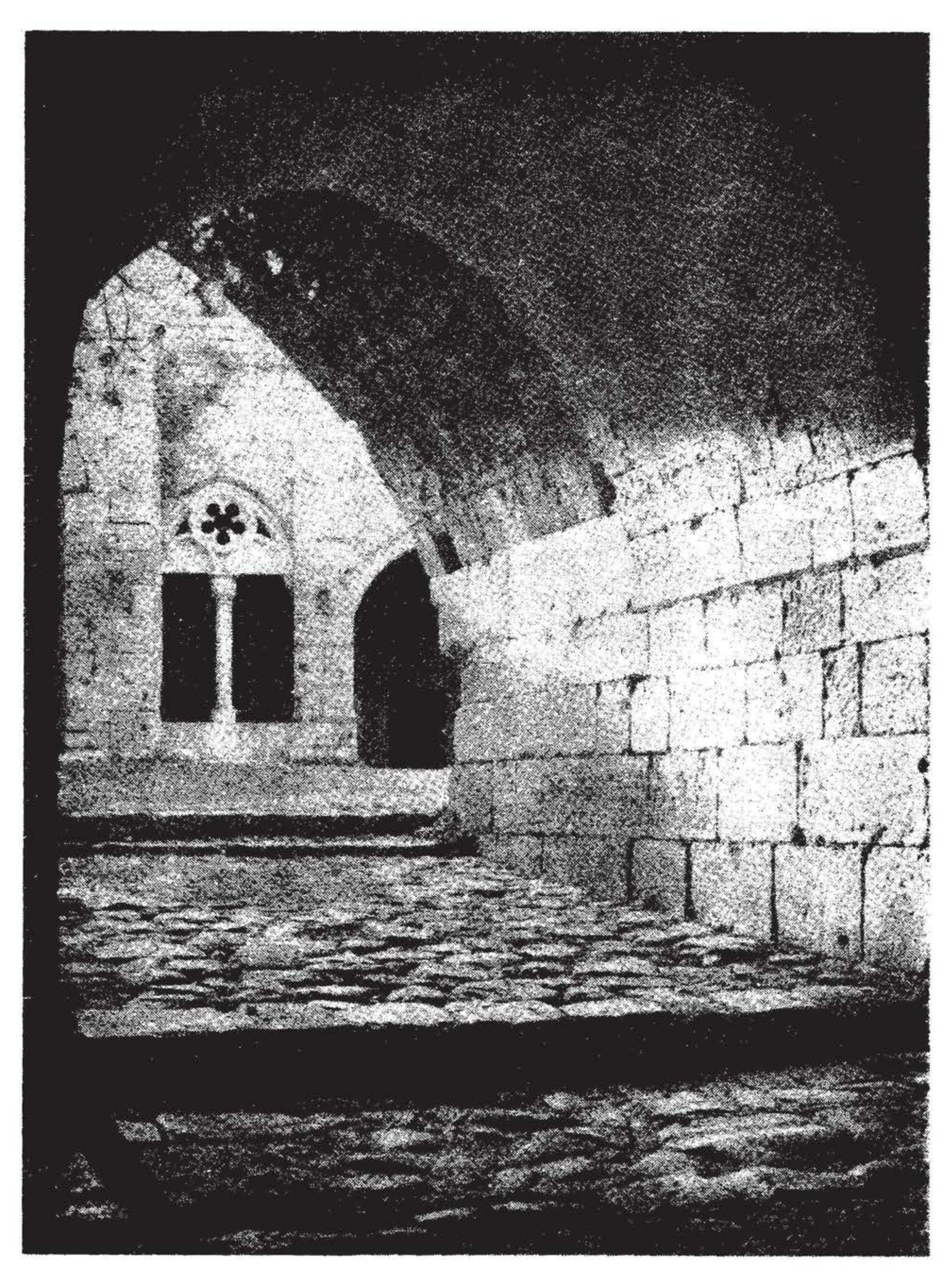
قلعة الحصن



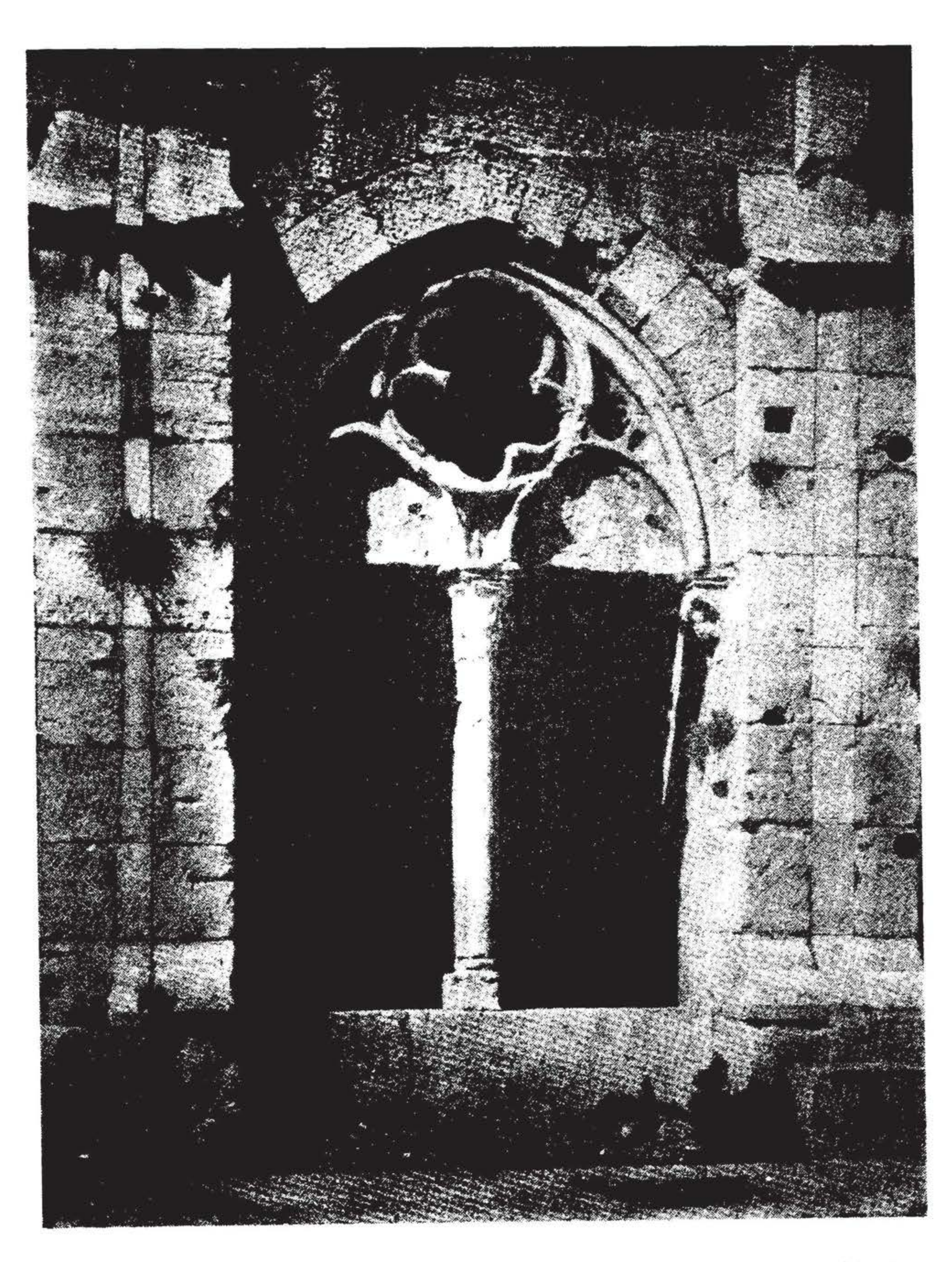
قلعة الحصن



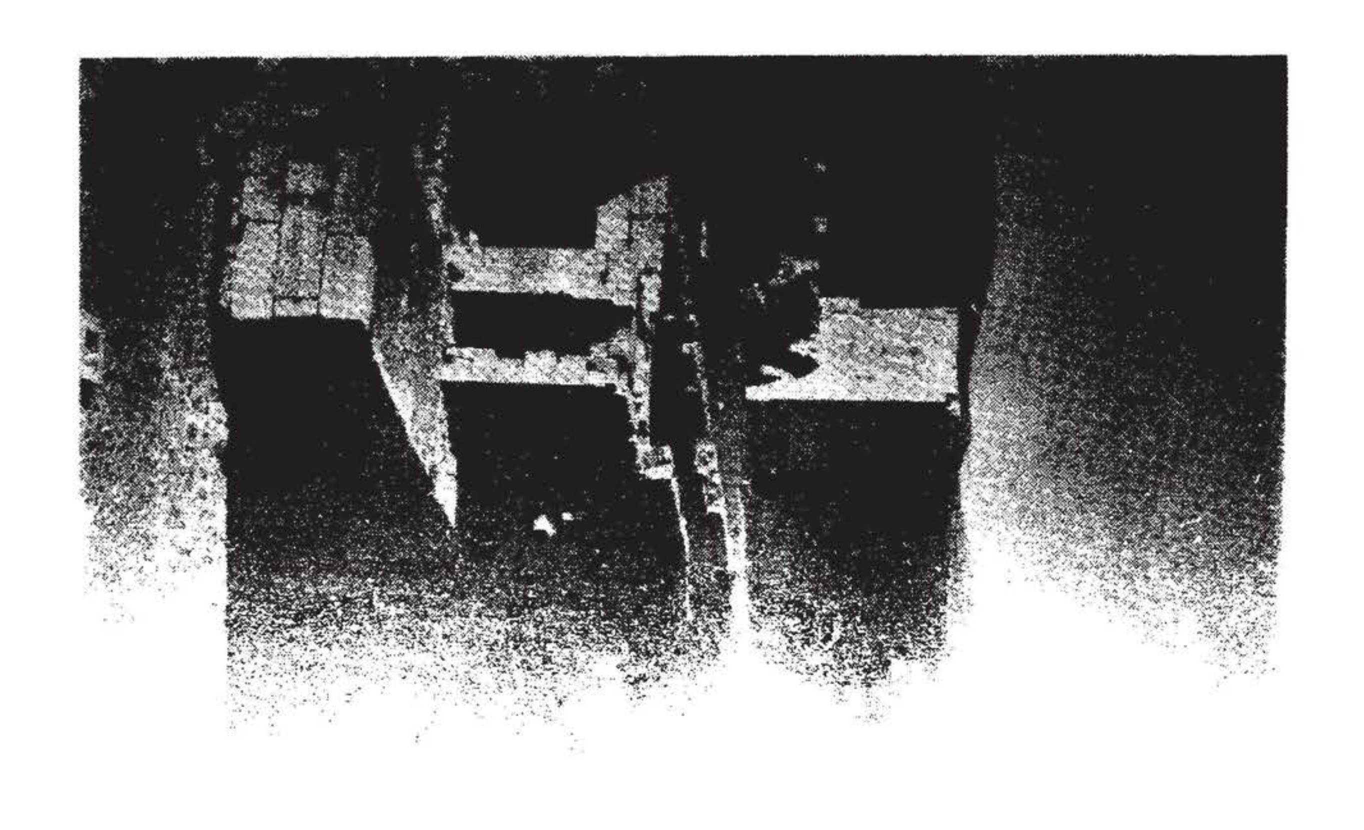
قلعة الحصن

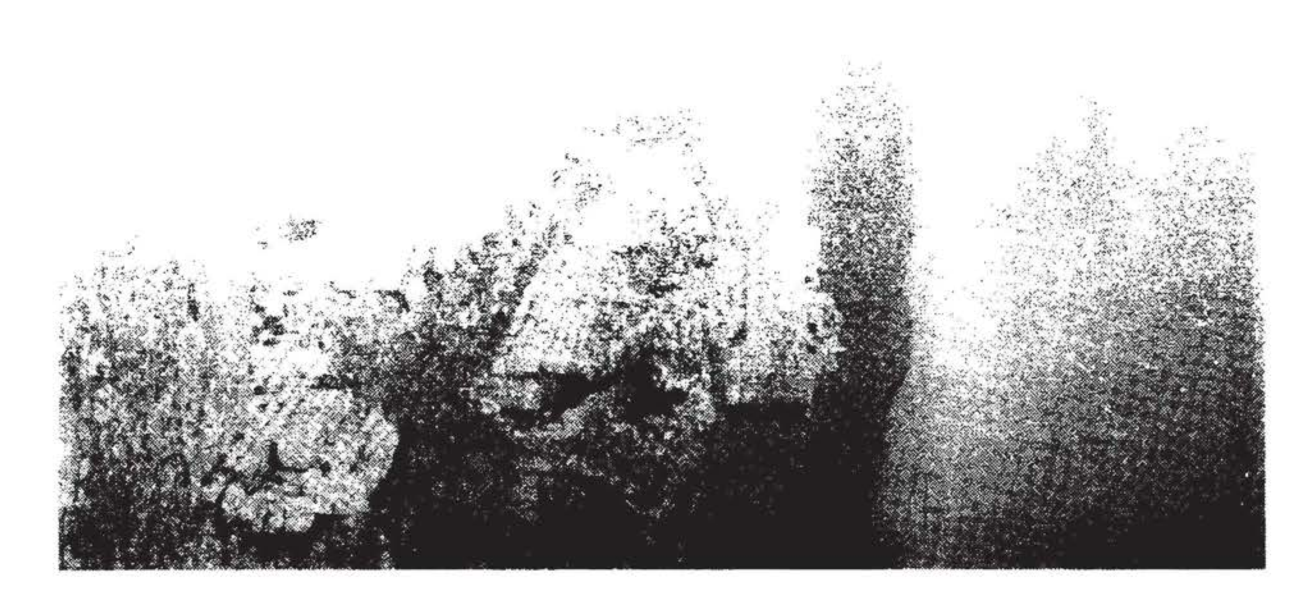


قلعة الحصن



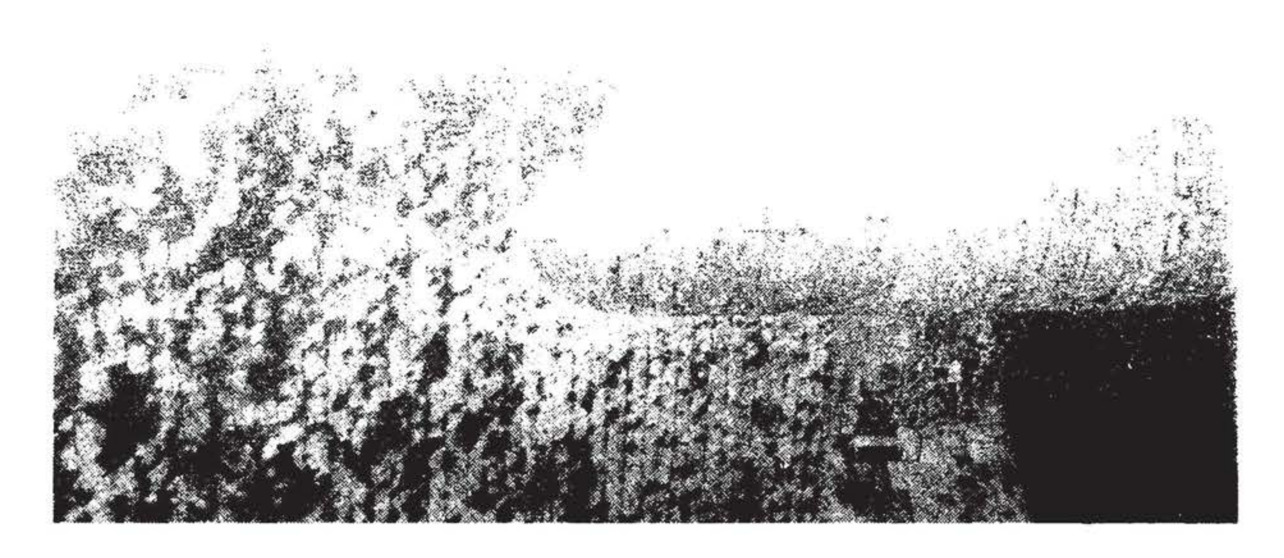
قلعة الحصن



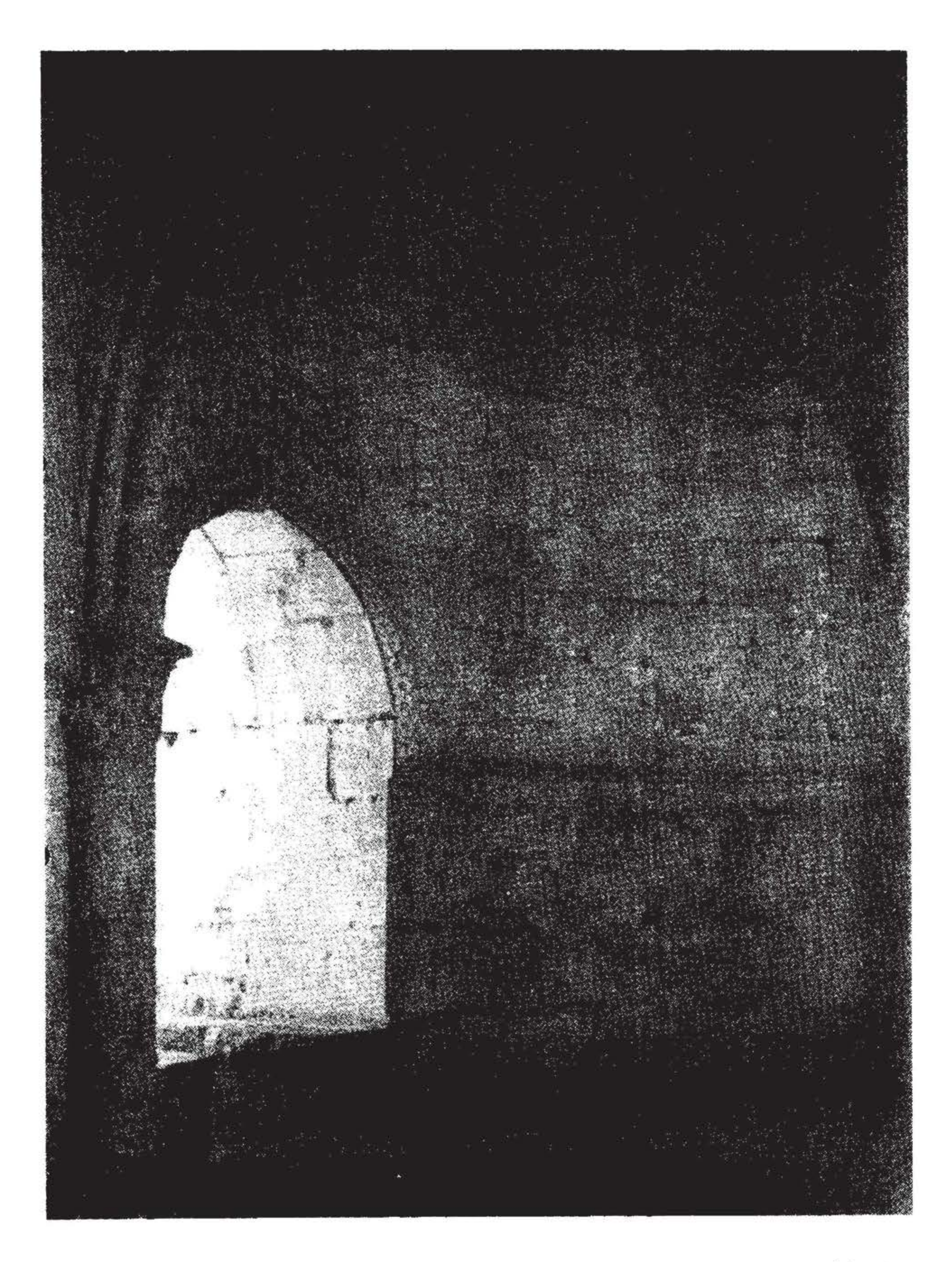


قلعة الحصن

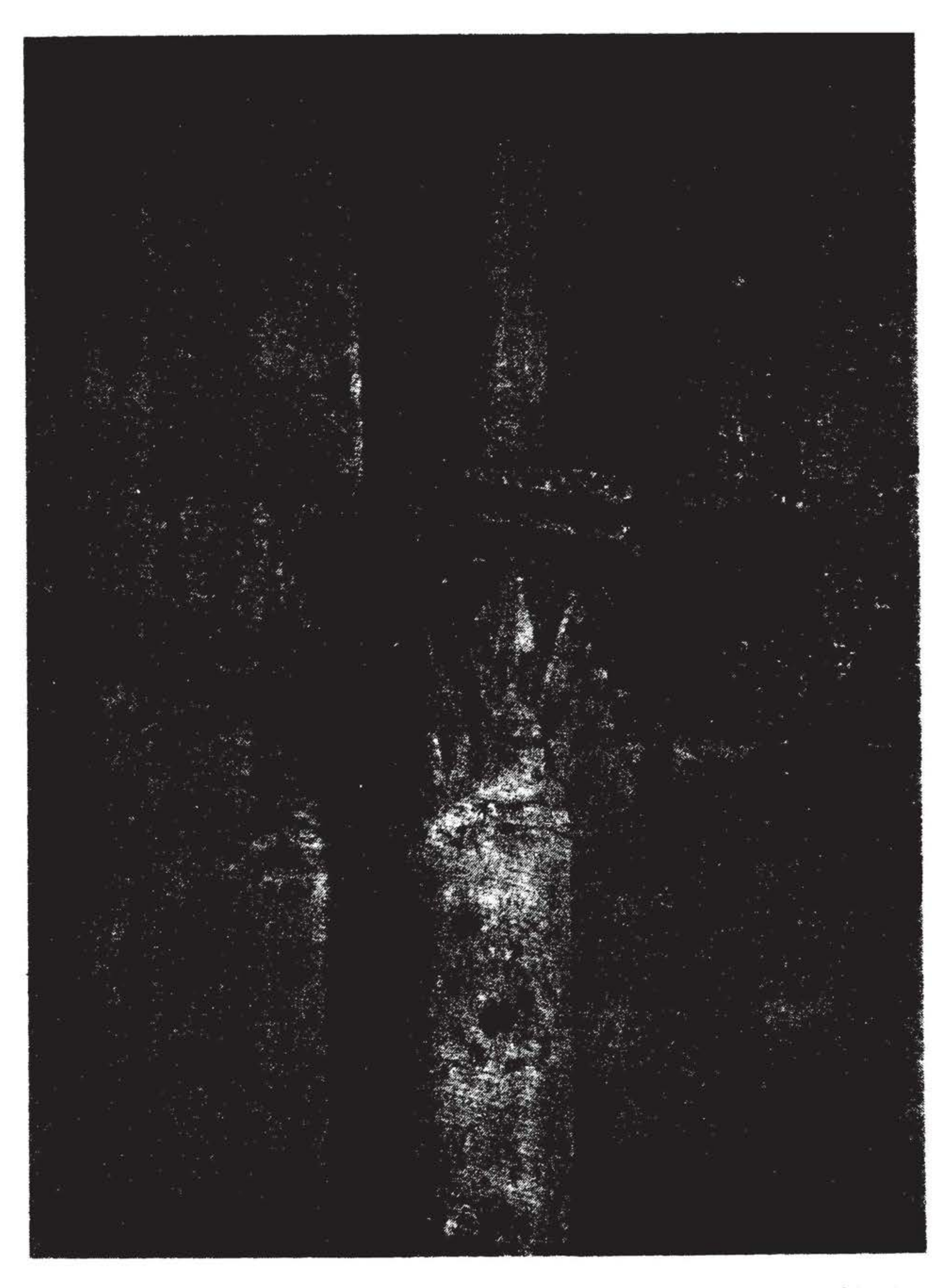




قلعة الحصن



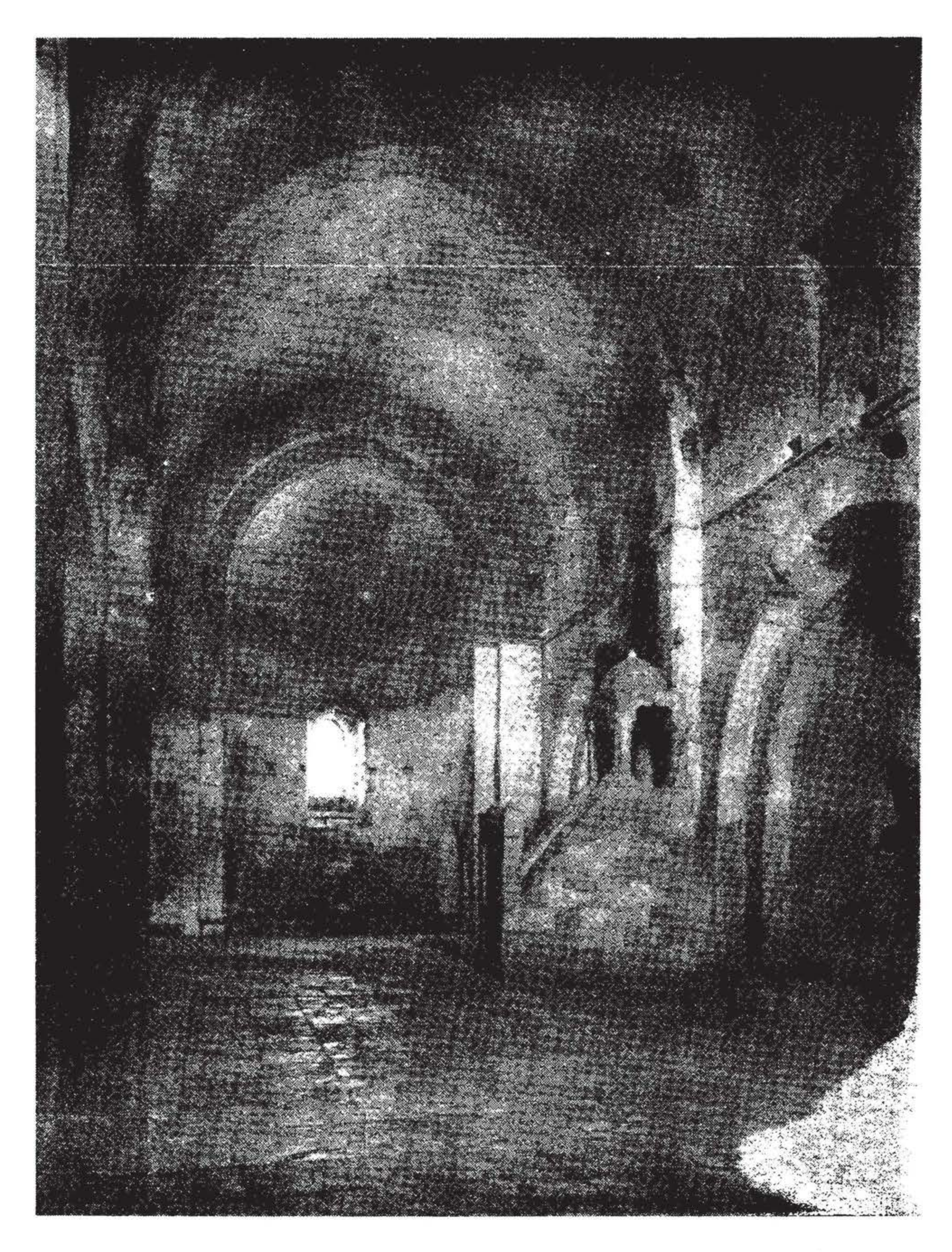
قلعة الحصن



قلعة الحصن



قلعة الحصن



قلعة الحصن



قلعة الحصن

طرابلس ـ وهي بين حمص وطرابلس »[1]. ولقد حملت القلعة اسم حصن الأكراد، لأن أمير حمص قد أسس بناء هذه القلعة سنة ٤٢٣ هـ = ١٠٣١ م، وأنزل بها حامية من الأكراد.

تلكم هي بعض ملامح البنيان القائم على صهوة جبل مرتفع، وهو بنيان يقف اليوم بجلال ووقار، ويحاول الصمت على ما عرفه في الأيام الخوالي من الأحداث المثيرة والقصص الشائقة والتي تشكل في حد ذاتها ملحمة كاملة، تعود بداياتها الى الأيام الأولى من اجتياح جحافل الفرنج الصليبيين لبلاد الشام سنة ٤٩٣ هـ = ١٠٩٩ م. ثم تتابعت الأحداث سراعاً، حيث حاول الفرنج احتلال قلعة الحصن سنة ٤٩٥ هـ = ١١٠١ م ولكنهم فشلوا في ذلك. ثم عاود أمير انطاكية (الكونت تنكرد) المحاولة سنة ٥٠٣ هـ = ١١٠٩ م. ونجح في محاولته هذه المرة. وجرت العملية على النحو التالي: تقدمت قوات الفرنج في البقيعة، وأصيب السكان المسلمون بالذعر، فاقتادوا قطعان مواشيهم ولجؤوا إلى حصن الأكراد يلتمسون في منعته وفي قوة أسواره الملاذ والأمن. ولكن الفرنج صمموا على مهاجمة الحصن، والاستيلاء عليهم، يحدوهم الأمل للحصول على ما يحتويه من الأغنام والمواد التموينية.

فعمل المسلمون على فتح أحد الأبواب، وأخرجوا منه بعض الأنعام، وسارع جند الفرنج لاحتواء هذه الغنيمة، وتفرقوا لجمع ما تشتت منها، فأسرع المسلمون بالانقضاض على الفرنج، وأنزلوا بهم خسائر فادحة. وفي اليوم التالي أراد الفرنج الانتقام لهزيمتهم. فقاموا بهجوم شامل على القلعة. وكم كان ذهولهم كبيراً عندما بوغتوا بعدم وجود أحد من المسلمين في القلعة التي هجرها سكانها في ظلمة الليل. وأقام الفرنج فيها لمدة ثلاثة أسابيع، كيما يحكموا مخططات عملهم القادمة، ولينسقوا التعاون فيما بينهم، وليمنحوا جندهم بعض الراحة[2]. ومضت ثلاث سنوات وقلعة الحصن تابعة لأمير انطاكية. ولكن هذه التبعية انتقلت في سنة ٥٠٦ هـ = ١١١٦ إلى كونت

---

(١) تقويم البلدان ـ أبو الفداء ـ ص: ٣٢٠ والقلاع أيام الحروب الصليبية ص: ٧٦ ـ ٧٩.

(٢) تاريخ الحروب الصليبية: ١/٣٧٩ ـ ٣٨٠.

طرابلس (ريموند الثاني) الذي أسند قيادة الحامية المدافعة عنها إلى (الكونت غليوم دوكراتوم)★ والذي ما لبث أن أقطعها للطائفة الدينية المعروفة باسم (فرسان الاسبتارية)★★ وذلك مقابل التعويض على غليوم دوكراتوم باقطاع آخر - وتحولت القلعة الى قاعدة للعدوان على أقاليم المسلمين المجاورة. وكان السلطان السلجوقي - ألب أرسلان - قد حاول انتزاع القلعة من قبضة الفرنج سنة ٥٠٩ هـ = ١١١٥م وألقى عليها الحصار لبعض الوقت، ولكنه لم يتمكن من اعادة فتحها.

وجاء زلزال فضرب القلعة (سنة ٥٥٣ هـ = ١١٥٧ م) ودمر بعض تحصيناتها فأسرع الفرنج لاعادة ترميمها واصلاحها. ويمكن تجاوز تلك الهجمات والهجمات المضادة والاغارات الصغرى، للتوقف عند تلك المعركة الكبرى التي وقعت بجوار القلعة سنة ٥٥٨ هـ = ١١٦٢ م والتي عرفت باسم (وقعة البقيعة)★. حيث كان الفرنج الصليبيون قد قاموا بهجوم على مصر بقيادة ملك القدس - املريك - [1] حمل نور الدين زنكي لمهاجمة حصن الأكراد - أو قلعة الحصن - الى جانب هجمات اخرى على الفرنج بهدف تخفيف الضغط عن مصر. وحدث عندما كان نور الدين زنكي يحاصر قلعة الحصن، أن مرت قافلة كبيرة من الحجاج الفرنج، ووصلتها استغاثات الحامية المدافعة عن القلعة، فأسرعت لتقديم الدعم والمساعدة، وانضم اليها جيش طرابلس وجيش أنطاكية علاوة على جيش الروم البيزنطيين. وبينما المسلمون في خيامهم وسط النهار، لم يرعهم إلا ظهور صلبان الفرنج من وراء الجبل الذي عليه حصن الأكراد. ولم يشعروا إلا والفرنج يبغتونهم، فلم يحتمل المسلمون ذلك أو يطيقونه، وأرسلوا إلى نور الدين يعرفونه الحال وقد رهقهم الفرنج بالحملة ولم يثبت المسلمون وأسرعوا إلى معسكرهم والفرنج في ظهورهم، فوصلوا والفرنج معاً إلى معسكر نور الدين. ولم يتمكن المسلمون من ركوب الخيل وأخذ السلاح إلا وقد خالطهم الفرنج، فأكثروا القتل والأسر في المسلمين. وكان الروم بقيادة - قسطنطين كولومان - هم

★ غليوم دوكراتوم: (GUILLAUME DE CRATUM) وقد منح اسمه للقلعة لبعض الوقت.

★★ ومن أجل ذلك حملت القلعة أيضاً اسم كراك دوشوفالييه KRAK DES CHEVALIERS.

(١) وقعة البقيعة - الكامل في التاريخ أحداث سنة ٥٥٨ هـ. وتاريخ الحروب الصليبية: ٥٩٣/٢.

أشد الجميع على المسلمين، وأثقلهم وطأة، بحيث أنهم لم يبقوا على أحد من المسلمين ونصدوا خيمة نور الدين، وقد ركب فيها فرسه، ونجا بنفسه، ولسرعة ركب الفرس نقد ركب نور الدين والشبحة في رجله، فنزل فارس كردي وقطع الشبحة، ونجا نور الدين وقتل الكردي. فأحسن نور الدين إلى مخلفيه ـ ورثته وعائلته ـ ووقف عليهم الوقوف ونزل نور الدين على بحيرة بالقرب من حمص، وبينه وبين المعركة أربع فراسخ، وتلاحق به من سلم من المعسكر. وقال له بعضهم: ليس من الرأي أن تقيم ههنا، فإن الفرنج ربما حملهم الطمع على المجيء إلينا، فنؤخذ ونحن على هذه الحال فوبخه وأسكته وقال:

إذا كان معي ألف فارس لقيتهم ولا أبالي بهم، ووالله لا أستظل بسقف حتى آخذ بثأري وثأر الإسلام.

ثم أرسل إلى حلب ودمشق، وأحضر الأموال والثياب والخيام والسلاح والخيل فأعطى الناس عوض ما أخذ منهم جميعه، بقولهم، فعاد العسكر كان لم تصبه هزيمة. وكل من قتل أعطى إقطاعه لأولاده. وأما الفرنج فإنهم كانوا عازمين على قصد حمص بعد الهزيمة لأنها أقرب البلاد إليهم. فلما بلغهم نزول نور الدين بينها وبينهم، قالوا: لم يفعل هذا إلا وعنده قوة يمنعنا بها.

ولما رأى أصحاب نور الدين كثرة خرجه ـ انفاقه ـ قال له بعضهم: إن لك في بلادك إدرارات وصدقات كثيرة على الفقراء والصوفية والقراء. فلو استعنت في هذا الوقت بما تنفقه عليهم لكان أصلح، فغضب من ذلك وقال: والله إني لا أرجو النصر إلا بهم. فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم، وكيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم على فراشي بسهام لا تخطىء، وأصرفها إلى من لا يقاتل عني إلا إذا رآني بسهام قد تصيب وقد تخطىء؟ وهؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال. فكيف يحل لي أن أعطيه لغيرهم؟

ثم إن الفرنج راسلوا نور الدين يطلبون منه الصلح فلم يجبهم. وتركوا عند حصن الأكراد من يحميه، وعادوا إلى بلادهم.

جاءت السنة التالية (٥٥٩ هـ = ١١٦٣ م). ووفى نور الدين بقسمه، وأخذ بثأره وثأر المسلمين، حيث سجل على الفرنج انتصاراً حاسماً في معركة وقعت قرب أرتاح. حيث أباد جيوش الفرنج، وكان في جملة أسراه أمير أنطاكية وأمير طرابلس، وقائد جيوش الروم ـ كولومان ـ فجرى ربطهم جميعاً بالحبال، وحملوا الى حلب، وجرى تطويق حصن الأكراد غير أن المسلمين لم يتمكنوا من فتحه. وجرت محاولة ثانية (سنة ٥٦٣ هـ = ١١٦٧ م) لفتح حصن الأكراد، وانتزاعه من قبضة الفرنج. غير أن الفشل كان من نصيب هذه المحاولة أيضاً.

من المعروف أن طوائف الفرسان الدينية (الاسبتارية والداوية والتيوتون)، والتي نظمت أيام الحملات الصليبية القديمة، كانت من أشد مراكز القوى عداء للإسلام وأهله، ولهذا فان امتلاك فرسان الاسبتارية لقلعة (حصن الأكراد) قد وضعهم في موقع العدوان المباشر على الأقاليم الاسلامية المجاورة، لاسيما بعد وقوع أمراء الفرنج في أسر نور الدين زنكي في أرتاح. حيث جرى توزيع مناطق العمل وتقسيمها. فحاز الداوية طرطوس وكل الشطر الشمالي من كونتية طرابلس بينما استند فرسان الاسبتارية إلى القلعة التي صارت تنسب اليهم ـ قلعة الحصن ـ للعمل في إقليم البقيعة. وكان من طبيعة الأمور أن نظم المسلمون بالمقابل هجمات ضد قاعدة العدوان في قلعة الحصن. وكان هجوم صلاح الدين الأيوبي على هذه القلعة (سنة ٥٨٤ هـ = ١١٨٨ م) وحصاره لها لمدة شهر، ضمن هذا الاطار، إذ أنه لم يتعرض للحصن وحاميته من فرسان الاسبتارية بهجوم مباشر، واكتفى بالهجوم على المواقع المحيطة بالقلعة، غير أن هجمات صلاح الدين وفتوحاته لم تترك للفرنج في شمالي بلاد الشام إلا أنطاكية وطرابلس. واحتفظ الاسبتارية بحصن المرقب وحصن الأكراد (قلعة الحصن) كما احتفظ الداوية بطرطوس. وظن صلاح الدين أنه بات قادراً على فتح القلعة بعد أن غدت معزولة. فألقى الحصار عليها، ولكن تدفق امدادات الفرنج من صقلية حمله على رفع الحصار عن قلعة الحصن والامتناع عن مهاجمة طرابلس. وتابع فرسان الاسبتارية أعمالهم العدوانية ـ بتشجيع من ملك القدس. حتى إذا ما كانت سنة ٦٠١ هـ = ١٢٠٤ م. انطلقوا من حصن الأكراد، ووصلوا بهجومهم إلى مدينة حماة وجوارها.

غير أن هذه الهجمات والاغارات لم تحقق شيئاً غير النهب والسلب والازعاج. وقد استثارت الأعمال العدوانية للطوائف الدينية الصليبية غضب السلطان الكامل الأيوبي، فقام سنة ٦٢٦ هـ = ١٢٢٨ م بقيادة هجوم على حصن الأكراد، فما كان من فرسان الاسبتارية إلا أن ردوا في السنة التالية بالهجوم على بعرين. ثم اشتركوا مع فرسان الداوية في طرطوس - سنة ٦٢٨ هـ = ١٢٣٠ م. بالهجوم على مدينة حماة. ولكنهم وقعوا في كمين وحلت بهم الهزيمة. ثم قامت الطائفتان في السنة التالية بهجوم مباغت على جبلة، وأمكن لهما الاستيلاء عليها، غير أنهما لم تتمكنا من المحافظة عليها لأكثر من أسابيع قليلة.

عمل فرسان الاسبتارية طوال هذه الفترة على بذل جهودهم لتحصين (قلعة الحصن) ودعم الدفاع عنها، لاسيما بعد الزلازل التي ضربتها في سنوات ٥٥٣ و ٥٦٥ هـ (١١٥٧ و ١١٦٩ م). وتم تشييد كنيسة في القلعة بمساعدة - مالية - من ملك بوهيميا (فلاديسلاس الثاني)[1]. كما أن الزلازل التي وقعت سنة ٥٩٨ هـ = ١٢٠١ م تسببت في تدمير حلقة الدفاع الخارجية والجدار المنحدر الضخم في الجنوب. فتمت إعادة تشييدهما مع المستودع الواقع خلف الواجهة الجنوبية - وهي الواجهة الرئيسة للقلعة العلوية التي تبدأ من الخندق مباشرة وتتكون من ثلاثة أبراج نصف دائرية ضخمة تشرف على الدفاعات الخارجية، وتبدو وكأنها تبرز بصورة طبيعية عن الساتر الحجري الشديد الانحدار. وقد اقيمت شرفتان دفاعيتان مقنطرتان خلف هذا الساتر المحمي بشكل رائع، واللتين يتم الوصول إليهما من الغرف الكبيرة الموجودة فوق الطابق الأرضي للقلعة العلوية. وقد ضمت الأبراج الثلاثة كلها غرفاً ذات أسقف مقنطرة مرتبة في عدة طبقات، بينما احتوى البرج الدائري في الزاوية الجنوبية الغربية غرفة حسنة التجهيز خصصت لمقدم الاسبتارية (غرفة السيد)★ إضافة إلى غرف اقيمت بين الأبراج. وهناك في الغرب أقيم برج نصف دائري أضيف الى القلعة خلال

---

(١) فلاديسلاس الثاني: (VLADISLAS II) أو LADISLAS وهو اسم لعدد من ملوك هنغاريا وبولونيا - أشهرهم فلاديسلاس الأول - الملقب بالقديس (١٠٤١ - ١٠٩٥ م). ثم ابنه فلاديسلاس الثاني.

★ غرفة - أو ملجأ السيد: (LOGIS DU MAITRE).

مراحل متعددة. بينما برز الجزء الناتىء والنصف الدائري من مذبح كنيسة القلعة بروزاً خفيفاً فوق مستوى الأسوار من الجهة الشرقية. واقيمت صفوف متعددة من الأقواس على البرج المستطيل الموجود عند الذروة الشمالية للقلعة العليا مما أضفى روعة خاصة على الواجهات الخارجية. وغطيت أقسام كبيرة من الساحات المكشوفة في داخل القلعة بعقود ضخمة تقسم مساحتها السطحية إلى عدد من المساطب ـ أو المصاطب ـ والتي هي في الأصل ذات مستوى واحد كما يفترض ـ وتوجد القاعة الكبرى والرواق المعمد في الفناء المقابل للكنيسة. ولقد أضفت هذه التحسينات على قلعة الحصن هالة من البأس والقوة، علاوة على ما اشتهر به فرسانها من العناد والشدة في القتال. وقد كان لذلك دوره في فشل الهجمات المتتالية التي قام بها المسلمون على القلعة. وقد يكون من الطبيعي أن تشعر الحامية المدافعة عن القلعة بالزهو والخيلاء لما تميزت به قلعتهم من الصمود والمنعة والقوة.

فقد انهارت مقاومات كثيرة عندما هاجمها صلاح الدين الأيوبي. واستسلمت كثير من القلاع والتحصينات. ونجحت قوات المسلمين في فتح معظم المدن والقلاع المجاورة لقلعة الحصن. فباتت القلعة معزولة عن امكانات الدعم من الفرنج. وأصبح وجودها غريباً وسط المحيط الإسلامي المطوق لها من اتجاهاتها كلها. وفي الوقت ذاته، لم يكن المسلمون في عجلة من أمرهم. فبقاء بعض القلاع والمدن الساحلية تحت حكم الفرنج الصليبيين، لم يعد أكثر من قضية زمن. وكانت هناك مشكلات تطلبت منحها الأفضلية على الاهتمام بشأن هذه القلاع. مثل مجابهة هجمات المغول التتار، والرد على الحملات الصليبية الطارئة. وظن الفرنج أن تحصيناتهم القوية مانعتهم من قبضة المسلمين.

وجاء الظاهر بيبرس وأمضى سبعة عشر عاماً من الجهاد المستمر حتى ضيق الخناق على الفرنج وحصرهم في عدد قليل من القلاع والمدن: (عكا وصور وصيدا وطرابلس وجبيل وطرطوس ـ وقلاع عثليث والمرقب والحصن). وقرر بيبرس طرد الفرنج من قلعة الحصن (سنة ٦٧٠ هـ). فسار بجيشه وضرب طوق الحصار عليها (يوم ٣ ـ آذار ـ مارس ـ سنة ١٢٧١ م) وانضم إليه في اليوم التالي أمير حماه وجيشه، كما

لحقت به كتائب الاسماعيلية ـ الباطنية أو الحشيشية ـ. على أن الأمطار الغزيرة التي ظلت تهطل بضعة أيام منعته من جلب.وإحضار أدوات الحصار . واستطاع المسلمون أن يشقوا لهم طريقاً إلى باب السور الخارجي، بعد قصف شديد لم يستمر طويلاً . ثم شقوا طريقهم بعد اسبوعين الى السور الداخلي، وقتلوا كل من تصدى لمقاومتهم من فرسان الاسبتارية، ومن المسيحيين ـ النصارى ـ الذين انضموا للاسبتارية وعملوا معهم. وظل عدد كبير من فرسان الاسبتارية يقاومون طوال عشرة أيام أخرى، في البرج الكبير الواقع جنوب السور. ثم أعلنوا استسلامهم يوم ٨ نيسان ـ أبريل ـ سنة ١٢٧١ م. ووافق السلطان الظاهربيبرس على إرسالهم إلى طرابلس تحت حراسة فرسان المسلمين. واستعاد المسلمون الحصن الضخم الذي قاوم هجمات المسلمين المتتالية، مما ضمن للظاهر بيبرس السيطرة على الطرق المؤدية الى طرابلس. وأسرع بيبرس لاستثمار الظفر، ففتح عكار. حيث قلعة الاسبتارية في جنوبي البقيعة (التي فتحت في أول شهر أيار ـ مايو) بعد حصار لم تتجاوز مدته الاسبوعين. وخرج فرسان الاسبتارية من صيـــهم، وأصبحوا عبرة للغزاة الفرنج وللمسلمين ولمن أراد أن يعتبر.

أصدر السلطان الظاهر بيبرس أمره على الفور بوضع حامية اسلامية في القلعة ـ بقيادة صارم الدين قايماز ـ الذي بدأ بالعمل على اجراء اصلاحات واسعة تحت الاشراف المستمر للسلطان الظاهر بيبرس ذاته ـ. ولما كانت الواجهة الجنوبية، وهي الجبهة الدفاعية الرئيسة للقلعة، قد تعرضت للكثير من الدمار أثناء الحصار. فقد جرى التركيز على إعادة تحصينها بشكل جيد، ولهذا فقد استأثرت بالقسط الأكبر من التعديل والتبديل. وكانت هذه الواجهة تتشكل في الأصل ـ مثلها كمثل الواجهة الغربية الطويلة، من سور واق تحميه حصون بارزة نصف دائرية، وشرفة متواصلة بها الكثير من الكوى ـ الفتحات ـ. فتم تشييد البرج المستطيل الضخم البارز عن الواجهة الجنوبية للسور الخارجي. وقد تطلبت أعمال الترميم والاصلاح فترة طويلة استمرت إلى ما بعد سنة ٦٨٤ هـ = ١٢٨٥ م. حيث تم تشييد برج ضخم حمل اسم ـ السلطان قلاوون ـ.

لقد كانت حامية قلعة الحصن ـ من فرسان الاسبتارية ـ تعتمد على قوة الفرنج

الصليبيين وعلى دعمهم ومساندتهم. وذلك على نحو ما حدث سنة ٥٢٨ هـ = ١١٣٣ م. عندما خرج كونت طرابلس - بونز - كعادته للاغارة على بلاد المسلمين المجاورة لقلعة الحصن، فوقع في كمين نصبه له فرسان التركمان المسلمين في جبال النصيرية. مما حملة على الهرب الى قلعة بعرين القريبة والواقعة على حافة وادي نهر العاصي[1] وتصادف أن كان ملك الفرنج - ملك القدس فولك - يسير بجيشه نحو الشمال لنجدة مدينة أنطاكية التي كانت تجابه تهديد المسلمين لها. فما كان من فولك إلا أن أسرع إلى قلعة بعرين، فرفع الحصار الذي ضربه فرسان التركمان على القلعة. وأنقذ أمير طرابلس وصاحب قلعة الحصن. ولكن وبعد أن تم طرد الفرنج من أنطاكية وسواها من المدن والقلاع. وجاء دور (قلعة الحصن) فلم يعد هناك من يستطيع نجدتها أو تقديم الدعم لها. وتتشابه فصول هذه القصة مع مجموعة قصص القلاع والحصون التي سيطر عليها الفرنج الصليبيون في هجماتهم الأولى، ثم فتحها المسلمون في هجومهم الشامل. ولقد حكم الفرنج الصليبيون قلعة الحصن ١٦٤ سنة هجرية (١٥٩ سنة ميلادية). وتركوا بعض الشواهد من الحجارة للتذكير بأحقاد الفرنج الصليبيين الدفينة، ووحشيتهم وأصالتهم العدوانية.

(١) قلعة بعرين. هي القلعة المعروفة عند الفرنج باسم مونت فيراند - MONTEFERRAND.

٦ ـ قلعة المرقب.

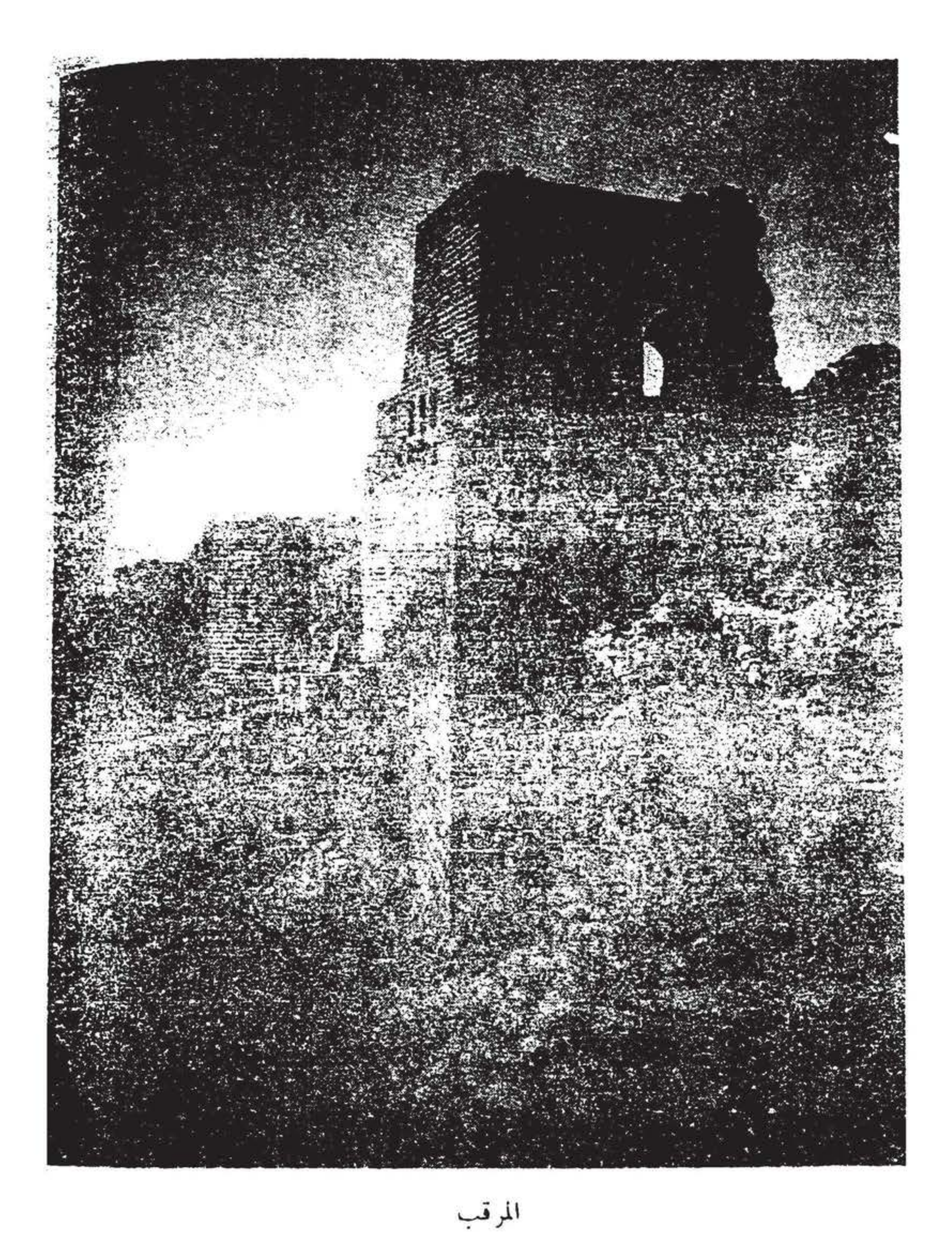
تحتل قلعة (المرقب)[١] موقعها المشرف على مدينة بانياس، فتطل من مربضها على البحر، حيث تتربع فوق ذروة رعن جبلي صخري متاخم للبحر مباشرة. ويتألف الموقع المحصن تحصيناً جيداً من قلعة داخلية قوية، وقلعة خارجية أكثر اتساعاً، مما يشير إلى أن القلعة كانت خلال تلك الفترة مكتظة بساكنيها، ويحيط بها سور خارجي مزدوج جزئياً، ومرتبط داخلياً بأبراج عديدة مختلفة الأشكال ومتباينة المقاييس والأبعاد. والقلعة الداخلية صغيرة مستطيلة الشكل تقريباً لها زوج من الأسوار ـ سورين ـ وتقع على الذروة الجانبية لذلك الموقع. ويفصلها عن القلعة الخارجية قناة مائية عريضة. وقد دعمت الأسوار الخارجية بحصون بارزة نصف دائرية. وقد بلغت القلعة ذروة تحصينها وقوتها في القرن الثالث عشر الميلادي حيث دعمت التحصينات الخارجية، بعد أن أعاد المسلمون بناءها على أنقاض الدفاعات التي تهدمت. وقد وصفها مؤرخ حماه ـ أبو الفداء ـ بقوله: «المرقب ـ هو اسم للقلعة الحصينة الحسنة البناء، والمشرفة على البحر. وبانياس اسم بلدتها، وبينهما قريب من فرسخ، وهي ذات أشجار فواكه وحمض كثير. ويزرع بها قصب السكر. ولها أعين كثيرة. قال العزيزي: ومدينة بانياس ـ أو بلنياس ـ دون مدينة جبلة. وبينها وبين أنطرطوس اثنا عشر ميلاً. وهو حصن أحدثه المسلمون سنة أربع وخمسين وأربعمائة = ١٠٦٢ م. نقله ابن منقذ في تاريخ القلاع والحصون»[٢].

لم يكن من عادة العرب المسلمين في حروبهم ـ على ما هو معروف، الاهتمام ببناء

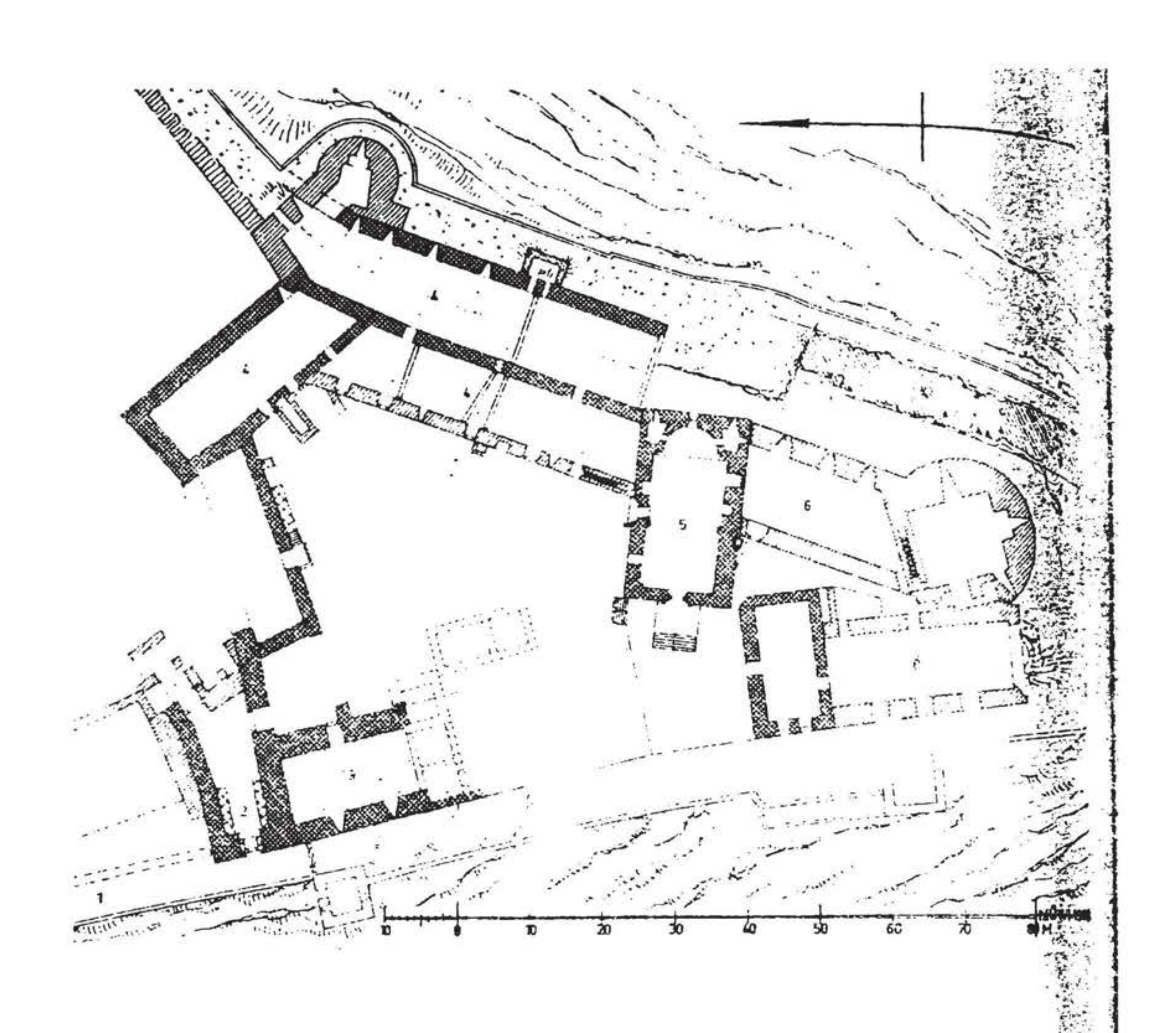
---

(١) قلعة المرقب: (QAL'AT MARQAB) وباليونانية ماركابوس MARKAPPOS ومارشابان: MARCHAPPIN وبالفرنجية مارغات MARGAT ومرغاتوم: MARGATHUM ومرغانت: MARGANT.

(٢) القلاع أيام الحروب الصليبية ص: ٧١ ـ ٧٢.



المرقب



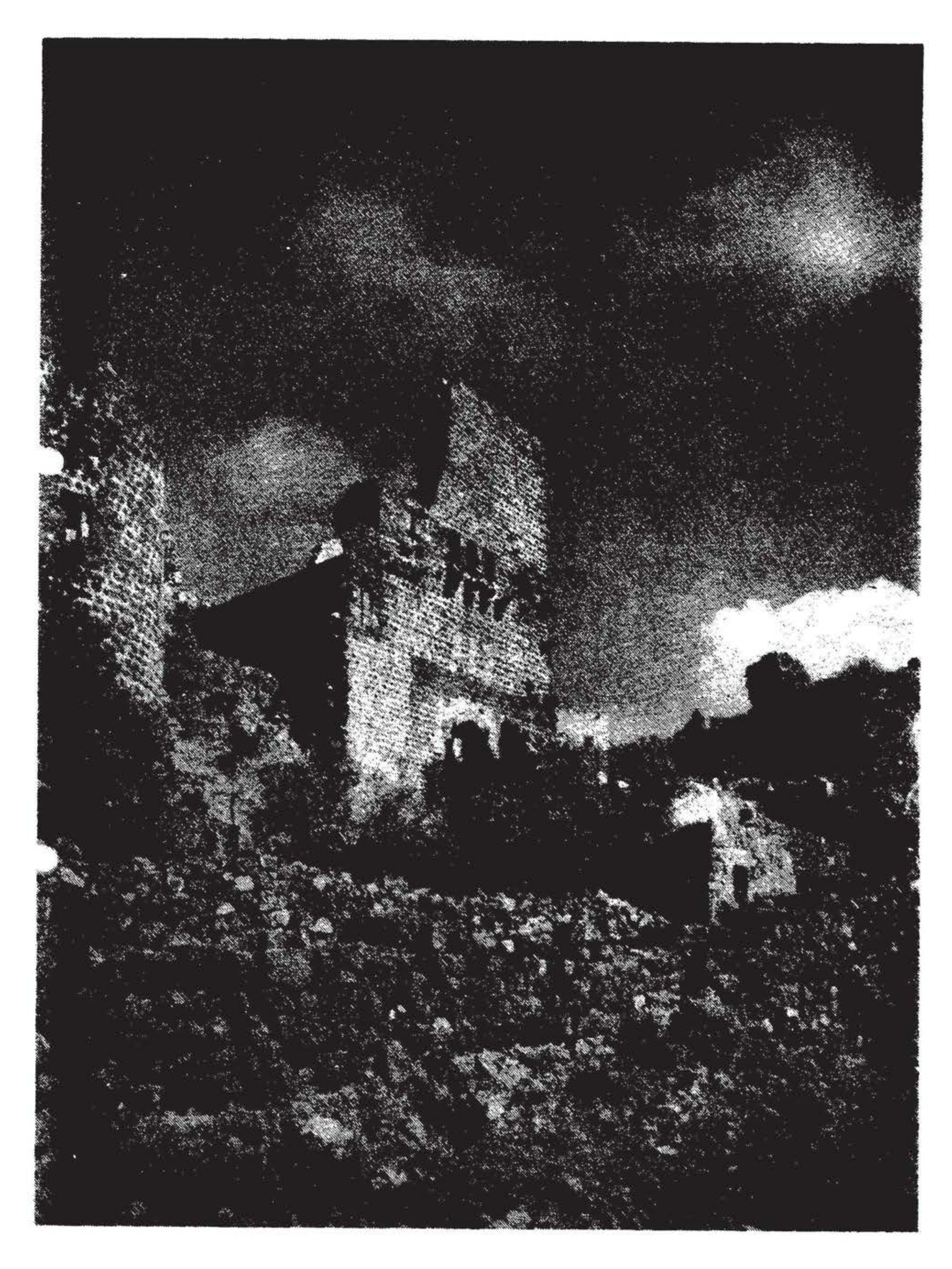
المخطط ١٢ : قلعة المرقب Qal'at El-Marqab

مخطط موقع القلعة، المقياس: ١/١٠٠٠٠ .

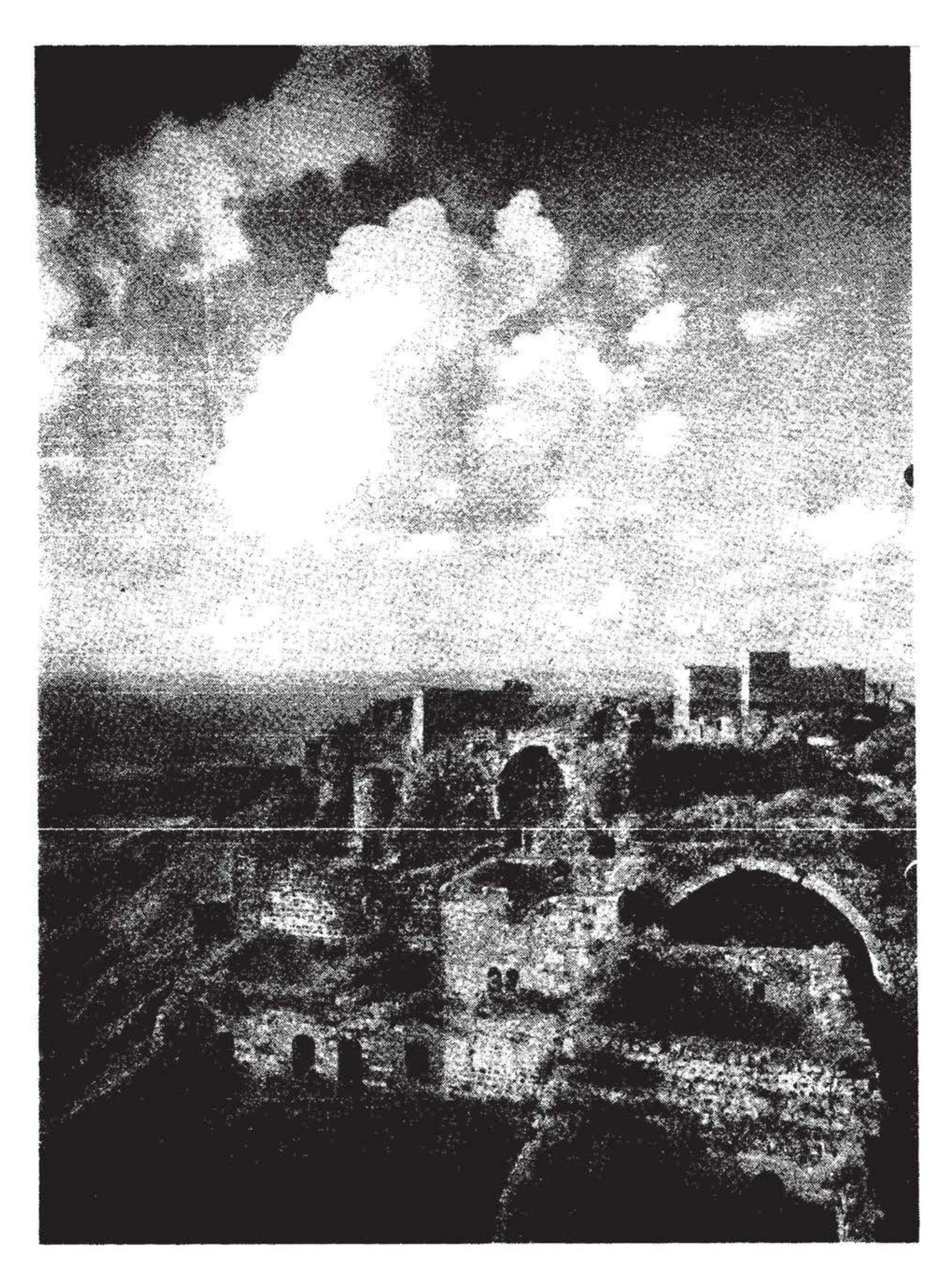
١ - فناء أمامي بين البوابتين الخارجية والداخلية، ٢ و ٣ - أقبية مقنطرة لمبنى ملحق بالكاتدرائية أزيل فيما بعد، ٤ - غرف مستودعات، ٥ - كنيسة القلعة، ٦ - قاعة كبيرة من طابقين مع برج محصن ملحق بها، ٧ و ٨ - قاعة. (بالاستناد إلى مسح المؤلف ورواسمه).



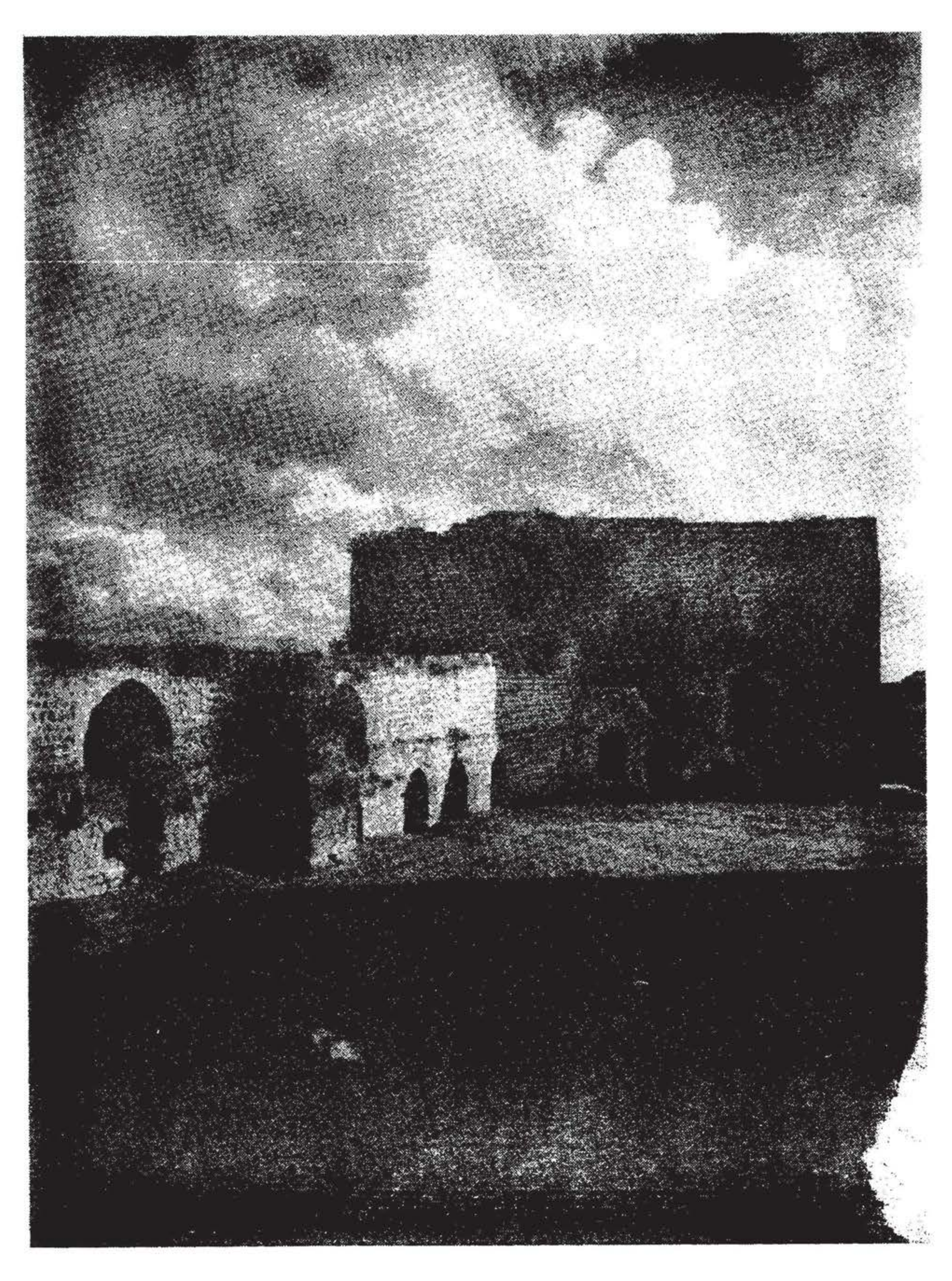
قلعة المرقب



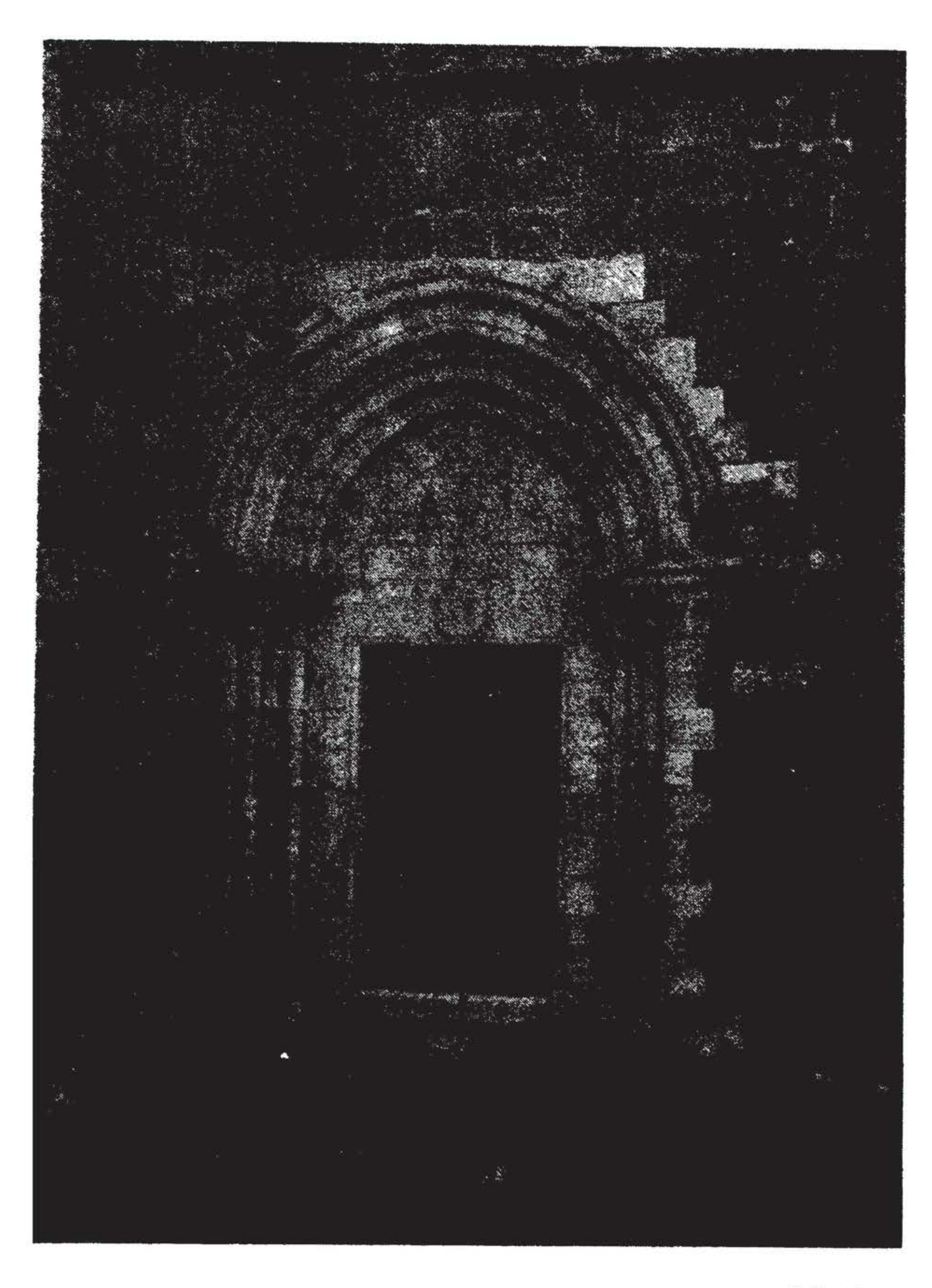
قلعة المرقب



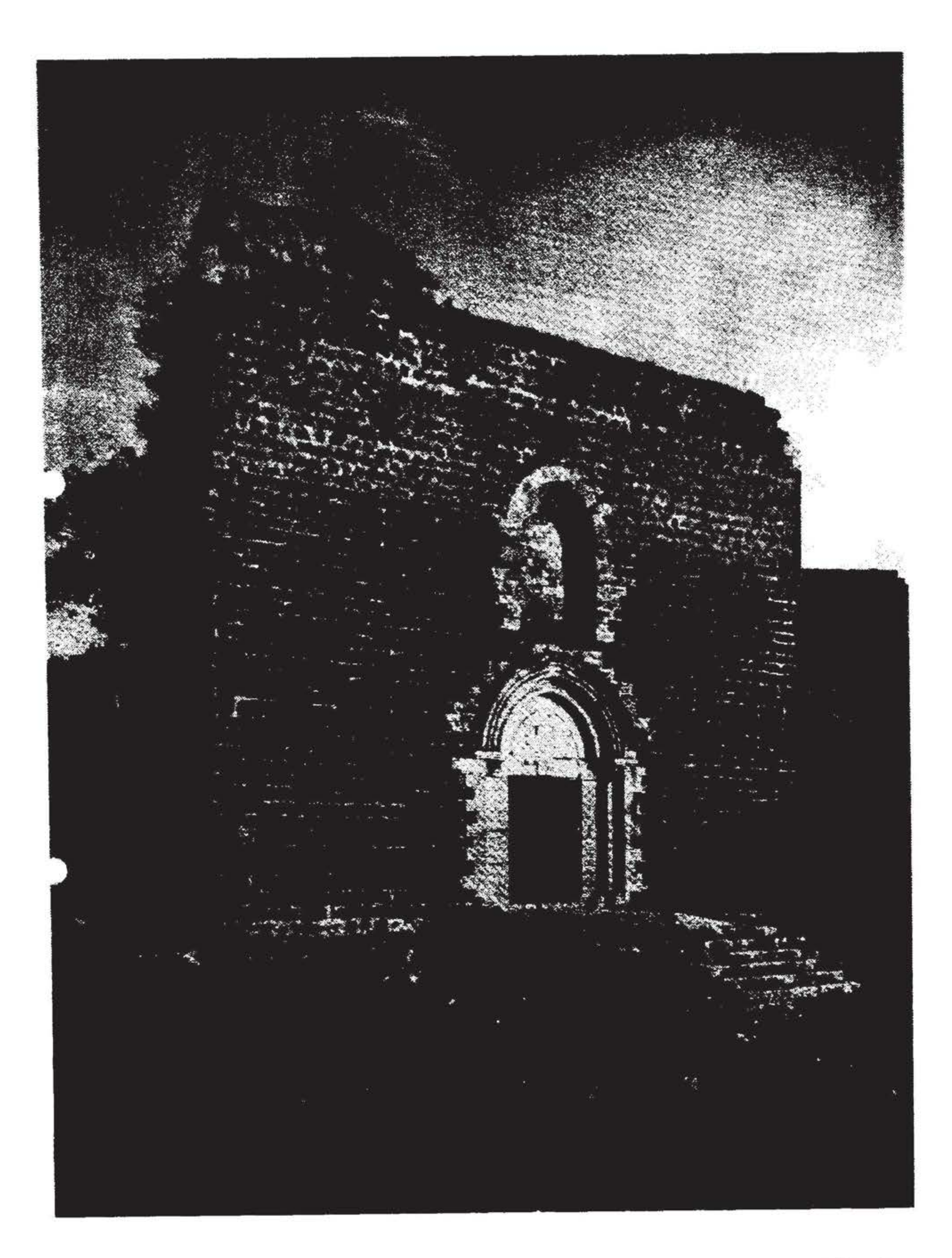
قلعة المرقب



قلعة المرقب



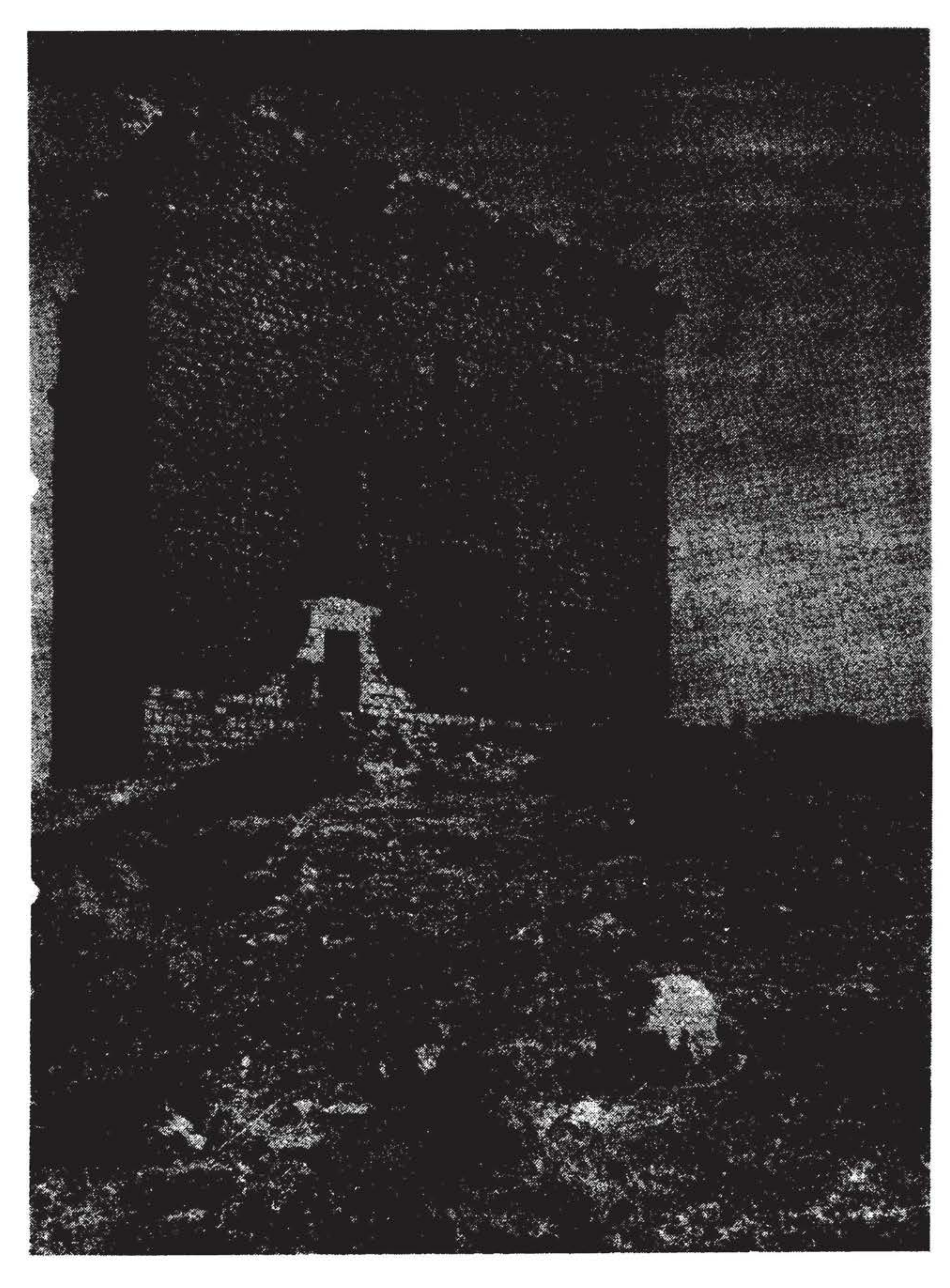
قلعة المرقب



قلعة المرقب



قلعة المرقب



قلعة المرقب

القلاع والتحصينات. فهم سادة الدنيا في حرب الحركة، يبحثون عن الحسم في المعركة، ويسرعون للقاء العدو قبل أن يلقاهم. ويتجنبون المطاولة ـ المماطلة ـ قدر المستطاع. ولقد صرف أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه معظم جهده لدرء خطر الروم البيزنطيين القادمين من البحر، وذلك منذ الأيام الأولى للفتح، إذ كان الروم وبيدهم السيادة على البحر الأبيض المتوسط، يستثمرون كل مناسبة للكيد للمسلمين والنكاية بهم، فيعملون على انزال قواتهم بصورة مباغتة على نقطة من الساحل، فيغيرون ويقتلون ويسبون ويمضون بمثل السرعة التي ظهروا بها. وقد وضع معاوية بن أبي سفيان نظاماً لحماية الثغور البحرية وضمان أمنها وحماية العرب المسلمين فيها. وكان في جملة التدابير المتخذة إنزال أقوام من العرب المسلمين في مدن الساحل وثغوره حتى يكونوا رباطاً للمسلمين وحماية لهم. مع تحصين مدن الساحل، وإقامة المراقب والمسالح. وأخذ العرب المسلمون بهذا النظام بعد أن عرفوا أهميته وفائدته لضمان أمنهم. وليس اسم (المرقب) إلا دليلاً على المضمون الذي أقيمت من أجله القلعة، وإلا تأكيداً على واجب هذه القلعة في مواجهة البحر.

عمل بناة القلعة، من أجل ذلك، على جعل الأسوار الخارجية للقلعة بمثابة امتداد لأسوارها الداخلية. وقد تشكل قلب القلعة الداخلية من بـرج متين البنيان ذو شكل دائري يصل قطره إلى ٧٢ قدماً وهو يواجه الجنوب. ويتصل هذا البرج من جانبيه بأبنية متعددة الطبقات ذات قاعات فسيحة مقنطرة السقف. وتوجد في منتصف القلعة آثار كنيسة كبيرة تقسم فناءها إلى قسمين غير متساويين. ولعل الاحتمال الأرجح هو أن آثار هذه الكنيسة لم تكن إلا المسجد الذي عمل الفرنج الصليبيون دائماً كعادتهم، على تحويله الى كنيسة. وثمة مستودعات كبيرة تتجمع حول الفناء الشمالي الأكبر مع اسطبلات الخيول. ويتم الدخول الى القلعة كلها عبر برج بوابة متين تتجه واجهته نحو الغرب عند السور الخارجي. ويتم الوصول من هناك إلى حصن البوابة (نزل الحرس) عبر فناء أمامي. ويتألف حصن البوابة من عدد من الغرف. وقد بقيت تحصينات القلعة في حالة جيدة نسبياً، وحافظت على شكلها الأساسي. وقد يكون السبب في ذلك هو أن القرية بقيت مأهولة بالسكان حتى القرن التاسع عشر.

لقد كان واجب (المرقب) هو الرصد والانذار، ولهذا فقد كان عمله هو حماية أمن المدينة المجاورة له (بانياس) وبالتالي الاسهام في حماية ساحل بلاد الشام. ولا غرابة بعد ذلك أن تكون مدن الساحل خاضعة لقيادة واحدة. ونظراً لأن (طرابلس) كانت هي اكبر مدن الساحل. فقد كان حكامها (بنو عمار) هم القوة المهيمنة على مدن الساحل وحصونه وقلاعه. وكانت قلعة المرقب ومعها قلعة القدموس تحت حكم (بنو محرز) يوم وقع غزو الفرنج. وكان بنو محرز يعتمدون على حكام طرابلس - بني عمار - الذين كان يتولى قيادتهم - جلال الدين أبي الحسن علي بن عمار - والذي استطاع أن يبسط سيطرته على جبلة وبانياس وسواهما من مدن الساحل. وكانت بلاد الشام، وساحلها بخاصة، نهباً للصراع خلال تلك الفترة، بين دولة الشيعة الفاطميين بمصر والذين كانوا يحاولون الوصول إلى بغداد، وبين الخلافة العباسية التي كانت تعمل بدورها على وضع حد لأطماع الفاطميين ونفوذهم. هذا إلى جانب وجود مراكز قوى طائفية أخرى - وأبرزها حركة الباطنية الاسماعيلية أو الحشاشين -. وكان لا بد لملوك طرابلس - بنو عمار - من الأخذ بهذه العوامل، والمناورة بينها، للمحافظة على مواقعهم، ولضمان الدفاع عن ممتلكاتهم. ولهذا لم يكن غريباً أن يتظاهر بنو عمار بالتشيع لكسب دعم مصر الفاطميين أو اتقاء لشرهم، أو للاثنين معاً. ولقد انعكس ذلك بصورة حتمية على قوة الدفاع. فقد أفاد الفرنج الصليبيون - وأمير انطاكية منهم بصورة خاصة. من التناقضات القائمة بين مراكز القوى الإسلامية وتمزقها، واستثمروا نقاط ضعفها، فبسطوا نفوذهم على مدن الساحل، وعلى القلاع والحصون المجاورة لها. وأخذوا ينتشرون - مثل بقعة الزيت - نحو المدن الداخلية. وهذا ما يفسر تلك السهولة الكبرى التي رافقت عملية احتلال الحصون الساحلية والقلاع المنيعة التي كانت تقف في مواجهة الساحل. وإذا كانت معظم قلاع بلاد الشام الداخلية قد شيدت أيام الروم البيزنطيين، أو أيام الفرنج الصليبيين، فان قلعة المرقب لم تكن منذ نشأتها إلا قلعة عربية اسلامية، ومرقباً يطل بعينه على البحر ليكشف كل تحرك مشبوه ولينذر مسبقاً عن كل عدوان محتمل وقوعه.

وصلت قوات الحملة الصليبية الأولى إلى بلاد الشام سنة ٤٩٢ هـ = ١٠٩٨ م.

فاحتلت مدن الساحل ما بين انطاكية شمالاً وعسقلان جنوباً والقدس شرقاً. واشتركت قوات الروم البيزنطيين في هذه الحملة بقيادة (جون كانتاكوزينوس)[1] فاستولت على المنطقة ما بين اللاذقية وبانياس ـ ومعها قلعة المرقب. ثم ما لبثت قوات الروم أن انسحبت سنة ٤٩٨ هـ = ١١٠٤ م. وتركت للفرنج حرية العمل في بلاد الشام، بعد أن وجدت أنها غير قادرة على مجابهة أمير أنطاكية ـ تانكرد ـ والاصطدام معه. وقد برهن ذلك للمسلمين على أن الخلافات والتناقضات بين الحلفاء الصليبيين هي أكثر اتساعاً وأكبر عمقاً مما كانت عليه بين القادة المسلمين. غير أن زخم قوة هجوم الحلفاء الصليبيين وقدرتهم القتالية لديهم كانت أكبر من تلك التي توافرت للمسلمين، فكان لا بد من أن تأخذ هذه القوة مداها واتساعها حتى يتمكن المسلمون من قلب موازين القوى، واستثمار تناقضات الفرنج وأحلافهم بمثل الطريقة وبمثل النهج الذي أفاد منه الفرنج الصليبيون في حملتهم الأولى. وعلى كل حال، فقد عمل ـ تانكرد ـ في ربيع سنة ١١٠٨ م (٥٠٢ هـ) على توسيع حدود مملكته ـ انطاكية ـ وذلك على حساب تفتيت مملكة بني عمار الاسلامية (مملكة طرابلس) فانتزع منهم جبلة وبانياس وقلعة المرقب. ويظهر أن المسلمين قد استعادوا سيطرتهم على قلعة المرقب، ولكن لفترة قصيرة، فعاد روجر ـ حفيد تنكرد ـ واهتم بقلعة المرقب، وأصلح الحد الجنوبي لانطاكية، وأسند اقطاع قلعة المرقب الى اسرة مانسوير[2] والمعروف أن القلعة قد تعرضت للدمار مرات متتالية بسبب الزلازل التي اجتاحت بلاد الشام في سنوات ٥٥٢

---

(١) جون كانتاكوزينوس (JEAN-OU-JOHN CANTACUZENE) من عائلة مارست دوراً هاماً في تاريخ الروم البيزنطيين، وقد كان أبرزهم هو جون كانتاكوزينوس هذا الذي عمل وصياً على امبراطور الروم جون الخامس باليالوج: PALEOLOGUE ثم انتزع منه العرش وحكم من سنة ١٣٤١ حتى سنة ١٣٥٤ م باسم جون السادس. ثم انتصر عليه جون باليالوج فاضطر كانتاكوزينوس الى الانسحاب. واعتزل في احدى الابرشيات ـ الكنسي.

(٢) اسرة مانسوير: (MANSOER) وانظر تاريخ الحروب الصليبية: ٢/٩١ و ٢١٨ وكذلك القلاع أيام الحروب الصليبية ص: ٧٥ حيث ورد ما يلي: «وفي سنة ٥١٠ ـ ٥١٢ هـ = ١١١٦ ـ ١١١٨ م تخلى صاحب المرقب ابن محرز عن القلعة الى أمير انطاكية روجر بعد مفاوضات طويلة، مقابل ولاية أخرى. وأهداها روجر بدوره الى اسرة مانسوير».

و ٥٦٦ و ٥٨٢ هـ (١١٥٧ و ١١٧٠ و ١١٨٦ م). مما تطلب تخصيص أموال ضخمة لإعادة اصلاح القلعة وترميمها، ولما عجزت أسرة مانسوير عن تأمين هذه الأموال - قبلت عرض طائفة الاسبتارية بالتخلي عن القلعة مقابل التعويض.

فمن المعروف أن طائفة فرسان المعبد الدينية - الاسبتارية - كانت تعمل باستمرار للسيطرة على القلاع والحصون. ولهذا فقد شرعت بإجراء مفاوضات انتهت بحصول الاسبتارية على قلعة المرقب (سنة ٥٨٢ هـ = ١١٨٦ م) وذلك مقابل إيجار سنوي قدره ألفي بيزنت ذهبي دفعت لآخر مالك للقلعة وهو (برتراند المرقبي)(١) ولقد عانى المسلمون كثيراً من عنت هذه الطائفة وجورها، بما عرف عنها وعن بقية الطوائف الدينية التي نظمت أيام الحروب الصليبية القديمة من الحقد الدفين والتعصب الحاقد ضد الإسلام وأهله. ولم يكن باستطاعة أمراء المسلمين وقادتهم الكيد لحامية (قلعة المرقب) بسبب بعدها عن مراكز القوى الإسلامية في المدن الداخلية، وبسبب ارتباط حامية قلعة المرقب بالفرنج المقيمين في بانياس، ثم بسبب توافر امكانات الدعم البحري لحامية بانياس وقلعتها (المرقب). وكان هذا هو الموقف الذي جابهه صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨ م) عندما مرت قواته على مقربة من قلعة المرقب، وتجنبت الصدام معها، وذلك وفقاً لما أوردته المصادر العربية، بقولها: «سار صلاح الدين إلى ولاية أنطرطوس، فخربها، ورحل عنها إلى المرقب، وهي من حصونهم التي لا ترام، ولا تحدث أحداً نفسه بملكه، لعلوه وامتناعه. وهو لاسبتار، والطريق تحته، فيكون الحصن على يمين المجتاز إلى جبلة والبحر عن يساره. والطريق مضيق لا يسلكه إلا الواحد بعد الواحد. فاتفق أن صاحب صقلية من الفرنج، سير نجدة إلى فرنج الساحل في ستين قطعة من الشواني - سفن النقل - وكانوا بطرابلس. فلما سمعوا بمسير صلاح الدين، جاؤوا ووقفوا في البحر تحت المرقب في شوانيهم، ليمنعوا من يجتاز بالسهام. فلما رأى صلاح الدين ذلك أمر بالطارقيات والجفتيات فصفت على الطريق مما يلي البحر، من أول المضيق إلى آخره. وجعل وراءه الرماة. فمنعوا الفرنج

---

(١) برتراند المرقبي: (BERTRAND DE MARGAT).

من الدنو إليهم. فاجتاز المسلمون عن آخرهم حتى عبروا المضيق ووصلوا إلى جبلة،[1] وقد أعاد صلاح الدين فتح جبلة واللاذقية ومجموعة من الحصون. وترك المرقب تحت حكم الاسبتارية الذين كانوا ينطلقون من المرقب للإغارة على الأراضي الإسلامية المجاورة. مما حمل الملك الظاهر ـ غازي ـ ملك حلب لقيادة حملة تأديبية ضد المرقب وحاميتها، فحاصرها، ونصب عليها المجانيق، فدمر عدداً من أبراجها الموجودة عند الأسوار الخارجية. وتابع الظاهر بيبرس ما بدأه صلاح الدين الأيوبي، فأخذ في التضييق على الفرنج، وطردهم من المدن والقلاع. حتى إذا كانت سنة ٦٦٨ ـ ٦٧٠ هـ (١٢٦٩ - ١٢٧١ م) لم يكن قد بقي في قبضة الفرنج سوى عكا وطرابلس وبانياس والقلاع المجاورة لها. وقد عقد الفرنج مع الظاهر بيبرس معاهدة لمدة عشر سنوات (سنة ٦٧٠ هـ = ١٢٧١ م) ضمنت للفرنج، أو بالأحرى لبقاياهم البقاء لفترة إضافية أخرى. ثم جاء السلطان قلاوون ـ الذي خلف الظاهر بيبرس ـ فحاصر قلعة المرقب ـ سنة ٦٨٤ هـ = ١٢٨٥ م وحفر نفقاً تحت الواجهة الجنوبية، ثم قصفها فانهار البرج الخارجي الجنوبي (والمعروف باسم برج الأول أو برج أبرون) فاستسلم فرسان الاسبتارية وقد أشرفوا على الهلاك.

كانت قلعة المرقب من أولى القلاع التي ستولى عليها الفرنج الصليبيون. وعاشت حتى تكون من آخر القلاع التي أعاد المسلمون فتحها، وطردوا منها الغزاة. فكانت مدة إقامة الفرنج فيها طويلة ناهزة المائة والأربع وسبعون عاماً هجرية (169- سنة ميلادية) . وبذلك تكون قلعة المرق قد عاشت تجربة الحملات الصليبية القديمة كلها . ورأت كيف جاء الفرنج يجرون جحافلهم ويسوقون جيوشهم ، ثم رأت كيف استطاع المسلمون استنزاف هذه القوة وتدميرها عبر المعارك الضارية التي لم تتوقف إلا لتتجدد بقوة أكبر وتصميم أعظم ، ولقد أدرك مقدم الاسبتارية - ميوزيفيل - هذا التحول ، فعندما لم يبق للاسبتارية إلا حصن المرقب الضخم، كتب تقريره في سنة 667-هـ = 1268-م - وهو التقرير الذي تضمن ما يلي :" لم يعد باستطاع الطائفة أن تنفق على

---

(١) الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة ٥٨٤ هـ.

أكثر من ثلثمائة فارس في الشرق. بعد أن كان لديها في الأيام السابقة عشرة آلاف فارس»[1] . ولقد ظن فرسان الاسبتارية أنه بامكانهم دعم وجودهم عن طريق التحالف مع المغول التتار، كما ظن هؤلاء المغول أن تعاونهم مع فرسان الاسبتارية سيمكنهم من الانتقام لهزيمتهم الذي أنزلها بهم المسلمون. فشنوا هجوماً انطلق من الأناضول، ووصل معرة النعمان وحصن أفامية. وتحرك المسلمون بسرعة (سنة ٦٧٠ هـ = ١٢٧١ م) فأحبطوا هجوم المغول. ثم انصرفوا لتأديب فرسان الاسبتارية الذين تعاونوا مع المغول. ودفعت حصن المرقب قسطاً من الثمن، إذ ركز السلطان قلاون جهده ضدهم. وأرسل قواته لتأديبهم. وقد أوردت المصادر العربية قصة الأيام الأخيرة لفرسان المعبد - الاسبتارية - في قلعة المرقب بما يلي: «كان الافرنج بحصن المرقب، عندما بلغهم هجوم التتار على الشام. فانطلقوا لشنّ الغارات على بلاد المسلمين من سائر النواحي. فلما تراجع التتار عن الشام. استأذن صاحب حصن الأكراد - بليان الطباخي -[2] في غزوهم. وسار إليهم في حامية الحصون بنواحيه، وجمع التركمان. وبلغ حصن المرقب. ؤوقف أسفله. واستطرد له أهل الحصن - تظاهروا بالتراجع - حتى تورط في أوعار الجبال، ثم هجموا عليه دفعة واحدة. فانهزم. ونالوا من المسلمين. وبلغ الخبر السلطان قلاوون، فخرج من مصر لغزوهم. آخر سنة تسع وسبعين وستمائة (١٢٨٠ م). وانتهى الى الروحاء، فوصله هنالك رسل الفرنج في طلب الهدنة وإقرارها لأهل المرقب، على أن يطلقوا سراح من أسروه من المسلمين في وقعة بليان. فعقد لهم الهدنة في المحرم سنة ثمانين وستمائة (١٢٨١ م) وتم العقد مع صاحب الاسبتار وابنه، على أن لا يستنجدوا أسير قلعة ولا غيرها، ولا يداخلوا التتر في فتنة، ولا يمروا عليهم إلى بلاد المسلمين إن أطاقوا ذلك. وعقد معهم الهدنة لاحدى عشرة سنة» ولكن الاسبتارية في المرقب غدروا باتفاق الهدنة، ونكثوا، وعادوا فتعاونوا مع المغول التتار، فسار السلطان قلاوون الى

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ٣/٥٨٩.

(٢) بليان الطباخي: ترجم له المقريزي في المقفى - مخطوطة برتو باشا ورقة ٢٦٧. فذكر أنه كان من مماليك السلطان قلاوون. تقلب في عدد من الوظائف، منها إمارة حصن الأكراد. واشترك مع قلاوون في فتوحاته سنة: ٦٧٨ هـ = ١٢٧٩ م وتوفي سنة ٧٠٠ هـ.

الشام (سنة ٦٨٣ هـ = ١٢٨٤ م) لمحاصرة المرقب، وانزال العقاب بحاميته لما فعلوه من ممالأة العدو. فحاصره حتى استأمنوا إليه. وملك الحصن من أيديهم[١].

لم يسلم فرسان الاسبتارية بسهولة، ولم يتخلوا عن معقلهم الأخير بيسر، وإنما قاتلوا بضراوة وعناد، فعندما جاء السلطان قلاوون لحصار المرقب، جلب معه من المجانيق التي بلغت من الوفرة ما لم يسبق أن شهدها أحد. وتولى رجاله جرّ هذه المجانيق على جانب التل، ثم شرعوا في دك أسوار القلعة. على أن القلعة توافرت عدتها، وتميزت مجانيقها بما احتلته من أوضاع جيدة، فتعرض للدمار عدد كبير من مجانيق السلطان. وظل المسلمون شهراً تقريباً دون أن يحرزوا شيئاً من التقدم. وأدرك رجال الحامية أنهم خسروا كل شيء، فلم يبق أمامهم إلا الإستسلام. فقرر السلطان قلاوون السماح لمن كان بداخل القلعة من قادة الاسبتارية وعددهم خمسة وعشرون أن يخرجوا بكل متاعهم على ظهور خيولهم، ومعهم سلاحهم الكامل. أما بقية رجال الحامية ففي وسعهم الانسحاب دون أن يحملوا معهم شيئاً. فلجؤوا إلى طرطوس ومنها الى طرابلس. ودخل قلاوون القلعة في موكب الظفر يوم ٢٥ - أيار - مايو - سنة ١٢٨٥ م (٦٨٤ هـ) وارتاع الفرنج الصليبيون في عكا لضياع حصن المرقب[٢].

عادت قلعة المرقب إلى أهلها، وشرع المسلمون باعادة ترميمها وتحصينها تحت اشراف قائدها الأمير سيف الدين بليان الطباخي. ولقد زادتهم تجربة حصن المرقب ايماناً على ايمانهم بعدم جدوى الاستناد الى القلاع والحصون من أجل دفاع ثابت ومستقر. فقد عمل فرسان الاسبتارية قدر استطاعتهم، بل وأكثر مما يستطيعون، للاحتفاظ بهذه القلعة. ولكن انقطاع الدعم الخارجي، وعدم توافر الدعم من قلاع مجاورة أو حاميات قريبة، جعل من قضية سقوط القلعة قضية زمن لا أكثر. وهذا ما فعله السلطان قلاوون الذي حاصر القلعة حتى سقطت في قبضته كالثمرة اليانعة.

---

(١) تاريخ ابن خلدون - دار الفكر ببيروت ١٩٨١ (٥/٤٥٦ - ٤٥٧).

(٢) تاريخ الحروب الصليبية: ٣/٦٦٨ - ٦٦٩.

٧ ـ قلعة الكرك .

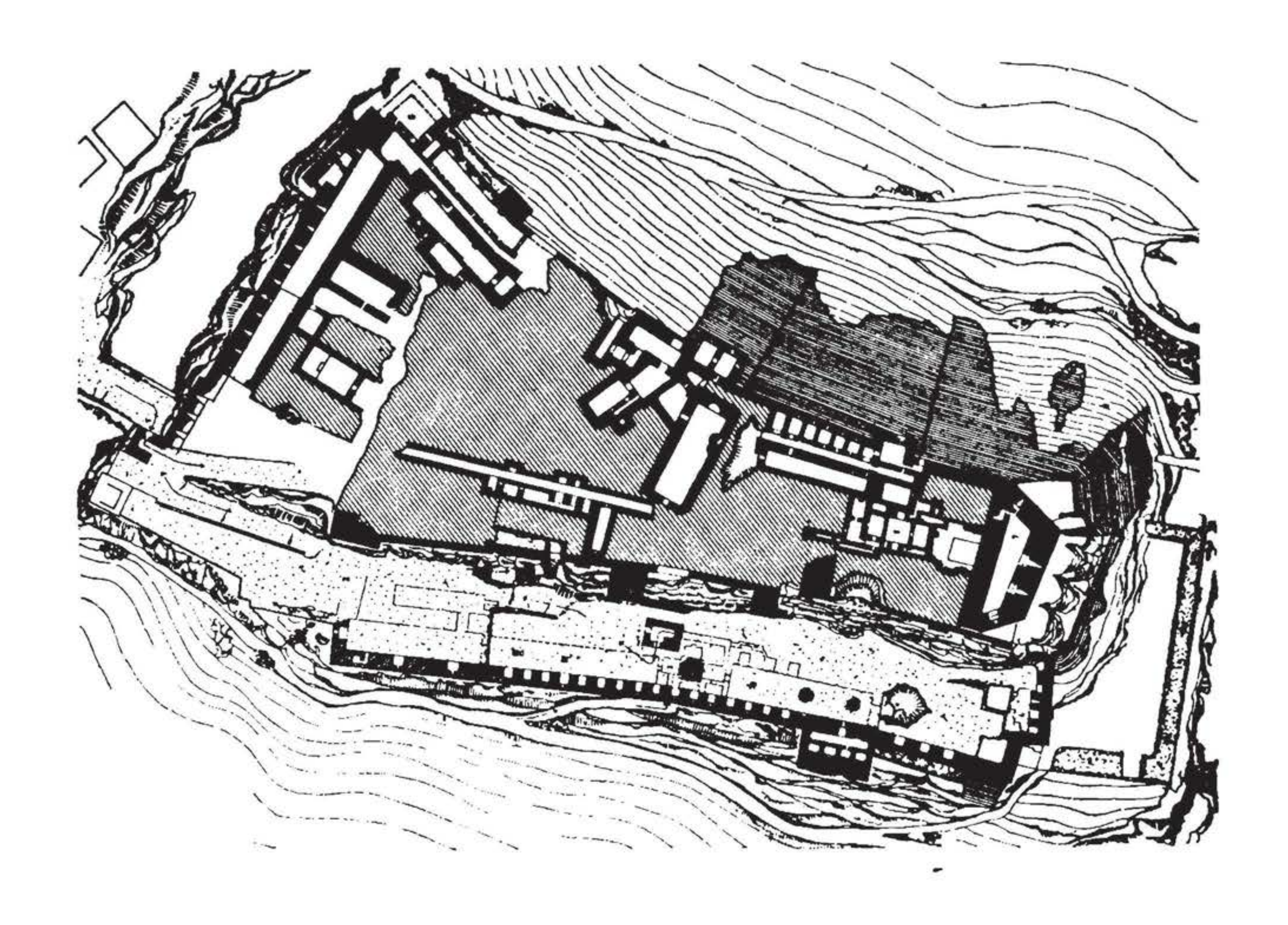
(الكرك)[1] هي مدينة وقلعة في جنوبي الأردن على بعد عشرة أميال تقريباً إلى الشرق من الطرف الجنوبي للبحر الميت، وتقع فوق ذروة مرتفع صخري تنحدر سفوحه من الجانبين بشدة حتى وادي الكرك الذي يتشعب إلى وادي الست ووادي الفرنجة أسفل المدينة الحصينة تماماً، وتنتصب القلعة ذاتها الى الجنوب من المدينة مباشرة، فتحميها من الهجوم عبر الاتجاه الوحيد الصالح للهجوم من جهة الأرض المرتفعة المجاورة. ولقد شيدت القلعة فوق مسطحين ـ مصطبتين ـ تفصلها عن المدينة قناة عميقة. كذلك كانت المدينة محاطة بسور يحف بها ويتماشى مع حواف الصخور. ولكنها عريت منه في معظم الأماكن، في الأزمنة المتأخرة، وتعود الدفاعات الموجودة بنسب متساوية تقريباً إلى العهدين العربي ـ الإسلامي والفرنجي الصليبي، وتتميز المرحلتان عن بعضها بعضاً بنوع الحجارة المستخدمة والتي نقلت من مقالع مختلفة. وقد وصف أبو الفداء قلعة الكرك بقوله: « هو بلد مشهور وله حصن عالي المكان، وهو أحد المعاقل بالشام التي لا ترام، وعلى بعض مرحلة منه مؤتة، وبها قبر جعفر الطيار وأصحابه رضي الله عنهم. وتحت الكرك واد فيه حمام وبساتين كثيرة، وفواكهها مفضلة من المشمش والرمان والكمثرى وغير ذلك، وهو على أطراف الشام من جهة الحجاز. وبين الكرك والشوبك نحو ثلاث مراحل »[2].

تلكم هي واحدة من مجموعة كبيرة جداً من القلاع والحصون التي تناثرت على امتداد المسطح الجغرافي لبلاد الشام. ولهذا لم يعد من الغريب أو المستهجن أن يظهر

---

(١) الكرك ـ أو كرك مؤاب ـ هي حصن كبير أطلق عليه المؤرخون اسم حجر الصحراء ـ وعرفه الفرنج باسم: (PETRA-DESERTI) أو (CIVITAS-PETRACENSIS) وتحمل باليونانية اسم (CHARACH MOBA) وباللاتينية اسم كراك دومونتريال: (LE CRAC DE MONTREAL).

(٢) القلاع أيام الحروب الصليبية، ص: ٥٥.

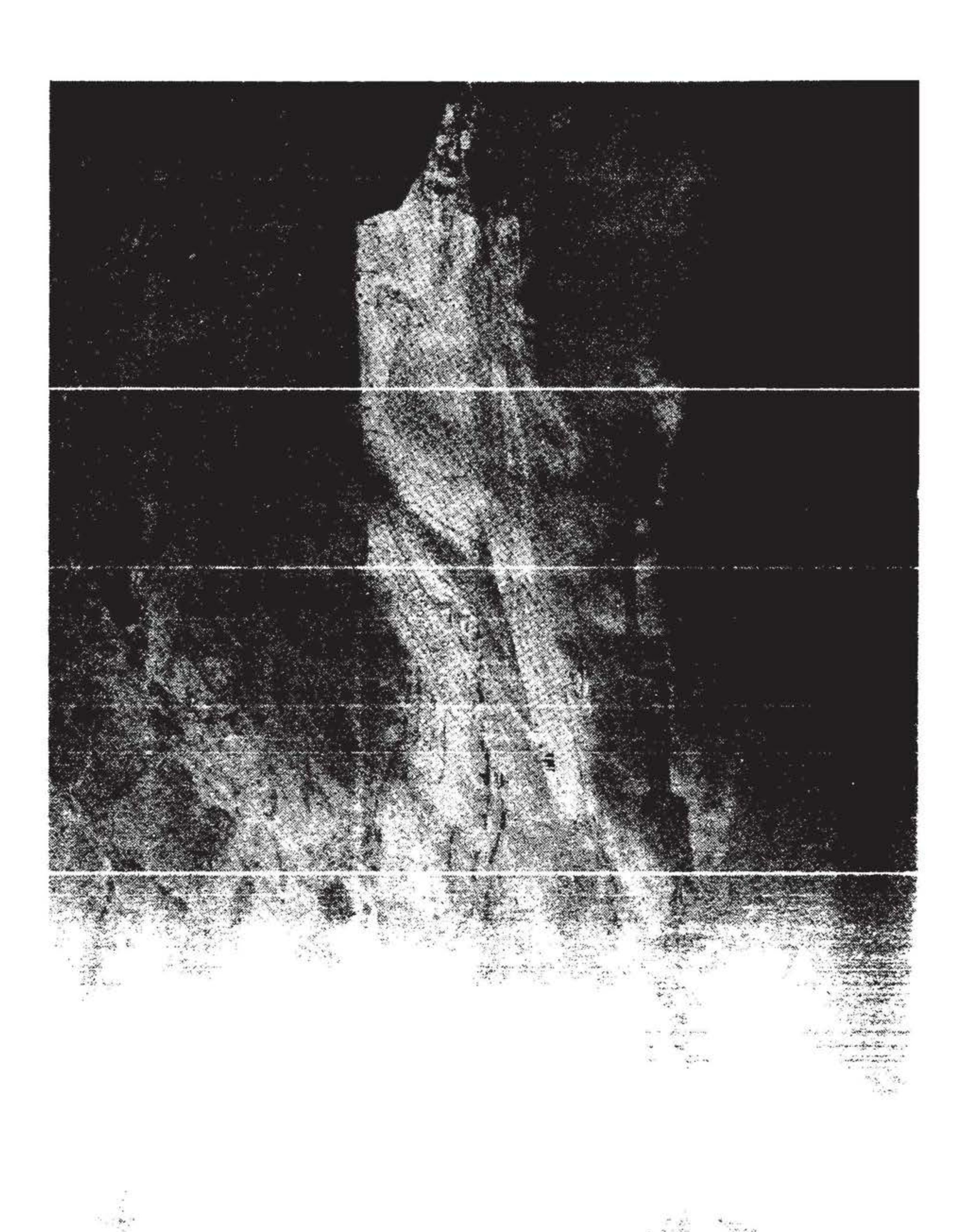


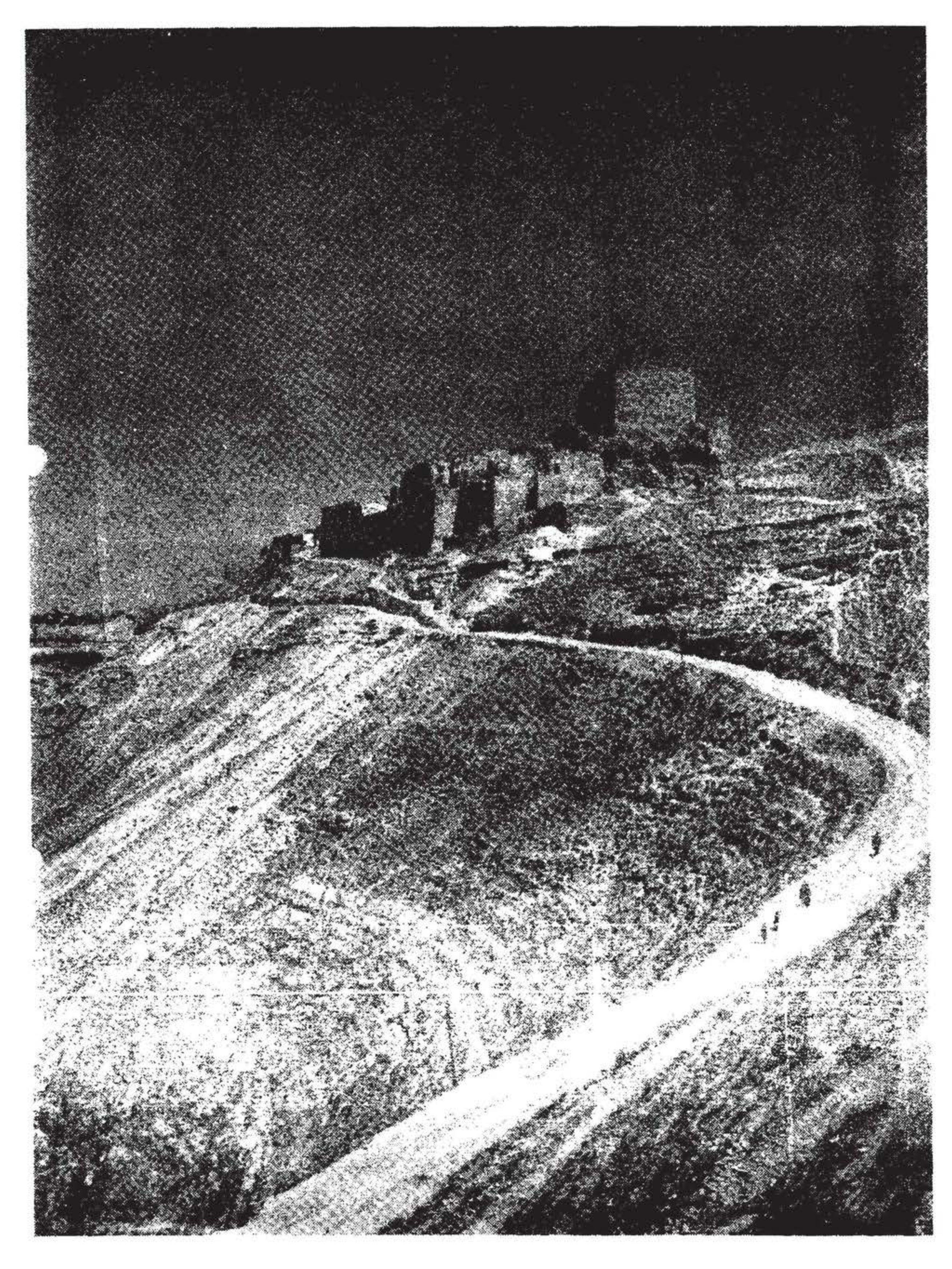
الكرك AL KARAK

مخطط أرضي للقلعة العلوية والسفلية مقياس ١/٢٠٠٠.

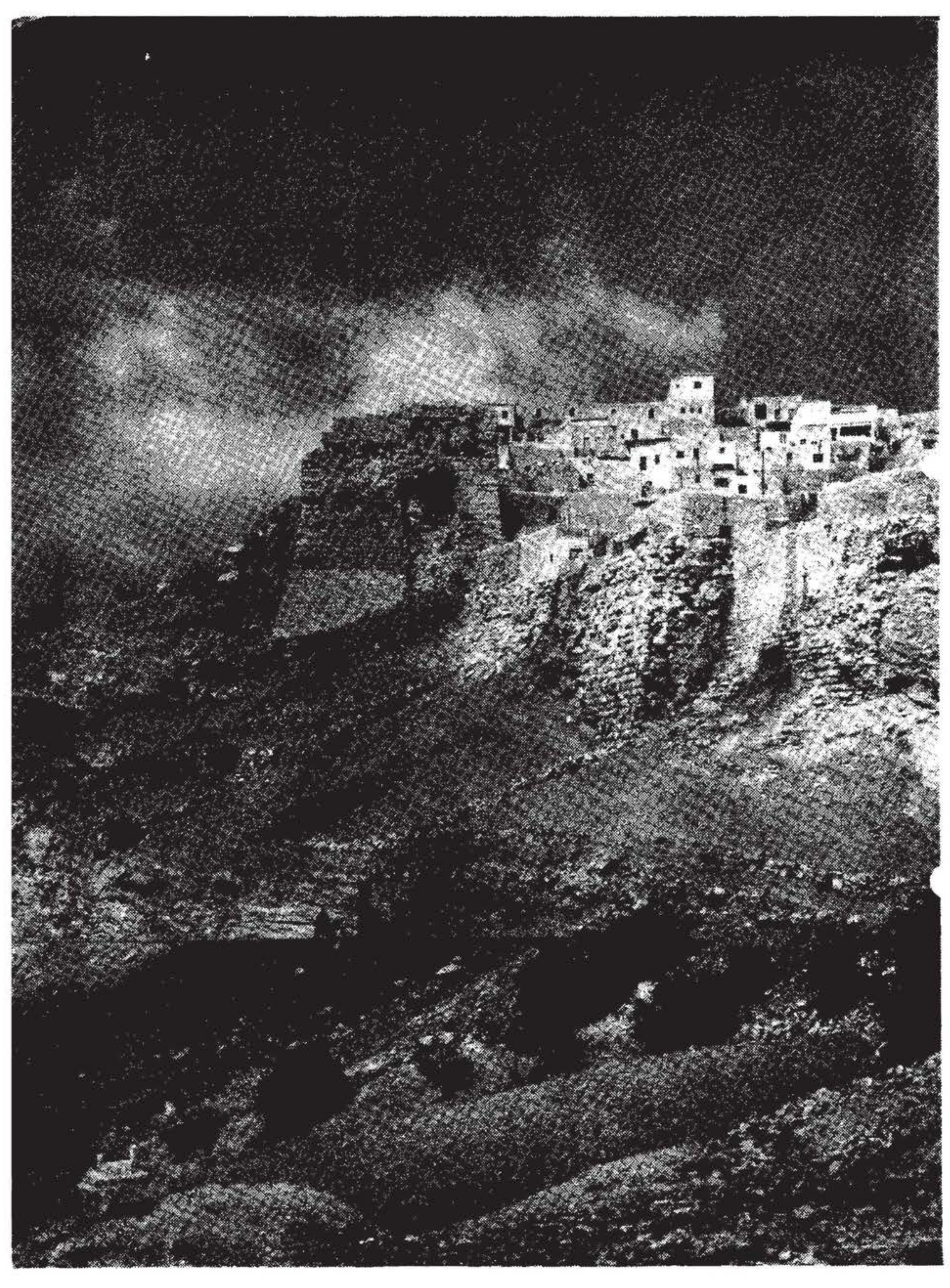
يبين المخطط المبنى والأراضي التابعة له التي تقع تحت مستوى الأرض من القلعة العلوية، كذلك نفذت القلعة السفلى على مستوى الأرض لكشف الغرف تحت الأرضية التي أشير إليها بالرسم المنقط. وأشير الى طوري البناء الفرنجي الأول والثاني (١١٤٢ - ١١٨٨) باللون الأسود والتهشير المتقاطع، كما أشير إلى الفترة العربية (بعد العام ١١٨٨) بالتهشير المكثف بينما رسمت الأبنية التحتية المطمورة تحت التراب والصخر بالتهشير العريض.

١ - البوابة الرئيسية الحديثة، ٢ - القلعة السفلية، ٣ - البوابة السفلية، ٤ - السور الخارجي للقلعة السفلية، ٥ - البرج الزاوي الشمالي الشرقي (خرب)، ٦ - المباني التابعة للقصر، ٧ - برج محصن، ٨ - جدار حاجز (ساتر).

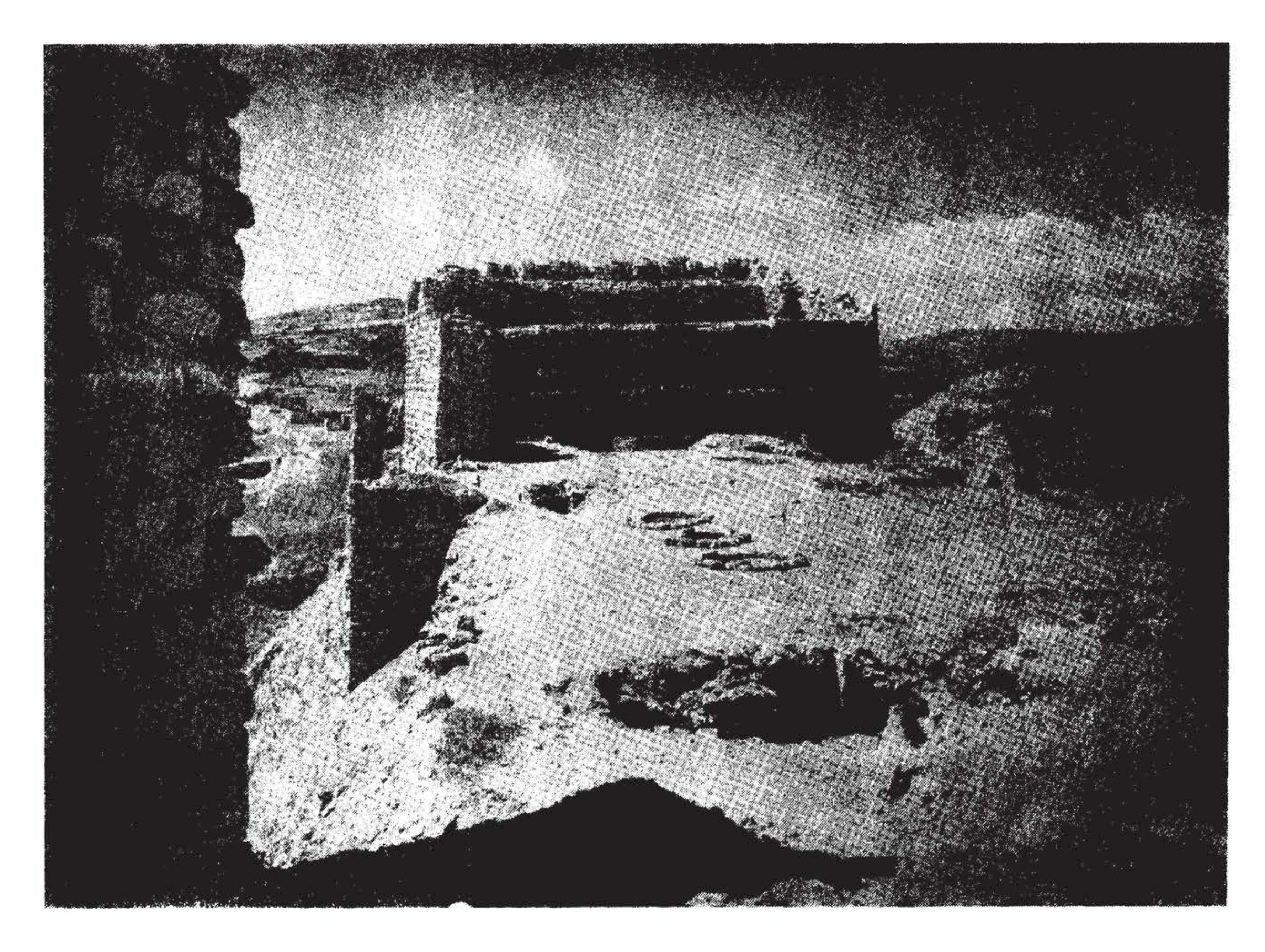




الكرك



الكرك



الكرك

المؤرخون والباحثون وعلماء الآثار والمهندسون العسكريون اهتماماً متعاظماً بما احتوته بلاد الشام من هذه التحصينات الدفاعية التي يعود تاريخ بعضها إلى العصور القديمة، والتي برزت أهميتها خاصة في العصور الوسطى. ذلك أن هذه القلاع والتحصينات قد عاشت أحداث الحروب الصليبية القديمة جميعها. فأصبحت من وجهة نظر المهندسين وعلماء الآثار من النماذج الحية لما كان عليه فن العمارة والبناء خلال تلك الحقبة التاريخية. وأصبحت من وجهة نظر العسكريين من النماذج الواضحة لما كان عليه فن الحرب من التطور، ولما كان لهذه القلاع من دور في الأعمال القتالية ـ الهجومية والدفاعية ـ. وإذا أمكن تجاوز الخصائص الفنية لتلك القلاع والتحصينات، وهي الخصائص التي فرضت بطبيعتها على المدافعين أساليبهم التعبوية ـ أو التكتيكية ـ بقدر ما فرضت على المهاجمين طرائقهم وحددت لهم وسائلهم لاقتحام التحصينات، فإن أبرز ما يمكن تعلمه هو أن الفرنج الصليبيين والمسلمين على السواء، لم يتعاملوا مع القلاع والتحصينات إلا على أساس أنها ذات دور محدود، سواء لاعداد القوات للهجوم، باعتبارها قاعدة للهجوم، أو من أجل تلقي صدمة المهاجمين، وتأمين الظروف المناسبة للصمود والمقاومة خلال فترة كافية يتم خلالها طلب قوات الدعم من الخارج للقيام بهجوم مضاد ولرفع الحصار عن الحاميات القائمة بالدفاع. وبكلمة أكثر وضوحاً، فإن الحسم في الصراع المسلح حتى على مستوى العمليات، بقي مرتبطاً بالهجوم وبالهجوم وحده. وهو ما يتوافق بدقة مع مفهوم الدفاع والهجوم في المعركة الحديثة للأسلحة المشتركة. وقد يكون ذلك هو أحد الحوافز المثيرة التي أعطت للباحثين قوة دفع إضافية، للاهتمام بمزيد من العناية بقلاع بلاد الشام وتحصيناتها.

كانت (الكرك) تحتل مرتبة هامة عندما استولى عليها الفرنج الصليبيون خلال حملتهم الأولى (سنة ٤٩٢ هـ = ١٠٩٨ م). وقد أسند ملك القدس ـ بلدوين الأول ـ إقطاع الكرك إلى أحد كبار رجال بلاطه ـ واسمه باجان الساقي ـ[1] الذي عمل على تحصين قلعة كرك مؤاب ـ وربطها بمجموعة قلاع الشوبك وحصن وادي

(١) باجان الساقي: (PAYEN LE BOUTEILLER-PAGANUS PINCERNA).

موسى[٤] . وأصبحت الكرك قاعدة لانطلاقة الفرنج من أجل العدوان على مدن شرقي الأردن، ومن أجل التعرض لقوافل المسلمين التجارية التي كانت تتحرك ما بين بلاد الشام ومصر. الأمر الذي حمل نور الدين زنكي (سنة ٥٦٦ هـ = ١١٧٠ م) على مهاجمة الكرك حتى يهيء لقافلة ضخمة من قوافل المسلمين فرصة اجتياز اقليم ما وراء نهر الأردن، والوصول الى مصر. ثم عاد نور الدين للهجوم في السنة التالية على قلعة الكرك، وحاصرها. وكانت الكرك يومها تحت حكم (ستيفاني ميللي) التي ورثت الحكم عن زوجها همفري سيد تبنين - ثم تزوجها - رينالد دوشانيون - فأصبح حاكماً لاقطاع الكرك. وقد أفاد أمراء الكرك - كونتات - من موقع الكرك للإغارات على أملاك المسلمين ونهبها والتعرض لقوافل المسلمين والاستيلاء عليها. مما ساعد على زيادة تحصين الكرك، وتجهيزها بمتطلبات الرفاه، حتى بلغت حياة أمراء الكرك مبلغاً من الترف وظواهر العظمة مما لم تبلغه أو تعرفه حياة الملوك في أوروبا خلال تلك الفترة. لاسيما خلال فترة إمارة - رينالد شاتيون - الذي حكم قطاع الأردن منذ سنة ٥٧٣ هـ = ١١٧٧ م. فاستخدم الكرك قاعدة لأعماله العدوانية المستمرة. مما دفع نور الدين زنكي - ثم صلاح الدين الأيوبي من بعده - لمهاجمة الكرك وحصارها ولكن بدون جدوى نظراً لما تميزت به القلعة وأسوارها من القوة والمنعة. ولعل من أبرز الأحداث التي عاشتها القلعة خلال تلك الفترة هي حفلة الزفاف الشهيرة التي أقامها - رينالد شاتيون - لابنة زوجته والوريثة الشرعية للقلعة - الأميرة ايزابيللا - على همفري سيد تبنين. وكانت الفتاة يومها قد بلغت الحادية عشرة من عمرها في حين كان الزوج يناهز السابعة عشرة من عمره. وأعد رينالد - أو أرناط كما تذكره المصادر العربية - كل ما يتناسب مع هذه المناسبة من مظاهر العظمة والأبهة. وأخذت وفود الضيوف في الوصول الى القلعة أثناء شهر تشرين الثاني

---

(١) تقع قلعة وادي موسى على تل شديد الانحدار، يعرف حالياً باسم تل عويرة، على أطراف البتراء. حيث تطل خرائب تحصينات الفرنج التي تغطي مساحة كبيرة على وادي موسى. وفي هذه الجهة أيضاً خرائب حصن صغير يعود الى أيام العصور الوسطى، كان مشيداً على تل حبيس في جوف البتراء. (تاريخ الحروب الصليبية: ٢/٣٧١).

ـ نوفمبر ـ سنة ١١٨٣ م. ومع أن عدداً كبيراً من هؤلاء الضيوف ـ مثل الملكة كومنينا والدة العروس ذاتها ـ كانوا أعداء شخصيين لرينالد شاتيون، إلا أنهم قدموا للقيام بمحاولة لاصلاح ذات البين بين مراكز القوى المتنافرة للفرنج المتصارعين على النفوذ والسلطة. وقد جاء مع هؤلاء الضيوف أرباب الملاهي من الراقصات والحواة والموسيقيين من سائر أنحاء إمارات الفرنج في بلاد الشام.

كان صلاح الدين الأيوبي خلال تلك الفترة في بلاد الشام. فكتب إلى أخيه العادل أبي بكر بن أيوب ـ وهو نائبه بمصر ـ يأمره بالخروج بجميع العساكر الى الكرك، وسار صلاح الدين إليها، فوافاه أخوه العادل في شهر رجب (٥٧٩ هـ) ١١٨٣ م. وكثر جمع صلاح الدين، وتمكن من حصار القلعة، وصعد معه المسلمون إلى ربضه، وملكه. وحصر الحصن من الربض. وتحكم عليه في القتال. ونصب عليه سبع منجنيقات لا تزال ترمي بالحجارة ليلاً ونهاراً. وكان صلاح الدين يظن أن الفرنج لا يمكنونه من حصر الكرك، وأنهم يبذلون جهدهم في ردّه عنه. فلم يستصحب معه من آلات الحصار ما يكفي لمثل ذلك الحصن العظيم والمعقل المنيع. واستمر الرقص والغناء بداخل القلعة. وأعدت والدة العريس، ستيفاني ـ طعاماً بعثت به إلى صلاح الدين. فأرسل صلاح الدين يسأل بأي الأبراج ينزل العروسان. وأصدر أمره بألا يتعرض هذا البرج للقذف من المنجنيقات. وأسرع ملك بيت المقدس ـ بلدوين ـ لقيادة جيشه من أجل رفع الحصار عن الكرك ـ وبينما كان جيش الفرنج يتجاوز أريحا. كان صلاح الدين قد رفع الحصار وعاد إلى دمشق[1].

جمع صلاح الدين جيشه في السنة التالية (٥٨٠ هـ = ١١٨٤ م) من جميع أنحاء البلاد. وسار به الى الكرك. فحصر الحصن وضيق على من به، وأمر بنصب المنجنيقات على ربضه. واشتد القتال. فملك المسلمون الربض، وكان هو والحصن على سطح جبل واحد، إلا أن بينهما خندقاً عظيماً عمقه نحواً من ستين ذراعاً. فأمر صلاح الدين بإلقاء الأحجار والتراب فيه ليطمه ـ يردمه ـ فلم يقدر أحد على الدنو منه

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ٢/٧١١ ـ ٧١٥ والكامل في التاريخ ـ أحداث سنة ٥٧٩ و ٥٨٠ هـ.

لكثرة الرمي عليهم بالسهام من البرج، ورمي الاحجار من المنجنيقات. فأمر أن يبنى بالأخشاب واللبن ما يمكن الرجال من السير تحت السقائف، وأن يلقى في الخندق ما يطمه. فيما كانت منجنيقات المسلمين ترمي الحصن ليلاً ونهاراً. وأرسل من فيه من الفرنج إلى ملكهم ـ ملك القدس ـ وإلى فرسانهم، يستمدونهم ويعرفونهم عجزهم وضعفهم عن حفظ الحصن، فاجتمعت الفرنج عن آخرها، وساروا إلى نجدتهم عجلين. فلما بلغ الخبر بمسيرهم إلى صلاح الدين، رحل عن الكرك إلى طريقهم ليلقاهم ويقاتلهم، ويعود بعد أن يهزمهم إلى الكرك، فقرب منهم وخيّم ونزل، ولم يمكنه الدنو منهم لخشونة الأرض وصعوبة المسالك إليهم وضيقها. فأقام أياماً ينتظر خروجهم من ذلك المكان ليتمكن منهم، فلم يبرحوا منه خوفاً على نفوسهم. فلما رأى ذلك ابتعد عنهم عدة فراسخ، وجعل بإزائهم من يعلمه بمسيرهم. فساروا ليلاً إلى الكرك، فلما علم صلاح الدين ذلك، عرف أنه لن يتمكن من تحقيق هدفه، فسار عنهم إلى دمشق.

حاول حاكم الكرك ـ رينالد شاتيون، أو أرناط ـ التخفيف من ضغط المسلمين على إقطاعه، فالتمس عقد هدنة مع صلاح الدين. وتم له ذلك، وأخذت القوافل التجارية الإسلامية في التنقل مطمئنة ما بين الشام ومصر. فلما كانت سنة ٥٨٢ هـ = ١١٨٦ م. وبينما كانت إحدى القوافل العظيمة المحملة بالنفائس من الأموال والمتاع تمر على حدود إقطاع الكرك، نكث رينالد باتفاقه وعهوده، وخرق الهدنة، فهاجم القافلة واستولى عليها وغنم أموالها ودوابها وسلاحها. وأودع السجن من أسر من الجند القليل الذي كان يرافقها. فأرسل إليه صلاح الدين يلومه ويقبح فعله وغدره ويتوعده إن لم يطلق سراح الأسرى والأموال، فلم يجب إلى ذلك، وأصر على الامتناع، فنذر صلاح الدين نذراً أن يقتله بيده إن ظفر به[1].

---

(١) كانت هذه المرة الثانية التي أقسم فيها صلاح الدين الأيوبي على قتل رينالد شاتيون بيده إن أظفره الله به. وكانت المرة الأولى سنة ٥٧٨ هـ = ١١٨٢ م ـ عندما وجه رينالد شاتيون حملة من الكرك، نزلت في ايلات، ونقلت معها السفن التي تم صنعها وأعدادها في الكرك، وسارت عبر البحر الأحمر فأغارت على رابغ وعيذاب والحوراء وينبع. فأدرك قائد البحرية المصرية ـ حسام الدين لؤلؤ ـ قوات الفرنج في الحوراء ـ فهزمهم، وتم ذبح أسراهم في القاهرة وفي منى يوم عيد الأضحى ـ عقاباً

عزم صلاح الدين الأيوبي على وضع حدّ حاسم ونهائي لما يقوم به أمير الكرك الصليبي من استفزازات وأعمال عدوانية. فحشد قواته من سائر ديار المسلمين. وكانت معركة حطين الخالدة يوم السبت لخمس بقين من ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة (٤ تموز - يوليو - ١١٧٨ م) ثم أعقبها فتح قلعة طبرية ومدينة عكا ومجدل يابا والناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعليا والشقيف والخولة ثم يافا وتبنين وصيدا وجبيل وبيروت وعسقلان وما يجاورها. وأعقب ذلك فتح القدس وهونين. وترك صلاح الدين قوة لحصار الكرك التي باتت معزولة عن كل امكانات الدعم الخارجي. وضاق الحصار على الحامية المدافعة عن الكرك، وطال الأمد عليهم، حتى فنيت أزواد الفرنج وذخائرهم وأكلوا دوابهم. وانقضت فترة سنة تقريباً التمس بعدها الفرنج من صلاح الدين تسليم الكرك مقابل منحهم الأمان، فأجابهم إلى ذلك. وعادت الكرك الى المسلمين. وأسند صلاح الدين حكم الأردن إلى أخيه الملك العادل، وأبقى الكرك عاصمة له، ومنح هذا المعقل الهام عناية فائقة. فقام الملك العادل بترميمه وتقوية دفاعاته. ونظراً للشهرة التي حازتها القلعة، بسبب قوتها ومنعتها، فقد استخدمها صلاح الدين لحفظ خزائن أموال المسلمين. وبعد وفاة الملك العادل، ورث عنه ابنه الملك المعظم امارة الأردن - وفيها الكرك -.

جاءت الحملات الصليبية الثالثة ثم الرابعة فالخامسة، رداً على ما أحرزه صلاح الدين والمسلمون من انتصارات، وقد نجحت هذه الحملات بتحقيق بعض المكاسب للفرنج، وأبرزها عقد صلح بين الامبراطور الألماني فريدريك الثاني والسلطان الكامل الأيوبي (سنة ٦٢٦ هـ = ١٢٢٨ م) تم بموجبه تسليم القدس للفرنج. ولم يقبل خبراء الفرنج من العسكريين بشروط هذا الصلح، لأنهم اعتبروا بأنه من المحال عليهم الاحتفاظ بالقدس ما لم يلحق بها اقليم ما وراء نهر الأردن وقاعدته الكرك. وقالوا: «كيف تستطيع القدس أن تبقى - في قبضة الفرنج - وليس يربطها بالساحل سوى

= لمن يجرؤ على مهاجمة الديار المقدسة الإسلامية أو يحاول انتهاك حرمتها. وأقسم صلاح الدين أن يقتل رينالد شاتيون بيده إن أظفره الله به. (لمزيد من التفاصيل انظر الكامل في التاريخ - أحداث سنة ٥٧٨ هـ).

شريط ضيق من الأرض» . وهكذا استمرت الكرك بممارسة دورها ضد الفرنج الصليبيين. ففي سنة ٦٣٧ هـ = ١٢٣٩ م. وكان الناصر داود - الأيوبي - قد أصبح ملكاً على الأردن، قام البريتون بالتعرض لقافلة اسلامية، فرد الناصر داود على ذلك بقيادة جيشه من الكرك، وهاجم القدس، واحتل قلعتها بعد حصار استمر سبعة وعشرين يوماً. ثم عاد الى الكرك. وفي سنة ٦٤٠ هـ = ١٢٤٢ م أغار فرسان الداوية - الصليبيين - على مدينة حبرون الإسلامية، فوجه الناصر داود قواته من الكرك لقطع الطريق المؤدي الى القدس، وجباية الرسوم من حجاج الفرنج وتجارهم. وعندما وصل المغول التتار إلى بلاد الشام، تجمعت قوات الكرك مع الخوارزمية، وانضمت إلى جيش مصر الذي كان يقوده المظفر قطز، واشتركت جميعاً في معركة عين جالوت (سنة ٦٥٩ هـ = ٢٦ تموز - يوليو - سنة ١٢٦٠ م). وعندما استولى الظاهر بيبرس على الحكم، قام بزيارة لقلعة الكرك (سنة ٦٦٣ هـ = ١٢٦٤ م) وأمر بدعم القلعة وتقوية الدفاع عن المدينة وتحصينها، فتم تشييد الحصن الشمالي من سور المدينة، وحسنت قناة القلعة.

تعرضت قلعة الكرك لأضرار فادحة إثر الهزة الأرضية التي ضربت المنطقة سنة ٦٩٣ هـ = ١٢٩٣ م). واستمرت الاصلاحات لفترة طويلة امتدت حتى سنة ٧٠٩ هـ = ١٣٠٩ م. وبقيت الكرك محتفظة بأهميتها حتى نهاية العهد المملوكي. ثم زالت أهميتها بعد الفتح العثماني لبلاد الشام. وبقيت دفاعاتها بحالة سليمة حتى سنة ١٨٧٠ م. ثم أخذت في التداعي مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

لقد استولى الفرنج الصليبيون على الأردن خلال حملتهم الصليبية الأولى. وهذا يعني أن مدة احتلالهم للقلعة قد استمر ما بين ثمانين وتسعين سنة. وأقاموا اقطاعهم على أرضه بهدف ما يمكن أن يطلق عليه بحسب لغة المصطلحات الحديثة اسم (تأمين العمق الاستراتيجي للكيانات الصليبية) وجعلوا من الكرك قاعدة لأعمالهم العدوانية ضد الحجاز وضد دمشق.

غير أن هذه الأعمال العدوانية استثارت غضب المسلمين. ولا ريب أن هذه الأعمال

قد ساعدت على تصعيد وتيرة الصراع المسلح بصورة مستمرة ومنتظمة. وقد كانت ممارسات الفرنج في التعرض لقوافل المسلمين ـ لاسيما عندما كانت هناك فترات هدنة ـ وكذلك قيام الفرنج بالتعرض لمدن المسلمين ـ وخاصة تلك التي تركت اثراً عميقاً في نفوس المسلمين عندما وجه ـ رينالد شاتيون ـ[1] حملته الى الحجاز ـ كانت هي لاسباب المباشرة لمعركة حطين.

لقد أقام الفرنج الصليبيون ممالكهم واماراتهم واقطاعاتهم في بلاد الشام، من خلال هجومهم الشامل في حملتهم الصليبية الأولى، ولعل هذا ما يفسر سهولة استيلائهم على القلاع والتحصينات ومقابل ذلك، فقد حاول نور الدين زنكي إخراج الفرنج الصليبيين من قلعة الكرك مرتين. وفعل صلاح الدين الأيوبي مثل ذلك عبر محاولات الحصار المتتالية. وكان الفشل من نصيب هذه المحاولات جميعها لمجموعة من الأسباب التي أبرزتها مسيرة الأحداث ذاتها. فقد كانت قلعة الكرك تحتل موقعاً حصيناً، غير أن موقعها لم يكن هو السبب فيما اكتسبته من الشهرة الدفاعية، وإنما كان السبب هو في ارتباطها بمجموعة من التحصينات المماثلة هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، فان ما كانت تتلقاه القلعة من دعم خارجي خلال تعرضها للحصار كان عاملاً أساسياً وحاسماً في مساعدتها على الصمود والمقاومة. ولهذا فعندما تم تحرير القدس والمناطق المجاورة لها. وأصبحت قلعة الكرك معزولة عن محيطها الخارجي، اكتفى صلاح الدين بترك قوة صغيرة لحصار القلعة، ولم يستخدم ضدها المنجنيقات أو أدوات الحصار الأخرى. حتى إذا ما نضجت الثمرة تحت نار الحصار الهادئة، سقطت بصورة تلقائية، فتلقفتها قبضة المسلمين، واحتفظت بها.

إن اتساع قلعة الكرك. وما توافر لها من أسباب الدفاع، ثم ما حشد فيها من

---

(١) رينالد شاتيون: (RENAULT DE CHATILLON) وقد وصفه ابن الأثير في الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة ٥٨٣ هـ ـ بما يلي: «كان البرنس أرناط صاحب الكرك من أعظم الفرنج وأخبثهم وأشدهم عداوة للمسلمين، وأعظمهم ضرراً عليهم. وقد وقع في أسر صلاح الدين الأيوبي يوم حطين. فقرعه بذنوبه، وعدد عليه عوراته، وقام إليه بنفسه فضرب رقبته. وقال: كنت نذرت دفعتين أن أقتله إن ظفرت به: إحداهما لما أراد المسير الى مكة والمدينة. والثانية لما أخذ القفل غدراً».

متطلبات الحرب لمدة طويلة، وتجهيزها بوسائل الترف، إنما يبرهن على المكانة الرفيعة التي احتلتها قلعة الكرك أيام الحروب الصليبية القديمة، باعتبارها عاصمة اقليم ما وراء نهر الأردن، ثم باعتبارها القاعدة المتقدمة للدفاع عن الامارات والممالك الصليبية، وللهجوم على بلاد المسلمين الداخلية في الوقت ذاته. ويمكن بعدئذ اعتبار استيلاء الفرنج على الكرك، ثم قيام المسلمين بطردهم منها، بمثابة برهان على الحقيقة الثابتة وهي: **(تفوق الهجوم على الدفاع)** وهذه الحقيقة بدورها هي أساس حقيقة ثانية معروفة وهي: **(انه من المحال مجابهة الدفاع الشامل بغير هجوم شامل) .**

وإذا كانت قلعة الكرك قد انتظمت في إطار خطة دفاعية استراتيجية. فقد كان من المحال التعامل معها على مستوى هجمات محدودة على مستوى العمليات أو على المستوى التعبوي ـ التكتيكي ـ. وهذا ما أكدته تجارب الحصار الفاشلة المتتالية. فكان لا بد من انتظار نتائج الهجوم الشامل ـ الاستراتيجي ـ الذي بدأت بمعركة حطين، حتى يتم اخضاع حاميات القلاع والحصون المنيعة ـ وفي مقدمتها قلعة الكرك.

٨ ـ قلعة بعلبك .

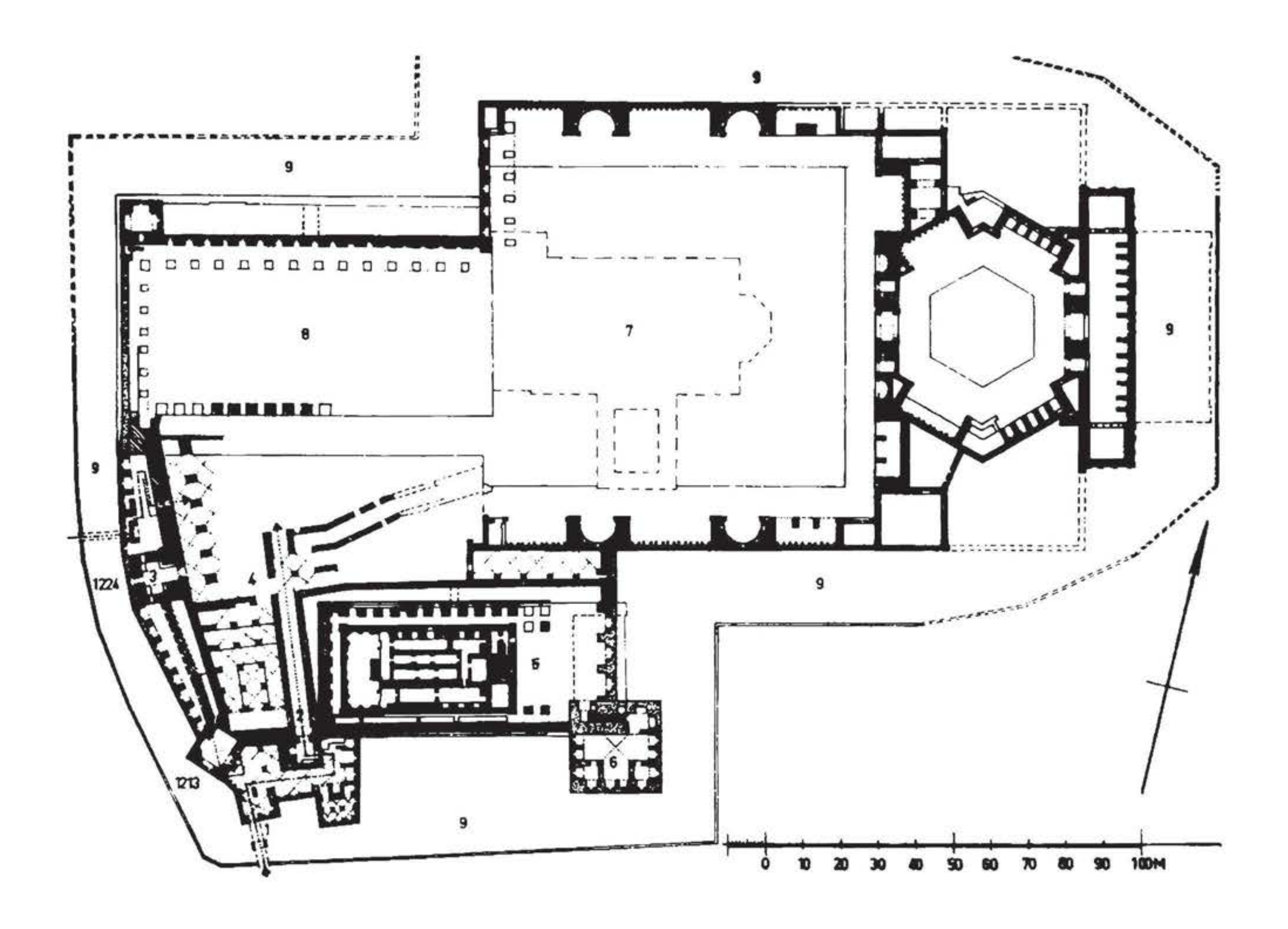
بعلبك[١] هي بلدة صغيرة في البقاع ، تحتل موقعها على هضبة مرتفعة تقع بين سلسلتي جبال لبنان الغربية والشرقية ، اشتهرت بمعابدها القديمة . وقد حولت أرباض المعبد الكبير الذي يعود تاريخه إلى حقب مختلفة من عصر الامبراطورية الرومانية إلى قلعة ، وأدخلت عليها تحسينات متتالية خلال العصور الوسطى ، بإضافة أسوار محيطية جديدة مع أبراج . وعلى الرغم من أن علماء الآثار والمهتمين بها ، قد نجحوا في المحافظة على آثار هذه التحصينات ضمن الحدود التي لا تتعدى فيها على المباني القديمة العهد ، فإن بعلبك تظهر بشكل مدهش كيف كان تكيف صروح العالم القديمة الضخمة لتستغل في العصور الوسطى . وقد وصف المؤرخ أبو الفداء مدينة بعلبك بقوله : « هي بلدة قديمة ذات أسوار ، ولها قلعة حصينة عظيمة البناء ، وهي ذات أشجار وأنهار وأعين ، وهي كثيرة الخير . قال في العزيزي : وبعلبك مدينة جليلة قديمة ، بها مذبح ، تقول الصابئة : أنه بيوت من بيوتهم عظيم عندهم جداً . ومن بعلبك إلى الزبداني ثمانية عشر ميلاً . والزبداني مدينة ليس لها أسوار . وهي على طرف وادي بردى ، والبساتين متصلة من هناك إلى دمشق . وهي بلد حسن المنازه ـ المنتزهات ـ والخصب . ومنه إلى دمشق ثمانية عشر ميلاً »[٢] .

كانت بعلبك تحت حكم الروم ـ البيزنطيين ـ عندما انطلقت جيوش العرب المسلمين لفتح بلاد الشام . وما إن فرغ العرب المسلمون من فتح دمشق ، وتدمير تجمع الروم في فحل ـ بيسان ـ حتى انطلقت جيوشهم لمناطق العمل المخصصة لها ، تنفيذاً

---

(١) بَعَلْبَكْ أو بَعْلَبَكْ : (BA'ALBEK) أو باليونانية هليوبوليس HELIOPOLIS وبالفرنجية بالبك : (BALBEK) وماوبك : (MAUBEK) .

(٢) القلاع أيام الحروب الصليبية ـ ص : ٦٧ ـ ٦٨ .



بعلبك

مخطط عام لأرباض المعبد التي حولت لقلعة، المقياس ١/٢٠٠٠. رسمت مباني عصر الإمبراطورية الرومانية باللون الأسود، والمباني السابقة لمنتصف القرن الثاني عشر بالتهشير المتقاطع، والمباني العائدة للنصف الأول من القرن الثالث عشر بالتهشير، ومباني أواخر القرن الثالث عشر بالتنقيط.

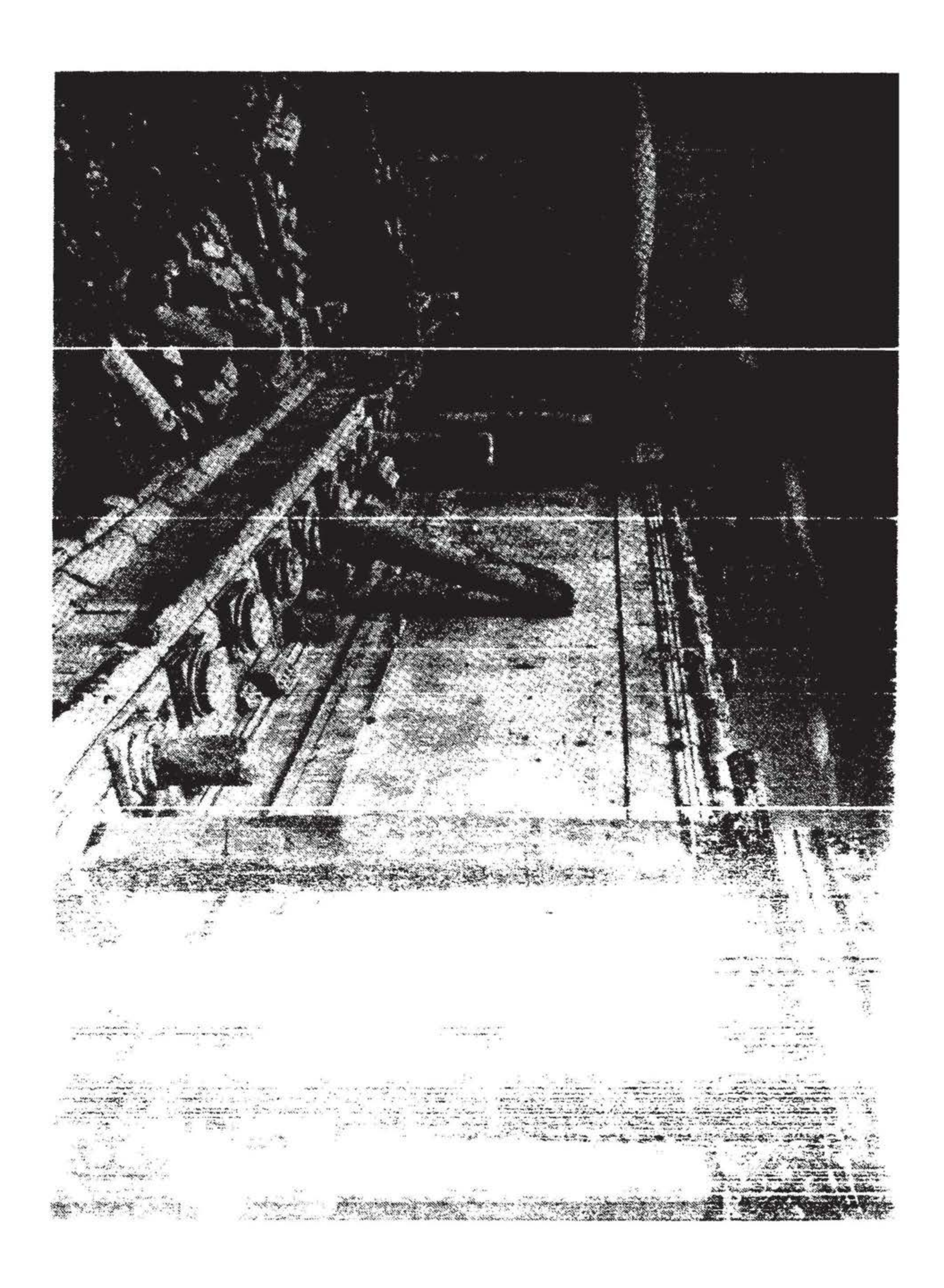
١ ـ حصن أمامي. ٢ ـ البوابة الجنوبية الداخلية، ٣ ـ البوابة الغربية القديمة، ٤ ـ مسجد متصدع، ٥ ـ هيكل باخوس مع إضافات من العصور الوسطى، ٦ ـ برج السلطان قلاوون، ٧ ـ كنيسة بيزنطية (أزيلت أثناء التنقيب)، ٨ ـ أساسات هيكل جوبيتر، ٩ ـ خنادق دفاعية. (بالاستناد إلى شولتز ـ وينفلد ـ كرينكر مع تكبيرها من قبل المؤلف).



تصميم هياكل بعلبك



أعمدة هيكل جوبيتر الست في بعلبك





بعلبك

لأمر أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه [1] فكان من نصيب أبو عبيدة بن الجراح ومعه خالد بن الوليد، فتح شمال بلاد الشام. فسار أبو عبيدة على محور مرج الصفر ـ البقاع ـ حمص. وكان لزاماً أن تصطدم قوات العرب المسلمين بالحامية البيزنطية في بعلبك. ولم تلبث أسوار بعلبك وتحصيناتها أن أسلمت قيادها بعد قليل من المقاومة للجند المجاهدين في سبيل الله. وأصبحت بعلبك، عاصمة البقاع، قاعدة للإسلام والمسلمين منذ فتحها (سنة ١٦ هـ = ٦٣٧ م). وجابهت بعلبك موقفاً صعباً سنة ١٢٧ هـ = ٧٤٤ م عندما أوغل الروم في تقدمهم عبر بلاد الشام. ووصلوا إلى بعلبك، وتمكنوا من تدمير تحصيناتها تدميراً جزئياً. وعاد الروم بقيادة الامبراطور (جون تزيميسكس) [2] فهاجموا بعلبك سنة ٣٦٤ هـ = ٩٧٤ م واحتلوها لفترة قصيرة، ودمروا بعضاً من أسوارها وتحصيناتها. وعندما جاء الفرنج الصليبيون لغزو بلاد الشام منحدرين من الشمال، واجتازوا أنطاكية، وجدوا أنفسهم مرغمين للسير على أحد محورين للوصول إلى القدس: فإما طريق الساحل، وإما الطريق البديل الممتد من شمال بلاد الشام إلى فلسطين عبر وادي نهر العاصي ـ من حماه إلى حمص، ثم إلى أحد طريقين أولها على طريق الساحل مروراً بمدينة طرابلس ـ والثاني يتجه إلى بعلبك ثم الى منابع نهر الأردن عبر دمشق ـ ولما كان هذا المحور سيصطدم بالمدن الداخلية القوية، فقد فضل الفرنج تجنبه. وبقيت بعلبك بعيدة عن قبضة الفرنج الصليبيين بفضل ارتباطها بأمير دمشق [3]

غير أن ذلك لم يمنع الفرنج من محاولة السيطرة على عاصمة البقاع باعتبارها العقدة الهامة على طرق مواصلاتهم، والتي يمكن بواسطتها فرض السيطرة على سهل البقاع الخصيب بأكمله. وجاءت فرصة مؤاتية عندما اتصل حاكم بعلبك (كمشتكين التاجي ـ الخصي) بالفرنج، وتعهد لهم بتسليمهم القلعة مقابل إبقائه حاكماً مستقلاً لها.

---

(١) انظر الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ وتاريخ الطبري ـ أحداث سنة ١٥ هـ ـ لمطالعة تفاصيل الفتح.

(٢) جون تزيمبيسكس: (JOHN-TZIMISCES).

(٣) تاريخ الحروب الصليبية: ٢/٩٥ و ١٥٤ و ١٥٧.

ولكن حاكم دمشق (بوري بن أتابك) علم بذلك، فأحبط المؤامرة قبل الشروع في تنفيذها. وطرد كمشتكين من منصبه، وعين محله ابنه (شمس الدولة محمد). ولكن بعلبك لم تستقر طويلاً تحت حكمه، فقد قتل حاكم دمشق - شهاب الدين محمود بن تاج الملوك بوري بن طغدكين، أو طغتكين - فأسرع عماد الدين أتابك زنكي بن آقسنقر إلى دمشق، وعندما عرف أنه لن يتمكن من فتحها أو اخضاعها لحكمه، اتجه الى بعلبك، ونازلها، وضيق عليها، وجد في محاربتها، ونصب عليها من المنجنيقات أربعة عشر عدداً ترمي ليلاً ونهاراً، حتى أشرف من بها على الهلاك، وطلبوا الأمان. وسلموا إليه البلدة. وبقيت القلعة وبها جماعة من شجعان الأتراك، فقاتلهم حتى أيسوا وطلبوا الأمان، فأمنهم، فأسلموا اليه القلعة [1]. وأصبحت بعلبك وقلعتها، تحت حكم الزنكيين. فلما توفي السلطان أتابك عماد الدين زنكي (سنة ٥٤١ هـ = ١١٤٦ م) أسرع حاكم دمشق - معين الدين أنز - فأرسل قواته واستعاد بعلبك، كما أرغم أميري حمص وحماه على إعلان تبعيتهما لدمشق. لكن نور الدين زنكي تابع السير على نهج والده في محاربة الفرنج. وما لبث أن بسط نفوذه على مدن حماه وحمص ودمشق، وأخضعها لحكمه (سنة ٥٤٩ هـ = ١١٥٤ م). وكان من المفروض أن تخضع بعلبك لنور الدين زنكي بعد أن خضعت دمشق لحكمه. لكن بعلبك كانت في تلك الفترة تحت حكم (ضحاك البقاعي) الذي نسب الى بقاع بعلبك -. وكان قد ولاه إياها حاكم دمشق. فلما ملك نور الدين دمشق، امتنع ضحاك بها، ولم يتمكن نور الدين من محاصرته لقربه من الفرنج، فتلطف الحال معه إلى أن ملكها واستولى عليها (سنة ٥٥٢ هـ = ١١٥٧ م)[2]. وحدث أن تعرضت بعلبك لزلازل عظيمة وهزات أرضية متتابعة، لم يرَ الناس مثلها، وتهدمت أسوار بعلبك.

فلما علم نور الدين زنكي بذلك، سار إلى بعلبك ليعمر ما تهدم من سورها

---

(١) الكامل في التاريخ احداث سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة. وتاريخ الحروب الصليبية: ٣١٢/٢ و ٣٢٢.

(٢) لمطالعة المزيد عن تفاصيل هذه الأحداث يمكن العودة للكامل في التاريخ، احداث سنوات ٥٤١ و ٥٤٩ و ٥٥٢ هـ. وعن دور الأيوبيين (أسد الدين شيركوه ونجم الدين أيوب) واتصالهما بالزنكيين وحكمهما لدمشق وبعلبك، انظر أحداث سنة ٥٦٤ هـ - في الكامل للتاريخ أيضاً.

وقلعتها. ثم جعل ببعلبك من يعمرها ويحفظها ـ يدافع عنها ـ. وسار إلى حمص. فلما توفي نور الدين زنكي (سنة ٥٦٩ هـ = ١١٧٣ م. أسرع صلاح الدين الأيوبي، فسار من مصر الى بلاد الشام فملك مدن دمشق. وحمص وحماه. ثم سار إلى بعلبك ـ وبها خادم اسمه يمن وهو وال عليها من أيام نور الدين ـ فحصرها صلاح الدين، فأرسل ـ يمـن ـ بطلب الأمان له ولمن عنده، فأمنه صلاح الدين وتسلم القلعة رابع عشر من رمضان من سنة سبعين وخمسمائة (١١٧٤ م). واتجه صلاح الدين شمالاً للاستيلاء على حلب. وأفاد الفرنج من ذلك، فسار حاكم طرابلس ـ الكونت ريموند ـ من البقيعة للاغارة على بعلبك والاستيلاء عليها. وقدم من الجنوب جيش مملكة القدس بقيادة همفري سيد تبنين ـ وملك القدس الذي لم يكن قد تجاوز الخامسة عشرة من عمره ـ. وتعرض ريموند للهزيمة على يد أمير بعلبك (ابن المقدم). وزال الخطر عن بعلبك التي بقيت تابعة لحكم الأيوبيين. فلما توفي صلاح الدين بقيت بعلبك تحت حكم أخيه ـ بهرام شاه ـ الذي بذل جهده لإعادة تحصين القلعة وإضافة عدد من الأبراج إليها مع دعم أسوارها. وعندما اجتاح المغول التتار بلاد الشام (سنة ٦٥٩ هـ = ١٢٦٠ م) جعل قائدهم ـ كتبغا ـ من بعلبك قاعدة له، فلما علم بتحرك المسلمين من مصر بقيادة المظفر قطز، غادر بجيشه بعلبك، وسار إلى وادي نهر الأردن، فلما دارت رحى معركة عين جـالـوت، وطحنـت جيش المغـول وقتلـت كتبغـا، اضطـر فـل ـ فلول ـ المغول للانسحاب من بلاد الشام، وعملوا كما جرت عليه عادتهم من التخريب. فدمروا بعلبك،وجاء المسلمون وأعادوا ترميمها واصلاحها بسرعة. ودعمت بعد فترة قصيرة على يد السلطان قلاوون الذي شيد برج المدفعية الضخم المجاور لمعبد باخوس. وقوى السور الغربي للقلعة، وأضاف حصناً أمامياً إلى البوابة الجنوبية.

هكذا بقيت بعلبك وقلعتها قاعدة للمسلمين، وتتابع على حكمها (البوريون)[1] ثم

---

(١) البوريون: سلالة من الأتراك ـ السلاجقة ـ حكموا دمشق، وحملوا اسمهم نسبة الى تاج الملوك بوري ابن طغتكين الذي ولي حكم دمشق سنة ٤٩٧ هـ = ١١٠٣ م وذلك بعد وفاة حاكمها دقاق بن تتش ابن ألب أرسلان. وقد تولى بوري بن طغتكين الدفاع عن دمشق وبعلبك، وكانت له وقائع شهيرة مع الفرنج، وطعنه أحد الباطنية ـ الاسماعيلية ـ غيلة سنة ٥٢٥ هـ = ١١٣٠ م. فتوفي متأثراً بجراحه =

الزنكيون وتبعهم الأيوبيون حتى جاء المماليك[1] بعد ذلك. ولم تخرج عن حكم المسلمين إلا لفترة قصيرة خلال هجوم المغول التتار ـ بقيادة كتبغا ـ. وخلال هذه الفترة من تاريخ الحروب الصليبية القديمة. تلاحم تاريخ بعلبك بتاريخ دمشق، حيث كانت بعلبك هي القاعدة المتقدمة الأساسية للدفاع عن دمشق. ومقابل ذلك، فقد مارست بعلبك تأثيرها ونفوذها لتوجيه سياسة دمشق، وظهر ذلك واضحاً عندما عمل الأيوبيون في مقدمة جيش نور الدين زنكي. وكذلك، فعندما امتنعت دمشق على نور الدين أسهم نجم الدين أيوب وأخيه سيف الدين شيركوه في استثارة دمشق وفتح أبوابها لجيش نور الدين. ولقد كانت تلاحم دمشق وبعلبك خلال تلك المرحلة كمثل تلاحم الأيوبيين بالزنكيين، حيث أفاد الأيوبيون ـ على ما هو معروف ـ من قوة الزنكيين الذين مهدوا لهم حكم مصر، حتى إذا ما حكموها واستقلوا بها، عادوا للاستيلاء على أملاك الزنكيين بالشام. وكان الأمر المهم في ذلك كله هو أن ذلك التلاحم قد ضمن القوة للمسلمين في حروبهم ضد الفرنج الغزاة. وعلى هذا، وبالرغم من أهمية الدور الكبير الذي اضطلعت به بعلبك في الدفاع عن دمشق خاصة، وفي حرب الفرنج في جنوب بلاد الشام عامة، إلا أن دورها السياسي كان أكثر عمقاً وأشد قوة من دورها في الحرب. وبذلك لم تكن قوة بعلبك أيام الحروب الصليبية هي في منعة تحصيناتها أو متانة أسوارها أو قدرة دفاعاتها، وإنما كانت في قدرتها الكامنة في تصميمها العنيد على التصدي لحرب الفرنج الغزاة، وفي استعداد أهلها الدائم للحرب والقتال. ويظهر العرض الوجيز السابق أن بعلبك لم تتعرض لهجمات الفرنج مباشرة ولم تجابه حصارهم. وباستثناء أعمال الحصار التي قام بها المسلمون بعضهم ضد بعض. على أسوار بعلبك وتحصيناتها، فان غزوات الفرنج لم تتجاوز أرباض بعلبك، وكان أهل بعلبك وجيشها

= (سنة ٥٢٦ هـ) وخلفه على حكم دمشق ابنه شمس الملوك اسماعيل، وعلى حكم بعلبك ابنه شمس الدولة محمد.

(١) المماليك، هم الذين حكموا بلاد الشام ومصر بعد الأيوبيين، ومنهم المماليك البحرية بداية من شجرة الدر والمعز عزّ الدين ايبك، ثم المظفر قطز والظاهر بيبرس وسيف الدين قلاوون، وقد حكموا من سنة ٦٤٨ حتى سنة ٧٩٢ هـ (١٢٥٠ ـ ١٣٨٩ م) وجاء بعدهم المماليك البرجية الذين كان آخرهم طومان بأي وقانصوه الغوري وهما اللذين قضى عليهما الأتراك العثمانيون سنة (٩٠٧ هـ = ١٥٠١ م).

يسرعون للقاء الفرنج وقتالهم بعيداً عن أسوار مدينتهم وتحصيناتها. فكانوا هم الذين يحمون الأسوار والتحصينات وليست هي التي تحميهم. وكانت بعلبك ترسل جيشها للقتال مع جيوش المسلمين الأخرى، سواء للدفاع عن دمشق، أو للقتال في فلسطين، أو للهجوم على مواقع الفرنج ومدنهم في الساحل (طرابلس). ولم يكن اهتمام أمراء بعلبك المتتابعين، بتحصين مدينتهم وترميم أسوارها كلما أصابها التلف أو الدمار بتأثير العوامل الطبيعية - الزلازل - إلا لدعم قاعدة المسلمين في البقاع، وإلا من قبيل التدابير الاحترازية. فالمسلمون هنا، كما كانوا في دمشق، وكما كانوا في بقية العواصم والمدن الإسلامية، يعتمدون على القلاع والتحصينات لمجابهة المواقف المباغتة والهجمات الطارئة. وكانت أساليبهم الهجومية تفرض عليهم باستمرار عدم الاعتماد على وسائط الدفاع إلا لفترات محدودة، ولمجابهة أوضاع استثنائية، وبقي الهجوم هو نهجهم الأساسي لمجابهة الأعمال العدوانية للفرنج. وكانت الانتصارات التي يحرزونها في معظم الحالات تأتي لتعزز من نهجهم القتالي الهجومي. وهذا مما يبرهن بالتالي أن دور تحصينات بعلبك وأسوارها لم يكن إلا دوراً ثانوياً في تأمين الدفاع عن بعلبك وحمايتها. وبقيت سيوف المسلمين ودروعهم - في بعلبك ودمشق - هي الحصون الرئيسة وهي الأسوار المنيعة للدفاع عن عواصم الإسلام في أشد الظروف قسوة وأصعبها.

لقد مثلت بعلبك وقلعتها في هذا المضمار النموذج الأفضل والشكل الأوضح للحرب الدفاعية في المذهب العسكري الإسلامي، وهي الحرب التي لا تعتمد في أعمالها القتالية على المواقع والتحصينات إلا من أجل الانطلاق للهجوم. فإذا ما دعى الداعي للحرب والقتال، لم يتثاقل المجاهدون في سبيل الله، اعتماداً منهم على منعة مواقعهم وقوة تحصيناتهم، وإنما نفروا خفافاً، وطاروا سراعاً للقاء العدو بحثاً عن إحدى الحسنيين. وقد أظهر ذلك بوضوح وجلاء الفضائل الحربية للمجاهدين المسلمين وأبرزها الاستعداد الدائم للقتال، والمرونة وخفة الحركة. فالمسافة بين دمشق وبعلبك، أو بين بعلبك وطرابلس، ليست مسافة قصيرة بالمقارنة مع وسائل القدرة الحركية التي كانت تستخدمها القوات - الخيول -. ولكن قوات المجاهدين التي عاشت على صهوات خيولها لم تكن تجد في المسافات الجغرافية إلا بساطاً لابراز قدرتها الحركية

العالية، وإلا مسطحاً لتأكيد قدرتها الهجومية. ولم تكن هذه الفضائل الحربية حكراً - أو ميزة - انفردت بها قوات بعلبك ودمشق دون سواها من جيوش المدن والأقاليم الإسلامية، ولو أنها ظهرت بشكلها الأكثر وضوحاً في تحركات جيشي بعلبك ودمشق وعملياتها القتالية. وفي الحقيقة، فان هذه الفضائل هي الإرث الذي خلفته قوات الفتح منذ انطلاقتها الأولى من جزيرة العرب وهي تحمل راية الإسلام، وجاء الخلف فحافظوا على ارث السلف، وعملوا على الإفادة منه وتطويره، مما أكد التزام المسلمين عبر الأزمنة المتتالية بالأسس والمبادىء التي برهنت باستمرار على نجاعتها وفاعليتها وصلاحيتها. ولقد وقفت بعلبك وقلعتها، وسط الأحداث المثيرة التي حملتها هجمات الفرنج الصليبيين، وعاشت هذه الأحداث وهي ترقب ما يحدث حولها، وعملت على تقويم المواقف وتصحيح مساراتها. ولقد دانت بعلبك وأهلها للإسلام، وارتضته ديناً فحرصت على حمايته من كل انحراف ومن كل سوء. فكانت رؤيتها ورؤية أهلها للأمور واضحة جلية: لقد جاء الفرنج الصليبيون بأحفادهم وأسلحتهم وأعتدتهم وهم يبغون تدمير الإسلام وأهله في إطار حرب هجومية شاملة، فكان لا بد من الرد على هذا المستوى ذاته. ولقد انطلقت شرارة التحول من بعلبك، فكانت هي السبيل لفتح دمشق أمام الزنكيين، وكانت هي المنطلق للأيوبيين من أجل إعادة فتح مصر وإنهاء عزلتها عن العالم الإسلامي - السني -. وكانت هي باستمرار النموذج الأفضل للحرب الدفاعية - الهجومية ضد الفرنج. لا في حدود بعلبك وحدها، وإنما في سهل البقاع الخصيب كله، وفي سائر بلاد الشام. وتتابعت دهور وعصور، وجاء الفرنسيون تحت راية الانتداب في القرن العشرين، فسرقوا بعض حجارتها، وسلبوا بعض آثارها ونقلوها إلى عاصمتهم - باريس - وحاولوا الوصول الى أعماق الأرض في محاولة لنبش مجد الروم البيزنطيين، والتذكير بأنه كان للصليبية في هذه الأرض مربعاً ومرتعاً، وتجاهلوا ما كانت تنطق به الحجارة التي حملوها معهم والتي كانت برهاناً على أنه لا مكان على هذه الأرض إلا للإسلام وأهله.

٩ ـ قلعة بغراس.

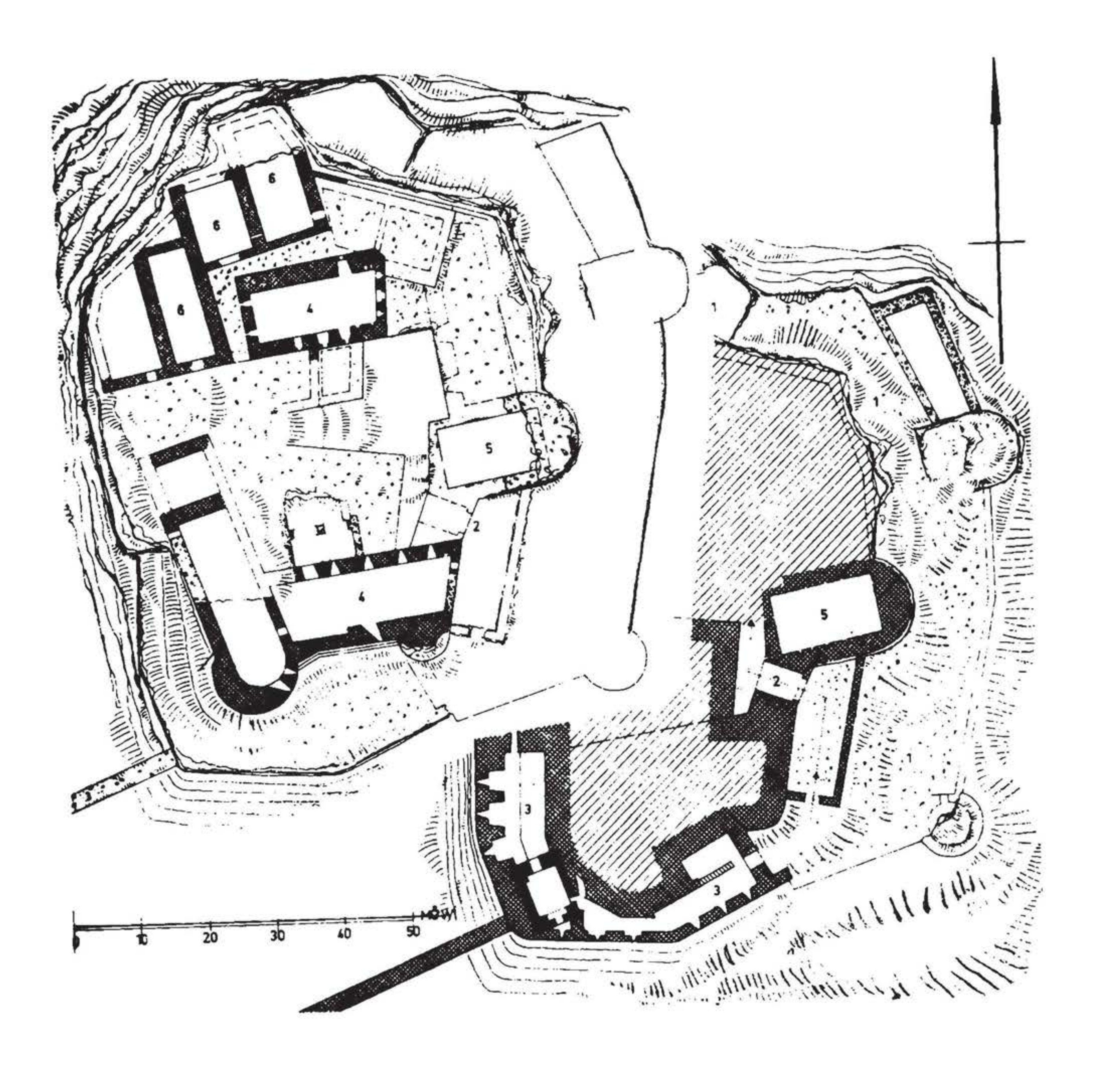
(بغراس)[١] هي قلعة وقرية صغيرة في اقليم اسكندرون، تقع بين الشعاب الشرقية للسلسلة الجبلية التي تكون ـ قيزيل ضاي والأمانوس ـ وهي مثل ـ حصن الحصار ـ الذي يسيطر على شعب بيلان ذاته، وكانت تشكل مفتاح الطريق الواصل بين انطاكية ـ الاسكندرون ـ قيليقية، وقد بقيت القلعة وهي في حالة جيدة، تطل على واد جبلي فوق مخروط صخري ينحدر بشدة من جميع الجهات. ولقد شيدت القلعة على عدة مستويات بسبب شدة انحدار السفوح الصخرية، وترتبط بعضها ببعض بممرات ومدرجات ـ سلالم ـ وهي بذلك تتماشى مع الأرض المحيطة بها. ويتشابه تصميمها مع تصميم القلاع الأرمنية في قيليقية ـ أو كيليكيا ـ. وإذا ما أمكن تجاوز تلك الغرف العديدة ذات العقود، وممراتها الكثيرة المبنية داخل المنحدرات، فان ما بقي من القلعة العلوية لا يزيد على بقايا قاعتين كبيرتين. وتوجد عند أقدام القلعة قناة مائية ضخمة كانت تستخدم أيضاً لإغلاق القسم العلوي من الوادي. وقد أورد المؤرخ أبو الفداء في مؤلفه ـ تقويم البلدان ـ وصفاً لقلعة بغراس تضمن ما يلي: «هي قلعة مرتفعة، ولها أعين وواد وبساتين. وقال ابن حوقل: وبغراس على طريق الثغور. وكان بها دار ضيافة لزبيدة، قال في العزيزي: وبغراس بينها وبين أنطاكية اثنا عشر ميلاً. وبينها وبين اسكندرونة أيضاً اثنا عشر ميلاً. وهي في الجبل المطل على عمق حارم. وحارم في جهة الشرق منها. وبينهما نحو مرحلتين. وبغراس في جهة الجنوب عن دربساك، وبينهما بعض مرحلة»[٢].

كان الروم قد أقاموا بين الاسكندرونة وطرطوس سلسلة من الحصون والقلاع

---

(١) بغراس: (BAGRAS) وبالتركية بايراس: (BAGRAS) وباليونانية باغراي. أما بالفرنسية فتعرف باسم باغاراس ـ أو غاستون ـ GASTUN وغاستين: (GASTIN) وغواستون: (GUASTON).

(٢) القلاع أيام الحروب الصليبية. ص: ٥٨ ـ ٥٩.

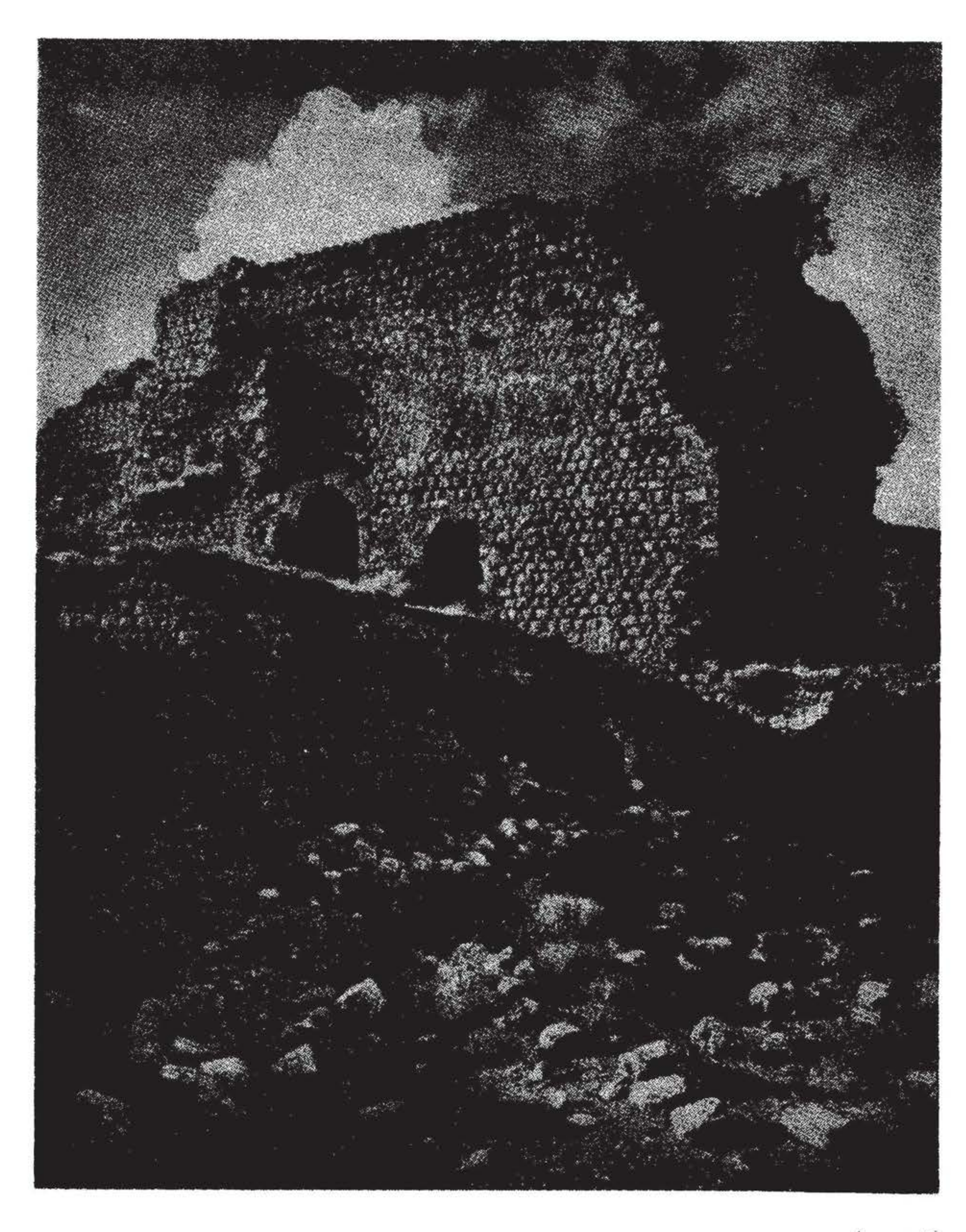


بغراس Bagras مخطط أرضي للقلعة، مقياس ١/١٠٠٠.

أ ـ القلعة السفلية والأرضية السفلية للقلعة العليا.

ب ـ الأرضية العلوية للقلعة العلوية (مباني الأرضية السفلية مبنية بالرسم المنقط) مع مباني الطور الأول (البيزنطي) وهي مرسومة بالخط الأسود، بينما رسم القسم الذي يعود تاريخه الى القرنين الثاني عشر والثالث عشر بالتهشير الكثيف.

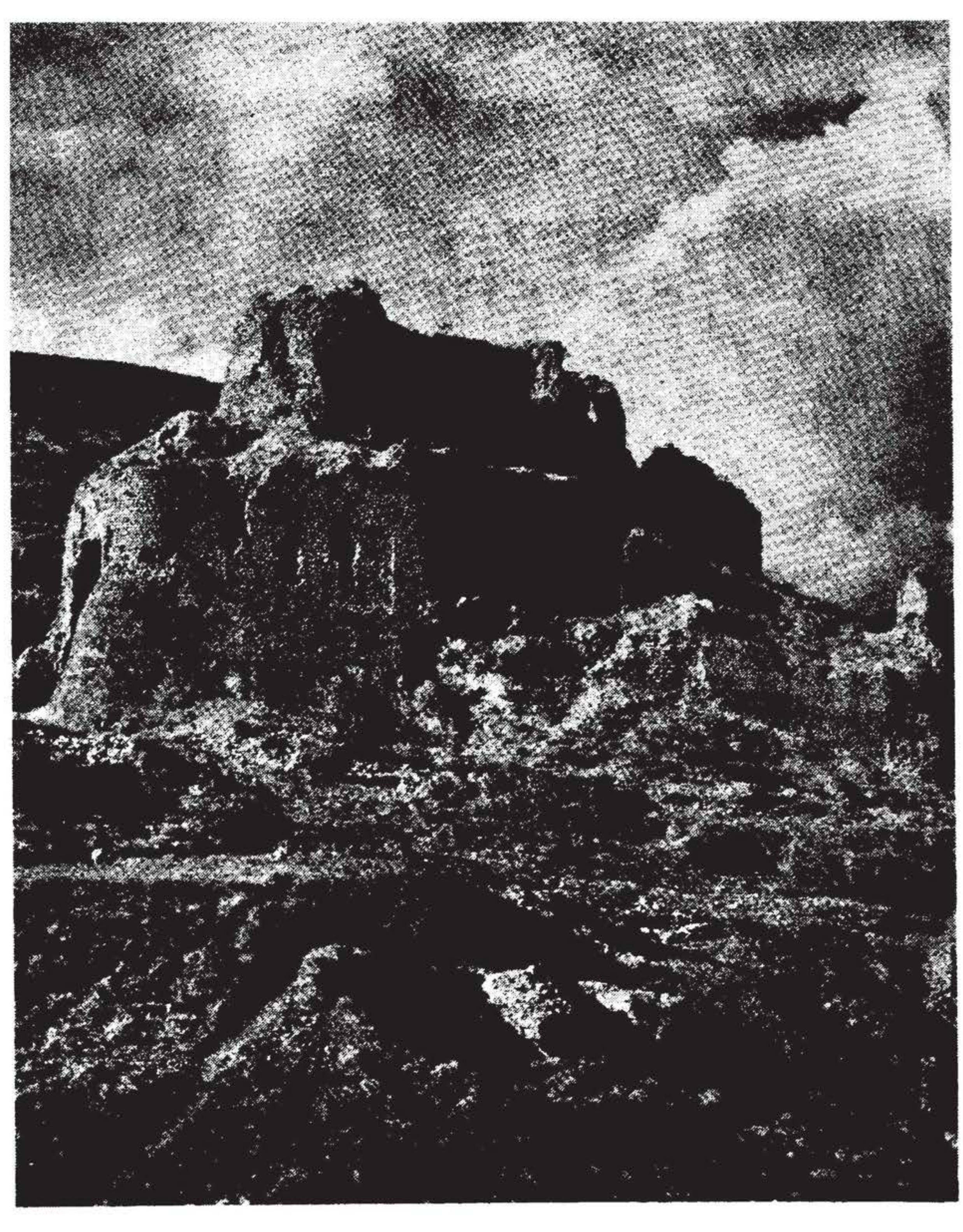
١ ـ القلعة السفلى، ٢ ـ ساحة أمامية وحصن الحرس (حصن البوابة)، ٣ ـ الشرفة السفلى، ٤ ـ مباني القصر، ٥ ـ البرج الكبير، ٦ ـ غرف المستودعات.



قلعة بغراس



قلعة بغراس



قلعة بغراس

والمسالح. وعندما فتح العرب المسلمون بلاد الشام، وطردوا الروم منها، عمل الروم على اجلاء سكان هذه المنطقة، فأصبحت خالية من السكان. وقد رغب الروم في اجلاء سكان مناطق الحدود عن مدنهم وقراهم بهدف تدمير المنطقة وافقارها، ومن ثم استخدامها مسرحاً للقتال وذلك بزج مجموعات صغرى من المقاتلين في تلك الحصون والمسالح - والتي أطلق عليها العرب المسلمون اسم المطامير - للقيام بمهمة قطع الطريق على قوات العرب المسلمين عند عودتها من غزو ما وراء الدروب، ونصب الكمائن والقيام بالإغارات على مؤخرات قوات العرب المسلمين وقتل المتخلفين أو المنعزلين عن كتلة القوات الرئيسة، لاحباط الروح المعنوية للمجاهدين في سبيل الله. وكان قائد فتح بلاد الشام - أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه - هو أول من وصل بغزواته - الصوائف - الى الحصون القائمة فيما وراء الدروب. فمرّ بالمصيصة وطرطوس. وقام بجولة على الحصون المحيطة بهذه الثغور، فوجدها خالية من السكان، ثم دفع بقوات للغزو - بقيادة ميسرة بن مسروق العبسي - فبلغ زنده. ثم عاد بصائفته. وعندما تمردت انطاكية بعد فتحها بفترة وجيزة - وبتحريض من الروم البيزنطيين - أعاد أبو عبيدة فتحها، ووجه مجموعة قتالية كبيرة بقيادة ميسرة للتوغل في بلاد الروم عن طريق بغرامس - أو بغراس - والتقى ميسرة بجيش من الروم ومعهم مستعربة غسان وتنوخ وإياد يريدون اللحاق بهرقل. فدارت معركة قاسية، ووصلت امدادات إلى ميسرة ساعدته على هزيمة الروم وتدمير قواتهم. ثم قام معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه بقيادة الصائفة، وتوجه بها عبر الدروب الى الثغور المتقدمة. ووجد معاوية أن الحصون بين أنطاكية وطرطوس خالية، فنقل إليها جماعة من أهل الشام وقنسرين، وأصبحت انطاكية - منذ سنة ٢٥ هـ = ٦٤٥ م - وطوال عهد معاوية، هي الثغر الرئيسي لانطلاق الصوائف. وفي العام ٣١ هـ = ٦٥١ م. عاد معاوية ثانية لقيادة الصائفة من ناحية المصيصة ووصل حتى درولية، وخلال عودته دمّر جميع حصون الروم التي في طريقه حتى وصل انطاكية [١].

---

(١) فتوح البلدان - البلاذري - ص: ١٦٢.

ويظهر أنه كانت لقلعة (بغراس) مكانة مميزة بين مجموعة القلاع والحصون التي أقامها الروم فيما بين انطاكية وطرطوس، إذ كان الدرب الذي يخترقها قد حمل اسمها، ولكن وبالرغم من ذلك فان دور بغراس لم يكن منفصلاً أو مستقلاً عن دور بقية قلاع ما وراء الدروب. والمعروف أن الصراع بين العرب المسلمين وبين الروم قد استمر قروناً بعد ذلك، وتركز هذا الصراع على الدروب، أو ما يمكن تسميته محاور العبور الطبيعية، أو الممرات الاستراتيجية الاجبارية، بين سلاسل الجبال الفاصلة بين بلاد الشام وبين بلاد الروم. ولم يكن النصر دائماً لمصلحة المسلمين، فقد أفاد الروم أحياناً من الاضطرابات الداخلية في بلاد الشام للقيام بهجمات كبيرة وصلت إلى عمق بلاد الشام مثل حمص وبيروت. وكان من الطبيعي أن تتعرض بغراس وسواها من قلاع الدروب للتدمير المتتابع أثناء مرور الجيوش بها جيئة وذهاباً، مما كان يدفع لإعادة بنائها وتجديدها. فلم يكن من الغريب ـ بالتالي ـ أن يختلط تاريخ بناء قلعة بغراس على الباحثين وعلماء الآثار، إذ ليس لبغراس تاريخ دقيق ومحدد لبنائها وانشائها. فإذا كان الروم البيزنطيون هم الذين شيدوها قبل الفتح العربي ـ الإسلامي، لايقاف هجمات الفرس المحتملة عبر الصراع الفارسي ـ البيزنطي الذي استمر قروناً متتالية. فان الأمر الذي لا يقبل الجدل هو أن قلعة بغراس قد أصبحت موطناً لقوات العرب المسلمين طوال العهد الأموي وصدر العهد العباسي الأول على الأقل، وذلك باستثناء فترات قصيرة جداً من هذين العهدين (الأموي والعباسي). ولقد أفادت الحاميات العربية ـ الإسلامية بالتأكيد من موقع قلعة بغراس، وما توافر له من الأهمية الجيواستراتيجية. فعملت هذه الحاميات على دعم تحصينات القلعة وزيادة منعتها. ولقد أغفلت المصادر العربية وغير العربية ـ البيزنطية ـ دور هذه القلاع، ذلك لأنه لم يكن لها في الواقع دور أساسي وحاسم في الصراع، إذ أنها لم تكن أكثر من مراكز أمنية متقدمة، للجيوش التي تنطلق عبر الدروب للوصول الى الثغور ـ العواصم ـ القائمة على طرفي الجبال الفاصلة بين بلاد المسلمين وبلاد الروم. ولقد برزت عبر الصراع المستمر أسماء عدد من العواصم مثل هرقلة وعمورية وملطية ومرعش والحدث وزبطرة وملازكرد وسواها، بسبب ارتباطها بمعارك حاسمة وشهيرة، في حين لم يكن لقلاع

الدروب وحصونها - ومنها قلعة بغراس - إلا دور ثانوي مثل الرصد والانذار والقتال التأخيري - الإعاقة -. وهي من الأعمال التي لا تحظى عادة باهتمام الكتاب والمؤرخين، سواء في القديم أو في الأزمنة الحديثة - وذلك رغم أهمية مثل هذه الأعمال وخطورتها وتأثيرها - تأثيراً حاسماً في بعض الأحيان - على مسيرة الأعمال القتالية.

عندما انحدرت جحافل الفرنج الصليبيين من بلاد الروم الى بلاد الشام عبر الدروب (سنة ٤٩١ هـ = ١٠٩٧ م). كانت السيطرة على الدروب في قبضة السلاجقة الذين كانت عاصمتهم - نيقية - وكان ملكهم آنذاك السلطان قلج أرسلان الأول، والذين كان ينازعهم السلطة على حدودهم الشرقية التركمان - الدانشمند - وهم الذين اتخذوا من ملطية عاصمة لهم. في حين كان أمير الأرمن - جبرائيل - يمارس دوره لاذكاء روح الفتنة، وتجديد الصراع بين (الدانشمند)[1] والسلاجقة حتى يحتفظ بقوته وملكه. وعندما وصل الفرنج الصليبيون، عمل الأرمن أدلاء لهم عبر الدروب بهدف إقامة كيان مستقل لهم، مما مكنهم من بسط نفوذهم على ممتلكات السلاجقة وقلاعهم في قيليقية، غير أن التركمان نجحوا في استعادة السيطرة عليها بعد عبور جحافل الفرنج. ثم عاود الأرمن فرض هيمنتهم عليها. وفي سنة ٥٣١ هـ = ١١٣٦ م، تعاظمت قوة المسلمين في الشمال من بلاد الشام. فخاف الفرنج من أن ينقطع عليهم طريق اتصالهم البري: «فبعثوا إلى ملك الروم في القسطنطينية يستصرخون به، ويعرفونه حقيقة الموقف. فسار ملك الروم مجداً، وابتدأ بركوب البحر حتى نزل بأنطاكية. وأقام ينتظر المراكب التي فيها أثقاله وسلاحه. فلما وصلت سار عنها إلى مدينة نيقية فحصرها، فصالحه أهلها على مال يؤدونه، فسار عنها إلى مدينة أذنة ومدينة المصيصة - وهما بيد ابن ليون الأرمني - صاحب قلاع الدروب، فحصرها وملكها. ورحل إلى - عين زربة - فحصرها وملكها عنوة، وملك تل حمدون... ثم رحل عنها إلى بغراس، ودخل منها إلى بلد ابن ليون الأرمني. فبذل ابن ليون أموالاً كثيرة، ودخل في

---

(١) الدانشمند - زعيم التركمان، واسمه (الدانشمند طايلو) وكان له ولدان كمشتكين واسماعيل وقد أقاما في آسيا الصغرى. وقد قيل لكمشتكين - ابن الدانشمند - لأن أباه كان معلماً للتركمان، وتقلبت به الأحوال حتى ملك ملطية وسيواس وغيرهما - ابن الأثير - أحداث سنة ٤٩٣ هـ.

طاعته »[1] وفي سنة ٥٣٧ هـ = ١١٤٢ م « كان امبراطور الروم البيزنطيين ـ يوحنا ـ متأهباً للعودة الى الشام، فاندفع نحو الشرق قاصداً قيليقية العليا، ليسترد الحصون التي سبق أن انتزعها الدانشمنديون، ثم ظهر فجأة عند تل باشر ـ الحاضرة الثانية لجوسلين كونت الرها. فأسرع الكونت جوسلين وقد أذهلته المباغتة، وبذل يمين التبعية للأمبراطور يوحنا الذي تابع سيره حتى بلغ بغراس ـ وهي الحصن الكبير الذي أصبح في حوزة الفرسان الداوية والذي يتحكم في الطريق المؤدي من قيليقية إلى أنطاكية. ثم عاد إلى بلاده »[2] وبقيت بغراس قاعدة للعدوان مما حمل نور الدين زنكي لمهاجمة إمارة أنطاكية سنة ٥٤٤ هـ = ١١٤٩ م. حيث دارت معركة في بغراس، انتصر فيها نور الدين على ريموند كونت انطاكية[3].

وقام الأرمن سنة ٥٤٨ هـ = ١١٥٣ م بالتوغل في إقليم اسكندرونة، الذي اعتبره الفرنج جزءاً من إمارة انطاكية. فقام أمير انطاكية الجديد (رينالد) بإرجاع الأرمن إلى قيليقية بعد معركة قصيرة قرب اسكندرونة، ثم أهدى الاقليم الذي استولى عليه إلى طائفة فرسان الداوية الذين تولوا أمر اسكندرونة، وأعادوا بناء قلعتي قسطون وبغراس اللتين تتحكمان في الدروب. ولم يلبث فرسان الداوية أن وسعوا حدود إقطاعهم في الإقليم المحيط بقلعة بغراس. وعرف نور الدين زنكي بما هو قائم من خلاف بين الأرمن والفرنج، وعمل على استثمار هذا الخلاف، فدعم زعيم الأرمن ـ توماس ـ[4] بالقوات، مما مكنه من استعادة سيطرته على المصيصة وأذنة وطرسوس، ثم هاجم الداوية في بغراس. غير أن الداوية نجحوا في احباط هذا الهجوم، واحتفظوا بقلعتهم بغراس، حتى إذا ما كانت سنة ٥٨٤ هـ = ١١٨٨ م. وأحرز صلاح الدين الأيوبي انتصاره في حطين وفتح القدس وكثيراً من قلاع بلاد الشام ومدنها، سار شمالاً

---

(١) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ احداث سنة ٥٣١ هـ.

(٢) تاريخ الحروب الصليبية: ٣٥٥/٢ ـ ٣٥٦.

(٣) تاريخ الحروب الصليبية: ٥٢٤/٢ والكامل في التاريخ ـ أحداث سنتي ٥٤٣ و ٥٤٤ هـ.

(٤) تاريخ الحروب الصليبية: ٥٥٩/٢ و ٦٠٨. كما ورد في الصفحة ٦٢٩ بما يلي: « كان توماس هذا قد انخرط في وقت من الأوقات في سلك الداوية، ثم هرب إلى نور الدين زنكي فاعتنق الإسلام ».

ففتح درب ساك. ثم سار إلى قلعة ـ بغراس ـ فحصرها. وحدث خلاف بينه وبين أصحابه ـ قادته ـ بشأن حصارها، فمنهم من وافق عليه، ومنهم من قال: بأنه حصن حصين وقلعة منيعة، وهو بالقرب من انطاكية، ولا فرق بين حصره وحصرها، ويحتاج أن يكون أكثر العساكر مقابل انطاكية، فإذا ما تم ذلك قـلَّ عدد المقاتلين عليها. إلا أن صلاح الدين لم يأخذ بهذا الرأي، وجعل عسكره مقابل انطاكية، يغيرون على أعمالها، وكانوا حذرين خوفاً من أهلها إن هم غفلوا لقربهم منها. ومضى صلاح الدين في بعض جنده الى قلعة بغراس فقاتلها، ونصب المنجنيقات، فلم يؤثر فيها شيئاً لعلوها وارتفاعها. فغلب على الظنون تعذر فتحها وتأخر ملكها. وشق على المسلمين قلة الماء عندهم، ولكن صلاح الدين نصب الحياض وأمر بحمل الماء إليها، فخفف الأمر عليهم. فبينما هو على هذه الحال، إذ فتح باب القلعة، وخرج منه إنسان يطلب الأمان، فأجيب إلى ذلك، وأذن له في الحضور، فحضر وطلب الأمان لمن في الحصن حتى يسلموه إليه بما فيه. فأجابهم صلاح الدين إلى ما طلبوا. فعاد الرسول ومعه الأعلام الإسلامية، فرفعت على رأس القلعة، ونزل من فيها، وتسلم المسلمون بغراس بما فيها من ذخائر وأموال وسلاح. وأمر صلاح الدين بتخريبه فخرب. وكان ذلك مضرة عظيمة على المسلمين. إذ أن صاحب الأرمن ـ ابن ليون ـ خرج إليه من ولايته، وهو مجاوره، فجدد عمارته وأتقنه، وجعل فيه جماعة من عسكره، يغيرون منه على البلاد. فتضرر بذلك المسلمون»[1].

وهكذا، ومع ابتعاد صلاح الدين ورجاله عن قلعة بغراس، أسرع ملك أرمينية ـ ليو ـ فاحتل القلعة. ولما كان ملك أنطاكية (بوهمند الثالث) هو صاحب إقطاع الدروب. فقد توجه إلى ـ ليو ـ بطلب إعادة قلعة بغراس إلى فرسان الداوية. غير أن الملك الأرمني ليو رفض الطلب. فتوجه بوهمند بطلبه إلى صلاح الدين، ولكن صلاح الدين لم يتدخل في الأمر، وظلت قلعة بغراس في حوزة الأرمن. وقد أثار استنجاد بوهمند بصلاح الدين غضب الملك ليو، ولكن زوجة بوهمند ـ سبيللا ـ

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ٧٦١/٢. والكامل في التاريخ ـ احداث سنة ٥٨٤ هـ.

تدخلت لتهدئة ثائرة الملك ليو ، وذلك بهدف الحصول على دعمه ومساعدته من أجل نقل إرث انطاكية الى ابنها وليم ، على حساب أبناء زوجها الآخرين .

وحدث في تشرين الأول ـ اكتوبر ـ سنة ١١٩٣ م (٥٩٠ هـ) أن عمل الملك ليو على توجيه دعوة إلى بوهمند ، للقدوم إلى بغراس من أجل تسوية المشكلة بكاملها . واستجاب ملك انطاكية للدعوة ، فجاء إلى بغراس وبصحبته زوجته سبيللا وابنها . وقبل بوهمند ما عرضه ليو من استضافته داخل أسوار قلعة بغراس . ولكن لم يكد بوهمند يدخل القلعة حتى وجد نفسه أسيراً في قبضة مضيفه ، ومعه كل أفراد حاشيته . وجرى إخطاره بأنه لن يطلق سراحه ما لم يتنازل عن السيادة على انطاكية لمضيفه ليو . وقبل بوهمند والحزن يمزقه شروط ليو ، ولعله لم يفعل ذلك إلا بتحريض زوجته سبيللا التي كانت تأمل في أن يعمل ليو متى صارت إليه السيادة على انطاكية على أن يجعل لابنها وراثة الحكم في انطاكية . وتقرر ارسال مارشال بوهمند ـ وهو بارثولوميو توريل ـ مع جند من الأرمن إلى انطاكية ، لإعداد المدينة للعهد الجديد .

ووصل مارشال الكونت بوهمند الى انطاكية ، وأظهر الأمراء ـ البارونات ـ الذين تجري في عروق عدد كبير منهم الدماء الأرمنية ، استعدادهم لقبول ليو ملكاً عليهم . وسمحوا لبارثولوميو أن يدخل بالعساكر الأرمنية إلى أنطاكية ، وبأن يستقروا في قصر أميرها بوهمند . ولكن المستوطنين من اللاتين واليونانيين ارتاعوا لما حدث ، وخافوا من أن يقوم ليو بحكم انطاكية بنفسه ، مما يسمح للأرمن بالسيطرة عليها ، ونجح هؤلاء بإشعال نار الثورة بالقصر ثم بالمدينة ، وتم طرد الأرمن منها ، فرجع هؤلاء إلى بغراس . وتشكل بانطاكية كومون ـ إدارة ـ لحكم المدينة خلال فترة غياب ملكها الشرعي بوهمند . وأقسم أعضاء الكومون ـ الإدارة ـ يمين الولاء لريموند أكبر أبناء بوهمند . وأسرعت إدارة انطاكية بارسال طلب النجدة من كونت طرابلس ـ شقيق بوهمند ـ . واستجاب كونت طرابلس للطلب ، فشعر ليو أن فرصته قد ضاعت ، فما كان منه إلا أن نقل أسراه من قلعة بغراس الى عاصمته ـ سيس ـ . وقام الفرنج بالوساطة بين ليو وبين بوهمند . وجاء هنري كونت شامبانيا فتحالف مع الإسماعيلية ـ الحشاشين ـ لمصلحة بوهمند كونت انطاكية . ثم توجه الى سيس فقابل

ليو، وتم الاتفاق على اطلاق سراح بوهمند مقابل الاعتراف بأن تبقى بغراس وما حولها من أملاك أرمينية، وألا يكون لأي من الأميرين السيادة على الآخر.

وبرزت للوجود من جديد المملكة الأرمنية، فكان يوماً تاريخياً حافلاً عند الأرمن. على أن هذه التسوية المؤقتة لم تضمن عدم تجدد الصراع بين الأرمن وبين الافرنج في أنطاكية. فأخذ الفرنج بحشد القوى ضد أرمينيا وملكها. وكان فرسان الداوية من أشد الناس حماسة لانطاكية، نظراً لاحتفاظ الملك ليو بقلعة بغراس وما حولها. ومقابل ذلك، فقد ظفر ملك الأرمن - ليو - بالتحالف مع بابا روما. فما كان من الداوية إلا أن نقلوا إلى روما كل ما توافر لهم من النفوذ والتأثير لممارسة الضغط على البابا من أجل اقناع ليو بإعادة بغراس إليهم. لكن الملك ليو أغفل كل تلميح بشأن اعادة بغراس الى الداوية. نظراً لما كانت تمثله بغراس بالنسبة إليه من الأهمية من حيث ضمان السيطرة على انطاكية. وأدى تمسك الطرفان - الأرمن والفرنج - بمواقفهما إلى اندلاع نار الحرب بين أرمينية وأنطاكية، وهو الصراع الذي استمر طوال فترة ربع القرن التالي (من سنة ٥٩٨ الى سنة ٦٢٢ هـ = ١٢٠١ حتى ١٢٢٥ م) وجرّ معه المسلمين الى دائرة الصراع. وقد بدأ ذلك عندما أعلن كونت طرابلس - بوهمند - نفسه أميراً على انطاكية بعد وفاة والده - بوهمند الثالث - متحدياً بذلك حقوق ابن أخيه - ريموند روبين -. فما كان من ملك أرمينيا - ليو - إلا أن زاد إصراراً على التمسك بحقه في إسناد إمارة أنطاكية إلى ابن اخته ريموند. وزاد الأمر تعقيداً بما نشب من شجار بين ليو وبين الداوية، بعد أن رفض ليو أن يعيد إليهم قلعتهم - بغراس - وعندئذ انحاز فرسان الاسبتارية الى الملك ليو في مقاومته لمشاريع بوهمند، الذي كان باستطاعته الاعتماد على دعم الأتراك السلاجقة لأنهم كانوا في حرب مستمرة مع ملك أرمينيا - ليو -. ومقابل ذلك، كان باستطاعة بوهمند الاعتماد على دعم أمير حلب - الظاهر غازي -. وأرسلت الكنيسة سفارة من قبلها للوساطة. فتظاهر ليو بقبول حكم البابا في روما. غير أن رفض الصلح مع الداوية، أو التنازل لهم عن بغراس وفقاً لما أمر به البابا كان بمثابة رفض لحكم البابا. وقرر ليو حسم الصراع، فألقى في سنة ٦٠١ هـ (نهاية سنة ١٢٠٤ م) الحصار

على انطاكية. ولكنه اضطر لرفع الحصار بعد فترة قصيرة عندما تقدم جيش حلب بقيادة الظاهر غازي لنجدة بوهمند.

ضجر البابا من هذا الصراع الذي لم يقف عند حد، فعهد إلى بطريرك القدس بمسؤولية تسويته. وحدث في سنة ٦٠٥ هـ = ١٢٠٨ م أن اشتد غيظ ملك أرمينيا ليو، فخرب ما يحيط بانطاكية من بلاد. وفشلت سفارة بطريرك القدس في مهمتها بسبب إصرار ليو على عدم منح بغراس للداوية. وفي سنة ٦١٣ هـ = ١٢١٦ م استطاع ليو بما دبره من مؤامرة ناجحة احتلال انطاكية دون قتال. ولفرط فرحه بما حققه من نتيجة باهرة بعد الحرب الطويلة، ردّ بغراس الى الداوية، كما أعاد إلى الكنيسة اللاتينية أراضيها في قيليقية. غير أن انتصاره كلفه ما حدث من استيلاء سلطان السلاجقة - كيكاوس - في قونية، على حصون تقع الى غرب قيليقية وعبر جبال طوروس.

عادت قلعة بغراس أخيراً للفرسان الداوية الذين عاودوا الأخذ بنهجهم العدواني وتحديهم الاستفزازي. فقاموا سنة ٦٣٥ هـ = ١٢٣٧ م بالانقضاض من بغراس على القبائل التركمانية النازلة إلى الشرق من بحيرة أنطاكية، والتي كانت مستقرة في مرابعها ومواطنها آمنة مطمئنة، فتحرك جيش حلب بكامل قوته للانتقام من الداوية، وحاصر بغراس، التي لم ينقذها إلا قدوم أمير أنطاكية - بوهمند الخامس - الذي عقد مع أمير حلب هدنة لمدة عشر سنوات. غير أن فرسان الداوية نقضوا الهدنة، فعاد جيش حلب ودمر جيش فرسان الداوية الصغير، وقتل مقدم الداوية - وليم مونتفيرات - ووقع معظم رفاقه في الأسر [١] .

المعروف بعد ذلك أن أميري أنطاكية وأرمينية قد تحالفا مع المغول التتار عندما جاء هؤلاء لغزو بلاد الشام، فلما أسفرت معركة عين جالوت (٦٥٩ هـ = ١٢٦٠ م) عن انتصار المسلمين وطرد التتار. قرر المسلمون - المماليك - الانتقام من حلفاء المغول التتار. وعرف ذلك أمير أرمينية - هيثوم - فحاول مصالحة الظاهر بيبرس، فلما فشل في محاولته توجه إلى بلاط الايلخان في تبريز يطلب دعمه. وأثناء ذلك،

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ٣/١٦٢ - ١٦٣ و ٢٤٢ - ٢٤٨ و ٥٦٠ و ٦٦٠.

احتشد أضخم جيش للمماليك في حمص بقيادة قلاوون الذي عرف بأنه من أكثر قادة السلطان بيبرس قدرة وكفاءة. وسار إلى انطاكية، فتولى ولدي هيثوم (ليو - وثوروس) قيادة الدفاع عن أرمينية، وقام فرسان الداوية في بغراس بحماية جناحي جيش أرمينية.

غير أن المعركة التي وقعت يوم ٢٤ - آب - أغسطس - سنة ١٢٦٦ م (٦٦٥ هـ) أسفرت عن تدمير جيش أرمينية وقتل ثوروس ووقوع ليو في الأسر. وانساب المسلمون الظافرون في قيليقية، فدمروا طرسوس وأذنة وأياس والمصيصة وعاصمة الأرمن - سيس - وكانت نهاية أرمينية. ثم تبعها سقوط أنطاكية في قبضة المسلمين (سنة ٦٦٧ هـ = ١٢٦٨ م). ولما ضعفت أرمينية ودمرت أنطاكية، قرر الداوية أنه بات من المحال عليهم الاحتفاظ بقلاعهم في جبال الأمانوس، فجلوا بدون قتال عن بغراس - وعن قلعة لاروش دي روسول - التي تقل عن بغراس شأناً. ومضى زمن بغراس بجلاء الغزاة الفرنج عن بلاد الشام - شمالها وجنوبها - وسيطر الأتراك المسلمون لا على سهول قيليقية فحسب، بل انسابوا الى الغرب، مطوقين بذلك دولة الروم البيزنطيين من جميع جهاتها. فكان في ذلك بداية النهاية لدولة الروم ذاتها.

١ ـ قلعة دمشق.

دمشق هي أقدم مدينة على الأرض ـ هكذا قيل ـ وإن لم تكن كذلك فهي من المدن القديمة التي عاشت تجربة الحياة الإنسانية على الأرض. ولكن. وعلى الرغم من رسوخ قدمها في عمق التاريخ، فانها لم تكن لتتجاوز في أهميتها وقيمتها حدود واحة صحراوية أو حاضرة تجارية، لولا الفتح العربي ـ الإسلامي. فقد جاءها العرب المسلمون ووقفوا أمام أسوارها أشهراً[١] حتى خضعت لهم ـ بعضها سلماً وبعضها حرباً ـ ثم اعتنقت الإسلام ديناً (منذ سنة ١٣ هـ = ٦٣٤ م) وتولى سيد من حكم الدنيا حكمها ـ معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ـ في سنة ١٨ هـ = ٦٣٩ م. وأصبحت عاصمة الدولة العربية ـ الإسلامية (الأموية) منذ عام الجماعة ومبايعة معاوية بالخلافة سنة ٤١ هـ = ٦٦١ م. وانطلقت منها جيوش الفتح العربي ـ الإسلامي شرقاً وغرباً. واستقرت فيها أمجاد العرب المسلمين وعزهم وسؤددهم. فلا هو أمر غريب إن حفظت في قلبها الولاء لبني أمية وقد عرفت فيهم أصالة العرب وصدق الإسلام وفضائله. وتوالت بعد ذلك عهود وعهود. وانتقلت منها العاصمة الى توأمها بغداد بقيام الحكم العباسي (سنة ١٣٢ هـ = ٧٤٩ م) وتبدلت الدنيا من حول دمشق وما تبدلت دمشق. وتقلبت الأقوام وما تقلب القوم في دمشق. وبقوا لعهد

---

(١) دمشق، أو جلق، أو داري سليمان نسبة إلى دمشق وتدمر. وعن اشتقاق تسمية دمشق انظر تهذيب ابن عساكر ـ مطبعة روضة الشام ـ سنة ١٣٢٩ (١٤/١ ـ ١٨) وعن فتح دمشق ـ قال القعقاع بن عمرو التميمي (المصدر ذاته ص: ١٥٦).

أقمنا على داري سليمان أشهرا	نجالد روما وما قد حلنا بصارم
قصصنا إلى الباب العراقي عنوة	فدان لنا مستسلماً كل قائم
أقول وقد دارت رحانا بدارهم	أقيموا لهم حرّ الدرى بالغلاصم
فلما زأرنا في دمشق نحورهم	وتدمر عضوا منها بالأباهم.

الإسلام راعون، وبأصالة العرب متمسكون، يوالون من صدق إسلامه، وينفرون ممن انحرف عن عقيدته. وأصبحت دمشق مع الأيام نموذجاً لصفاء المعتقد والإخلاص له، ومثلاً للوفاء بالقول والعمل. حتى إذا ما جاء الفرنج الصليبيون وطرقوا بابها بعد استيلائهم على القدس (سنة ٤٩٢ هـ = ١٠٩٨ م) ثار غضب دمشق، وانتصبت أسوارها شاهقة لا ترام، ومنيعة لا تضعف ولا يتطرق إليها الوهن.

فلقد تطلع الفرنج الصليبيون نحو دمشق بمجرد استقرارهم في القدس. وعرفت دمشق ذلك، وأدرك أهلها بما توافر لهم من الخبرات القتالية المتراكمة أنه من المحال البقاء في موقع الدفاع عن دمشق وحدها، وأنه من المحال أيضاً تنظيم الدفاع إلا في إطار هجومي يتطلب من القوى والامكانات أكبر مما تمتلكه دمشق وحدها. وهكذا انطلقت دمشق، وانطلق أهل دمشق، لمجابهة الغزاة الفرنج في كل موقع تستطيع الوصول اليه قواتها. ومضت دمشق، ومضى أهل دمشق، لاستنفار القوى وحشد الامكانات. وجرت سنة ٤٩٩ هـ = ١٠٩٨ م أول وقعة كبيرة بين جيش دمشق وبين جيش الفرنج «وكان سبب ذلك هو تكرر الحروب والغارات بين عسكر دمشق وعسكر بغدوين[1] فتارة لهؤلاء وتارة لهؤلاء. وعمل بغدوين في نهاية الأمر على تشييد حصن بينه وبين دمشق نحو يومين. فخاف أمير دمشق ـ طغتكين عاقبة ذلك، وما يحصل من الضرر، فجمع عسكره وخرج لمقاتلتهم. فسار ملك القدس بغدوين وعكا وغيرهما لدعم حاكم الجليل ـ تانكرد ـ[2] وليعاضده ويساعده على المسلمين. فأعلمه تانكرد أنه قادر على مقارعة المسلمين وحده إن هم قاتلوه. فعاد بغدوين إلى عكا.

---

(١) بغدوين كما تذكره المصادر العربية هو ـ بلدوين ـ شقيق ملك القدس ـ جودفري كونت اللورين GEOFFROY الذي كان أحد كبار قادة الحملة الصليبية الأولى. ولد سنة ١٠٦٠ م واشترك في قيادة الحملة ومعه أخويه يوستاس وبلدوين. وعندما تم الاستيلاء على القدس أصبح جودفري ملكاً عليها. لكنه ما لبث أن مات سنة ١١٠٠ م. فتولى أخوه بلدوين الملك على مملكة القدس.

(٢) تانكرد: (TANCREDE) أمير صقلي، من عائلة هوتفيل النورماندية، وهو أحد قادة الحملة الصليبية الأولى. اشترك في الاستيلاء على القدس، ثم أصبح أميراً للجليل، ثم أميراً على أنطاكية. ومات سنة ١١١٢ م.

وتقدم طغتكين بجيش دمشق. فجابهه الفرنج، واقتتلوا أشد قتال. فانهزم أميران من عسكر دمشق، فتبعهما طغتكين وقتلهما، وانهزم الفرنج إلى حصنهم فاحتموا به. فقال طغتكين: من أحسن قتالهم وطلب مني أمراً فعلته معه، ومن أتاني بحجر من حجارة الحصن أعطيته خمسة دنانير. فبذل الرجالة نفوسهم وصعدوا إلى الحصن وخربوه وحملوا حجارته الى طغتكين فوفى لهم بما وعدهم. وأمر بالقاء الحجارة في الوادي. وأسروا من بالحصن، فأمر طغتكين بقتلهم فقتلوا جميعاً. واستبقى الفرسان أسراء، وكانوا مائتي فارس. ولم ينج ممن كان في الحصن إلا القليل، وعاد طغتكين إلى دمشق منصوراً. ثم خرج منها إلى - رفنية -[١] وهو من حصون الشام التي ملكها الفرنج، فحصره طغتكين وملكه وقتل به خمسمائة رجل من الفرنج»[٢].

أرسل طغتكين بعد ذلك جيش دمشق لنصرة طرابلس التي كان يحاصرها الفرنج. ولكن نتيجة المعركة لم تكن لمصلحة المسلمين، وذلك سنة ٥٠٢ هـ = ١١٠٨ م. وبقيت دمشق قاعدة ثابتة للمسلمين في جهدهم وجهادهم. فقد عمل طغتكين على دعم حاكم - أمير - طرابلس وجبيل وبانياس (فخر الملك ابن عمار). فلما استولى الفرنج على طرابلس وبيروت سنة ٥٠٣ هـ = ١١٠٩ م. لجأ فخر الملك الى دمشق هو ومن معه من العرب المسلمين، فأقطعهم طغتكين منطقة الزبداني التي هي من أغنى مناطق دمشق. واتفق طغتكين مع أمير الموصل - مودود - وسار جيشاهما فنزلا على نهر العاصي. ولما علم الفرنج، ساروا إلى شيزر. وتحرك جيش دمشق وجيش الموصل فنزلا في مواجهتهم سنة ٥٠٥ هـ = ١١١١ م. وضيق المسلمون على الفرنج، وقطعوا عنهم خطوط امدادهم وتموينهم، واستثاروهم للقتال. غير أن الفرنج الذين عرفوا قوة المسلمين، وأيقنوا بتصميمهم على القتال، قرروا الانسحاب، وتبعهم المسلمون، فتخطفوا من أدركوه من ساقتهم - مؤخرتهم -. وحدث بعدئذ أن احتل الفرنج قلعة رفنية القريبة من دمشق سنة ٥٠٩ هـ = ١١١٥ م. وشحنوها بالرجال والذخائر،

---

(١) رفنية تدمر (معجم البلدان).

(٢) الكامل في التاريخ - ابن الأثير - أحداث سنة ٤٩٩ هـ. وتاريخ الحروب الصليبية: ١/٤٣٣ و ٤٣٦ - ٤٣٧ و ٤٥٦ - ٤٥٧.

وبالغوا في تحصينها. « فاهتم حاكم دمشق ـ طغتكين ـ لذلك، وقوي عزمه على قصد بلاد الفرنج بالنهب والتخريب. وعلم طغتكين بضعف قوة الفرنج المدافعين عن رفنية، فسار إليها في قوة خفيفة من الفرسان، وباغت الفرنج، فلم يشعروا به إلا وقد هجم عليهم، ودخل رفنية عنوة وقهراً، وأخذ كل من فيها من الفرنج أسيراً، وقتل بعضهم. وغنم المسلمون من سوادهم وكرائمهم وذخائرهم ما امتلأت منه أيديهم، وعادوا إلى دمشق سالمين »[1].

وهكذا أدت سياسة دمشق الدفاعية ـ الهجومية، وسياسة الفرنج العدوانية إلى تمركز الصراع حول القلاع والحصون المتصلة بدمشق، فقد قام حاكم الجليل ببناء قلعة على الجبال لتتحكم بالطريق الذي كان يربط بين صور وبانياس ودمشق « وهي القلعة التي حملت اسم قلعة تورون ـ أو ـ تبنين » كما شيّد قلعة ثانية على التلال الواقعة إلى الجنوب الغربي من بحيرة طبرية (حملت اسم قلعة علعال) وذلك حتى تكون قاعدة متقدمة للاغارة على الأراضي الخصيبة الواقعة الى الشرق من بحر الجليل. ولم يكن باستطاعة حاكم دمشق ـ طغتكين ـ أن يسمح للفرنج بتهديد موطنه، فاغتنم فرصة قيام حاكم الجليل بالاغارة على الجليل، واستيلائه على غنيمة ثقيلة، فانقض عليه وعلى قواته أثناء عودته بغنيمته إلى (علعال) فقتل حاكم الجليل، وأباد قواته، وأسرع فاستولى على ـ علعال ـ ودمرها، ولما يكتمل بعد تشييدها وتحصينها[2] ثم قام (طغتكين)[3] بالإغارة من جديد على الجليل، وتمكن من أسر قائد الجليل الجديد ومعظم قادة جيشه ـ خارج طبرية ـ.

فعرض ملك القدس بغدوين ـ أو بلدوين ـ عقد هدنة مع دمشق. فاشترط

---

(١) الكامل في التاريخ ـ أحداث السنوات الواردة في مجرى البحث (٥٠٢ و ٥٠٣ و ٥٠٥ و ٥٠٩ هـ).

(٢) تاريخ الحروب الصليبية: ٢/١٥٤ ـ ١٦٠.

(٣) هو ظهير الدين أتابك طغتكين، كان مملوكاً للملك تتش ابن ألب أرسلان ـ السلجوقي. تولى حكم دمشق سنة ٤٩٧ هـ بعد وفاة دقاق بن تتش. وكان عاقلاً خيراً كثير الغزوات والجهاد للفرنج، حسن السيرة في رعيته، مؤثراً للعدل فيهم، ولما توفي سنة ٥٢٢ هـ أوصى بالحكم من بعده لابنه تاج الملوك بوري.

طغتكين إعادة طبرية وعكا وحيفا للمسلمين. فلما رفض بلدوين الطلب، أمر طغتكين بقتل حاكم الجليل وقائدها - جيرفاس بوسوك - ورفع رأسه على رمح، وسير به في مقدمة جيش دمشق الإسلامي المظفر.

ثم تجددت الجهود لعقد هدنة مع دمشق، فتم عقد هدنة مدتها عشر سنوات، تعهد - بموجبها الفرنج بالامتناع خلال مدة الهدنة عن مهاجمة دمشق. ولكن هذه الهدنة لم تمنع الفرنج من مهاجمة بعلبك التي كانت تابعة لدمشق، كما أنها لم تمنع جيش دمشق من تقديم الدعم والمساعدة للمدن الساحلية.

وهكذا نقض الطرفان الهدنة عندما وجدا أنها غير مفيدة لهما.

وحدث في سنة ٥١٢ هـ = ١١١٨ م أن سار أتابك طغتكين من دمشق على رأس جيشه لقتال الفرنج، فنزل بين دير أيوب وكفر بصل باليرموك. فجاءته رسل الفرنج بطلب المهادنة، غير أن الهدنة لم تتجدد بسبب امتناع الفرنج عن قبول شروط طغتكين، فسار طغتكين إلى طبرية فنهبها وما حولها، وسار منها نحو عسقلان لدعم جيش مصر الذي كان يواجه هجوم الفرنج. فأقام الجيشان المسلمان (جيش مصر وجيش دمشق) لمدة شهرين تقريباً. وامتنع الفرنج عن التعرض للمسلمين. فعاد طغتكين الى دمشق، ولكنه علم فور الوصول اليها بأن قوة للفرنج قد استولت على حصن (حبيس جلدك) ونهبت أذرعات، فأرسل اليهم ابنه تاج الملوك بوري، فانسحب الفرنج، غير أن تاج الملوك حاصرهم وضيق عليهم، مما دفعهم إلى مقاتلته قتالاً يائساً انتهى بهزيمة جيش دمشق هزيمة منكرة. فسار طغتكين إلى حلب، وعقد اتفاقاً مع الحاكم الأرتقي ايلغازي لقتال الفرنج، وتبادل الدعم والمساعدة. وأفاد الفرنج من غياب طغتكين فقصدوا حوران ونهبوها، مما اضطر طغتكين للعودة إلى دمشق بسرعة. وتمكن طغتكين من الايقاع بطائفة من الفرنج (سنة ٥١٥ هـ = ١١٢١ م) فقتل منهم وأسر، وأرسل من الأسرى والغنيمة الى الخليفة ببغداد.

ومضت خمسة أعوام، حتى إذا ما كانت سنة ٥٢٠ هـ = ١١٢٦ م اجتمعت الفرنج وملوكها وقماصتها وكنودها - جمع كونت - بقيادة ملكهم بلدوين، وساروا إلى

نواحي دمشق، فنزلوا بمرج الصفر، عند قرية يقال لها سقحبا بالقرب من دمشق، فعظم الأمر على المسلمين واشتد خوفهم. وكاتب طغتكين أمراء التركمان من ديار بكر وغيرها، وجمعهم، وسار بهم عن دمشق إلى جهة الفرنج حيث وقع الصدام بين الجيشين عند تل الشقب على مسافة عشرين ميلاً إلى الجنوب الغربي من دمشق، واشتد القتال، فسقط طغتكين عن فرسه وظن أصحابه أنه قتل فانهزموا، وركب طغتكين فرسه ولحقهم، وتبعهم الفرنج. وبقي التركمان الذين لم يقدروا على اللحاق بجيش دمشق، فلما رأوا فرسان الفرنج وقد تبعوا المنهزمين، ووجدوا أن معسكر الفرنج ورجالهم - مشاتهم - ليس لهم مانع ولا حام، حملوا على الرجالة - المشاة - فقتلوهم، ولم يسلم منهم إلا الشريد. ونهبوا معسكر الفرنج وخيامهم وأموالهم وجميع ما معهم - وفي جملته كنيسة فيها من الذهب والجوهر ما لا يقوم كثرة - فنهبوا ذلك جميعه، وعادوا إلى دمشق سالمين. ولم يعدم منهم أحد. ولما رجع الفرنج من أثر المنهزمين، ورأوا رجالتهم قتلى وأموالهم منهوبة، تموا منهزمين لا يلوي الأخ على أخيه.

وكان هذا من الغريب أن طائفتين تنهزمان كل واحدة من صاحبتها.

وإذا كان الفرنج لم يتمكنوا من إحراز نصر على دمشق، إلا أنهم نجحوا في إعادة الكرة على حصن رفنية الذي يتحكم في المنفذ المؤدي إلى البقيعة من جهة وادي نهر العاصي فملكوه بعد حصار استمر ثمانية عشر يوماً. فضمنوا بذلك الاتصال بين القدس وانطاكية [١].

لقد فشل الفرنج حتى الآن في النيل من صمود دمشق أو إخضاعها، فلجؤوا إلى وسيلة التدمير من الداخل. وتحالفوا مع الاسماعيلية - الباطنية - للسيطرة على دمشق وتسليمها للفرنج (سنة ٥٢٣ هـ = ١١٢٨ م) غير أن طائفة الإسماعيلية فشلت في مهمتها.

فقد اكتشف حاكم دمشق (تاج الملوك بوري بن طغتكين) [٢] المؤامرة، فقتل مقدم

(١) الكامل في التاريخ - أحداث سنة ٥٢٠ هـ وتاريخ الحروب الصليبية: ٢/٢٧٨ - ٢٧٩.

(٢) تاج الملوك بوري ابن طغتكين - أمير دمشق - كان كثير الجهاد، شجاعاً مقداماً، سد مسد أبيه وفاق عليه، وكان ممدحاً أكثر الشعراء من مدحه. طعنه الباطنية فجرحوه جرحين، فبرأ أحدهما، وتنسر الآخر وبقي فيه ألمه، إلا أنه يجلس للناس ويركب معهم على ضعف فيه. فلما كانت السنة التالية

الإسماعيلية ـ المزدقاني ـ ومعه ستة آلاف من أفراد طائفته، وكفى الله المسلمين شرهم، ورد على الكافرين كيدهم. فلما بلغ الفرنج قتل المزدقاني والإسماعيلية، عظم عليهم ذلك، وتأسفوا على دمشق حيث لم يتم لهم ملكها. وغمتهم المصيبة، فاجتمعوا كلهم: ملك القدس بلدوين وكونت انطاكيـة وكونت طرابلس وغيرهم من الفرنج وقمامصتهم ومن وصل إليهم في البحر للتجارة أو للزيارة ـ الحج ـ فاجتمعوا في خلق عظيم ـ نحو ألفي فـارس وأمـا الراجـل فلا يحصى عـدده ـ وسـاروا إلى دمشــق ليحصروها. فنزلوا عند جسر الخشب على مسافة ستة أميال الى الجنوب الغربي من دمشق. وأرسل ملك الفرنج بلدوين قوة كبيرة من جيشه إلى حوران لنهبه والإغارة على البلاد وجمع الميرة ـ التموين ـ. وعلم تاج الملوك بوري بذلك، فجمع العرب والتركمان، فاجتمع معهم ثمانية آلاف فارس، وسير أميراً من أمرائه (اسمه شمس الخواص) في جمع من المسلمين لقتال الفرنج الذين توجهوا إلى حوران، وكان خروجهم في ليلة شاتية كثيرة المطر، ولقوا الفرنج من الغد، فواقعوهم، واقتتلوا قتالاً شديداً، وصبر بعضهم لبعض، فظفر بهم المسلمون وقتلوهم، فلم يفلت منهم غير مقدمهم ـ وليم مور ـ ومعه أربعون رجلاً. وأخذ المسلمون ما كان معهم ـ وهي عشرة آلاف دابة موقرة وثلثمائة أسير ـ وعادوا إلى دمشق، لم يمسسهم قرح. فلما علم من عليها من الفرنج ذلك، ألقى الله في قلوبهم الرعب، فرحلوا عنها شبه المنهزمين. وأحرقوا ما تعذر عليهم حمله من سلاح وميرة وغير ذلك. وتبعهم المسلمون والمطر شديد والبرد عظيم، يقتلون كل من تخلف منهم، فكثر القتلى منهم [1] وصمدت دمشق مرة أخرى.

غير أن الفرنج انتقموا لهزيمتهم بأن حرضوا الاسماعيلية على قتل أمير دمشق ـ تاج الملوك ـ وتم لهم ذلك.

= اشتد عليه الجرح وأضعفه وأسقط قوته، فمات بعد أن أوصى بالحكم من بعده لابنه شمس الملوك إسمعيل (وانظر الكامل في التاريخ ـ أحداث سنتي ٥٢٥ و ٥٢٦ هـ).

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ٢/٢٨٦ ـ ٢٨٨ والكامل في التاريخ ـ أحداث سنة ٥٢٣ هـ.

ولكن دمشق لم تضعف، ولم تهن. إذ ما لبثت أن وجدت لها دعماً بتحالفها مع الزنكيين، وتسليم راية الجهاد لهم، وذلك بعد مرحلة من الاضطراب والصراع الداخلي.

تولى حكم دمشق سنة ٥٢٦ هـ = ١١٣١ م ـ الأمير معين الدين أنز، وذلك بعد اغتيال تاج الملوك بوري ابن طغتكين، فأحسن السيرة، وتابع رفع راية الجهاد، **وحدث سنة ٥٤٢ هـ = ١١٤٧ م، أن أعلن حاكم بصرى وصلخد في حوران ـ واسمه التونتاش وهو أرمني الأصل ـ أعلن تمرده على معين الدين أنز، وطلب الدعم من ملكة القدس ـ ميليسيند ـ التي كانت تمارس دور الوصاية على ابنها البالغ من العمر يومها سبعة عشر عاماً واسمه بلدوين ـ.**

ووجد الفرنج أن الفرصة سانحة لهم للاستيلاء على حوران وتهديد دمشق، فحشدوا قواتهم، وبدؤوا زحفهم. وجرت اتصالات بين الملكة ميليسيند ومعين الدين أنز، أسفرت عن اقتناع الملكة بايقاف الحملة. غير أن رعاع جند الفرنج أعلنوا غضبتهم بسبب التخلي عن غارة مثمرة على بلاد المسلمين، وأصروا على المضي للقتال. فارتاع الملك بلدوين والبارونات، ولم يسعهم إلا النزول على إرادتهم. فسار جيش الفرنج وعبر نهر الأردن، وزحف على اقليم الجولان. وأسرع معين الدين أنز فجمع قواته من العرب والتركمان، وأخذ في ممارسة الضغط على قوات الفرنج أثناء معاناتهم لشق طريقهم عبر وادي اليرموك نحو درعا. وأرسل معين الدين أنز في الوقت ذاته وفداً إلى حلب لطلب الدعم من نور الدين زنكي، فاستجاب نور الدين وأسرع بالتحرك، فالتقى بجيش دمشق، وسار مع معين الدين فوصلا إلى بصرى. ولم يعلم الفرنج بوصول قوات المسلمين إلى بصرى إلا في المساء، وقد أضناهم التعب والارهاق، ونفذت المياه، وأضحت بصرى على مرمى بصرهم. ولما لم تسمح لهم حالتهم بالمضي لقتال المسلمين، فانه لم يبق أمامهم إلا الارتداد والانسحاب. فلقوا أثناء عودتهم من المشاق والصعوبات أكثر بكثير مما لقوه أثناء تقدمهم، إذ نفذت الأطعمة ـ التموين ـ وانطمرت آبار عديدة، وألح المسلمون على مضايقة مؤخرة جيش الفرنج. وقتل المسلمون من صادفهم من الجند الذين ضلوا الطريق. وأظهر ملك الفرنج ـ بلدوين ـ بطولة فائقة بالنسبة إلى صغر عمره، إذ أنه رفض الاقتراح بأن يتخلى عن كتلة جيشه، وأن يلتمس طريق

النجاة بحماية حرسه الخاص. وكان موقفه هذا عاملاً مؤثراً في متابعة الفرنج انسحابهم بنظام، فيما تابع المسلمون ضغطهم على الفرنج، مما أدى إلى وقوع أعنف اشتباك عندما كان جيش الفرنج يعبر نهر الأردن في طريق عودته إلى القدس. وفشلت هذه الحملة التي تطلبت تكاليف باهظة للوصول إلى دمشق التي زادت قوة ومنعة بفضل تحالفها مع نور الدين زنكي [١].

جاءت بعد ذلك الحملة الصليبية الثانية (والتي عرفت باسم حشد الملوك) إذ أنها ضمت ملك فرنسا لويس السابع وملك ألمانيا كنراد وعدد كبير من الأمراء. ولما كانت قوة الألمان في هذه الحملة هي القوة الرئيسة، فقد بقيت هي المهيمنة على خط سير الحملة وعلى أعمالها القتالية. وعندما وصلت قوات الحملة إلى عكا، دعت ملكة القدس وملكها - بلدوين - الى اجتماع تم عقده يوم ٢٤ حزيران - يونيو - ١١٤٨ م (٥٤٣ هـ) حيث تقرر بعض شيء من المعارضة أن تتركز قوة الهجوم للاستيلاء على دمشق.

لقد اعتبر الفرنج أن الاستيلاء على دمشق يستحق كل تضحية، ذلك أن تملكهم لها يقطع الصلة نهائياً بين المسلمين في مصر وأفريقية وبين إخوانهم المسلمين في بلاد الشام والمشرق. كما أن مملكة البوريين بدمشق هي التي انفردت باستقلاليتها في العمل ضد الفرنج. وطمع بارونات القدس في الحصول على البلاد الخصيبة التي تدين بالولاء والتبعية لدمشق، واشتد تأثرهم كلما تذكروا ما تعرضوا له في حملتهم السابقة من المذلة والهوان، فتطلع ملكهم الشاب بلدوين للانتقام. وعلاوة على ذلك كله، فقد جرى تبجيل دمشق في الكتاب المقدس للمسيحيين. ولهذا فإن انتزاعها من قبضة المسلمين سوف يردد مجد المسيح في سائر البلاد. ولقد ظهر للفرنج أن انتزاع دمشق قد بات ممكناً بعد أن توافر لهم حشد أضخم جيش قذف به الفرنج إلى ساحة المعركة. وهكذا سار جيش الفرنج، فاجتاز الجليل، ووصل إلى بانياس، ثم تابع زحفه وأقام معسكره على حافة الحدائق والبساتين المحيطة بدمشق يوم ٢٤ تموز - يوليو - سنة ١١٤٨ م

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ٢/٣٩٠ - ٣٩٢.

(٥٤٣ هـ) والتي حملت منذ ذلك اليوم اسم (منازل العساكر) على بعد أربعة أميال تقريباً إلى الجنوب من دمشق، حيث لاحت من المعسكر أسوار المدينة وأبراجها البيضاء ـ عبر أشجار البساتين الكثيفة.

لم يصدق أمير دمشق معين الدين أنز، لأول وهلة، ما سبق تحرك الحملة الصليبية من شائعات، ولم يتوقع أن تجعل هذه الحملة من دمشق هدفاً لها. فلما تبين له الموقف على حقيقته، أسرع فأصدر أوامره إلى ولاة الأقاليم بارسال كل من يستغنون عنه من الرجال، وهرع وفد إلى حلب فالتمس من نور الدين زنكي ارسال الدعم إلى دمشق. وأثناء ذلك، عجل الفرنج بالسير إلى قرية المزة لتوافر الماء بها. وحاول جيش دمشق منع تقدمهم، غير أنه اضطر إلى الارتداد إلى ما وراء الأسوار. وإذ انتصر الفرنج الصليبيون، أرسل قادتهم جيش القدس الى البساتين للقضاء على مجاهدي المسلمين الذين كانوا يشنون حرب العصابات، وتمكن الفرنج من بسط سيطرتهم على البساتين الواقعة إلى الجنوب من دمشق، وأقاموا الحواجز ـ المتاريس ـ من الأشجار التي قطعوها. وأظهر كنراد شجاعة فائقة في قيادة جنده وشق الطريق الى الربوة الواقعة على نهر بردى ـ تحت أسوار المدينة مباشرة. وظن أهل دمشق عندها أنهم على وشك خسارة كل شيء، فشرعوا في إقامة الحواجز والمتاريس بالشوارع استعداداً للاستماتة في القتال دفاعاً عن دمشق. ولكن الموقف أخذ في التحول مع قدوم اليوم التالي حيث أخذت الامدادات في التدفق من الأقاليم الى المدينة ـ عبر بوابتها الشمالية وأسرع أنز فقاد هجوماً مضاداً أبعد فيه الفرنج عن الأسوار، ثم تابع هجماته في اليومين التاليين، بينما انتشر المجاهدون في الحدائق والبساتين، وأوغلوا في تقدمهم وهم يوجهون إلى الفرنج الضربات الموجعة. وبلغت هذه الهجمات من العنف ومن الخطورة ما حمل الملوك: كنراد ولويس وبلدوين، على عقد مؤتمر تقرر فيه الجلاء عن البساتين الواقعة الى الجنوب من المدينة، والتحرك نحو الشرق لاقامة المعسكر في بقعة تحرم المسلمين من استثمار حواجز البساتين وسواترها وسدودها.

تحرك الجيش الصليبي بكامله إلى السهل الواقع خارج السور الشرقي، يوم ٢٧ تموز ـ يوليو ـ وكان هذا القرار بالغ الخطورة، فقد كان الموضع الجديد يفتقر الى الماء،

كما أنه واجه أمتن وأقوى قطاع في سور دمشق. وتوافر للمجاهدين في المدينة قدر كاف من الحرية للالتفاف من حول البساتين. واعتقد عدد كبير من عساكر الفرنج أن بارونات فلسطين الذين نصحوا الملوك بالانتقال إلى معسكرهم الجديد، قد تقاضوا رشوة كبيرة من أنر حتى يسدوا هذه النصيحة، إذ ضاعت آخر فرصة للاستيلاء على دمشق بفضل تحرك جيش الفرنج الى الموضع الجديد.

علم أنر أن نور الدين زنكي قد انحدر بجيشه من حلب نحو الجنوب، وأفاد ـ أنر ـ من تعاظم قوة جيشه وتزايد عدده، فجدد هجماته على معسكر الفرنج، وأرغم الجيش الصليبي على اتخاذ خطة الدفاع، ولم تعد دمشق هي المدينة الخاضعة للحصار بل بات الجيش الصليبي هو الواقع تحت الحصار. وترددت كلمات الخيانة والتخاذل في وسط الجيش الصليبي، وشاع الهمس في وسط جنده، فيما انصرف الملوك والأمراء لمناقشاتهم بشأن مستقبل دمشق عندما يتم الاستيلاء عليها، إذ كان ملك القدس يريدها تابعة له، بينما كان آخرون يريدونها إمارة لهم، وأثناء ذلك كانت الاتصالات السرية مع حاكم دمشق مستمرة ـ فيما ذكرته مصادر الفرنج ـ وقيل أن أنر دفع مبلغاً ضخماً من المال لملك القدس حتى يصرف جيوش الحملة ـ وخاصة الجيش الألماني والجيش الفرنسي ـ عن دمشق. واقتنع بارونات الفرنج، بعد فوات الوقت، أنه من الحماقة المضي في مهاجمة دمشق، لاسيما بعد أن توافرت المعلومات عن اقتراب نور الدين زنكي وجيشه من دمشق. ففرض البارونات رأيهم على الملكين لويس وكونراد ـ كنراد ـ. وجأر الملكان بالشكوى لما اكتشفاه من الخيانة والافتقار الى الحماسة لقضية الصليبيين، غير أنهما أدركا أنه ليس باستطاعتهما عمل أي شيء إلا إذا توافر لهما دعم الفرنج المحليين الذين استقروا في بلاد الشام منذ الحملة الأولى، فأمرا بالارتداد عن دمشق وذلك بعد خمسة أيام فقط من بدء فرض الحصار على المدينة. وقوض الصليبيون معسكرهم، وساروا نحو الجليل (يوم الأربعاء ٢٨ تموز ـ يوليو ـ سنة ١١٤٨ م). ومع أن أموال أنر هي التي حملتهم على الانسحاب ـ بالاضافة الى الوعد الذي قطعه أنر لملك القدس بتسليمه قلعة بانياس إن هو نجح في حمل الفرنج على الانسحاب ـ. فان أنر لم يدعهم يرتحلون في هدوء وسلام، فظل فرسان التركمان

الخفيفي الحركة يعملون طوال اليوم ـ وخلال الأيام التالية أيضاً ـ على ممارسة ضغط قوي ضد جناحي الجيش الصليبي، ويمطرونه بوابل من السهام، فتناثرت جثث الرجال وخيولهم على امتداد طريق الانسحاب الى فلسطين، وأفسدت رائحتها السهل لشهور عديدة تالية. وكان كل ما حققته هذه الحملة هو أنها أضاعت حياة عدد كبير من رجالها، وقدراً كبيراً من عتادها، وتعرضت لهوان شديد. والواقع، فان ما حدث من إرغام جيش في هذه الضخامة والروعة، على التخلي عن هدفه، ولما يمض على القتال سوى أربعة أيام، يعتبر ضربة قاصمة لكرامة الفرنج الصليبيين. فقد تبددت بذلك اسطورة فرسان الغرب الذين لا يقهرون، وهي الاسطورة التي نمت وترعرعت أثناء مغامرة الحملة الصليبية الأولى، بينما انتعشت آمال العالم الإسلامي [١] .

يمكن بعد ذلك تجاوز الدور الذي قامت به دمشق وجيشها في تقويم موقف مصر، وفي الدفاع عنها (بقيادة أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الأيوبي (سنة ٥٦٤ هـ) ثم ما تبع ذلك من توحيد جهد العالم الإسلامي تحت قيادة واحدة، وذلك بالقضاء على الحكم الفاطمي في مصر. كما يمكن تجاوز دور جيش دمشق في معركة حطين الخالدة (سنة ٥٨٣ هـ = ١١٨٧ م). وكذلك تحرك جيش دمشق وانتقاله الى مصر من أجل رفع الحصار عن دمياط يوم هاجمها الفرنج (٦١٦ - ٦١٨ هـ = ١٢١٩ - ١٢٢١ م). فقد كان ذلك كله في إطار سياسة استراتيجية هجومية شاملة للانتقام من الفرنج الصليبيين الذين دنسوا تراب بلاد الشام بجرائمهم وآثامهم. فكان جيش دمشق وفقاً لهذه السياسة الاستراتيجية وهو في حالة حركة دائمة، للضغط على الفرنج باستمرار في أي موقع تطلب ممارسة مثل هذا الضغط. ولهذا لم يكن غريباً أن تتصدى دمشق وحاكمها الناصر الأيوبي لعملية التوقيع على المعاهدة التي وقعها حاكم مصر الملك الكامل الأيوبي مع الامبراطور الألماني فريدريك الثاني (سنة ٦٢٦ هـ = ١٢٢٨ م) حيث استعظم المسلمون في دمشق ما تضمنته هذه المعاهدة من إعادة القدس للفرنج الصليبيين. وأكبروا أمرها، ووجدوا فيها من الوهن والتألم ما لا يمكن وصفه،

(١) الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة ٥٤٣ هـ ـ وتاريخ الحروب الصليبية: ٢/٤٥١ - ٤٥٨.

فأعلنت دمشق الحداد العام لما تعرض له الإسلام من خيانة، وجهر أئمة المساجد بالهجوم على المعاهدة. واستمرت دمشق في مقاومتها حتى سنة ٦٤٢ هـ = ١٢٤٤ م. حيث دفعت فرسان الخوارزمية الذين طردوا الفرنج من القدس بصورة نهائية.

بقيت دمشق كابوساً ثقيلاً أرهق كاهل الفرنج الصليبيين وجثم على صدورهم. وبقي الاستيلاء على دمشق هاجسهم، غير أنهم عجزوا في كل مرة عن بلوغ أسوارها والوصول إلى تحصيناتها. غير أن خطراً جديداً دهم دمشق عندما تحالف الفرنج مع المغول التتار. فدخل موكب قائد المغول ـ كتبغا ـ إلى دمشق وبرفقته ملك أرمينية وملك أنطاكية. وشهد سكان عاصمة الأمويين، وللمرة الأولى منذ ستة قرون ـ ثلاثة ملوك صليبيين وهم يركبون معاً، ويشقون بموكبهم شوارع المدينة، فأخذ المسلمون فيها يتحرقون شوقاً للانتقام، ولم يطل انتظارهم، فقد انتصر المسلمون في عين جالوت بعد أشهر قليلة (سنة ٦٥٩ هـ = ١٢٦٠ م) ودخل موكب المظفر قطز إلى دمشق بعد خمسة أيام من انتصاره في عين جالوت، وانطلق المسلمون في الشام للانتقام من هؤلاء الذين دنسوا أرضهم. وكان انتقاماً عادلاً.

لقد ارتدت جحافل ثلاث حملات صليبية عن أسوار دمشق. ولم يكن ذلك بسبب قوة الأسوار ومنعتها، وإنما كان بسبب تصميم المسلمين في بلاد الشام على حماية مدينتهم نقية طاهرة من أن تدنسها أقدام الغزاة الصليبيين. ولهذا كان المجاهدون في سبيل الله يسرعون لمجابهة الفرنج، وقتالهم، بعيداً عن أسوار عاصمة بني أمية، وبعيداً عن القاعدة التي انطلقت منها جيوش الفتح شرقاً ومغرباً.

لم تكن قوة دمشق في أسوارها المنيعة وتحصيناتها الصلبة ـ ولو أن تلك الأسوار والتحصينات كانت على درجة كافية من القوة والمنعة ـ وإنما كانت قوتها في ايمانها الثابت بحتمية انتصارها على أعداء الدين، وبما يمتلكه المسلمون من القدرات الذاتية. وكذلك باستثمار نقاط ضعف الأعداء. ونتيجة لذلك، فقد تميز دور دمشق خلال

الحروب الصليبية القديمة بدمج عوامل الصراع السياسي والعسكري، مع ما يتفرع عن هذا الصراع من عوامل اجتماعية واقتصادية وحتى شخصية، وقد أظهر العرض السابق أن دمشق قد خاضت صراعها وهي مدركة تماماً لمتطلبات الصراع في كل مرحلة من مراحله، فبقيت دمشق هي القاعدة الصلبة والمأمونة التي استند إليها كبار قادة المسلمين في حروبهم ضد الفرنج الصليبيين، وفي طليعتهم نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي والظاهر بيبرس، وهم الذين استأثرت دمشق بحفظ رفاتهم فضمتها الى ما امتلكته أرضها من رفات السلف الصالح.

لقد أبرزت الحملات الصليبية ضد دمشق، وارتدادها خائبة عنها، ما توافر لأهل دمشق الأجداد من الفضائل الحربية. وما تراكم فيها من خبرات قتالية عبر جهادها المستمر منذ الأيام الأولى للفتح العربي - الإسلامي. فلم يكن صراع دمشق مجرد صراع مسلح فحسب، وإنما كان صراعاً دينياً عقائدياً - أو سياسياً بحسب المصطلحات الحديثة - وكان هذا الصراع قد تطلب قبل كل شيء توافر درجة عالية من الايمان مع توافر كفاءة عالية في ادارة الصراع السياسي - العسكري على جبهتي الأصدقاء والأعداء على السواء. وبرهنت دمشق هنا أيضاً أن ما امتلكته من الخبرات المتراكمة في المجالات الإدارية والسياسية لم تكن أقل من رصيدها في الفضائل والخبرات الحربية. وهذا ما ضمن لها النجاح في ممارسة دورها.

لقد تتابعت على حكم دمشق خلال فترة الحروب الصليبية القديمة أنظمة مختلفة، مثل السلاجقة والبوريين فالزنكيين فالأيوبيين فالماليك، غير أن النهج السياسي العسكري لدمشق بقي ثابتاً ولم يتبدل أو يتغير. وهذا يعني ببساطة أن دمشق كانت هي التي فرضت فكرها السياسي - العسكري على حكامها المتتابعين. ولم تكن دمشق تهتم كثيراً بشخص حاكمها إلا بقدر ما كان يبرهن عليه هذا الحاكم من إخلاص في الجهد والجهاد. وإلا بقدر ما يتوافر له من الكفاءة في إدارة الحرب ضد الفرنج الصليبيين. ولم يكن من الغريب بعد ذلك أن تستأثر دمشق المجاهدة بحقد الفرنج، فبقيت تحتل المرتبة العليا في تفكير ملوك الفرنج وفي أعمالهم ضدها. وكان لدمشق من إيمانها درعاً

واقياً وكافياً لاحباط مكائدهم واسقاط مخططاتهم، ورد أعمالهم العدوانية. وخرج الفرنج مدحورين من بلاد الشام. وبقيت دمشق حصينة بدرعيها المادي والمعنوي والمعنوي قبل المادي. ولقد زادتها تجارب الحروب الصليبية يقيناً على ايمانها بحتمية انتصارها على كل عدو إن هي استطاعت التمسك بدينها والالتزام بما تفرضه عليه عقيدتها من واجب الجهاد في سبيل الله.

١١ ـ قلعة شيزر

(قلعة شيزر)[١] من القلاع التي انتصبت بعض بقاياها لتذكر بما كان لها من أمجاد غابرة. وقد وصفها ابن الأثير بقوله: « قلعة شيزر من أمنع الحصون. قريب من حماة. بينهما نصف نهار. والقلعة على جبل عال منيع، لا يسلك إليه إلا من طريق واحدة »[٢] ووصفها أبو الفداء بقوله: « قلعة شيزر هي قلعة حصينة، ويمر بها نهر العاصي من شمالها، وينحدر عندها النهر المذكور على سكر ـ سد ـ ارتفاعه يزيد على عشرة أذرع يسمونه ـ الخرطلة ـ وهي ذات أشجار وبساتين وفواكه كثيرة أكثرها الرمان. قال في العزيزي: بين شيزر وبين حماه تسعة أميال. وبينها وبين حمص ثلاثة وثلاثون ميلاً. ومن شيزر إلى أنطاكية ستة وثلاثون ميلاً. ولها سور من لبن. ولها ثلاث أبواب ويمر العاصي مع السور من شمالها »[٣].

وشيزر إذن هي عبارة عن قرية وقلعة تقع في وسط بلاد الشام، بالقرب من جسر قديم ومخاضة على المجرى الأعلى لنهر العاصي، إلى الشمال الغربي من مدينة حماه. وتنتصب القلعة مجانبة للنهر، فوق جرف صخري متطاول وضيق. يفصله عن السفح الصخري المتصل به في الجنوب قناة عميقة. ويرتفع الجدار الأمامي للبرج المحصن فوق هذا الخندق مباشرة. وهو صرح ضخم يتألف من طابقين داخليين وشرفة سطحية واسعة، وهو دون شك نتاج فترات بناء متعددة. وقد انهارت الجدران التي كانت تكسو حافة الجرف على كل من ضلعي القلعة الطويلين في معظمها، ولم يبق سوى

---

(١) شيزر، وتكتب باللاتينية: (SHEIZAR) وباليونانية سيزارا: (SIZARA) وتوسيزر: (TOSEZER).

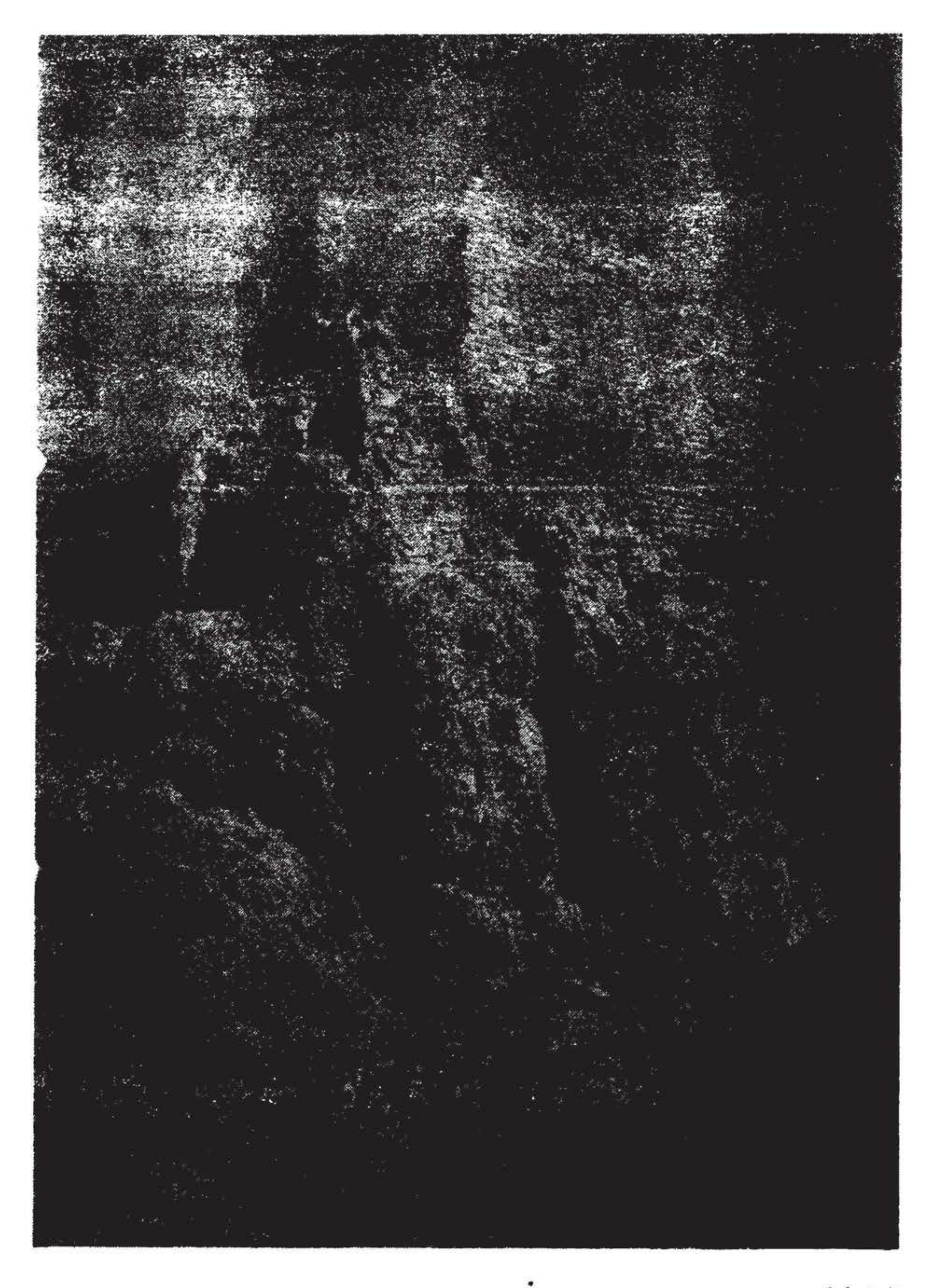
(٢) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ١٣٨٧ هـ (٣٦٠/٨) و (٥٣/٩ و ١٠٦).

(٣) القلاع أيام الحروب الصليبية، ص: ٦٩ ـ ٧٠.



قلعة شيزر

قلعة شيزر



قلعة شيزر

الركن الشمالي الأقصى من القلعة والتي هي عبارة عن سواتر ترابية شديدة الانحدار، ولا زالت البوابة متينة البنيان، قائمة على أصولها.

لا تختلف قصة قلعة شيزر - التاريخية - عن قصص سواها من القلاع القديمة التي عاشت على أرض بلاد الشام. فتاريخ القلعة يعود إلى أيام السلوقيين - خلفاء الاسكندر الأكبر المقدوني وورثته - وعندما ورث الرومان عن اليونان ما كان لهم من بلاد خضعت لحكمهم، أصبحت هذه القلاع تحت حكم الرومان، ثم استقلت دولة الروم - البيزنطيين - بحكم منطقة البحر الأبيض المتوسط. فأنشأت اللمات - القلاع - على امتداد حدودها في الشرق والغرب، وكانت شيزر في جملة هذه اللمات. حتى إذا ما فتح العرب المسلمون بلاد الشام، خضعت لهم القلاع والحصون، ودانت لحكمهم. وتعرضت القلاع في شمال بلاد الشام لهجمات الروم البيزنطيين مرات عديدة، ولم تنج شيزر من الاجتياح الرومي وخاصة أيام نقفور فوقاس الذي استطاع فرض الهيمنة على شيزر في الفترة ما بين ٣٥٢ - ٣٥٩ هـ (٩٦٣ - ٩٦٩ م) وعندما اجتاح الفرنج الصليبيون بلاد الشام، صمدت شيزر في وجه هجماتهم. وكانت هناك عائلة عربية قد استقرت في شيزر حملت اسم (آل منقذ). اضطلعت بواجب الجهاد في سبيل الله. وبذلت جهدها لتنسيق التعاون مع القوى الإسلامية في الاقليم. ولهذا لم يكن غريباً أن يرتبط اسم قلعة شيزر باسم (آل منقذ) طوال الحروب الصليبية. لاسيما في سنة ٥٣٣ هـ = ١١٣٨ م عندما حاول الامبراطور البيزنطي جون الثاني (كومنين) الاستيلاء على شيزر، وضرب الحصار عليها بالتعاون مع الفرنج الصليبيين. لكن شيزر صمدت للحصار وانتصرت وكان هذا الهجوم الكبير قد بدأ بالهجوم على بزاغة - وهي مدينة لطيفة تقع على بعد ستة فراسخ من حلب -. مما دفع عماد الدين زنكي لارسال بعض قواته لدعم الحامية المدافعة عن حلب. غير أن الروم تابعوا هجومهم فحصروا بزاغة ونصبوا عليها المنجنيقات، مما أرغم أهل بزاغة على طلب الأمان لأنفسهم، ولكن ملك الروم غدر بأهلها وقتل وأسر وسبى، وتنصر قاضيها وجماعة من أهلها - نحو أربعمائة نفس -. وأقام الروم بعد ملكها عشرة أيام يتطلبون من اختفى. فقيل لهم إن جمعاً كثيراً من أهل هذه الناحية قد نزلوا المغارات، فدخنوا

عليهم، وهلكوا في المغاير. وعندما أراد الروم الرحيل عن حلب، خرج إليهم أحداث حلب، فقاتلوهم قتالاً شديداً، فقتل من الروم وجرح خلق كثير، وقتل بطريق جليل القدر عندهم. وعادوا خاسرين، فلم يروا فيها طمعاً. فرحلوا إلى قلعة الأثارب، فخاف من فيها من المسلمين فهربوا عنها وملكها الروم، وتركوا فيها سبايا بزاغة وأسراهم ومعهم جمع من الروم يحفظونهم ويحمون القلعة وساروا عنها. فلما علم أمير حلب (الأمير أسوار) بذلك، قاد جنده الى الأثارب. وأوقع بمن فيها من الروم فقتلهم وخلص الأسرى والسبي وعاد بهم إلى حلب.

وأما عماد الدين زنكي، فكان قد غادر حمص، وسار الى سلمية فنازلها، وعبر ثقله الفرات الى الرقة. وأقام جريدة - قوة خفيفة من الفرسان - ليتبع الروم ويقطع عنهم الميرة - التموين -. ولكن الروم تجاهلوا عماد الدين زنكي وقوته وتابعوا تقدمهم وهدفهم الاستيلاء على قلعة سيزر التي لم تكن تابعة لزنكي، وانما كانت تابعة للأمير أبي العساكر سلطان بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني[1]. فنازلوها وحصروها ونصبوا عليها ثمانية عشر منجنيقاً. فأرسل صاحبها - حاكمها - الى زنكي يستنجده، فسار إليه، ونزل على نهر العاصي بالقرب منها، بينها وبين حماه، وكان زنكي يركب كل يوم ويسير إلى شيزر هو وعساكره، ويقفون بحيث يراهم الروم، ويرسل السرايا فتأخذ من ظفرت به من الروم.

أرسل عماد الدين زنكي بعد ذلك إلى ملك الروم من قال له:

«إنكم قد تحصنتم مني بهذه الجبال، فانزلوا منها إلى الصحراء، حتى نلتقي،

---

(١) كانت شيزر لبني منقذ الكنانيين يتوارثون ذلك من أعوام عشرين وأربعمائة (١٠١٩م) حتى انتهى الملك الى المرهف نصر بن علي ابن نصير بن منقذ بعد أبيه أبي الحسن علي. فلما حضره الموت سنة تسعين وأربعمائة، عهد لأخيه أبي سلمة بن مرشد. وكان عالماً بالقراءات والأدب. وولى مرشد أخاه الأصغر سلطان بن علي، ونشأ لمرشد بنون كثيرون وكبروا وسادوا - منهم عز الدولة أبو الحسن علي، ومؤيد الدولة أسامة وولده علي. وقصد بعضهم نور الدين زنكي. ثم وقعت الزلازل وضرب حصن شيزر وتهدم.

(تاريخ ابن خلدون: ٥/٥٤١ - ٥٤٤) و (الكامل في التاريخ - أحداث سنة ٥٥٢هـ).

فإن ظفرت بكم أرحت المسلمين منكم. وإن ظفرتم استرحتم وأخذتم شيزر وغيرها».

ولم يكن لدى عماد الدين من القوة ما يكفي لقتال الفرنج والروم. ولكنه أراد أن يرهبهم بهذا القول وأشباهه. فأشار فرنج الشام - الصليبيين - على ملك الروم بمواجهته وهونوا أمره عليه، فلم يفعل، وقال لهم: «أتظنون أنه ليس معه من العسكر إلا ما ترون. إنما هو يريد أن تلقونه فيجيئه من نجدات المسلمين مالا حد له». وكان زنكي يرسل أيضاً إلى ملك الروم ويوهمه بأن الفرنج الصليبيين بالشام خائفون منه، فلو فارق مكانه تخلفوا عنه. ويرسل إلى فرنج الشام يخوفهم من ملك الروم، ويقول لهم: «إن ملك بالشام حصناً واحداً ملك بلادكم جميعاً». فاستشعر الخوف كل من صاحبه، ورحل ملك الروم عن شيزر بعد أن أقام على حصارها أربعين يوماً. وترك المجانيق وآلات الحصار بحالها. فسار زنكي يتبع مؤخرة جيش الروم، فظفر بكثير ممن تخلف منهم. وأخذ جميع ما تركوه. ولما عاد ملك الروم عن شيزر، مدح الشعراء أتابك زنكي وأكثروا[1]. ومن عجيب ما يحكى أن ملك الروم لما عزم على حصر شيزر وسمع من بها ذلك، قال الأمير مرشد بن علي - صاحبها - وهو ينسخ مصحفاً -:

---

(١) الكامل في التاريخ - أحداث سنة ٥٣٢ هـ. وفيه مما قيل في مدح أتابك - القائد - زنكي، بهذه المناسبة، ما قاله المسلم بن الخضر بن قسيم الحموي في قصيدة طويلة مطلعها:

بعزمك أيها الملك العظيم	تذل لك الصعاب وتستقيم

ومن جملتها هذه الأبيات:

ألم تر أن كلب الروم لما	تبين أنه الملك الرحيم
فجاء فطبق الفلوات خيلاً	كأن الجحفل الليل البهيم
وقد نزل الزمان على رضاه	ودان لخطبه الخطب العظيم
فحين رميته بك في خميس	تيقن أن ذلك لا يدوم
وأبصر في المفاضة منك جيشاً	فأحرب لا يسير ولا يقيم
كأنك في العجاج شهاب نور	توقد، وهو شيطان رجيم
أراد بقاء مهجته فولى	وليس سوى الحمام له حميم

« اللهم بحق من أنزلته عليه، إن قضيت بمجيء ملك الروم، فاقبضني إليك » .
فتوفي بعد أيام.

لقد عجز الروم عن احتلال شيزر بسبب صمود حاميتها بقيادة (آل منقذ) الذين وصفوا بأنه ليس لهم من عمل إلا تلاوة القرآن والقيام بالعبادات وجهاد الكفار. وهذا ما حملهم على الاستعانة بإخوانهم المسلمين - الزنكيين - ضد أعداء الدين. ولم يكن غريباً ألا يحاول الزنكيون الاستيلاء على شيزر أو فرض سيطرتهم عليها، ذلك أن جهد الزنكيين قد تركز على حشد الجهود لقتال الغزاة من الفرنج الصليبيين والقضاء على من والاهم أو هادنهم أو تعاون معهم.

وبذلك التقى آل منقذ والزنكيون تحت راية الجهاد في سبيل الله، فكانت أخوتهم بالله وفي سبيل الله، وكان النصر في ركابهم. حتى إذا ما كانت سنة ٥٥٢ هـ = ١١٥٧ م وقعت زلازل بالشام وضربت شيزر بقوة حتى أنه لم ينج من بني منقذ - الذين بها - أحد. وكان سبب هلاكهم أجمعين أن صاحبها منهم - أميرها - كان قد ختن ولداً له، وعمل دعوة للناس، وأحضر جميع بني منقذ عنده في داره. وكان له فرس يحبه ولا يكاد يفارقه. وإذا كان في مجلس أقيم الفرس على بابه. وكان الفرس - المهر - في ذلك اليوم على باب الدار. فجاءت الزلزلة، فقام الناس ليخرجوا من الدار. فرمح الفرس رجلاً كان أولهم فقتله. وامتنع الناس من الخروج. فسقطت الدار عليهم كلهم وخربت القلعة وسقط سورها وكل بناء فيها، ولم ينج منها إلا الشريد. وخاف نور الدين زنكي أن يستولي الفرنج على ما تهدم من القلاع والحصون. فأقام بأطراف البلاد حتى فرغ من بناء حصونها وأسوارها. وأصبحت شيزر في حكم نور الدين زنكي، غير أن انتقال شيزر إلى حكم الزنكيين لم يحبط من إرادة (آل منقذ - الكنانيين) فتابعوا دورهم في حمل رسالة السيف والقلم لقتال الفرنج. وإذا كانت شيزر رمزاً للمقاومة، فقد كان أسامة بن منقذ رمزاً لفارس المقاومة ورجلها وأديبها، حتى أنه اعتبر صورة حية عن الثقافة العربية - الإسلامية في عصر صلاح الدين الأيوبي - من خلال كتابه الشهير - الاعتبار -[1] « والمعروف أنه نشأت بين أسامة هذا، وبين

---

(١) ترجم الدكتور فيليب حتي كتاب أسامة (الاعتبار) الى اللغة الانكليزية بعنوان: =

فرسان الفرنجة صلات ود وصداقة. ثم إنه شارك في حملات نور الدين عليهم. وانضوى تحت لواء صلاح الدين بدمشق، على الرغم من بلوغه سناً متقدمة. ومع أنه كان متمكناً من الصناعة اللفظية الشائعة في عصره، على ما تشهد سائر كتبه، فقد ازدراها بالكلية في مذكراته هذه. إنه ههنا يقص علينا في لهجة قصصية بسيطة مختلف مغامراته في الحرب والسلم، وفي الطرد ـ الصيد ـ بصورة خاصة. وإنه ليبلغ غاية عجيبة من النزاهة والتجرد في أحكامه على المسلمين والنصارى جميعاً »[1].

لقد حفظ التاريخ مما حفظه، لآل منقذ والكنانيين، دورهم في الدفاع عن مصر، وفي دعم الدولة الزنكية ثم الدولة الأيوبية من بعد. ويبرهن ذلك على أن آل منقذ، شأنهم كشأن كافة القبائل العربية ـ الإسلامية، لم يكن يهمها أن تتبوأ مكان القيادة، قدر ما كان يهمها نصرة قضية الإسلام والمسلمين، ورفع راية الجهاد ضد أعداء الدين. ولهذا فانها كانت على استعداد لوضع سيوفها وتقديم الولاء لكل من توافرت له القدرة والكفاية للدفاع عن الإسلام وأهله. وقد عرف آل منقذ اخلاصهم وقدرتهم فعملوا معهم بحماسة وإخلاص. وكذلك فعلوا مع صلاح الدين الأيوبي.

إن موضع البحث هنا هو موضوع (قلعة شيزر) وليس موضوع (آل منقذ) غير أنه في ذلك المكان، وفي تلك الحقبة التاريخية، تلاحم اسم القلعة باسم حماتها والمدافعين عنها من آل منقذ. ولقد خضعت معظم القلاع والحصون المجاورة لحكم الفرنج الصليبيين، وامتنعت قلعة شيزر عن الخضوع للغزاة. وقامت القبيلة العربية ـ المسلمة بواجبها في حماية معقلها والدفاع عنه واعداد الوسائل الضرورية للحرب. حتى إذا ما انهارت القلعة وهجرها آل منقذ، تابع من بقي منهم على قيد الحياة دورهم في حمل السيف والجهاد بكل الوسائل المتوافرة. وبذلك لم تكن القلعة هي التي وفرت لآل منقذ الظروف المناسبة للدفاع، وانما هم آل منقذ الذين اضطلعوا بواجب الدفاع وحملوا

= AN ARAB-SYRIAN GENTLEMAN AND WARRIOR IN THE PERIOD OF THE CRU SADES-NEW YORK-1929.

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية. ص: ٣٥٩.

أعباءه، وأعدوا له أسبابه ووسائله. فبرهنوا مرة أخرى في التاريخ على أن النصر في الصراع المسلح، إنما يرتبط بتصميم الانسان المؤمن وايمانه بربه وإرادته على انتزاع هذا النصر - في البحث عن إحدى الحسنيين.

لم يكن بذلك (أسامة بن منقذ)[1] هو الوحيد في آل منقذ، والذي وضع سيفه وقلمه في خدمة المسلمين - لاسيما خلال فترة عمله مع صلاح الدين الأيوبي - بل كان هناك أيضاً (شمس الدين بن منقذ) والذي عمل سفيراً لصلاح الدين الأيوبي لدى المنصور يعقوب الموحدي، عندما طلب صلاح الدين من سلطان المغرب - المنصور - إرسال اسطوله لجهاد الفرنج في بلاد المشرق[2]. ولعل ما أسبغه سلطان المغرب على (شمس الدين بن منقذ) من التكريم، إنما هو برهان على ما بلغته سمعة (آل منقذ) من الشهرة في الجهاد. وما كان لها من مكانة رفيعة في المجتمع الإسلامي خلال تلك الحقبة التاريخية.

يبرز العرض السابق أن شيزر وقلعتها لم تنفرد عن سواها من قلاع بلاد الشام وحصونها بشيء يضيف رفداً جديداً لفن حرب الحصار. فهي تتمتع بموقع منيع حقاً، وتحتل موقعاً جيو - استراتيجياً هاماً - بحسب المصطلحات الحديثة - غير أن منعة

---

(١) الكامل في التاريخ - أحداث سنة ٥٨٤ - وورد في الحاشية ما يلي: «توفي في هذه السنة الأمير الكبير. سلالة الملوك والسلاطين، الشيزري مؤيد الدولة أبو الحارث وأبو المظفر أسامة ابن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ. أحد الشعراء المشهورين المشكورين. بلغ من العمر ستاً وتسعين سنة. وكان عمره تاريخاً مستقلاً وحده. وكانت داره بدمشق - مكان العزيزية. وكانت معقلاً للفضلاء ومنزلاً للعلماء... وكان مولده في سنة ثمان وثمانين وأربعمائة وكان في شبيبته شهماً شجاعاً. قتل الأسد وحده مواجهة، ودفن شرقي جبل قاسيون».

(٢) وردت قصة هذه السفارة في نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب (٤٤٤/١ - ٤٤٥) وكانت هذه السفارة من سنة ٥٨٦ الى سنة ٥٨٨ هـ (١١٩٠ - ١١٩٢ م). وذكر أن ابن منقذ عاد من سفارته بغير فائدة. وبعث يعقوب الموحدي - المنصور - مع ابن منقذ هدية حقيرة لصلاح الدين. أما ابن منقذ فإن السلطان يعقوب أحسن إليه وأغناه، لا لأجل صلاح الدين بل لبيته وفضله. وانظر صبح الأعشى: ٥٢٦/٦ - ٥٣٠ والروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - لأبي شامه - القاهرة - ١٩٦٢ (١٧٠/٢ - ١٧٤ و ١٨٨).

موقعها ومكانها لم يضمن لها مميزات خاصة، بل إن سواها من القلاع، مثل قلعة صلاح الدين (صهيون) وقلعة صافيتا، تتفوقان عليها سواء من حيث متانة تحصيناتها، أو من حيث قوة موقعها، أو حتى من حيث أهميتها. وعلى هذا فقد يصعب استخلاص مميزات خاصة بالقلعة. وإن ما حصلت عليه قلعة شيزر من الشهرة إنما يعود لارتباطها بآل منقذ من جهة، ولصمودها في وجه الفرنج الصليبيين من جهة أخرى. ولقد حاول الفرنج مهاجمة شيزر والاستيلاء عليها، بعد الزلزال الذي ضرب القلعة فدمر أسوارها وتحصيناتها سنة ٥٥٢ و سنة ٥٥٣ هـ (١١٥٧ - ١١٥٨ م) ولكن هجوم الفرنج فشل المرة بعد المرة. كما عاد الزلزال فضرب قلعة شيزر سنة ٦٣١ هـ = ١٢٣٣ م فدمرها. وأسرع المسلمون لإعادة ترميم القلعة وتحصينها. ويؤكد ذلك تصميم المسلمين على حماية القلعة والدفاع عنها، كما يؤكد في الوقت ذاته أن قوة القلعة كانت كامنة في تنسيق التعاون بين الحامية المدافعة عنها وبين القوة الخارجية الداعمة لها. وهذا يبرهن على ماسبقت الإشارة إليه من أن القلاع تبقى ضعيفة في مواجهة الهجوم الخارجي مهما توافر لها من المنعة والقوة، وأنه لا بد لها من ضمان الدعم الخارجي الثابت. ذلك أن مهمة القلاع هي التصدي للعدوان الخارجي وايقافه لفترة محدودة من أجل اتاحة الفرصة أمام قوات الدعم الرئيسة للتدخل في الوقت والاسلوب المناسبين. وقد تأكدت هذه الحقيقة عندما سقطت قلعة شيزر في قبضة المغول التتار، وذلك عندما انحدرت جحافل هؤلاء من الشمال، فاجتاحت حصون بلاد الشام وقلاعها دون مقاومة تقريباً بسبب عدم توافر الدعم الخارجي. ويذكر أن المغول قد عملوا خلال اجتياحهم لقلعة شيزر على تدمير أسوار القلعة وتحصيناتها (سنة ٦٥٨ هـ = ١٢٥٩ م) وعندما تم طرد المغول جاء الظاهر بيبرس فعمل على إعادة تشييد قلعة شيزر وتحصينها (سنة ٦٦٠ هـ = ١٢٦١ م) وتحمل آثار القلعة اليوم ما يشير الى أن السلطان قلاوون قد أكمل تحصين شيزر ودعم استحكاماتها سنة ٦٨٩ هـ = ١٢٩٠ م. وهذا يعني أن عملية إعادة التحصين قد استمرت طوال ثلاثين عاماً. ولم يكن العمل مستمراً طوال هذه الفترة - بالتأكيد - وإنما كان نوباً، ومن المحتمل أن يكون السلطان قلاوون قد أضاف بعض الاضافات سواء لزيادة قوة التحصينات أو لاضفاء بعض الظواهر التجميلية التي

تليق بالقلعة (مثل البوابة الخارجية) . والمعروف أن الظاهر بيبرس والسلطان قلاوون لم يعتمدا في حروبهما على المواقع الدفاعية والتحصينات، وكانا يعتمدان على الهجوم والهجوم وحده. ولكن ذلك لم يمنعهما من الاهتمام بالقلاع والتحصينات، وذلك لصد الهجمات المباغتة، وباعتبارها القواعد الثابتة لانطلاقة الهجوم.

لقد تجاوز الزمن عمر القلاع والتحصينات، وبات من المحال أن تصمد الأسوار الشاهقة لضربات الأسلحة النارية، ولهذا عمل العثمانيون على أهمالها. فسقطت أهمية القلاع الشاهقة والتحصينات المرتفعة، وانتقل التحصين إلى باطن الأرض بدلاً من ظاهرها، غير أن تجربة شيزر التاريخية، وتجارب سواها من القلاع بقيت ذات نتائج ثابتة من أهمها ارتباط الدفاع الداخلي بالهجوم الخارجي، وارتبط نظم الدفاع برباط واحد، وتفوق الهجوم على الدفاع.

١٢ ـ قلعة الشقيف [بوفورت].

قلعة (شقيف أرنون)[١] هي قلعة في جنوب لبنان، تقع على جرف جبلي شديد الانحدار، ارتفاعه ٢٢٠٠ قدماً، مقابل نهر الليطاني. وهي مثل قلعة صبيبة (بانياس) التي تقع على اتصال بالنظر معها. تتحكم بالمنافذ الجنوبية لهضبة البقاع الخصيبة. شيدت القلعة العليا التي لها برج محصن كبير وسور ضخم من الحجارة المتداخلة فوق هضبة مستديرة صخرية بارزة، بينما تتصل بها القلعة السفلية عن طريق ريف صخري ضيق من جهة الشرق. وتنفصل أرباض القلعة كلية عن الهضبة المحيطة بها، والتي كانت مأهولة فيما مضى ـ بخندق مائي محفور في الصخر الأصم. وقد وصفها أبو الفداء في تقويم البلدان بقوله: «شقيف أرنون بين دمشق والساحل، بالقرب من بانياس، وأرنون اسم رجل، والشقيف المذكور معقل حصين. والشقيف أيضاً ـ شقيف تيرون ـ بكسر المثناة الفوقية وسكون المثناة التحتية وضم الراء المهملة وواو ونون ـ وهي أيضاً قلعة بقرب صور بالساحل»[٢].

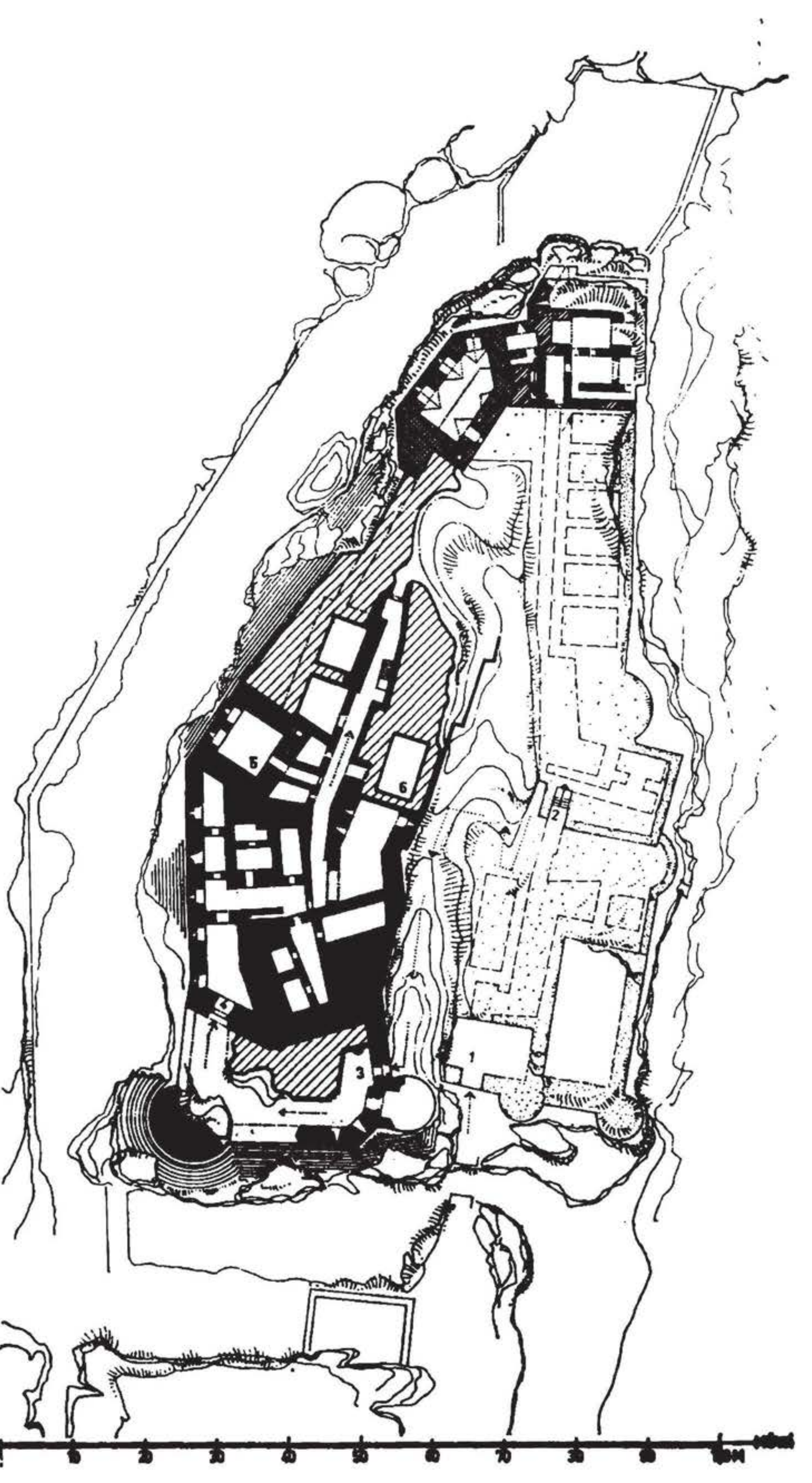
لقد كان لقلعة الشقيف وضعها الخاص أيام الحروب الصليبية القديمة. فما إن احتل الفرنج مدينة القدس (سنة ٤٩٢ هـ = ١٠٩٨ م) حتى انصرفوا للتوسع على حساب بلاد المسلمين وأمكن لهم احتلال مدينة صيدا سنة ٥٠٣ هـ = ١١٠٩ م. وعلى الرغم من تمزق المسلمين في تلك المرحلة التاريخية، فقد أخذ أمراء المدن الداخلية (حمص وحماه وحلب) في الشمال و(دمشق والقاهرة) في الجنوب، بتصعيد الصراع ضد الغزاة الصليبيين. ووجد الفرنج أنه لا قبل لهم بمجابهة الهجمات المباغتة والاغارات السريعة

---

(١) قلعة الشقيف، وبالعربية شقيف أرنون. وبالفرنجية بوفور ـ أو الحصن الجميل (BEAUFORT) وبلفور: (BELFORT) وبليفورت: (BELLIFORTE).

(٢) القلاع أيام الحروب الصليبية، ص: ٨٠.

المخطط ١٥ : قلعة شقيف Beaufort



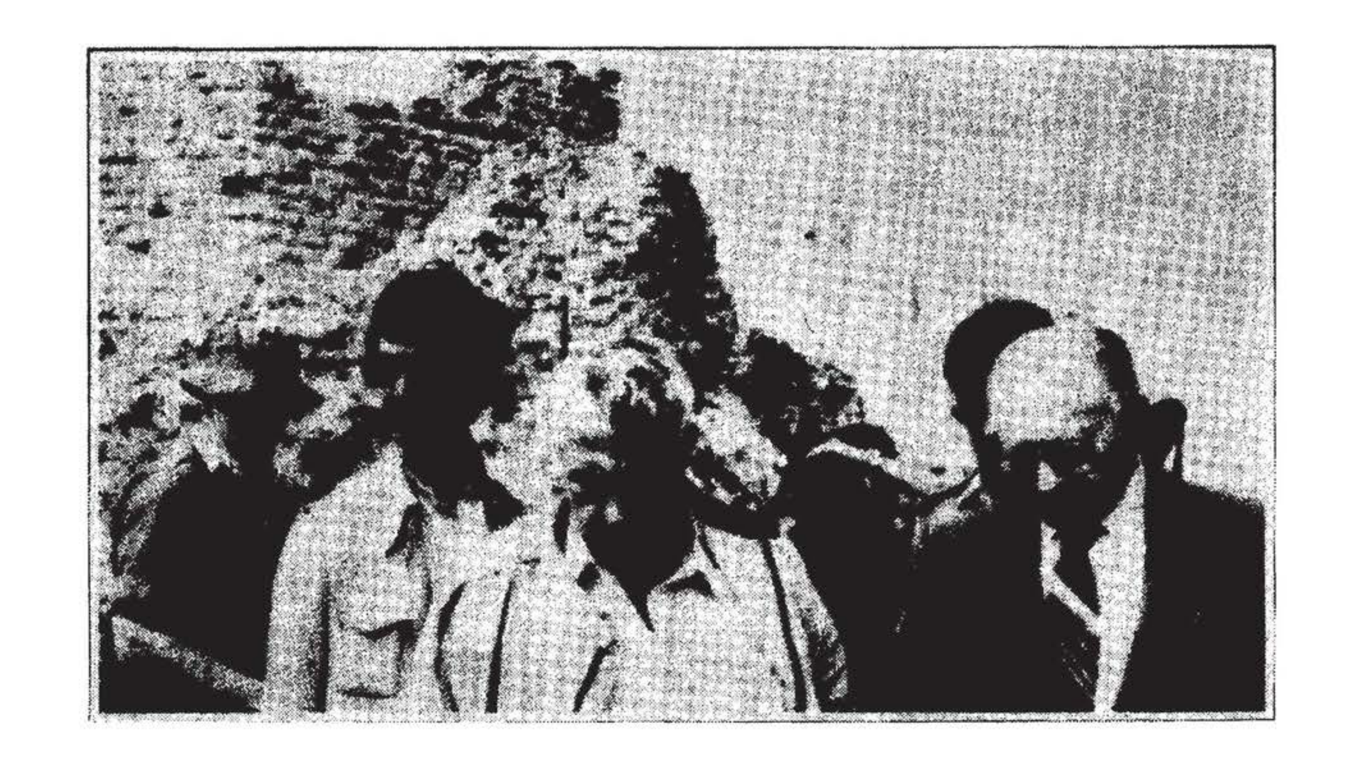
المخطط ١٥ : قلعة شقيف
Beaufort

مخطط أرضي عام للقلعة، المقياس ١/١٠٠٠، رسمت الأجزاء التي تعود بتاريخها إلى فترتي البناء الفرنجيتين الأولى والثانية باللون الأسود، والإضافات العربية (١١٩٠ - ١٢٤٠) بالتهشير المتقاطع، والإضافات العربية الأخرى (بعد ١٢٤٠) بالتهشير الكثيف، والأبنية المشادة تحت الأرض والصخر بالتهشير العريض.

١ - غرفة البوابة الخارجية للقلعة السفلية، ٢ - ممر عبر بوابة تحت الأرض إلى فناء القلعة السفلى، ٣ - البوابة الخارجية للقلعة العليا، ٤ - البوابة الداخلية للقلعة العليا، ٥ - برج محصن، ٦ - أساسات الكنيسة، ٧ - صهريج ماء في قناة القلعة (بالاستناد إلى دوشامب، القصور II).

شقيف أرنون (بوفورت)





الصهيونيان شارون وبيغن أمام قلعة الشقيف في جنوب لبنان
واعادة القلعة للصليبية الجديدة

المدمرة، فوجهوا اهتمامهم لبناء القلاع والحصون على امتداد حدود إماراتهم مع بلاد المسلمين. مع تحصين المدن والقلاع في معظم المناطق ذات الأهمية الاقتصادية والجيواستراتيجية. أما المسلمون فقد احتفظوا بسياستهم الاستراتيجية الهجومية، ولهذا لم يعملوا على إقامة تحصينات مقابلة، باستثناء ما تطلبه تحصين المدن من الدعم. وكان هدفهم باستمرار هو تطوير أساليب حرب الحركة، والعمل على تدمير حصون الفرنج وقلاعهم، وانتزاعها منهم. فتطور لديهم فن الحصار ومهاجمة القلاع والتحصينات، وأمكن لهم التركيز على تطوير الأبراج والمجانيق وسواها من وسائط الحصار.

لقد كانت قلعة الشقيف هي إحدى تلك القلاع التي أراد الفرنج الصليبيون اتخاذها درعاً حصيناً لهم، بسبب موقعها على المرتفع الصخري المطل على الضفة الغربية من نهر الليطاني، خلف تلال صيدا - فاحتلها ملك القدس، - فولك - سنة ٥٣٤ هـ = ١١٣٩ م ووهبها إلى صاحب صيدا الاقطاعي الذي عمل على تقوية القلعة باضافة برج محصن إليها مع سور خارجي متين. وأصبح واجب قلعة الشقيف هو الدفاع عن صيدا، والهيمنة على السهول المحيطة بها. ومجابهة هجمات الجيوش الإسلامية القادمة من الجنوب (مصر).

ولهذا فقد كان من الطبيعي أن تبقى الحامية المدافعة عنها مرتبطة بأمير مدينة صيدا (كونت صيدا) - وبالرغم من صغر حجم هذه الكونتية (الامارة) وبالرغم من ضعف امكاناتها فان موقعها الهام أكسبها قيمة تزيد كثيراً على حجمها وامكاناتها.

بقيت كونتية صيدا وشقيف تابعة لمملكة القدس. وقد برزت أهمية شقيف بصورة خاصة في مرحلة تعاظم هجمات المسلمين على الأراضي التي احتلها الفرنج وأقاموا فيها ممالكهم وإماراتهم. ومما حفظه التاريخ عن هذه القلعة هو ما حدث سنة ٥٨٥ هـ = ١١٧٩ م. ففي ربيع هذه السنة، وعندما بدأ موسم حركة قطعان الأغنام، نهض ملك القدس - بلدوين - لاعتراض سبيل هذه القطعان القادمة من سهول دمشق نحو بانياس ليسوقها أمامه. فأرسل صلاح الدين الأيوبي قوة بقيادة ابن أخيه (عز الدين فروخشاه)[1] لمراقبة ما كان يحدث. وكان لزاماً عليه أن يخطر عمه عن طريق الحمام

(١) عزالدين فروخشاه: ابن أخ صلاح الدين، وكان ينوب عنه في حكم دمشق وقيادة جندها، وهو =

الزاجل بالاتجاه الذي سار عليه الفرنج. غير أن فروخشاه بوغت بظهور جيش الفرنج أمامه (يوم ١٠ نيسان - أبريل - ١١٧٩ م) فانقض عليه من واد ضيق في غابة بانياس، وأخذ ملك الفرنج على حين غرة، فكاد يهلك وجيشه لولا الشجاعة النادرة التي أظهرها سيد تبنين الكندسطبل الشيخ همفري. والذي استمر في مقاومة هجوم المسلمين حتى أفلت جيش الفرنج. وأعقب انتصار قوات صلاح الدين قيامه بإلقاء الحصار على قلعة مخاضة يعقوب، والانتقال بمعسكره الى بانياس، حيث أرسل من هذا الموضع قوات للإغارة على الجليل ولبنان، والعمل على تدمير المحصولات الزراعية في أراضي صيدا وحتى بيروت. فقام الملك بلدوين بحشد كل قوات مملكة القدس. ودعا كونت طرابلس (ريموند) للانضمام إليه، فسارا معاً مجتازين طبرية وصفد إلى تبنين، حيث علما أن فروخشاه وجماعة من المغيرين في طريق عودتهم قادمين من الساحل بغنيمة كبيرة. فتحركا على اتجاه الشمال لاعتراضهم بوادي مرجعيون - بين نهر الليطاني والمجرى الأعلى لنهر الأردن - غير أن صلاح الدين سبق أن شاهد من برج للمراقبة على تل يقع شمال بانياس، ما حدث على الجانب الآخر من نهر الأردن من ذعر قطعان الماشية وتفرقها، فأدرك أن جيش الفرنج قد اجتاز هذا الموضع، فنهض لمطاردته. وبينما كان جيش الفرنج يصطدم بقوة فروخشاه، كان جيش طرابلس الصليبي ومعه فرسان الداوية يتقدمون نحو نهر الأردن، فاصطدموا بجيش صلاح الدين عند مدخل الوادي. وبادر الداوية الى الاشتباك في القتال على الفور، غير أن ما قام به صلاح الدين من هجوم عليهم، ردهم على أعقابهم، فولوا الأدبار مذعورين، واتجهوا نحو معسكر ملك القدس - بلدوين -. واضطر جند هذا المعسكر بدورهم الى الارتداد والهزيمة. ولم يلبث الجيش الصليبي بأكمله أن لاذ بالفرار. وتمكن ملك مملكة القدس

= موضع ثقته من أهله ويعتمد عليه أكثر من جميع أفراد أسرته، كان شجاعاً وكريماً وفاضلاً وعالماً بالأدب وغيره، وله شعر جيد من بين أشعار الملوك، وكان كثير الغزاة لبلاد الفرنج. خرج من دمشق سنة ثمان وسبعين وخمسمائة (١١٨٢ م) الى غزو الفرنج، فمرض وعاد مريضاً فمات. ووصل خبر موته الى صلاح الدين وقد عبر الفرات إلى ديار الجزيرة، فأعاد شمس الدين محمد بن المقدم إلى دمشق ليكون مقدماً على عسكرها. وانظر: الكامل في التاريخ - أحداث سنة ثمان وسبعين وخمسمائة.

ـ بلدوين ـ ومعه كونت طرابلس ـ ريموند ـ ومعهما بعض الرجال، من عبور نهر الليطاني واللجوء الى قلعة الشقيف. وأدركت سيوف المسلمين من بقي من جنود الفرنج وراء نهر الليطاني فأخذتهم بالقتل ووقع آخرون بالأسر، ولولا لجوء ملك القدس وبعض جنده الى قلعة الشقيف لكان الفناء هو مصير الجيش الصليبي بأكمله.

جاءت بعد ذلك معركة حطين الخالدة، وتم تحرير صيدا (سنة ٥٨٣ هـ = ١١٨٧ م) ولم يبق أمام صلاح الدين إلا أن يعيد فتح حصون الأرض المقدسة التي أخذت في التساقط تباعاً حتى تم طرد الفرنج من الجليل بكامله تقريباً. ثم تحرك صلاح الدين على امتداد ساحل بلاد الشام، ولما وصل الى الشقيف وجد أن حاكم صيدا ـ رينالد ـ قد لجأ اليها. فحاول رينالد هذا، وقد رأى نجاح المسلمين في اعادة فتح كثير من المدن والقلاع، أن يلجأ الى الأساليب الديبلوماسية من أجل انقاذ قلعة الشقيف. وكان حاكم صيدا هذا ـ رينالد ـ قد اشتهر بكفايته الديبلوماسية إلى جانب أنه كان رجلاً يميل للعلم والدراسة، وأظهر ميلاً كبيراً لدراسة الأدب العربي. فقدم إلى خيمة صلاح الدين، وأعرب عن رغبته في تسليم قلعته واللجوء الى دمشق إذا ما أمهله صلاح الدين ثلاثة شهور لتسوية أموره، بل إنه ألمح إلى أنه قد يعتنق الإسلام. وبلغ من اللياقة في حديثه أن تمكن من اقناع صلاح الدين بصدق نيته وصفاء طويته. ولم يكتشف صلاح الدين إلا بعد فوات الوقت أن ـ رينالد ـ كان يخدعه، إذ أقام صلاح الدين بمرجعيون في انتظار انقضاء الموعد، وأثناء ذلك، أخذ القلق ينتابه بسبب قرب موعد انقضاء الهدنة بينه وبين صاحب أنطاكية (بوهمند الثالث ـ البيمند) فأمر ابن أخيه تقي الدين أن يسير فيمن معه من الجند، وأن يضم إليه من يأتيه من جند المشرق، ليكون في مواجهة صاحب أنطاكية ـ أميرها ـ حتى يحرمه من فرصة الاغارة على بلاد الإسلام عند انقضاء أجل الهدنة.

وزاد من ضيق صلاح الدين وهمومه ما توافر له من معلومات عن اجتماع الفرنج بمدينة صور، وما كان يصلهم من الامداد عن طريق البحر. وخاف صلاح الدين من ترك (الشقيف) وراء ظهره والتقدم إلى صور وفيها الجموع المتوافرة، فينقطع عنه الامداد. ومع ذلك، فقد صمم على الالتزام بتعهده لصاحب قلعة الشقيف رينالد (أو

أرناط كما تذكره المصادر العربية) في حين كان رينالد هذا يستثمر أيام الهدنة لشراء المواد التموينية والأسلحة من الأسواق ، بالإضافة إلى ما كان يشتريه من الوسائط لتحصين القلعة ، وبقي صلاح الدين وهو يحسن الظن به، ويرفض قبول ما كان يقال له عن مكر رينالد ، وأن هدفه هو كسب الوقت إلى أن يخرج الفرنج من صور وعندها يظهر على حقيقته. فلما قرب موعد القضاء أجّل الهدنة، تقدم صلاح الدين من معسكره إلى القرب من شقيف، وأحضر عنده رينالد (أو أرناط) وقد بقي من الأجل ثلاثة أيام، وطلب إليه تسليم الشقيف. فاعتذر رينالد بأولاده وأهله، وزعم أن المركيز ريموند - كونت طرابلس- لم يسمح لهم بالمجيء إليه، وطلب التأخير مدة أخرى . فعلم صلاح الدين حينئذ مكره وخداعه. فأخذه وحبسه وأمره بتسليم القلعة. فطلب قسيساً ذكره ليحمل رسالة إلى قائد الحامية المدافعة عن الشقيف ليطلب إليه تسليمها فأحضروه عنده، فساوره - همس إليه - بما لم يعلموا ،فمضى ذلك القسيس إلى الشقيف، وطلب إلى قائد الحامية باللغة العربية أن يقوم بتسليم القلعة، غير أنه طلب إليه باللغة الفرنسية أن يقاوم ويمتنع عن التسليم. ولم تكن مثل هذه الحيلة التافهة والقذرة لتنطلي على المسلمين. فأمر صلاح الدين بنقل رينالد الى مدينة دمشق، وإلقائه في سجنها[1] . وسار صلاح الدين بجيشه الى الشقيف فحاصرها وضيق عليها، وجعل عليها من يحفظها ويمنع عنها الذخيرة والرجال.

هكذا بقيت قلعة الشقيف شوكة في جانب المسلمين، ولم يكن باستطاعة صلاح الدين تجاهل خطورتها على مخططاته ، غير أن إخضاعها كان يتطلب قوات واستعدادات أكبر من تلك التي كانت متوافرة له ، لاسيما وقد أرغمته الأحداث على نشر جيوشه حول كافة إمارات الفرنج ، بداية من أنطاكية في الشمال وحتى طرابلس وعكا في الجنوب. ولهذا قرر ترك قوة صغيرة تكفي لحصار قلعة شقيف وعزلها. ومضى بمعظم جيشه لمجابهة الخطر الذي نتج عن تجمع الفرنج في صور ، وهو التجمع الذي استنتج منه صلاح الدين بأن الفرنج يريدون التوجه إلى صيدا لانتزاعها من قبضة

---

(١) الكامل في التاريخ - أحداث سنة ٥٨٥ - وتاريخ الحروب الصليبية : ٥٣/٣ و ٥٦ و ٦٣ .

المسلمين، ثم التقدم لرفع الحصار عن الشقيف. لكن صلاح الدين لم يلبث طويلاً حتى تأكد أن هدف الفرنج هو استعادة عكا وليس الهجوم على صيدا، فمضى بجمع الجيش الى عكا حيث دارت معارك متطاولة كان النصر في معظمها الى جانب المسلمين، وأثناء ذلك، كان الصراع مستمراً حول الشقيف. وقد أدى الحصار القوي والمستمر، وغياب الأمل من نجاح الفرنج بالوصول الى القلعة، إلى إضعاف المقاومة شيئاً فشيئاً. وأمكن للمسلمين في النهاية اقتحام قلعة الشقيف والاستيلاء عليها، وطرد الفرنج الصليبيين منها، وضمن صلاح الدين بذلك تحقيق هدفين: أولهما القضاء على التهديد الذي كانت تشكله القلعة. وثانيهما الافادة من القوات التي كان قد خصصها لاخضاع قلعة الشقيف، وضمها إلى قواته في فترة كان أحوج ما يكون فيها للدعم.

استثارت انتصارات صلاح الدين ملوك الغرب (إنكلترا وفرنسا وألمانيا) فأسرعوا لقيادة الحملة الصليبية الثالثة. ودارت صراعات مريرة لم تحقق للفرنج الصليبيين مكاسب كبرى. وجرت بعد ذلك مفاوضات تم خلالها إطلاق سراح سيد صيدا وشقيف السابق ـ رينالد ـ من سجنه، واستخدمه صلاح الدين في المفاوضات، وغفر له مكره وخداعه للاحتفاظ بقلعته (الشقيف).

تدهور الموقف بموت صلاح الدين وانقسام الأيوبيين على أنفسهم، الأمر الذي أتاح الفرصة أمام الفرنج لاستثمار الانقسام القائم بينهم واحراز بعض المكاسب. وتم لهم استرداد قلعة الشقيف وما تبقى من الجليل (سنة ٦٣٩ هـ = ١٢٤١ م) حيث أرغموا سلطان مصر الصالح أيوب على التصديق على المعاهدة التي وقعها أمير دمشق الصالح اسماعيل مع (فرسان الاسبتارية). وقد استشاط العالم العربي ـ الإسلامي غضباً لهذا الأمر، مما أرغم الصالح أيوب على ارسال جيشه عام ٦٤٥ هـ = ١٢٤٧ م للاستيلاء على جبل الطور والشقيف وعسقلان. فهدأت ثائرة المسلمين. وتحرك الفرنج على الاتجاه المضاد، وجاء ملك فرنسا لويس التاسع (القديس لويس) على رأس الحملة السادسة التي منيت بالفشل (في دمياط). ولكن لويس هذا تعلم كيف يمكن له أن يحقق بالطرق الدبلوماسية ما عجزت عن تحقيقه القوة في الحرب. وكان الصراع بين الأيوبيين والمماليك قد برز بصورة حادة. فتحالف لويس التاسع مع المماليك الذين كانوا

يسيطرون على مصر ضد الأيوبيين الذين كانت لهم السيطرة على بلاد الشام. وبذلك أمكن له استعادة الشقيف مع جزء من الجليل. وعادت الشقيف مرة أخرى لحكم الفرنج الصليبيين.

تعاظم الخطر المغولي الزاحف من الشرق في تلك الفترة، وبذل الخليفة العباسي المعتصم جهده للتوفيق بين المماليك والأيوبيين من أجل مجابهة خطر المغول التتار، وأفلح المعتصم في مسعاه. وتوحد العرب المسلمون كعادتهم عندما يواجهون الخطر الخارجي.

تمكن المغول (سنة ٦٥٩ هـ = ١٢٦٠ م) من الاطباق على الفرنج في نابلس وغزة، بقيادة كتبغا، ولم تحاول قوات المغول مهاجمة الفرنج طالما أنهم لم يتعرضوا لهم. وتجاوب الفرنج مع رغبة كتبغا وأعلنوا خضوعهم له. ولكن حاكم الشقيف وصيدا - يوليان - ظن أن بوسعه الاعتماد على قوة تحصيناته، واستثمار الصراع بين المسلمين والمغول للتوسع. فقام بقيادة اغارة على سهل البقاع الخصيب. ولكن كتبغا لم يكن ليسمح لأحد بتقويض النظام الذي فرضه على الأقاليم التي أخضعها لحكمه. فأرسل قوة صغيرة من جنده بقيادة ابن اخته لانزال العقاب بيوليان وجماعته. وأسرع يوليان لطلب النجدة من جيرانه الفرنج. فكمنوا لابن أخت كتبغا وقتلوه. فثار غضب كتبغا لهذا الاستفزاز، وأرسل جيشاً كبيراً وصل إلى مدينة صيدا ودمرها. وأفاد فرسان الداوية من الاضطراب، فانتزعوا من يوليان حق رهن صيدا والشقيف، لدى الداوية، مقابل مبلغ كبير من المال استدانها منهم لتلبية متطلباته في الاسراف والتبذير.

انتصر المسلمون في السنة ذاتها على المغول في عين جالوت (٦٥٩ هـ = ١٢٦٠ م) وأعقب ذلك فترة من الانقسام بين المماليك. حتى إذا ما أمكن للظاهر بيبرس السيطرة على الموقف، توجه لتأديب الفرنج، فخرج بجيشه من مصر، وطرد الفرنج من يافا، ثم جعل هدفه الثاني هو الاستيلاء على قلعة الشقيف التي طالما أزعجت جيوش المسلمين. وشرعت المجانيق في قصف القلعة اعتباراً من يوم ٥ نيسان - ابريل - ١٢٦٦ م (٦٦٥ هـ). واستمر القصف المتواصل لمدة عشرة أيام. مما أرغم فرسان الداوية للاستسلام. فجعل الظاهر بيبرس للنساء والأطفال حرية الانتقال الى صور. أما الرجال

فتقرر الاحتفاظ بهم أرقاء. وأصلح بيبرس القلعة وشحنها بقوة كبيرة من العساكر.

لكن الصراع للسيطرة على قلعة شقيف على امتداد قرن ونصف القرن من عمر الزمن هو من أجل الاستيلاء على قلعة أو تحريرها، وكذلك الأمر بالنسبة لما دار من صراع ومعارك ضارية حول بقية القلاع والحصون. بل إن هذا الصراع كان تعبيراً صادقاً عن التصميم الثابت في حوار الإرادات المتصارعة. وقد كان من المحال مجابهة العدوان وأسلحته وقلاعه وحصونه ومستوطناته بغير الأسلحة التي استخدمها العدوان ذاته. وبغير ذلك لا يتحقق الشرط الأساسي من حوار الارادات المتصارعة وتبقى العملية الكاملة عملية فرض إرادة من جانب أحد الطرفين، وهو الطرف المنتصر. وقد صمم المسلمون على تحقيق النصر في النهاية، فكان لا بد لهم من الاحتكام للسلاح دائماً حتى يقابلوا نهج العدو وأسلوبه بنهج مماثل، وبذلك استمرت عملية حوار الارادات المتصارعة وتطورت. ولقد حاول الفرنج الغزاة أيام ريتشارد قلب الأسد (ملك انكلترا في الحملة الثالثة) وأيام الملك لويس (القديس لويس - ملك فرنسا في الحملة السادسة) تغليب الصراع السياسي على الصراع المسلح، مستثمرين الظروف المرحلية لانقسامات أمراء المسلمين وملوكهم. غير أن ما حققه الملكان من انتصارات (شملت فيما شملته استعادة قلعة الشقيف وحتى مدينة القدس) لم تلبث أن تهاوت بسرعة عندما عادت الأطراف لمتابعة حوار الارادات المتصارعة. **وقد كان ذلك برهاناً على حتمية فشل الحلول السياسية عندما تكون معزولة عن الحسم العسكري في إطار الحرب طويلة الأمد** ذلك أن مثل هذه الحلول السياسية تبقى واهية ضعيفة في أنظار الحكام والمحكومين، لأنها تأخذ صفة الاملاء أو الفرض، ولأنها تسير على اتجاه يغاير المسار الطبيعي لحركة حوار الارادات المتصارعة.

لم يكن بالمستطاع إقناع الفرنج الحاقدين بالتخلي عن إماراتهم وممالكهم التي أقاموها على تراب بلاد الشام إلا بالبرهان لهم على أن هذه الامارات والممالك هي عبء ثقيل يرهق كاهلهم بأكثر مما هي مكسب لهم أو مغنم يغنمونه. وكان الصراع المسلح هو الوسيلة الوحيدة لتشكيل مثل هذه القناعة. وهكذا كان استمرار الصراع حول شقيف وسواها من القلاع والتحصينات هو الذي حول الامارات الصليبية الى عبء ثقيل عجز

الفرنج عن حمله. وكان تحويل الامارات الصليبية إلى عبء هو بداية طرد الفرنج من بلاد المشرق العربي ـ الإسلامي.

بقيت قوات الفرنج الصليبيين في قلعة الشقيف زهاء قرن ونصف القرن من عمر الزمن وطردوا منها ثم عادوا إليها مرتين. وفي المرة الثالثة خرجوا منها مرة واحدة. ولم يعودوا إليها إلا بعد عودة الحملات الصليبية الجديدة في رداء الصهيونية.

ففي يوم ٨ حزيران ـ يونيو ـ ١٩٨٢، وبعد ثلاثة أيام من المعارك الضارية التي أظهرت فيها المقاومة الفلسطينية بطولة رائعة أذهلت العدو الصهيوني وأوقعت به الخسائر الفادحة، استطاع جند جيش العدوان الصهيوني الاستيلاء على قلعة الشقيف (في اطار اجتياح لبنان بما أطلقت عليه اسرائيل اسم سلامة الجليل) وجاء رئيس وزراء الكيان الصهيوني ـ الارهابي مناحيم بيغن ـ وبرفقته وزير دفاعه ـ الارهابي اريئيل شارون ـ للاحتفال رسمياً باعادة قلعة الشقيف لحكم الصليبية، وتسليمها للرائد اللبناني سعد حداد وهو يقول له: «**ها نحن نعيد لك القلعة**».

١٢ ـ قلعة حلب

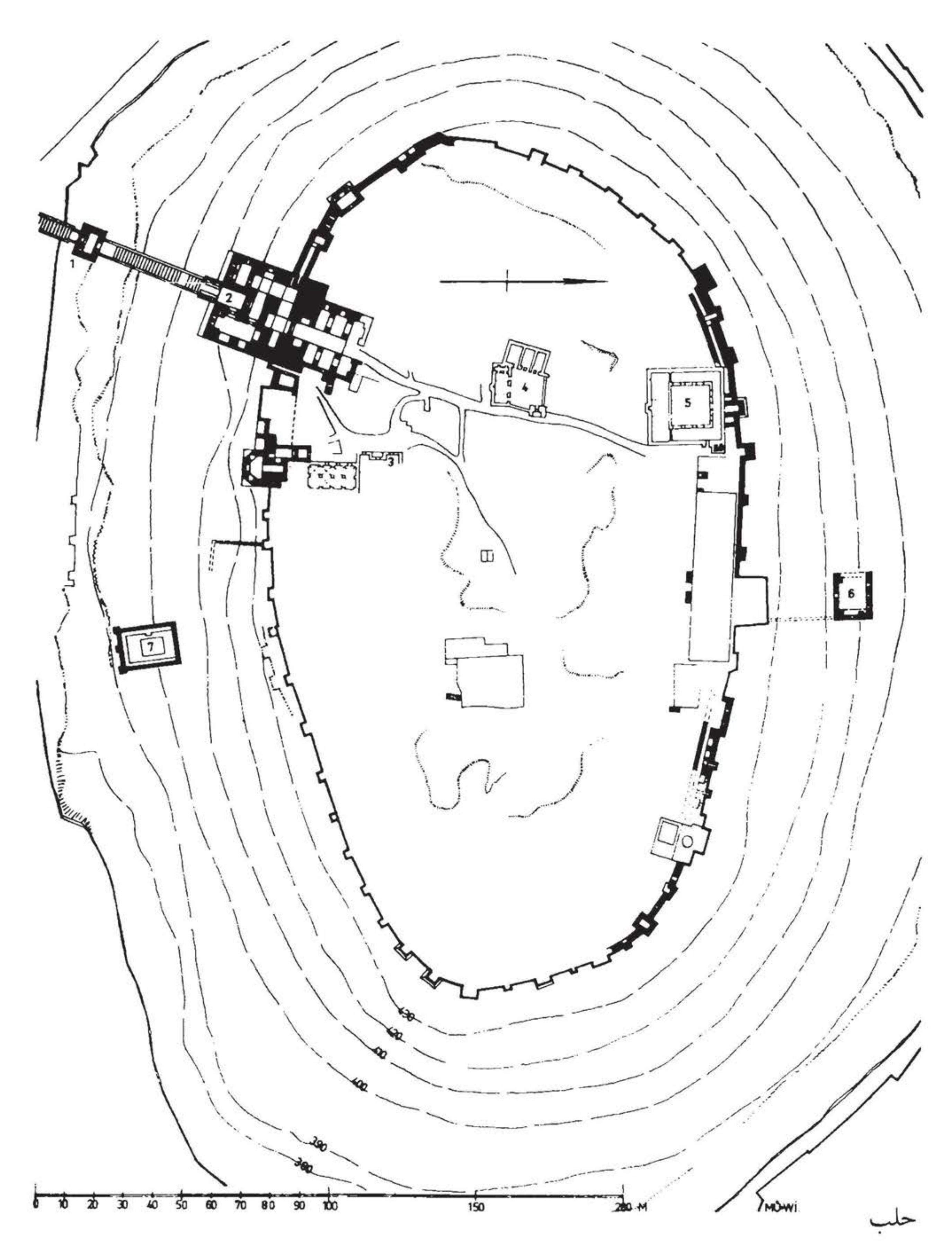
حلب هي عاصمة الشمال في بلاد الشام، ومدينة مأهولة منذ آلاف السنين، تكون الموقع الأساسي للمنطقة السكنية من التل الضخم في وسط المدينة الحديثة، والذي تم تحويله إلى قلعة منذ العصور الوسطى. وقد شغلت الأحياء السكنية ـ منذ العصور الوسطى أيضاً مثلها كمثل المدينة القديمة ـ المساحة الكائنة ما بين القلعة ونهر قويق الصغير، وهي رقعة من الأرض تنحدر تدريجياً باتجاه الغرب. وقد أصبحت حلب في نهاية القرن العاشر الميلادي عاصمة للحمدانيين الذين كان من أشهرهم (سيف الدولة الحمداني)[١] وقد تعرض المؤرخ أبو الفداء لمدينة حلب بقوله: « .. وحلب بلدة عظيمة قديمة مرتفعة حصينة، وبها مقام ابراهيم الخليل صلوات الله عليه. ولها بساتين قلائل ويمر بها نهر قويق. وهي على مدرج طريق العراق إلى الثغور وسائر الشامات. وبين حلب وبين قنسرين أثنا عشر ميلاً. وقال في العزيزي: وهي مدينة جليلة عامرة حسنة المنازل، عليها سور من حجر، وفي وسطها قلعة على تل لاترام. وبينها وبين معرة النعمان ستة وثلاثون ميلاً. وبينها وبين مدينة بالس، خمسة عشر فرسخاً »[٢].

ما إن أسلمت حلب قيادها للعرب المسلمين سنة ١٦ هـ = ٦٣٧ م حتى أصبحت قاعدة لانطلاقة المجاهدين في سبيل الله في غزواتهم لما وراء الدروب (الصوائف

---

(١) سيف الدولة الحمداني ـ هو أبو الحسن علي بن أبي الهيجاء عبدالله بن حمدون التغلبي الربعي. (٣٠٣ ـ ٣٥٦ هـ = ٩١٥ ـ ٩٦٦ م) مات بحلب، وحمل تابوته إلى ميافارقين فدفن بها. اشتهر بالشجاعة وكثرة الجهاد، وهو من الملوك الكثيري الإحسان على ما كان فيه من التشيع. وأتفقت له أشياء غريبة منها أن خطيبه كان مصنف الخطب، أحد الفصحاء البلغاء، ومنها أن شاعره كان المتنبي. ومنها أن مطربه كان أبو النصر الفارابي. ولم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من الشعراء.

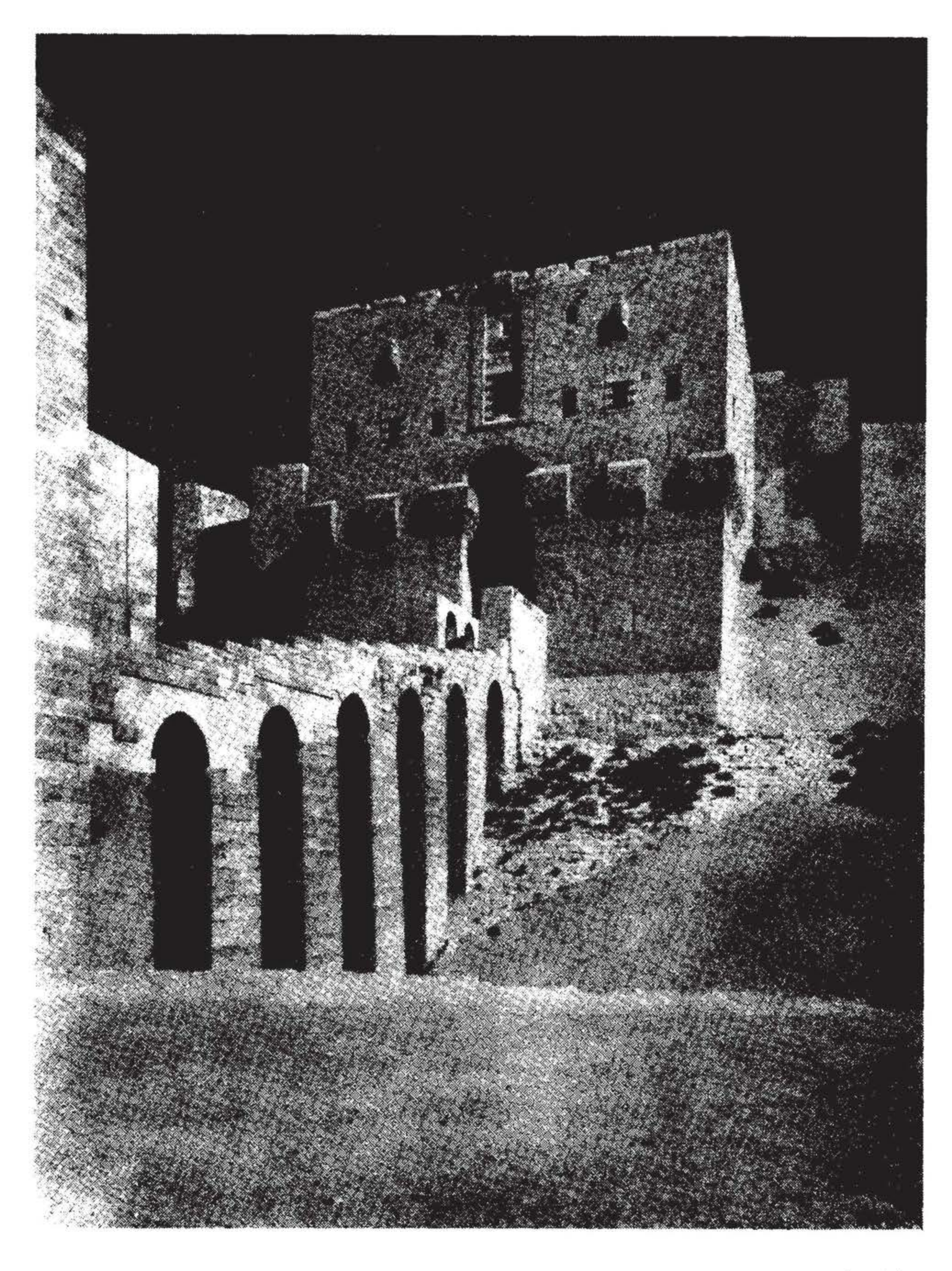
(٢) القلاع أيام الحروب الصليبية ص: ٨٥ ـ ٨٦. وتقويم البلدان ـ أبو الفداء ـ ص: ٣٦٧.



حلب

مخطط عام للقلعة، المقياس ١/٢٠٠٠. حلب

١ ـ البوابة الخارجية، ٢ ـ البوابة الرئيسية، ٣ ـ حمام متصدع، ٤ ـ مسجد صغير (يدعى مسجد إبراهيم، شيد عام ١١٦٢ على يد نور الدين)، ٥ ـ المسجد الكبير (شيد ع ١٢١٠ على يد الملك الظاهر)، ٦ ـ البرج الخارجي الشمالي (فوق أطلال سور القلعة السابق)



قلعة حلب

والشواتي) لمقارعة الروم البيزنطيين والنكاية بهم واشغالهم بأنفسهم عن المسلمين. ولم يتمكن الروم من التعرض لحلب أو غزوها بسبب ما توافر لها من أسباب القوة والمنعة، ولبعدها النسبي عن الثغور. حتى إذا ما كانت سنة إحدى وخمسين وثلثمائة (٩٦٢ م) توافرت لملك الروم (نقفور فوقاس)[١] معلومات عن انشغال المسلمين بأنفسهم - وبصراعاتهم الداخلية، فقرر مهاجمة بلاد المسلمين. وأوجزت المصادر العربية قصة هذا الهجوم بما يلي: «وصل - الدمستق - الى حلب، وقد حشد مائتي ألف رجل من الجند، منهم ثلاثون ألفاً بالجواشن، وثلاثون ألف للهدم وإصلاح الطرق من الثلج وأربعة آلاف بغل يحمل الحسك الحديد. غير أنه لم يتقدم بجيشه هذا، وإنما خلفه بقيسارية، وسار بقوة خفيفة من الفرسان - جريدة - فأغار على حلب قبل أن يشعر به أحد من المسلمين. ولم يعلم به سيف الدولة الحمداني ولا غيره. فلما بلغها، وعلم سيف الدولة الخبر، أعجله الأمر عن الجمع والاحتشاد، فخرج إليه فيمن معه فقاتله، فلم يكن له قوة الصبر لقلة من معه فقتل أكثرهم حتى لم يبق من أولاد داود بن حمدان أحد، بل قتلوا جميعهم، وانهزم سيف الدولة. وظفر الدمستق بداره وكانت خارج مدينة حلب تسمى الدارين، فوجد فيها لسيف الدولة ثلثمائة بدرة من الدراهم. وأخذ له ألفاً وأربعمائة بغل، ومن خزائن السلاح ما لا يحصى، فأخذ الجميع وخرب الدار، وملك الحاضر وحصر المدينة وبذل لأهلها الأمان إن هم سلموا إليه ثلاثة آلاف صبي وصبية، ومالاً ذكره، وينصرف عنهم. فلم يجيبوه وقاتلوه. فعمل الروم على إحداث ثلمة في السور. فقاتلهم أهل حلب عليها. فقتل من الروم كثير ودفعوهم عنها. فلما جنهم الليل عمروها. فلما رأى الروم ذلك تأخروا إلى جبل جوشن. ثم إن رجال الشرطة بحلب قصدوا منازل الناس وخانات التجار لينهبوها، فلحق الناس أموالهم

---

(١) نقفور فوقاس - أو فوكاس -: (NICEPHORE II PHOCAS) امبراطور الروم البيزنطيين ولد سنة ٣٠٠ هـ = ٩١٣م. وأصبح امبراطوراً سنة ٣٥٦ هـ حتى سنة ٣٥٩ هـ (٩٦٣ - ٩٦٩ م) ذكره ابن الأثير (الكامل في التاريخ - أحداث سنة ٣٥٦ هـ) بما يلي: «اسمه الدمستق. وكان هذا الملعون من أغلظ الملوك قلباً وأشدهم كفراً وأقواهم بأساً وأحدهم شوكة وأكثرهم قتلاً وقتالاً للمسلمين في زمانه».

ليمنعوها، فخلا السور منهم. فلما رأى الروم السور خالياً من الناس قصدوه، وقربوا منه، فلم يمنعهم أحد. فصعدوا إلى أعلاه، فرأوا الفتنة قائمة في البلد بين أهله، فنزلوا وفتحوا الأبواب ودخلوا البلد بالسيف يقتلون من وجدوا، ولم يرفعوا السيف إلى أن تعبوا وضجروا. وكان في حلب ألف وأربعمائة أسير من الروم، فتخلصوا وأخذوا السلاح وقتلوا الناس، وسبي من البلد بضعة عشر ألف صبي وصبية وغنموا ما لا يوصف كثرة. فلما لم يبق مع الروم ما يحملون عليه الغنيمة، أمر ملك الروم - الدمستق - باحراق الباقي وأحرق المساجد، وقصد المسلمون القلعة، فمن دخلها نجا، وأقام الدمستق تسعة أيام، فلما لم يتمكن من فتح القلعة انصرف عنها، ورجع عائداً إلى بلاده».

لم تكن هذه الكارثة التي نزلت بعاصمة شمال بلاد الشام هي الكارثة الوحيدة، ولو أنها كانت من أثقل الكوارث وأكثرها فداحة. وكانت حلب ومعها بلاد الشام مسرحاً للصراع بين الشيعة في مصر - الفاطميين - وبين السنة أهل الطاعة والجماعة وقاعدتهم مقر الخلافة في بغداد. وقد خضعت بلاد الشام للفاطميين أدعياء الشيعة. حتى إذا ما كانت سنة ثلاث وستين وأربعمائة (١٠٧٠ م) برزت للوجود القوة المتعاظمة للسلاجقة الذين جاؤوا لنصرة الخلافة ودعم اخوانهم السنيين. فما كان من حاكم حلب (محمود بن صالح بن مرداس) إلا أن جمع كبار أهل حلب واستشارهم، فتقرر العودة إلى السنة والطاعة والجماعة، وإقامة الخطبة للخليفة العباسي. غير أن أهل حلب استمروا في رفع الأذان برمز أهل التشيع **(حي على خير العمل)** فسار السلطان ألب أرسلان - السلجوقي - الى حلب، وحصرها. فقيل له بأن حاكم حلب قد لبس ضلع الخليفة العباسي، وخطب له. فأجابهم:

«أي شيء تساوي خطبتهم وهم يؤذنون: حي على خير العمل؟».

فما كان من حاكم حلب - محمود بن صالح بن مرداس - إلا أن خرج إلى السلطان ألب أرسلان، وأعلن خضوعه له، فقبل منه السلطان، وأعاده الى بلده. وعادت حلب

قاعدة للمسلمين من أهل السنة[1]. وتابعت حلب دورها في ركب الجهاد. فعمل حاكمها سنة ٤٦٨ هـ = ١٠٧٥ م على انتزاع منبج من قبضة الروم. ولما جاء الفرنج الصليبيون إلى بلاد الشام، واستولوا على انطاكية (سنة ٤٩١ هـ = ١٠٩٧ م) ثم استولوا على القدس في السنة التالية، أصبحت حلب على خط المواجهة ـ مثلها كمثل دمشق وبقية المدن الداخلية ـ ولم تكن حلب تمتلك القدرة على مجابهة الفرنج، فقبل حاكمها مصانعة الفرنج على مال ومهادنتهم (سنة ٥١١ هـ = ١١١٧ م) وشعر الزنكيون أمراء الموصل بالخطر من امتلاك الفرنج لحلب، لاسيما بعد أن عاد الفرنج سنة ٥١٣ هـ = ١١١٩ م فهاجموا حلب ونازلوها. ولم يكن بحلب من الذخائر ما يكفيها شهراً واحداً. وخاف أهل حلب خوفاً شديداً. فصانعوا الفرنج على أن يقاسموهم أموالهم التي بباب حلب. ثم أرسل أهل حلب إلى بغداد يستغيثون. فأقبل الأمير ايلغازي، واصطدم بالفرنج عند الأثارب. ونصر الله المسلمين نصراً عزيزاً.

جابهت حلب موقفاً صعباً سنة ٥١٨ هـ = ١١٢٤ م. عندما توجه زعيم شيعي اسمه دبيس بن صدقة إلى الفرنج، وأطمعهم في الاستيلاء على حلب. وقال لهم إن أهل حلب من الشيعة يميلون إليه، وأنهم سوف يسلمونه البلد، فيحكمها نائباً عن الفرنج ويبقى مطيعاً لهم. وبذل لهم على مساعدته بذولاً كثيرة.

ووجد الفرنج في ذلك فرصة كانوا لا يحلمون بحدوث مثلها. فانحازت قوات جيشي انطاكية والرهاء الى قوات دبيس بن صدقة. ونزلوا على أسوار حلب وطوقوها، وقاتلوا أهلها قتالاً شديداً، ووطنوا نفسهم على المقام الطويل، وأظهروا أنهم لا يفارقونها حتى يملكوها، وبنوا البيوت لأجل الحر والبرد. وطال الحصار ثلاثة أشهر. فلما رأى أهل حلب ذلك ضعفت نفوسهم وخافوا الهلاك. وظهر لهم من حاكمهم

---

(١) استولى السلطان السلجوقي ألب أرسلان على حلب سنة ٤٦٣ هـ = ١٠٧٠ م وهي السنة التي وقعت فيها معركة ملازكرد ـ مع الروم ـ وانتصر فيها المسلمون انتصاراً حاسماً بقيادة ألب أرسلان ـ وانظر تفاصيل هذه الأحداث في الكامل في التاريخ ـ أحداث سنوات ٣٥١ و ٤٦٣ و ٤٦٨ و ٤٩١ و ٥١٣ و ٥١٨.

(تمرتاش بن ايلغازي - الأرتقي) وهناً وعجزاً، وقلت الأقوات في حلب، فقرر زعماء المدينة الاستنجاد بصاحب الموصل (آقسنقر البرسقي) الذي اشترط على أهل حلب تسليمه القلعة. ووافق أهل حلب. فسار آقسنقر البرسقي بجيوشه، وانضم اليه جيش حمص وجيش دمشق (بقيادة طغتكين) فلما رأى الفرنج ذلك، رفعوا الحصار عن حلب. وانسحبوا الى انطاكية: وأصبحت حلب تحت حكم آقسنقر البرسقي، فاتصل حكم حلب بحكم الموصل وحمص ودمشق.

انتقم الفرنج لهزيمتهم بأن اتفقوا مع الباطنية - الاسماعيلية - على اغتيال آقسنقر، فأرسل الباطنية من اغتاله وهو يصلي صلاة الجمعة في الموصل (سنة ٥٢٠ هـ) فخلفه ابنه عز الدين مسعود الذي توفي بدوره في السنة التالية (٥٢١ هـ) فخلفه ابنه عز الدين زنكي الذي كان أول عمل له هو دعم الدفاع عن حلب.

فقد أراد الفرنج الافادة من اضطراب الأوضاع للاستيلاء على حلب. فتقدم كونت الرها - جوسلين - فحاصر حلب. ولكن أهلها دفعوا له فدية، فانصرف عنهم. وجاء بعد ذلك حاكم أنطاكية في حشد من الفرنج (سنة ٥٢٢ هـ = ١١٢٨ م) فخندق الحلبيون حول القلعة، ومنعوا الداخل والخارج إليه من ظاهر البلد. وأشرف الناس على الخطر العظيم. ولما علم عماد الدين زنكي بذلك أرسل قواته لنجدة أهل حلب. ثم سار اليها في جيوشه وعساكره، فلما اقترب منها خرج إليه أهلها لاستقباله، والتقوه واستبشروا بقدومه. ودخل حلب ورتب أموره، وأقطع أعمالـه الأجناد والأمراء، فلما استقر له الأمر، سار سنة ٥٢٤ هـ = ١١٢٩ م. فقصد (حصن الأثارب) لفتحه، بسبب شدة ضرره على المسلمين - وهذا الحصن بينه وبين حلب نحو ثلاثة فراسخ، بينها وبين أنطاكية، وكان من به من الفرنج يقاسمون حلب على جميع أعمالها الغربية، حتى على رحاً (طاحون) لأهل حلب بظاهر باب الجنان، بينها وبين البلد عرض الطريق. وكان أهل حلب معهم في ضر شديد وضيق. ولا يكاد يمضي يوم حتى يغيروا عليهم وينهبوا أموالهم. فلما رأى عماد الدين ذلك صمم على فتحها. وأقبل الفرنج بجموعهم. ودارت معركة طاحنة، وأنزل الله نصره على المسلمين، وانهزم

الفرنج أقبح هزيمة. ووقع كثير من فرسانهم في الأسر، وقتل منهم خلق كثير. وتقدم عماد الدين الى (حصن الأثارب ففتحه. وقتل مقاتلته. وأمر بهدمه وجعله دكاً. ولقد استشعر الفرنج الخطر من تعاظم قدرة المسلمين، فاستنصروا بملك الروم البيزنطيين الذي خرج بجيشه الى اقليم حلب - وخاض مجموعة من المعارك في (بزاغة وقلعة الأثارب)[1] وانسحب الروم بعدها.

لم تعد حلب وقلعتها عرضة للخطر أو للتهديد بهجمات الفرنج، بعد أن انتظمت جيوش مدن المسلمين تحت قيادة واحدة. وتحول الموقف فعاد جيش حلب للعمل بحرية كاملة ضد الفرنج. ولما كانت امارة الرها - في الجزيرة - هي وانطاكية تمثلان مصدر التهديد المباشر لمدينة حلب وما حولها. فقد تم فتح الرهاء (سنة ٥٤٠ هـ = ١١٤٥ م). ولما توفي أتابك عماد الدين زنكي في السنة التالية، اضطلع ابنه (نور الدين محمود زنكي) باعباء قيادة الجهاد، وبدأ بفتح الحصون في الشمال مثل أرتاح والعزيمة. حتى إذا ما جاءت سنة ٥٤٣ هـ = ١١٤٨ م. حشد الفرنج جيوشهم بهدف السير الى حلب والهجوم عليها. فعلم نور الدين زنكي فسار إليهم في عسكره، فالتقوا عند (يفري) واقتتلوا قتالاً شديداً حتى أنزل الله نصره على المسلمين. وقتل كثير من الفرنج، وأسر جماعة من مقدميهم، ولم ينج من ذلك الحشد إلا القليل، وأرسل نور الدين من الغنيمة والأسارى إلى أخيه سيف الدين في الموصل والى الخليفة ببغداد. وجاءت السنة التالية (٥٤٤ هـ) وأمسك نور الدين بالمبادأة. فسار إلى بلاد الفرنج من ناحية أنطاكية، وقصد حصن حارم الذي كان تحت حكم الفرنج، فحصره وضرب ربضه ونهب سواده، ثم رحل إلى حصن أنب، فحصره أيضاً. فاجتمعت الفرنج مع أمير أنطاكية وحارم وتلك الأعمال، وساروا لقتال نور الدين، فلقيهم واقتتلوا قتالاً عظيماً ثم انهزم الفرنج أقبح هزيمة، وقتل منهم جمع كثير، وأسروا مثلهم. وكان ممن قتل البرنس

---

(١) يمكن الرجوع الى بحث (قلعة شيزر) لمطالعة تفاصيل ما قام به جيش الروم ورد فعل عماد الدين زنكي. وانظر تاريخ الحروب الصليبية: ٢/٢٧٤ - ٢٧٦ والكامل في التاريخ احداث سنة ٥٢٤ هـ وسنة ٥٣٢ هـ.

صاحب انطاكية. وكان عاتياً من عتاة الفرنج وعظيماً من عظمائهم. وفي سنة ٥٤٦ هـ = ١١٥١ م. جمع نور الدين محمود جيشه وسار من حلب نحو الشمال بهدف حصر (تل باشر) و(عين تاب) و(إعزاز) وسواها. فلم علم أمير الفرنج - جوسلين - وكان فارس الفرنج غير مدافع، قد جمع الشجاعة والرأي، فسار نحو نور الدين. واقتتلوا، فانهزم المسلمون، وقتل منهم وأسر جمع كثير. وكان في جملة من أسر الأمين على سلاح دار نور الدين - فأخذه جوسلين ومعه سلاح نور الدين - وعظم الأمر على نور الدين، وأعمل الحيلة على جوسلين، وهجر الراحة ليأخذ بثأره، وأحضر جماعة من أمراء التركمان، وبذل لهم الرغائب إن هم ظفروا بجوسلين وسلموه إليه إما قتيلاً أو أسيراً، لأنه علم أنه متى قصده بنفسه احتمى بجموعه وحصونه. فجعل التركمان عليه العيون - الجواسيس -. حتى إذا ما خرج يوماً للصيد، لحقت به طائفة منهم وظفروا به، فصانعهم على مال يؤديه إليهم. فأجابوه إلى إطلاقه إذا أحضر المال. فأرسل في إحضاره. ومضى بعضهم إلى نائب نور الدين بحلب (بكر بن الداية) فأعلمه الحال، فسير عسكراً معه. فكبسوا أولئك التركمان وجوسلين معهم. فأخذوه أسيراً وأحضروه عنده، وكان أسره من أعظم الفتوح، لأنه كان شيطاناً عاتياً على المسلمين، قاسي القلب، وأصيبت النصرانية كافة بأسره. ولما أسر جوسلين، سار نور الدين إلى قلاعه فملكها، وهي تل باشر وعين تاب وإعزاز وتل خالد وقورس والراوندان وبرج الرصاص وحصن الباره وكفرسود وكفرلاثا ودلوك ومرعش ونهر الجوز وغير ذلك من أعماله. وكان نور الدين كلما فتح حصناً منها، نقل إليه كل ما تحتاج إليه الحصون خوفاً من نكثة تلحق المسلمين من الفرنج. فتكون بلادهم غير محتاجة إلى ما يمنعها من العدو. وأصبحت هذه القلاع والحصون هي الدرع لحماية حلب.

لقد كانت هذه النتيجة هي الثمرة اليانعة للتحول الحاسم الذي بدأ عماد الدين زنكي بقيادته وتوجيهه نحو مساراته الصحيحة، ثم جاء نور الدين فسار على نهجه. واقتدى بسيرته ولقد ظهرت بواكير هذا التحول واضحة قبل ذلك (في سنة ٥٢٧ هـ = ١١٣٢ م) ففي تلك السنة قاد ملك القدس جموعه وسار إلى حلب، فخرج للقائه جيش حلب بقيادة أميرها (أسوار) وانضم إليه جمع كبير من التركمان، ووقعت

معركة قرب قنسرين فقتل من الطائفتين جماعة كثيرة، وانهزم المسلمون إلى حلب. فأعاد أمير حلب تنظيم قواته، وخرج بها لتأديب الفرنج الذين تابعوا عيثهم وفسادهم ونهبهم وقتلهم للمسلمين في ريف حلب. واصطدم جيش حلب بطائفة منهم، فأوقع بهم، وأكثر القتل فيهم والأسر. فعاد من سلم منهزماً إلى القدس. وانجبر ذلك المصاب بهذا النصر. وعاد جيش حلب ومعه الأسرى ورؤوس القتلى. وكان يوماً مشهوداً في حياة حلب. ثم إن طائفة من الفرنج - من إمارة الرها - قصدوا حلب للإغارة عليها. فخرج إليهم جيش حلب، فأوقعوا بهم وقتلوهم عن آخرهم في بلد الشمال، وأسروا من لم يقتل ورجعوا إلى حلب سالمين. وكان أتابك عماد الدين زنكي يتابع الموقف. فأراد ايقاف أعمال الفرنج العدوانية على حلب. فقاد جيشه من الموصل (سنة ٥٣٠ هـ = ١١٣٥ م). وانضم إليه جيش حلب بقيادة الأمير أسوار، وجيش حماه، وقصدوا بلاد الافرنج على حين غفلة منهم، وساروا إلى ريف اللاذقية، ولم يتمكن أهلها الفرنج من الانتقال منها والاحتراز، فنهبوا منها ما يزيد على الوصف، وقتلوا وأسروا، وفعلوا في بلاد الفرنج ما لم يفعله بهم غيرهم. وكان الأسرى سبعة آلاف أسير ما بين رجل وامرأة وصبي - ومائة ألف رأس من الدواب ما بين فرس وبغل وحمار وبقر وغنم. وأما ما سوى ذلك من الأقمشة والعين والحلي فيخرج عن الحد. وأخربوا بلد اللاذقية وما جاورها. ولم يسلم منها إلا القليل. وعاد المسلمون ظافرين.

تشابهت الأيام بعد ذلك، وتتابعت الانتصارات، وأصبح جيش حلب يرتاد أطراف البلاد التي احتلها الفرنج على امتداد الساحل بحثاً عن المعركة، أو رداً على العدوان، أو فتحاً لبلد أو معقل. وتوحدت بلاد مصر والشام تحت راية الجهاد في سبيل الله، بعد أن تم القضاء على عامل الفرقة الذي طالما أثارته مزاعم التشيع والذي مثلته الدولة الفاطمية. وتوفي نور الدين زنكي وقد حقق للأمة الإسلامية وحدتها. ونظم لها قوتها، ووضع لها نهجها. وجاء صلاح الدين الأيوبي، فقرر الاستيلاء على ارث الزنكيين، وخرج بجيشه من مصر، فأسلمت اليه بعض بلاد الشام قيادها طوعاً. وقاومته بلاد أخرى الى حين. وبقيت حلب وفية للزنكيين الذين ما عرفت فيهم إلا الصدق في الجهاد والكفاءة في القيادة ولكن حاكم حلب (عماد الدين زنكي بن مودود

زنكي) قرر التنازل لصلاح الدين عن حلب بعد حصار متطاول (سنة ٥٧٩ هـ = ١١٨٣ م)[١] ودخل صلاح الدين بموكبه الظافر مدينة حلب. واستقبل فيها استقبالاً حافلاً.

يمكن بعدئذ تجاوز الدور الذي قام به جيش حلب مع بقية جيوش مدن المسلمين في تحقيق الانتصارات المتتالية التي أحرزها المسلمون، للتوقف عند ما تعرضت له حلب على أيدي المغول التتار. فبعد أن اجتاح هؤلاء عاصمة المسلمين ـ بغداد ـ. قاد هولاكو جيشه للاستيلاء على شمال غرب بلاد الشام (سنة ٦٥٨ هـ = ١٢٥٩ م) فتولى القائد كتبغا قيادة المقدمة، فيما تولى القائد بيجو قيادة الميمنة. وتولى سنجق قيادة الميسرة. وانفرد هولاكو بقيادة الكتلة الرئيسة للجيش ـ القلب ـ. وزحف مجتازاً نصيبين وحران والرها حتى بلغ البيرة، وعبر نهر الفرات. وقد حاولت سروج مجابهة هجوم المغول فتعرضت للنهب والاستباحة. وأطبق الجيش المغولي على حلب من كل جهاتها في مطلع سنة ٦٥٩ هـ = ١٢٦٠ م. ورفضت الحامية المدافعة عن المدينة عرض الاستسلام، فقرر المغول اجتياحها. ولما هبت العاصفة يوم ١٨ كانون الثاني ـ يناير ـ ١٢٦٠، كان السلطان الناصر حاكم دمشق لازال يأمل في أن يكون وجود ابنه في معسكر هولاكو سبباً في درء الخطر عن بلاده، ولما تبين له خطأ تقديره، أسرع إلى مصر، وأعلن خضوعه للمماليك الذين وعدوه بالمساعدة. وعمل في الوقت ذاته على حشد جنده خارج دمشق، ودعا ابني عمه أميري حماه والكرك لمساعدته من أجل دعم جيش حلب. غير أنه بينما كان ينتظر في دمشق، شرع بعض قادته الترك في التآمر عليه، واكتشف خططهم في الوقت المناسب، ولكن المتآمرين أسرعوا إلى الهرب وحملوا معهم أحد إخوته الى مصر. وأدى تسللهم وهربهم إلى أن أضحى جيشه ضعيفاً إلى درجة حرمته من السير لنجدة حلب.

---

(١) امتدح قاضي دمشق ـ محي الدين بن الزكي ـ جهد صلاح الدين وفتح حلب في قصيدة منها:

وفتحكم حلباً بالسيف في صفر مبشر بفتوح القدس في رجب.

ولقد تم فتح حلب في شهر صفر من سنة تسع وسبعين وخمسمائة. وجاء فتح القدس في رجب من سنة ثلاثة وثمانين وخمسمائة. فكانت نبوءة القاضي محي الدين بن الزكي فأل خير على صلاح الدين وعلى المسلمين. (الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة ٥٧٩ هـ).

كان توران شاه ـ عم الناصر يوسف ـ يدافع عن حلب، وأظهر شجاعة مذهلة وتصمياً رائعاً في الدفاع عن المدينة، غير أن الأسوار انهارت بعد أن تعرضت للقصف المستمر طوال ستة أيام. وتدفق المغول إلى داخل المدينة، وحدث بحلب ما سبق أن وقع في كل مكان اجتاحه المغول، حيث دارت المذابح في المسلمين. بينما لم يتعرض المسيحيون لسوء باستثناء عدد قليل من الارثوذكس الذين لم يجر الاعتراف بكنيستهم، وظلت القلعة على مقاومتها بقيادة توران شاه طوال أربعة أسابيع أخرى فيما بقي القتل في سكان حلب مستمراً. ولما سقطت القلعة في آخر الأمر، أظهر هولاكو من الرحمة ما لم يكن متوقعاً منه، إذ أبقى على حياة توران شاه لكبر سنه وشجاعته. ولم تتعرض حاشيته للأذى والضرر. ووقع في يدي هولاكو مقادير كبيرة من الثروة. ثم عهد هولاكو بحكومة حلب إلى أمير حمص السابق ـ الأشرف ـ والذي كان قد التحق بمعسكر المغول قبل ذلك بأشهر، عديدة، وأمده هولاكو بمستشارين من المغول، وبحامية مغولية لفرض سيطرته على حلب. ولكن ما إن انتصر المسلمون في عين جالوت (يوم ٣ ـ ايلول ـ سبتمبر ـ سنة ١٢٦٠) حتى عاد الأشرف الأيوبي إلى إمارة حمص بعد أن أدار ظهره للمغول وتنكر لهم. وأمكن استرداد حلب بعد شهر. مما أغضب هولاكو. فأرسل جيشاً لاسترداد حلب في شهر كانون الأول ـ ديسمبر ـ سنة ١٢٦٠ م. غير أن جيش هولاكو اضطر للانسحاب بعد أربعين يوماً عمل خلالها على اجراء مذبحة استشهد فيها عدد كبير من المسلمين. وهذا كل ما استطاع المغول عمله انتقاماً لهزيمتهم.

لم تكن هذه هي آخر كارثة تعرضت لها حلب على أيدي المغول ـ التتار ـ فالمعروف أن تيمور الأعرج (تيمورلنك) قد اجتاح بلاد الشام سنة ٨٠٣ هـ = ١٤٠٠ م. وأنزل الهزيمة بجيش المماليك في حلب أولاً، ثم في دمشق، ودمر واستباح كل المدن الكبيرة ببلاد الشام. ثم انسحب وقد خلف وراءه الدمار في كل مكان سار فيه.

يظهر العرض السابق ما تعرضت له حلب وقلعتها من هجمات، وما جابهته من أحداث، علاوة على تلك الكوارث الطبيعية ـ الزلازل ـ والتي ضربت حلب، فأنزلت بها أضراراً كبيرة في مرات عديدة، كان من أخطرها ما حدث سنة ٥٥٢ هـ

= ١١٥٧ م، الأمر الذي دفع نور الدين زنكي يومها للعمل على ترميمها ودعمها تحت اشرافه مباشرة. واستمر العمل بعد ذلك، ففي عهد السلطان الظاهر غازي ـ ابن صلاح الدين الأيوبي ـ اكتملت إعادة بناء قطاعات كبيرة من دفاعات المدينة، وكيفت مع التبدلات التي فرضتها متطلبات حرب الحصار، ومنها تحصينات القلعة، وبخاصة البوابة الرئيسة التي كانت في الأصل مؤلفة من برجين مع مدخل وباشورة بينهما. ثم رممت وعدلت بشكل أساسي في الفترة بين العامين ٨٠٧ و ٨٠٩ هـ (١٤٠٤ - ١٤٠٦ م) لاصلاح الأضرار التي ألحقها المغول التتار في هجماتهم المتتالية، فتم وصل البرجين بقاعة فسيحة. وقام آخر المماليك السلاجقة بترميم القلعة أثناء الصراع ضد الأتراك العثمانيين. وشرع السلطان قانصوه الغوري ببناء البوابة الخارجية سنة ٩١٠ هـ = ١٥٠٤ م.

ومضى الزمن وخلف قلعة حلب وراءه لتذكر بصمود هذا الحصن ومقاومته لجحافل الغزاة من روم وفرنج ومغول. ولقد كان الإسلام هو أساس ذلك الصمود الرائع. فقد استطاع أهل حلب بفضل جهدهم وجهادهم اجراء التحولات في مسيرة الصراع. وكان تلاحم مسلمي حلب مع اخوانهم في الموصل وحماه وحمص ودمشق هو الذي ضمن الدفاع عن حلب بأكثر مما ضمنته حجارة القلعة وتحصيناتها.

قلعة حارم

١٤ ـ قلعة حارم.

تقع (قلعة حارم)[1] ومدينتها في شمال بلاد الشام، حيث الشعاب الغربية من جبل باريشا. وتشرف على السهل المحيط ببحيرة العمق، وتسيطر على الطريق الرئيسي بين أنطاكية وحلب. وقد احتلت القلعة موقعها فوق مرتفع صخري ازداد ارتفاعه على مرّ العصور بسبب أعمال البناء التي قام بها السكان. وكانت القلعة محمية بقناة مائية تحيط بها من جميع جهاتها، وهي قناة أمكن شقها عميقاً في الصخر من الجهة الشمالية الشرقية. وثمة مناطق واسعة من السفح المتجانس المحيط بها، وتكونت من سور حاجز، دعم بأبراج متينة. وشيدت قليعة مستطيلة كبيرة الحجم إلى الشرق من موقع القلعة البيضاوي الشكل. ولقد تداعى السور بفعل الأيام والأحداث، وزال بناء القليعة ولم يبق منه سوى أثر ضئيل. غير أن هذا الأثر بقي كافياً للتذكير بأيام حارم خلال صراع المسلمين مع الروم والفرنج. وقد وصف أبو الفداء ـ في تقويم البلدان. حارم بقوله: «هي بلدة صغيرة ذات قلعة وأشجار وأعين ونهر صغير. قال ابن سعيد: وحارم حصن كثير الأرزاق. وقد خصّ بالرمان الذي يظهر باطنه من ظاهره، مع عدم العجم وكثرة المياه. وتقع حارم وقلعتها على بعد مرحلتين من حلب في جهة الغرب، وبين حارم وأنطاكية مرحلة»[2] ولهذا فقد بقيت حارم تعيش الأحداث التي تعرضت لها حلب من جهة وانطاكية من جهة أخرى.

ليس هناك ما يشير إلى أن حارم وقلعتها قد مارست دوراً كبيراً في الحروب الفارسية ـ البيزنطية التي سبقت الفتح العربي ـ الإسلامي. ولعلها لم تكن أكثر من

---

(١) حارم: (HARIM) أو: (HARREM) أو هارنيش: (HARRENCH) وبالفرنجية كاستروم هارنك: (CASTRUM-HARENC).

(٢) القلاع أيام الحروب الصليبية ص: ٨٤.

قلعة (ليم) لحراسة الحدود ومراقبتها. فلما جحافل العرب المسلمين الظافرة، اجتاحت شمال بلاد الشام. وأصبحت حارم في جملة القواعد الشمالية لحشد المجاهدين في سبيل الله من أجل غزو بلاد الروم البيزنطيين. ولقد استمر الصراع بين المسلمين والروم عبر حرب الثغور، ومن خلال غزوات الصوائف والشواتي. ولقد تمكن الروم من غزو بلاد الشام مرات عديدة، كان من أهمها وأخطرها تلك الغزوات التي قادها (نقفور فوقاس) ما بين سنة ٣٥٢ و ٣٥٩ هـ. والتي وصل بها إلى جوف بلاد الشام، ثم انسحب بعد أن نهب ودمر وسبى. وكانت حارم في جملة ضحايا الروم. ولقد استنزفت هذه الحروب قوة الحمدانيين وسواهم من الأقوام. حتى جاء الأتراك السلاجقة فاضطلعوا بحمل راية الجهاد في سبيل الله، وبسطوا سيطرتهم على حلب وأنطاكية وسواهما من العواصم وما بينهما من القلاع. وكان هذا هو الموقف يوم وصلت جيوش الفرنج الصليبيين، فاجتاحت بلاد الروم وتوقفت أمام انطاكية حيث أسرع حاكمها السلجوقي - ياغي سيان - لمجابهة جيوش الفرنج. وأرسل الى حاميته المرابطة أمام حارم، عبر الجسر الحديدي على الطريق المؤدي إلى حلب، وطلب إليها أن تنزل الاضطراب والارتباك في صفوف الفرنج، وضرب مؤخرات جيوشهم. وقامت حامية حارم بواجبها، وأنزلت بجيوش الفرنج ضربات موجعة. ولم تلبث أن تجمعت في حارم جيوش حلب وحماه وديار بكر لنجدة أنطاكية (في أوائل شهر شباط - فبراير - سنة ١٠٩٨م = ٤٩٢هـ) غير أن الفرنج نجحوا في الاستيلاء على انطاكية. ولم يبق أمام حامية حارم إلا الانسحاب إلى حلب، فاستلم النصارى حارم، وقاموا بتسليمها للفرنج الصليبيين الذين أقاموا حامية في قلعتها للدفاع عنها، والاغارة منها على بلاد المسلمين[1]. وتولى قيادة حامية الفرنج في حارم أمير من الفرنج اسمه (جاي - ولقبه الزانة) وكان تابعاً في حكمه لأمير انطاكية. ولعل أبرز دور قامت به حامية حارم في تلك الفترة هو خوضها معركة (تل داتث) سنة ٥٠٩ هـ = ١١١٥ م. حيث كانت جيوش المسلمين من الموصل وسنجار وحلب ودمشق قد تجمعت، فتصدى لها جيش حارم بقيادة (جاي فريسنل) وصمد جيش سنجار صموداً رائعاً

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ١/٣١٠ و ٣٢١ - ٣٢٢.

بقيادة (تمير أو تميراك) إلا أن جيش حارم جلب امدادات جديدة، ساعدته على تطويق جيش سنجار، وحسم الصراع لمصلحة الفرنج[1]

جاء التحول الحاسم في قتال المسلمين ضد الفرنج على أيدي الزنكيين. وقد عرفت حارم فصلاً من فصول هذا التحول سنة ٥٤٤ هـ = ١١٤٩ م عندما قاد نور الدين زنكي جيشه وقصد حارم، فحصر قلعتها وخرب ربضها ونهب سوارها، ثم تابع تقدمه فهزم الفرنج عند (حصن أنب) وقتل صاحب أنطاكية الذي كان عاتياً من عتاة الفرنج. وقد أثارت انتصارات نور الدين حماسة المسلمين بقدر ما أحبطت من عزيمة الفرنج[2]. وعاد نور الدين لمهاجمة قلعة حارم المنيعة والقائمة في نحور المسلمين. فحصرها وضيق على أهلها. فاجتمعت الفرنج من قرب ومن بعد وساروا نحوه ليرحلوه عنها. وكان بالحصن شيطان من شياطينهم يعرفون عقله، ويرجعون إلى رأيه (واسمه رينالد سانت فاليري)[3] فأرسل إلى الفرنج وقال لهم: «إننا نقدر على حفظ القلعة. وليس بنا ضعف، فلا تخاطروا أنتم بلقاء نور الدين. لأنه إذا هزمكم أخذها وغيرها. والرأي مطاولته ـ مماطلته ـ». فأرسل الفرنج إلى نور الدين، وصالحوه على أن يعطوه نصف أعمال حارم. فاصطلحوا على ذلك[4].

---

(١) الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة ٥٠٧ ـ ٥٠٩ هـ وتاريخ الحروب الصليبية: ٢١٥/٢.

(٢) الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة ٥٤٤، وفيها قصيدة مشهورة نظمها الكاتب القيسراني، وامتدح فيها جهد نور الدين وجهاده ـ ومنها:

هذي العزائم لا ما تدعي القضب	وذي المكارم لا ما قالت الكتب
وهذه الهمم اللاتي متى خطبت	تعثرت خلفها الأشعار والخطب
أغرت سيوفك بالإفرنج راجفة	فؤاد رومية الكبرى لها يجب
طهرت أرض الأعادي من دمائهم	طهارة كل سيف عندها جنب

(٣) كان الفرنج قد اختلفوا فيما بينهم على حكم حارم. وجاء جيش من الفرنج سنة ٥٥٢ هـ = ١١٥٧ م فحاصر حارم. وقذفها بالمنجنيق قصفاً شديداً، فأذعنت الحامية. وتقرر تعيين رينالد سانت فاليري حاكماً لها. وطرد حاكمها السابق ـ جاي فريسنل ـ غير أن حارم بقيت تابعة لحاكم أنطاكية (تاريخ الحروب الصليبية: ٥٦٤/٢).

(٤) الكامل في التاريخ، أحداث سنة إحدى وخمسين وخمسمائة، وفيها قصيدة قالها أحد الشعراء في مدح نور =

لم يكن الصلح بين المسلمين والفرنج أكثر من هدنة مؤقتة حتى يكمل كل طرف من الطرفين استعداداته لصراع لا بد من تجدده، إذ لم يكن باستطاعة الفرنج ايقاف أعمالهم العدوانية، ولم يكن باستطاعة المسلمين تجاهل التحديات المصيرية التي فرضها غزو الفرنج لبلادهم. وهكذا عاد نور الدين محمود بن زنكي وقاد جيشه وسار إلى قلعة حارم (سنة ٥٥٧ هـ = ١١٦١ م) فحصرها وجد في قتالها، فامتنعت عليه بحصانتها وكثرة من بها من فرسان الفرنج ورجالهم وشجعانهم. فلما علم الفرنج ذلك جمعوا فارسهم وراجلهم من سائر البلاد وحشدوا واستعدوا وساروا نحوه ليرحلوه عنها. فلما قاربوه طلب منهم المصاف، فلم يجيبوه إليه، وراسلوه وتلطفوا الحال معه. فلما رأى نور الدين أنه لا يستطيع أخذ الحصن، ولا يستطيع دفع الفرنج للاشتباك معه في معركة حاسمة، رفع الحصار عن حارم ورجع الى حلب [١].

بقي الوضع في شمال بلاد الشام في مرحلة يمكن وصفها بحسب المصطلحات الحديثة (بالتوازن الاستراتيجي) غير أنه ظهر واضحاً للمسلمين بأن حارم هي المعقل القوي للدفاع عن إمارة أنطاكية التي كانت أقوى إمارات الفرنج في الشمال. ولهذا فإن كل جهد لاضعاف انطاكية وتجريدها من قوتها لا بد وأن يبدأ بإعادة فتح حارم. وطرد الفرنج الصليبيين منها.

تعرض نور الدين لأكبر هزيمة وأخطرها سنة ٥٥٨ هـ = ١١٦٢ م. وفي الوقت ذاته، تدهور الموقف في مصر مما أطمع الفرنج فيها. فكان لزاماً على نور الدين القيام بثلاث أعمال كبرى في وقت واحد: الأول هو إعادة تنظيم

= الدين ـ ومنها:

ألبست دين محمد يا نوره	عزاً له فوق السها آساد
مازلت تشمله بمياد القنا	حتى تثقف عوده المياد
لم يبق مذ أرهفت عزمك دونه	عدد يراع به ولا استعداد
حاموا فلما عاينوا خوض الردى	حاموا فرائس كيدهم أو كادوا
ورأى البرنس وقد تبرنس ذلة	حزماً (لحارم) والمصاد مصاد
من منكر أن ينسف السيل الربا	وأبوه ذاك العارض المداد

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ٢/٥٩٦ والكامل في التاريخ ـ أحداث سنة ٥٥٧ هـ.

جيشه وحشد كل القوى المتوافرة. والثاني هو توجيه حملة إلى مصر لاحباط نوايا الفرنج الصليبيين. والثالث هو توجيه تهديد لامارات الفرنج بالشام لحملهم على سحب قواتهم من مصر ودعم قوات المسلمين فيها.

وقد استطاع نور الدين أن يعيد تنظيم قواته بسرعة ـ فعاد العسكر كأن لم تصبه هزيمة ـ. ووجه حملة الى مصر (بقيادة أسد الدين شيركوه) حتى إذا ما جاء شهر رمضان من السنة التالية (٥٥٩ هـ = ١١٦٣ م) قرر نور الدين زنكي التحرك لاعادة فتح حارم. وكتب إلى أخيه صاحب الموصل وديار الجزيرة ـ قطب الدين مودود ـ والى صاحب حصن كيفا ـ فخر الدين قرا أرسلان ـ وإلى صاحب ماردين ـ نجم الدين ألبي ـ وغيرهم من أصحاب الأطراف، يستنجدهم ويستمدهم. فأما قطب الدين، فانه جمع عساكره وسار مجداً وعلى مقدمته أمير جيوشه ـ زين الدين علي ـ. وأما صاحب حصن كيفا ـ خير الدين ـ فانه تلكأ في الإجابة، ولما سأله ندماؤه وخواصه عن قراره، أجابهم بأنه قرر القعود. وقال لهم:

«إن نور الدين قد تحشف من كثرة الصوم والصلاة: وهو يلقي بنفسه في المهالك».

فكلهم وافقه على هذا الرأي. فلما كان الغد، أمر بالتجهز للغزاة، فقال له خواصه: «ما عدا مما بدا ـ فارقناك أمس على حالة، فنراك اليوم على ضدها. فقال لهم:

«إن نور الدين قد سلك معي طريقاً إن لم أنجده خرج أهل بلادي عن طاعتي، وأخرجوا البلاد من يدي. فإنه قد كاتب زهادها وعبادها، والمنقطعين عن الدنيا، يذكر لهم ما لقي المسلمون من الفرنج، وما نالهم من القتل والأسر. ويستمد منهم الدعاء. ويطلب أن يحثوا المسلمين على الغزاة. فقعد كل واحد من أولئك ومعه أصحابه وأتباعه، وهم يقرؤون كتب نور الدين، ويلعنونني ويدعون علي، فلا بد من المسير إليه».

ثم تجهز وسار بنفسه. فلما اجتمعت العساكر، سار نور الدين نحو حارم، فحصرها

ونصب عليها المجانيق. وتابع الزحف إليها. فاجتمع من بقي بالساحل من الفرنج، فجاؤوا في حدهم وحديدهم، وملوكهم وفرسانهم وقسوسهم ورهبانهم، وأقبلوا إليه من كل حدب ينسلون. وكان المقدم عليهم صاحب انطاكية البرنس بيمند - بوهمند - وقمص - كونت - صاحب طرابلس وأعمالها، وابن جوسلين وهو من مشاهير الفرنج. والدوك - الدوق - وهو مقدم كبير من الروم. وجمعوا الفارس والراجل، فلما قاربوه رحل عن حارم إلى أرتاح طمعاً أن يتبعوه، فيتمكن منهم ببعدهم عن بلادهم إذا لقوه، فسار الفرنج ونزلوا على غمر، ثم علموا عجزهم عن لقائه، فعادوا إلى حارم. فلما عادوا تبعهم نور الدين في أبطال المسلمين على تعبية الحرب. فلما تقاربوا اصطفوا للقتال، فبدأ الفرنج بالحملة على ميمنة المسلمين، وفيها عسكر حلب وعسكر حصن كيفا، فانهزم المسلمون فيها وتبعهم الفرنج. وكانت تلك الهزيمة من الميمنة على اتفاق ورأي دبروه، وهو أن يتبعهم الفرنج فيبعدوا عن راجلهم - مشاتهم - فيميل عليهم من بقي من المسلمين بالسيوف، فإذا عاد فرسانهم، لم يلقوا راجلاً يلجؤون إليه، ولا وزيراً يعتمدون عليه. ويعود المنهزمون - جيش حلب وكيفا - في آثارهم، فيأخذهم المسلمون من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم. فكان الأمر على ما دبروه.

فإن الفرنج لما تبعوا المنهزمين، عطف عليهم - زين الدين علي - في عسكر الموصل. وهاجم مشاة الفرنج، فأفناهم قتلاً وأسراً، وعاد خيالتهم ولم يمعنوا في الطلب خوفاً على مشاتهم. فعاد المنهزمون في آثارهم، فلما وصل الفرنج رأوا مشاتهم قتلى وأسرى، فسقط في أيديهم، وأدركوا أنهم قد هلكوا، وبقوا في الوسط وقد أحدق بهم المسلمون من كل جانب. واشتدت الحرب وكثر القتلى في الفرنج، وتمت عليهم الهزيمة. فعدل حينئذ المسلمون عن القتل إلى الأسر، وأسروا ما لا يحد. وكان في جملة الأسرى صاحب انطاكية، والقمص صاحب طرابلس والدوك مقدم الروم وابن جوسلين. وكان عدة القتلى تزيد على عشرة آلاف قتيل. وأشار المسلمون على نور الدين بالمسير إلى أنطاكية وتملكها لخلوها من حام يحميها ومقاتل يدافع عنها. فلم يفعل وقال: «أما المدينة فأمرها سهل، وأما القلعة فمنيعة وربما سلموها إلى ملك الروم، ومجاورة الفرنج

أفضل من مجاورة الروم». وبث السرايا في تلك الأعمال فنهبوها وأسروا أهلها وقتلوهم. ثم إنه فادى برنس بيمند صاحب أنطاكية واشترى من المسلمين ـ الأسرى ـ خلقاً كثيراً فأطلقهم.

عادت قلعة حارم إلى أهلها المسلمون، وخرج الفرنج مدحورين بعد ٦٨ سنة هجرية من احتلالهم لهذه القاعدة الإسلامية (٦٦ سنة ميلادية). وأسرع نور الدين فشحن قلعة حارم بالرجال والسلاح، وأقام فيها حامية قوية، ورمم أسوارها ودعم تحصيناتها. وباتت حارم وهي مصدر تهديد دائم للفرنج بعد أن كانت مرتكزاً من مرتكزات قوتهم. ولم يكن باستطاعتهم احتمال هذا التحول، غير أنهم كانوا عاجزين عن القيام بعمل ضدها. فأخذوا في انتظار الفرصة المناسبة. وقد واتتهم هذه الفرصة. فقد توفي أكبر عدو للفرنج ـ نور الدين زنكي ـ سنة ٥٦٩ هـ = ١١٧٣ م. وكان صلاح الدين الأيوبي في مصر، ولم يتمكن بعد من بسط نفوذه على بلاد الشام جميعها. وتصادف ذلك مع قدوم (فيليب كونت فلاندر) الى القدس. (سنة ٥٧٣ هـ = ١١٧٧ م) فعمل ملك القدس على تجهيزه بجيش لقتال المسلمين في شمال بلاد الشام. وقاد فيليب هذا جيشه حتى وصل الى (حارم) وانضم اليه كونت انطاكية ـ بيمند ـ فنصب الفرنج المنجنيقات، وأخذوا بضرب قلعة حارم، وشددوا الحصار عليها طوال أربعة أشهر، غير أن عمليات نقب الأسوار لم تلق شيئاً من النجاح، وصمد المسلمون صموداً رائعاً، ولما علم الفرنج بوصول صلاح الدين إلى دمشق، وأنه في سبيله لقتالهم، عملوا على رفع الحصار والانسحاب. ورجع جيش أنطاكية إلى مدينته، أما فيليب كونت فلاندر، فقد رجع بدوره الى القدس، ليقضي فيها عيد القيامة. ثم استقل سفينة من اللاذقية إلى القسطنطينية[1].

بقيت حارم تحت حكم أحد مماليك نور الدين زنكي (واسم هذا المملوك هو سرخك) فلما كانت سنة ٥٧٩ هـ = ١١٨٣ م، ونجح صلاح الدين في السيطرة على بلاد الشام ووصل الى حلب وضمها لحكمه، أرسل إلى سرخك وطلب منه تسليم

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ٢/٦٧٠ ـ ٦٧١، والكامل في التاريخ ـ احداث سنة ٥٧٣ هـ.

حارم، وقال له: «أطلب من الاقطاع ما أردت». فخاف سرخك وأرسل رسالة الى أمير أنطاكية يطلب حمايته، فعلم من معه من الأجناد أنه يراسل أعداء الدين ـ الفرنج ـ فخافوا أن يسلم حارم إليهم، فوثبوا عليه وأوثقوه وحبسوه. وراسلوا صلاح الدين يطلبون منه الأمان والانعام. فأجابهم إلى ما طلبوا، وسلموا اليه القلعة. فوضع فيها حامية قوية أسند قيادتها إلى أقدر رجاله (واسمه دز دارا) على أن يبقى تابعاً لحلب.

أخذ صلاح الدين الأيوبي بعد ذلك بحشد قواته من كل البلاد استعداداً لمعركة حطين (في سنة ٥٨٣ هـ = ١١٨٧ م). فخاف حاكم حلب شقيق صلاح الدين ـ الملك المظفر تقي الدين عمر ـ أن يطمع الفرنج في حارم. فقاد جيش حلب وسار إلى حارم في تظاهرة لعرض القوة، فأسقط في يد الافرنج، وامتنعوا عن القيام بأي عمل. وبقيت حارم آمنة وبعيدة عن أي تهديد، لاسيما وقد انتقل المسلمون بعد حطين من الدفاع الى الهجوم. ولكن الضربة المدمرة جاءت الى حارم على أيدي المغول التتار. ففي سنة ٦٥٩ هـ = ١٢٦٠ م. استولى المغول على حلب، وساروا منها نحو حارم. ورفضت الحامية المدافعة عن قلعة حارم الانصياع لحكم هولاكو، ما لم يضمن أحد المسلمين الوعد الذي بذله هولاكو بالمحافظة على حياة سكانها المسلمين. واعتبر هولاكو أن طلب حامية حارم هو إهانة له، فقرر إنزال العقوبة بحارم وأهلها. فلما اجتاحتها جحافل المغول التتار دارت مذبحة في المسلمين على نحو ما جرت عليه عادة المغول في كل مكان سارت فيه قواتهم. ولم ينج من أهل حارم أحد، باستثناء من واتاهم الحظ فخرجوا من حارم قبل اجتياح المغول لها.

ولكن ما إن انسحب المغول من بلاد الشام بعد هزيمتهم في عين جالوت، حتى أسرع المسلمون لبناء حارم، اصلاح قلعتها، ودعم تحصيناتها وأسوارها. ويظهر أن عملية البناء لم تكن قد اكتملت بعد عندما رجع المغول بعد ذلك بعشر سنوات (سنة ١٧٠ هـ = ١٢٧١ م) في محاولة للانتقام لهزيمتهم. فأعادوا تدمير حلب وحارم وسواهما من المدن والقلاع في شمال بلاد الشام. وكان ذلك كل ما استطاع المغول عمله. فقد اضطروا للانسحاب سراعاً عندما علموا بتحرك جيش دمشق وجيش حمص نحوهم.

وانتهى بذلك دور قلعة حارم. فقد زال خطر الفرنج بعد ذلك وتم طردهم من كل بلاد الشام. وزال خطر المغول وذابوا في المجتمع الإسلامي. ولم يبق من قلعة حارم أكثر من بقايا تشهد بما قدمه العرب المسلمون من تضحيات، وما بذلوه من الجهد، حتى تبقى راية الله عالية على كل بلد وعلى قلعة من بلاد الإسلام حارم.

١٥ ـ قلعة صور

(صور)[١] هي مدينة ومرفأ على ساحل بلاد الشام. وهي من المدن القديمة والتي كانت تشكل إحدى قواعد العرب الفينيقيين. ولقد ارتبط اسم صور في القديم بالتوسع البحري للقرطاجيين، وبالصباغ الأرجواني الذي اشتهرت به[٢]. غير أن شهرة صور في الحرب لم تكن أقل من شهرتها في الصناعة والتجارة، إذ أنها المدينة الأولى التي تصدت لمقاومة غزو الاسكندر المقدوني سنة ٣٣٢ م. خلال زحفه للاستيلاء على مصر. ولم تستسلم إلا بعد حصار طويل ومقاومة ضارية، مما أدى إلى دمارها، فتناقصت أهميتها. ولكن صور عادت وازدهرت بعد أن فتحها المسلمون سنة ١٥ هـ = ٦٣٦ م إذ أصبحت ثغراً من ثغورهم البحرية، وقاعدة لانطلاق أساطيلهم.

ولقد عانت مدينة صور بخاصة من فترة الاضطراب التي هيمنت على أقطار العالم العربي ـ الإسلامي خلال المرحلة التي سبقت الحروب الصليبية بسبب الانقسام بين الحكم الفاطمي المتظاهر بالتشيع في مصر، وبين أهل السنة من المسلمين. ولعل من أبرز ما وقع خلال تلك المرحلة تقدم أمير الجيوش الفاطمي من مصر، وقيادته لاسطوله وجيشه لالقاء الحصار على صور. فلما تم له فتحها (سنة ٤٨٢ هـ = ١٠٨٩ م) سار عنها الى مدينة صيدا ففتحها. ثم حاصر عكا وضيق على أهلها إلى أن تم فتحها. وتبعتها مدينة جبيل. ولم يلبث أمير صور (منير الدولة الجيوشي) أن أعلن تمرده على الحكم الفاطمي (سنة ٤٨٤ هـ = ١٠٩١ م) فسير المستنصر العلوي جيشاً من مصر فحصر مدينة صور وقاتل أهلها، وفتحها ونهب البلد وفرض عليها ستون ألف دينار،

---

(١) صور TYR أو SOUR.

(٢) كانت صور مع مدن صيدا وعكا وجبيل ـ بيبلوس ـ وبيروت وطرابلس وأرواد تشكل مدن المملكة الفينيقية: (PHENICIE).

فتم إفقار البلد، وتم تعيين حاكم جديد تابع للحاكم الفاطمي، واسمه ـ كتيلة ـ الذي لم يلبث أن أعلن بدوره التمرد. فسار جيش مصر واسطولها من مصر الى صور، فحصروها وضيقوا عليها وفتحوها بالسيف، وقتل بها خلق كثير، ونهب منها المال الجزيل[1] وكان استيلاء الفاطميين على المدن الساحلية لبلاد الشام، فصلاً من فصول الصراع المرير بين الحكم الفاطمي أو العلوي في مصر وبين أهل السنة الخاضعين للطاعة والجماعة في مقر الخلافة ببغداد. وخلال هذه المرحلة. والصراع في ذروته وصلت جحافل الغزاة من الفرنج الصليبيين واحتلت أنطاكية.

ولما كان الفاطميون من أشد الناس خصومة للترك ـ السنة ـ ولا يقبلون مطلقاً مصالحتهم. مع ما اشتهروا به من التسامح مع رعاياهم من المسيحيين. فقد كانوا دائماً مستعدين للتفاهم مع الدول المسيحية، فقد أرسلوا سفارة إلى أنطاكية لمقابلة ملوك الفرنج للاتفاق معهم على اقتسام مناطق النفوذ، بحيث يحوز الفرنج شمال الشام. بينما تأخذ مصر فلسطين. واستخلص الفرنج من المفاوضات ما يعود من المزايا عليهم نتيجة تدبير المؤامرات مع الدول الإسلامية. ولقد ظن الفاطميون أنهم يستطيعون بمؤامراتهم مع أعداء الدين تحقيق مكاسب اقليمية. لكن الغزاة الفرنج كانوا يحملون معهم من الأطماع قدراً يزيد كثيراً على ما كان يتصوره الفاطميون[2] إذ لم يلبثوا أن وصلوا إلى طرطوس (٤٩٣ هـ = ١٠٩٩ م) وتوقفوا في أرباضها، قبل أن يستأنفوا سيرهم نحو القدس، فلما احتلوها، عمل ملك القدس بغدوين على قيادة جيشه، وقصد مدينة صور وحصرها، وأمر ببناء حصن عندها، وأقام شهراً محاصراً لها، فصانعه واليها على سبعة آلاف دينار، فأخذها ورحل عن المدينة[3].

عاد الفرنج بعد أربعة أعوام. فحشدوا قواتهم بقيادة ملك القدس (بغدوين) وحاصروا مدينة صور، وضيقوا عليها، ونصبوا عليها المجانيق، وألصقوا أحدها إلى

---

(١) الكامل في التاريخ ـ أحداث سنوات ٤٨٢ و ٤٨٦ و ٤٩٠ هـ.

(٢) تاريخ الحروب الصليبية: ١/٣٢٥ ـ ٣٢٦.

(٣) الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة: ٥٠١.

سور البلد ، وأخلوه من الرجال. وكانت صور تحت حكم ـ عز الملك الأعز ـ التابع لحاكم مصر ـ القائم بأمر الله العلوي ـ. وكانت الأبراج التي صنعها الفرنج ـ وعددها ثلاثة ـ من الخشب، ارتفاع البرج منها سبعون ذراعاً. وفي كل برج ألف رجل. فجمع حاكم صور أهل البلد واستشارهم في حيلة يدفعون بها شر الأبراج عنهم. فقام شيخ من أهل طرابلس وضمن على نفسه إحراقها. وأخذ معه ألف رجل بالسلاح التام، ومع كل رجل منهم حزمة حطب، فقاتلوا الفرنج حتى وصلوا إلى البرج الملتصق بالمدينة. فألقى الحطب من جهاته، وألقى فيه النار. ثم خاف أن يشتغل الفرنج الذين في البرج باطفاء النار ويتخلصوا، فرماهم بجرب كان قد أعدها مملوءة من العذرة. فلما سقطت عليهم اشتغلوا بها وبما نالهم من سوء الرائحة والتلويث، فتمكنت النار منه. فهلك كل من به إلا القليل. وأخذ المسلمين ما قدر عليه بالكلاليب. ثم أخذ سلال العنب الكبار ووضع فيها الحطب الذي سقاه بالنفط والزفت والكتان والكبريت، ورماهم بسبعين سلة وأحرق البرجين الآخرين، ثم أن أهل صور حفروا سراديب تحت الأرض ليسقط فيها الفرنج إذا زحفوا إليهم، وليخسف برج إن عملوه وسيروه إليهم، فاستأمن نفر من المسلمين إلى الفرنج وأعلموهم بما عمله أهل صور فحذروا منه. وأرسل أهل البلد إلى حاكم دمشق أتابك طغتكين يستنجدونه، ويطلبونه ليسلموا البلد إليه، فسار في جنده الى نواحي بانياس، ووجه إليهم نجدة من مائتي فارس، فدخلوا البلد، وامتنع من فيه بهم. واشتد قتال الفرنج خوفاً من اتصال النجدات، ففني نشاب المسلمين، فقاتلوا بالخشب، وفني النفط، فظفروا بسرداب تحت الأرض فيه نفط لا يعلم أحد من خزنه. ثم إن عز الملك صاحب صور، أرسل الأموال إلى طغتكين ليكثر من الرجال، ويقصدهم ليملك البلد، فأرسل طغتكين طائراً فيه رقعة ليعلمه بوصول المال، ويأمره أن يقيم مركباً بمكان ذكره، لتجيء الرجال إليه، فسقط الطائر على مركب الفرنج، وقرأ الفرنج الرسالة، فأرسل ملك الفرنج مركباً إلى المكان الذي حدده طغتكين، وفيه جماعة من المسلمين الذين استأمنوا إليه من أهل صور. فوصل إليهم عسكر طغتكين، فكلموهم بالعربية، فلم ينكروهم، وركبوا معهم. فأخذوهم أسرى وحملوهم إلى الفرنج فقتلوهم. وطمعوا في أهل صور. فما كان من طغتكين إلا

أن أخذ في الاغارة على البلاد التي احتلها الفرنج من جميع جهاتها. وقصد حصن - حبيس جلاك - في السواد من أعمال دمشق فحصره وملكه بالسيف وقتل كل من فيه من الفرنج، ثم عاد الى الفرنج القائمين على حصار صور، فقطع عنهم الميرة - التموين - من جهة البر. فأحضروها في البحر، وخندقوا عليهم، ولم يخرجوا لقتاله. فسار طغتكين إلى صيدا وأغار على ظاهرها فقتل جماعة من البحرية، وأحرق عشرين مركباً تقريباً على الساحل. واستمر أثناء ذلك كله في ارسال الكتب إلى أهل صور. وطلب إليهم الصبر. وقاتل أهل صور قتال من أيس من الحياة، فدام القتال إلى أن أدرك الفرنج أنه من الصعب عليهم الاستيلاء على صور - وكانت قد مضت على مدة الحصار والقتال خمسة أشهر (سنة ٥٠٥ هـ = ١١١٢ م) - فرفعوا الحصار ورجعوا إلى عكا. وعاد طغتكين وجشه إلى دمشق. وانصرف أهل صور إلى إصلاح ما تشعث من سور بلدهم وخندقها [1]. وبقيت صور تابعة لحكم الفاطميين في مصر.

علم أهل صور سنة ٥١٦ هـ = ١١٢٢ م - أن ملك الفرنج - ملك القدس - قد جمع عساكره ليسير إلى صور. فخافوا وأرسلوا إلى أتابك طغتكين حاكم دمشق يطلبون إليه أن يرسل أميراً من عنده يتولاهم ويحميهم وتكون البلد له. وقالوا له: «إن لم ترسل لنا والياً وعسكراً سلمنا البلد إلى الفرنج». فسير إليهم عسكراً وجعل عندهم واليا اسمه مسعود. وكان شهماً شجاعاً عارفاً بالحرب ومكايدها، وأمده بعسكر وسير إليهم ميرة - تموين - ومالاً فرقه فيهم، وطابت نفوس أهل البلد. ولم تغير الخطبة لحاكم مصر ولا السكة - النقود -. وكتب طغتكين إلى الأفضل حاكم مصر وشرح له الموقف وأعلمه عن استعداده لتسليم صور له عندما يرسل من يتولاها ويقوم على أمر حمايتها. وطلب إليه عدم الانقطاع عن ارسال الاسطول من مصر لدعم صور بالرجال والقوة. فشكره الأفضل على ذلك، وأثنى عليه وصوب رأيه فيما فعله. وجهز أسطولاً وسيره إلى صور. فاستقامت أحوال أهلها.

ولكن حدث في سنة ٥١٨ هـ = ١١٢٤ م أن جاء أسطول من مصر ومع مقدمه

---

(١) الكامل في التاريخ - أحداث سنة ٥٠٥.

تعليمات بالاستيلاء على صور. فلما خرج حاكم صور ـ مسعود ـ للسلام على مقدم الاسطول واستقباله، تم اعتقاله وأرسل إلى مصر حيث أعيد إلى دمشق. ودخل الوالي الفاطمي المعتمد إلى صور. ولما علم الفرنج بعزل ـ مسعود ـ عن حكم صور، قوي طمعهم فيها، وحدثوا نفسهم بملكها، وشرعوا في الجمع والتأهب وللنزول عليها. وعلم والي صور، وعرف أنه لا قوة له ولا طاقة على رفع الفرنج عنها، لقلة من بها من الجند والميرة. فأرسل إلى حاكم مصر وطلب إليه أن يرد ولاية صور الى طغتكين حاكم دمشق. فأرسل إليه موافقته على رأيه. فملك طغتكين صور، ورتب بها من الجند وغيرهم ما ظن فيه كفاية. وسار الفرنج إليهم ونازلوهم وضيقوا عليهم ولازموا القتال. فقلت الأقوات، وسئم من بها من القتال، وضعفت نفوسهم. وسار طغتكين إلى بانياس ليقرب منهم، وليدافع عن البلد، وعلى أمل أن يرحل الفرنج عن صور إذا ما اقترب منهم. ولكن الفرنج لم يتحركوا، ولزموا الحصار. فأرسل طغتكين الى ملك الفرنج واتفق معه على تسليم صور له، على أن يسمح لمن بها من الجند والرعية بالخروج ومعهم ما يقدرون على حمله من أموالهم ومتاعهم. وغادر المسلمون صور، وملكها الفرنج، وكان ضياعها وهناً عظيماً على المسلمين، لأن صور كانت أحصن البلاد وأمنعها [١].

أصبحت صور ـ موطن المؤرخ المسيحي لفترة الحروب الصليبية وليم الصوري ـ[٢] ـ تحت حكم الفرنج الذين انصرفوا لتنظيم أمورهم فيها. فوزعوا المدينة على الجاليات المشتركة في الحروب الصليبية. فكانت هناك أحياء منفصلة للبنادقة

---

(١) الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة ٥١٦ وسنة ٥١٨. وتاريخ الحروب الصليبية: ٢/٢٦٩ ـ ٢٧٣.

(٢) وليم الصوري: (GUILLAUME DE TYR) من مواليد بلاد الشام قبل سنة ١١٣٠ م تعلم في طفولته اللغتين العربية واليونانية. ثم توجه إلى بلاد الفرنج ـ فرنسا ـ لاكمال تعليمه الديني. وعاد إلى فلسطين فأصبح سنة ١١٦٠ م رئيساً لشمامسة صور. ثم أصبح رئيساً لديوان الرسائل بالمملكة ـ مملكة القدس ـ. ثم تقلد سنة ١١٧٥ منصب رئيس أساقفة صور. ولما فشل في أن يصبح بطريقاً لجأ إلى روما سنة ١١٨٣ م وبقي بها إلى أن مات سنة ١١٨٧ م. وكان وليم الصوري قد شرع منذ سنة ١١٦٩ م بكتابة تاريخه الشهير: (تاريخ ما جرى من أمور فيما وراء البحار):
(historia rerum in partibus transmarinis gestrum) وهو يتناول دراسة الفترة الواقعة بين سنتي ١٠٩٥ و ١١٨٤ م. وفرغ من الكتب الثلاثة عشرة الأولى في سنة ١١٧٣ م. ثم تابع عمله في روما حتى موته.

والجنويين وأهل بيزا ومرسيليا وبرشلونه وسواها. وأقامت هذه الجاليات تجمعاتها وادارتها المستقلة ـ قوموناتها ـ. ولم تكن العلاقات حسنة بين هذه الجاليات، وإنما كان يسودها الحسد والمنافسة، بل وحتى الصراع المسلح أحياناً. غير أنها كانت تشترك جميعاً بما كان يوحد بينها من حقد ضد الاسلام والمسلمين. وقد يكون بالمستطاع تجاوز تلك الصراعات الصغرى، سواء بين قومونات الفرنج بعضها ضد بعض، أو بينها مجتمعة ضد المسلمين، للتوقف عند مرحلة التحول الحاسم الذي حملته معركة حطين الخالدة. ففي غداة المعركة، لم تهيمن نشوة النصر على المجاهدين في سبيل الله فتقعدهم عن القتال، وإنما اندفعت جيوشهم بقيادة صلاح الدين فأعادت فتح عكا والقدس واللاذقية وصيدا وسواها من المدن والقلاع. وكان أغرب ما في الأمر أن سمح صلاح الدين للفرنج بالانسحاب من المدن والقلاع، والتوجه إلى صور التي باتت مكتظة بالقوات. فتولى الكونت الألماني ـ كنراد مونتفيرات ـ إعادة تنظيم هذه القوات وعمل على تحصين المدينة وتنظيمها للدفاع. وقد أوردت المصادر العربية قصة ما حدث يومها فقالت: «لما انهزم صاحب طرابلس من حطين إلى مدينة صور، أقام بها على أنها أعظم بلاد الشام حصانة، وأشدها امتناعاً على من رامها. فلما رأى أن المسلمين قد ملكوا تبنين وصيدا وبيروت، خاف أن يقصد صلاح الدين صور وهي فارغة ممن يقاتل فيها ويحميها ويمنعها فلا يقوى على حفظها، فتركها وسار إلى مدينة طرابلس. فبقيت صور شاغرة لا مانع لها ولا عاصم من المسلمين. فلو بدأ صلاح الدين بمدينة صور قبل تبنين وغيرها، لأخذها بغير مشقة، لكنه استعظمها لحصانتها، فأراد أن يفرغ أولاً مما يجاورها من نواحيها ليسهل أخذها، فكان ذلك سبب حفظها، وكان أمر الله قدراً مقدوراً، واتفق أن إنساناً من الفرنج الذين داخل البحر، يقال له المركيش[1] ـ لعنه الله، خرج في البحر بمال كثير للزيارة والتجارة، ولم يعلم بما حدث

(١) المركيش هذا هو كنراد ابن المركيز مونتفيرات، كان مقيماً بالقسطنطينية، غير أنه تورط بجريمة قتل، فأبحر سراً مع جماعة من فرسان الفرنج بهدف الحج الى الأماكن المقدسة، ولم يكن يعلم شيئاً عن الكوارث التي نزلت بالفرنج الصليبيين في فلسطين ـ وانظر (تاريخ الحروب الصليبية: ٧٦٢/٢ ـ ٧٦٤) و(٢١/٣، ٢٩، ٣١، ٤٢، ٤٥) وكذلك الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة ٥٨٣.

للفرنج، فأرسى بعكا، وقد رابه ما رأى من ترك عوائد الفرنج عند وصول المراكب من الفرح، من ضرب الأجراس والنواقيس وغير ذلك، وما رأى أيضاً من زي أهل البلد. فوقف ولم يدر ما الخبر، وكانت الريح قد ركدت، فأرسل الملك الأفضل إليه بعض أصحابه في سفينته للاستعلام. وعندها عرف المركيش بهزيمة الفرنج وخروج عكا من قبضتهم، وأرسل المركيش إلى الملك الأفضل رسولاً يطلب الأمان ليدخل البلد بما معه من متاع ومال، فأجيب إلى ذلك، وأرسل السفراء المرة بعد المرة وهو يطلب في كل مرة شيئاً لم يطلبه في المرة السابقة، وقد فعل ذلك انتظاراً لهبوب الريح ليسير به. فبينما هو مستمر في اتصالاته، إذ هبت الريح، فسار نحو صور، وسير الملك الأفضل الشواني في طلبه فلم يدركوه. ووصل المركيش الى صور وقد اجتمع بها من الفرنج خلق كثير. لأن صلاح الدين كان كلما فتح مدينة أعطى أهلها الأمان فساروا كلهم إلى صور. وكثر الجمع بها، إلا أنه ليس لهم رأس يجمعهم، ولا مقدم يقاتل بهم، وليسوا أهل حرب، وهم عازمون على مراسلة صلاح الدين وتسليم البلد إليه، فأتاهم المركيش وهم على ذلك العزم، فردهم عنه، وقوى نفوسهم، وضمن لهم حفظ المدينة. وبذل ما معه من الأموال، وشرط عليهم أن تكون المدينة وأعمالها دون غيره، فأجابوه إلى ذلك. فأخذ أيمانهم عليه، وأقام عندهم، ودبر أحوالهم، وكان من شياطين الأنس، حسن التدبير والحفظ، وله شجاعة عظيمة، وشرع في تحصينها، فعمل أسوارها. وزاد في حصانتها، وحفر خنادقها، واتفق من بها على الحفظ والقتال دونها.

فلما فرغ صلاح الدين من فتح عسقلان والقدس، سار إلى صور، فوجد أن المركيش قد انتهى من دعم سور المدينة، وزاد من حفر خنادقها وتعميقها ووصلها من البحر إلى البحر من الجانب الآخر، فصارت المدينة كالجزيرة في وسط الماء، لا يمكن الدنو منها أو الوصول إليها. فما كان من صلاح الدين إلا أن نزل على نهر قرب البلد. وقسم القتال على العسكر، كل جمع منهم له وقت معلوم يقاتلون منه بحيث يتصل القتال على الفرنج. ولكن الموضع الذي يقاتلون منه ضيق الجبهة، قريب المسافة، تكفيه جماعة قليلة من الفرنج للدفاع عنه، لاسيما وأن الخنادق قد وصلت من البحر إلى البحر، فلا يكاد الطير يطير عليها. والمدينة كالكف في البحر، والساعد متصل بالبر والبحر من

جانبي الساعد. والقتال إنما هو في الساعد. فزحف المسلمون مرة بالمنجنيقات والعرادات والجروخ والدبابات. وكان أهل صلاح الدين يتناوبون القتال، مثل ولده الأفضل وولده الظاهر غازي وأخيه العادل بن أيوب وابن أخيه تقي الدين، وكذلك سائر الأمراء. وكان للفرنج شواني ـ سفن ـ وحراقات يركبون فيها في البحر، ويقفون من جانبي الموضع الذي يقاتلون المسلمين منه، فيرمون المسلمين من جانبيهم، فعظم الأمر على المسلمين. لأن الفرنج يقاتلونهم من بين أيديهم وأصحاب الشواني يقاتلونهم من جانبيهم، فكانت سهامهم تنفذ من أحد الجانبين إلى الجانب الآخر لضيق الموضع، فكثرت الجراحات في المسلمين وكثر القتل، ولم يتمكنوا من الدنو إلى صور.

فأرسل صلاح الدين إلى الشواني التي جاءته من مصر ـ وهي عشر قطع كانت بعكا ـ فأحضرها برجالها ومقاتلتها وعدتها، وكانت في البحر تمنع شواني الفرنج من الخروج إلى قتال المسلمين. فتمكن المسلمون حينئذ من القرب من صور، ومن قتال الفرنج فيها، وقاتلوهم براً وبحراً، وضايقوهم حتى كادوا يظفرون بهم، فجاءت الأقدار بما لم يكن في الحساب، وذلك أن خمس قطع من شواني المسلمين باتت في بعض تلك الليالي مقابل ميناء صور، ليمنعوا من الخروج منه والدخول إليه، فباتوا ليلتهم يحرسون، وكان مقدمهم عبدالسلام المغربي موصوفاً بالحذق في صناعته وشجاعته، فلما كان وقت السحر أمنوا فناموا، وما شعروا إلا بشواني الفرنج قد نازلتهم وضايقتهم، وأوقعت بهم، فقتلوا من أرادوا قتله، وأخذوا الباقين بمراكبهم وأدخلوهم ميناء صور. والمسلمون في البر ينظرون إليهم. ورمى جماعة من المسلمين أنفسهم من الشواني في البحر، فمنهم من سبح فنجا ومنهم من غرق. وأمر صلاح الدين باقي الشواني بالسير إلى بيروت لعدم انتفاعه بها لقلتها. فسارت، فتبعها شواني الفرنج، فحين رأى من في شواني المسلمين الفرنج مجدين في طلبهم، ألقوا أنفسهم في شوانيهم إلى البر فنجوا وتركوها، فأخذها صلاح الدين ونقضها وعاد إلى مقاتلة صور في البر. وكان ذلك قليل الجدوى لضيق المجال، وخرج الفرنج في بعض الأيام فقاتلوا المسلمين من وراء خنادقهم فاشتد القتال بين الفريقين ودام إلى آخر النهار، وكان خروجهم قبل العصر،

وأسر منهم فارس كبير مشهور بعد أن كثر القتال والقتال عليه من الفريقين لما سقط. فلما أسر قتل. وبقوا كذلك عدة أيام.

لما رأى صلاح الدين أن أمر صور يطول، رحل عنها. وهذه كانت عادته، متى ثبت البلد بين يديه ضجر منه ومن حصاره فرحل عنه. وكان هذه السنة لم يطل مقامه على مدينة، بل فتح الجميع في الأيام القريبة بغير تعب ولا مشقة. فلما رأى هو وأصحابه شدة أمر صور، ملوها وطلبوا الانتقال عنها. وقام الفرنج بطلب النجدات من ملوك الغرب، فأجابوهم بالتلبية لدعوتهم، ووعدوهم بالنصرة، وأمروهم بحفظ صور لتكون دار هجرتهم، يحتمون بها ويلجؤون إليها، فزادهم ذلك حرصاً على حفظها والدفاع عنها. واستشار صلاح الدين أمراءه في أمر الرحيل عن صور، فتقرر رفع الحصار عنها. وترك صلاح الدين قوة في مواجهة مدينة صور.

ومضت سنة ٥٨٤ هـ = ١١٨٨ م. ثم جاءت السنة التالية، وامتلكت حامية صور قوة كبرى بفضل ما وصلها من الدعم والامداد. وتحركت قوات الحملة الصليبية الثالثة التي ضمت فيما ضمته من القوات أسطولاً بحرياً ضخماً من السفن الدانمركية والفلمنكية التي بلغ عددها خمسمائة سفينة. وقرر الفرنج في صور الانتقال من الدفاع إلى الهجوم، والبدء بالقاء الحصار على صيدا لاعادة السيطرة عليها. ودارت رحى معارك طاحنة نجح المسلمون فيها من منع الفرنج من الوصول إلى صيدا. ثم أعاد الفرنج في صور تنظيم قواتهم، وانطلقوا بهجوم جديد، غير أن الفشل كان من نصيبهم أيضاً، حيث دارت رحى معارك طاحنة قادها صلاح الدين الأيوبي بنفسه، وتعرض فيها الفرنج لخسائر فادحة. وعاود الفرنج محاولتهم للمرة الثالثة وكان ثمن الفشل غالياً. غير أنهم نجحوا في المرة الرابعة بمغادرة صور، والوصول إلى عكا، حيث انضمت إليهم قوات الفرنج القادمة من الشمال ومن البحر، فألقوا الحصار على عكا.

لقد كان الاغتيال السياسي هو أحد الوسائل التي اعتمدها الفرنج في بداية أمرهم للقضاء على القيادات الإسلامية واضعاف المسلمين وتفريقهم، وأصبح باستطاعة

قيادات المسلمين اللجوء إلى هذه الوسيلة ذاتها بعد أن تحول الموقف لمصلحتهم واتحدت قيادتهم وتعاظمت قوتهم. ولما كان ـ الكونت كنراد مونتفيرات ـ قد اضطلع بدور كبير في الدفاع عن صور، وفي التحريض للحملة الصليبية الثالثة التي ضمت ملك انكلترا ريتشارد قلب الأسد وملك فرنسا فيليب اوغست وامبراطور جرمانيا فريدريك بربروسه. فقد طلب صلاح الدين إلى زعيم الباطنية ـ الاسماعيلية ـ والمعروف باسم سنان شيخ الجبل. أن يقتل ملك انكلترا أو المركيز كنراد مقابل عشرة آلاف دينار. ووجد سنان أنه ليس من مصلحته قتل ملك انكلترا حتى لا يتفرغ صلاح الدين له ولطائفته، كما طمع في الوقت ذاته في الحصول على المال، فعدل الى قتل المركيز. وأرسل رجلين في زي الرهبان، واتصلا بصاحب صيدا وصاحب الرملة وكانا مع المركيز بصور فأقاما معهما ستة أشهر وهما يظهران التقى والعبادة، ووثق المركيز بهما وأحبهما. ثم إن أسقف صور عمل دعوة للمركيز، فحضرها وأكل طعامه وشرب مدامه، فلما خرج من عنده وثب عليه الباطنيان المذكوران فجرحاه جراحاً وثيقة، وهرب أحدهما ودخل الكنيسة واختفى بها. فاتفق أن المركيز حمل إليها ليشد جراحه، فوثب عليه ذلك الباطني فقتله. وقتل الباطنيان. ونسب الفرنج قتله الى تدبير ملك انكلترا حتى ينفرد بحكم ساحل بلاد الشام.

جاء بعد ذلك الظاهر بيبرس فسار على النهج ذاته، إذ دبر أمر اغتيال فيليب مونتفيرات في صور أيضاً، وكان فيليب هذا من أعلام الفرنج ومن كبار باروناتهم. وكان الباطنية ـ الاسماعيلية أو الحشاشين ـ قد انضووا تحت راية الظاهر بيبرس، إذ أن فتوحاته وانتصاراته قد حررتهم من سيطرة الاسبتارية، ومن دفع الجزية لهم. كما اشتد انكارهم لتعاون الفرنج مع المغول الذين دمروا معاقلهم وأبادوهم في بلاد الفرس. وبناء على طلب بيبرس، أرسلوا أحد رجالهم إلى صور، وزعم الباطني عندما دخل صور بأنه نصراني. فدلف يوم الأحد ١٧ ـ آب ـ أغسطس ـ سنة ١٢٧٠ (٦٦٩ هـ) إلى الكنيسة، حيث كان يؤدي الصلاة بها فيليب وابنه يوحنا، فانقض عليهما فجأة، وتعرض فيليب لجراح قاتلة قبل أن تصل إليه النجدة. على أنه بقي على قيد الحياة حتى علم بأنه قد تم القاء القبض على القاتل، وأن ابنه نجا من القتل. وقد كان

قتل فيليب مونتفيرات ضربة خطيرة للفرنج الصليبيين في بلاد الشام[1].

تابع المسلمون جهدهم وجهادهم، وأيدهم الله بنصره، فطردوا الفرنج من المدن والقلاع التي ظنوا أنها مانعتهم، حتى إذا لم تبق إلا عكا وصور وبعض القلاع في أيديهم، ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، غير أنهم لم يفقدوا الأمل بحملة صليبية جديدة تعيد لهم ما فقدوه من الأرض التي أقاموا عليها لبعض الوقت، ولهذا احتفظ القسس والأمراء بألقابهم السابقة التي حملوها قبل إعادة الفتح (مثل كونت طرابلس، وأسقف عكا الخ). وجرى في سنة ١٢٨٦ م أيضاً تتويج ملك قبرص (هنري الثاني) في مدينة صور. وأحيط حفل التتويج بجميع مظاهر الترف والعظمة. ولا ريب أن السلطان قلاوون قد ابتسم وهو في القاهرة عندما علم بأفراح الفرنج التافهة، فقد كان قلاوون على ثقة تامة بأن بقاء الفرنج في بلاد الشام لم يعد أكثر من قضية وقت. وأن الفرنج يخدعون أنفسهم عندما يتوهمون بامكان بقائهم في بلاد الشام إن هم احتفظوا بمدينة صور أو ببعض القواعد الأخرى. وهذا ما أكدته مسيرة الأعمال القتالية بعد ذلك. ولئن توفي السلطان قلاوون قبل إكمال إعادة فتح بقية المدن الساحلية. فقد جاء ابنه - الأشرف خليل - فعمل على إكمال هذا الواجب. فطرد بقايا الفرنج من عكا بعد حصار طويل ومعارك ضارية (سنة ٥٨٧ هـ = ١٢٩١ م). ولم تنتظر قوات صور وحاكمها حدوث الزلزال، أو هبوب العاصفة، فقد ركبوا البحر سراعاً وانتقلوا إلى قبرص بمجرد سماعهم بتحرك جيش المسلمين الضخم نحوهم، وتخلوا عن صور دون قتال. وابتلعت رمال صور ما تركه الفرنج من حطام. وعادت صور مزهوة إلى سابق عهدها، ثغراً من ثغور العرب المسلمين.

---

(١) لمطالعة المزيد عن التفاصيل لهذا الحادث المثير - يمكن الرجوع الى الكامل في التاريخ - أحداث سنة ثمان وثمانين وخمسمائة. وتاريخ الحروب الصليبية: ٣/١٢٤ - ١٢٨ و ٥٧٠.

١٦ ـ قلعة صلاح الدين الأيوبي [صهيون]

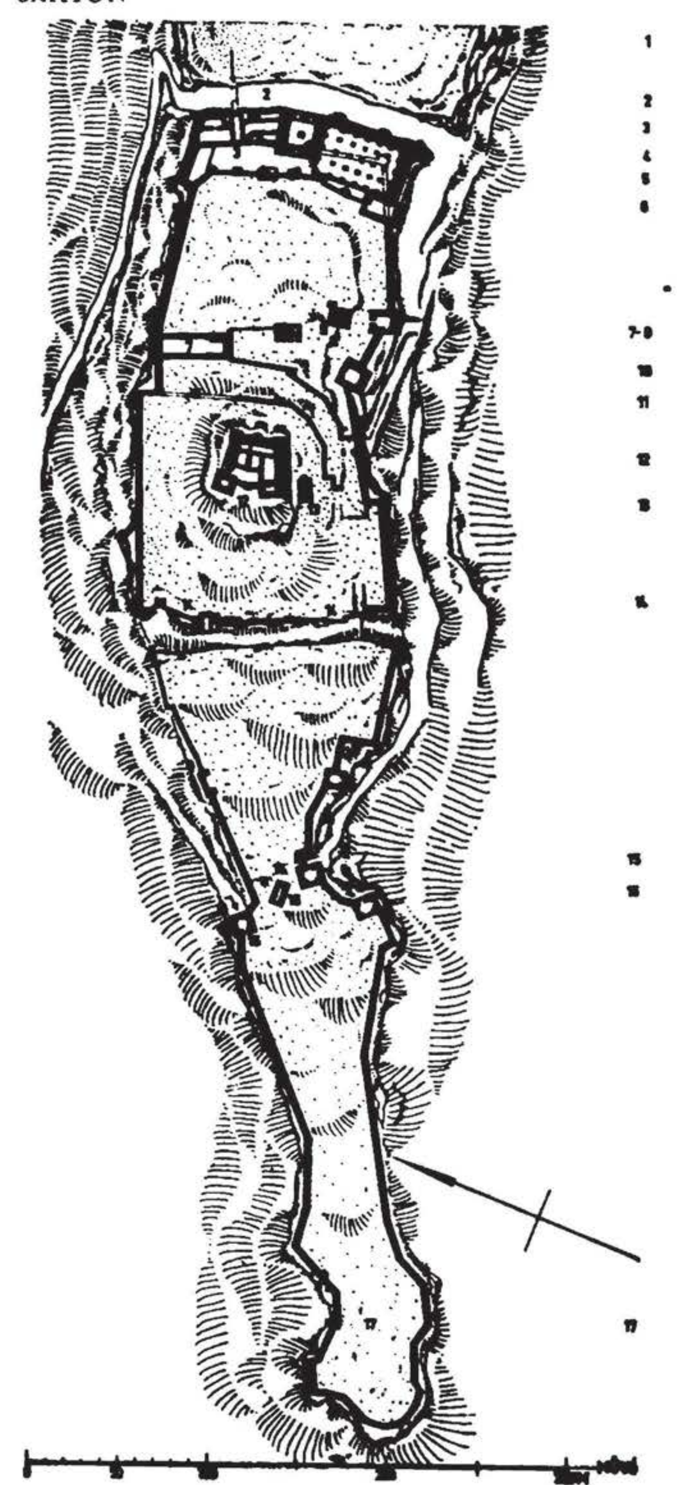
قلعة صلاح الدين الأيوبي أو (قلعة صهيون)[١] من القلاع التي اكتسبت شهرة كبيرة أيام الحروب الصليبية القديمة، بسبب منعتها وقوة أسوارها وتحصيناتها. وقد وصفها ابن الأثير بقوله: «قلعة صهيون هي قلعة منيعة شاهقة في الهواء، صعبة المرتقى، على قرنة جبل يطيف بها واد عميق فيه ضيق في بعض المواضع، بحيث أن حجر المنجنيق يصل منه إلى الحصن. إلا أن الجبل متصل بها من جهة الشمال. وقد عملوا لها خندقاً عميقاً لا يرى قعره، وخمسة أسوار منيعة»[٢] كما وصفها أبو الفداء بقوله: «ومدينة صهيون هي بلدة ذات قلعة حصينة لا ترام، من مشاهير معاقل الشام. وبقلعتها المياه كثيرة متيسرة من الأمطار. وهي على صخر أصم، وبالقرب منها واد، وبه من الحمضيات ما لا يوجد مثله في تلك البلاد. وهي في ذيل جبل من غربيه. وتظهر من عند اللاذقية. وبينهما نحو مرحلة. تقع في الشرق وبميلة الى الجنوب عن اللاذقية». وتبرز المقولتان من تراث التاريخ ما تميزت به هذه القلعة الشهيرة التي لازالت أطلالها الصامتة تحتفظ بهيبتها وبوقارها وهي تتربع على موقعها الشاهق لتلمس الغمام، ولتشرف من متربعها على ما يحيط بها. ولتحتفظ لنفسها بأسرار ما عرفته من أحداث وما عاشته من قصص مثيرة عبر العصور. وهي أسرار قد يكون من المحال على الباحثين والعلماء معرفتها والكشف عنها مهما توافر لهم من خصب الخيال.

لم يبق من قلعة صلاح الدين سوى بقايا متهدمة تتربع فوق جرف صخري متطاول

---

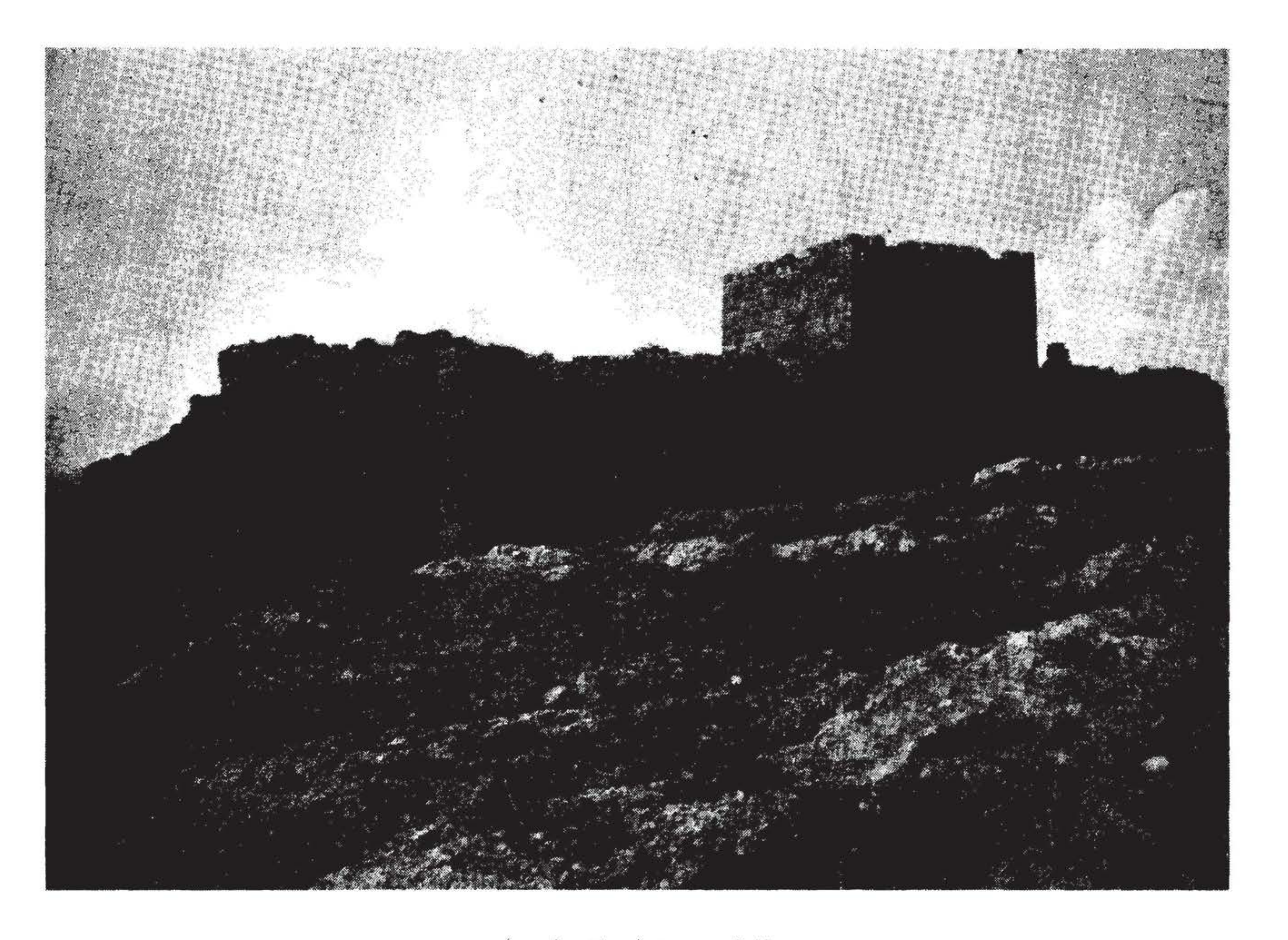
(١) قلعة صلاح الدين الأيوبي. وقد حملت أيام الفرنج الصليبيين اسم قلعة صهيون نسبة إلى أول من حكمها منهم وهو الكونت روبر صهيون (COUNT ROBERT SAHYOUN LE PIEUX) المجذوم. وتكتب: (SAHYUN) وباليونانية: (SIGON) وبالفرنجية: (SAONE) أو: (SAHAUNE).

(٢) الكامل في التاريخ ـ احداث سنة ٥٨٤ ـ والقلاع أيام الحروب الصليبية ص: ٥٠.

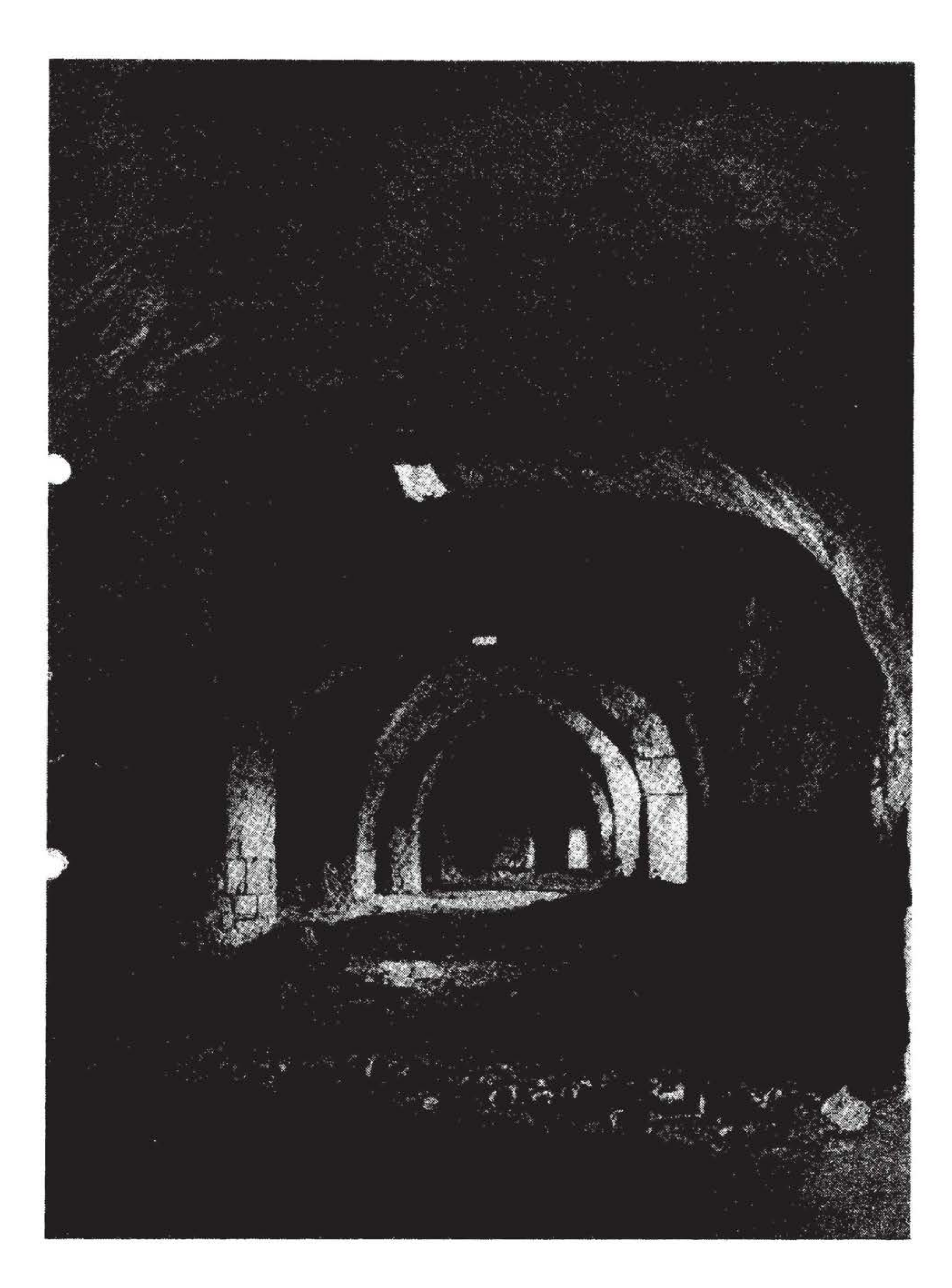


قلعة صلاح الدين (صهيون) Sahyun ـ الموقع والمخطط العام، المقياس ١/٥٠٠٠ .

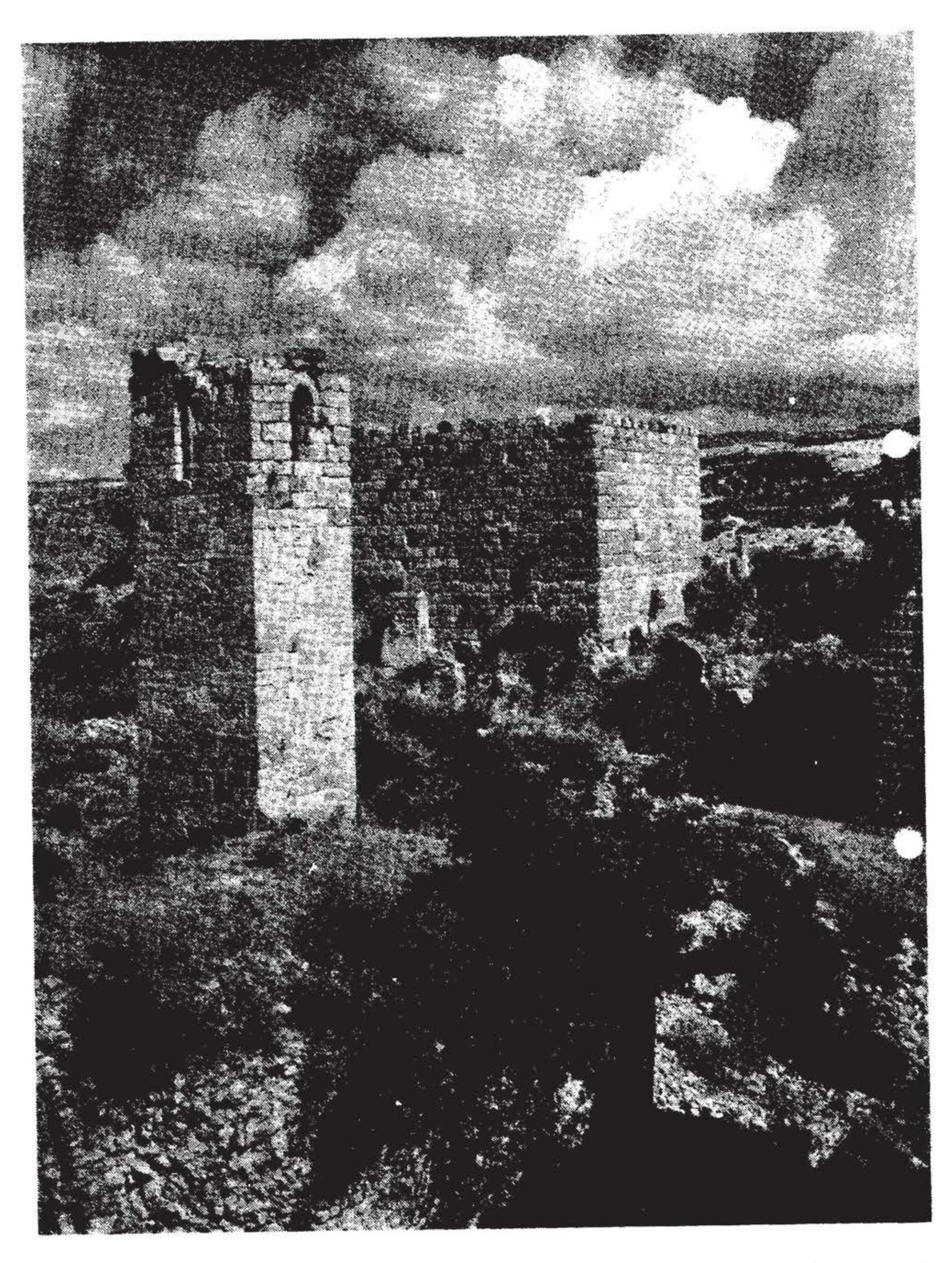
١ ـ بقايا قرية العصور الوسطى، ٢ ـ قناة الماء، ٣ ـ البوابة الرئيسية وأول سور عرضي بيزنطي، ٤ ـ مستودع ضخم شيد فوقها فيما بعد، ٥ و ٦ ـ بقايا السور العرضي البيزنطي الثاني، ٧ ـ خزان ماء، ٨ و ٩ ـ حمامات ومسجد، يعود تاريخ الحمام إلى العهد العربي، ١٠ و ١١ ـ السوران العرضيان البيزنطيان الثاني والثالث، ١٢ ـ القليعة البيزنطية الداخلية، ١٣ ـ كنيسة فرنجية صغيرة، ١٤ ـ السور العرضي الجنوبي الغربي والقناة، ١٥ ـ بوابات القلعة السفلية، ١٦ ـ كنيسة، ١٧ ـ الفناء السفلي فوق السور.



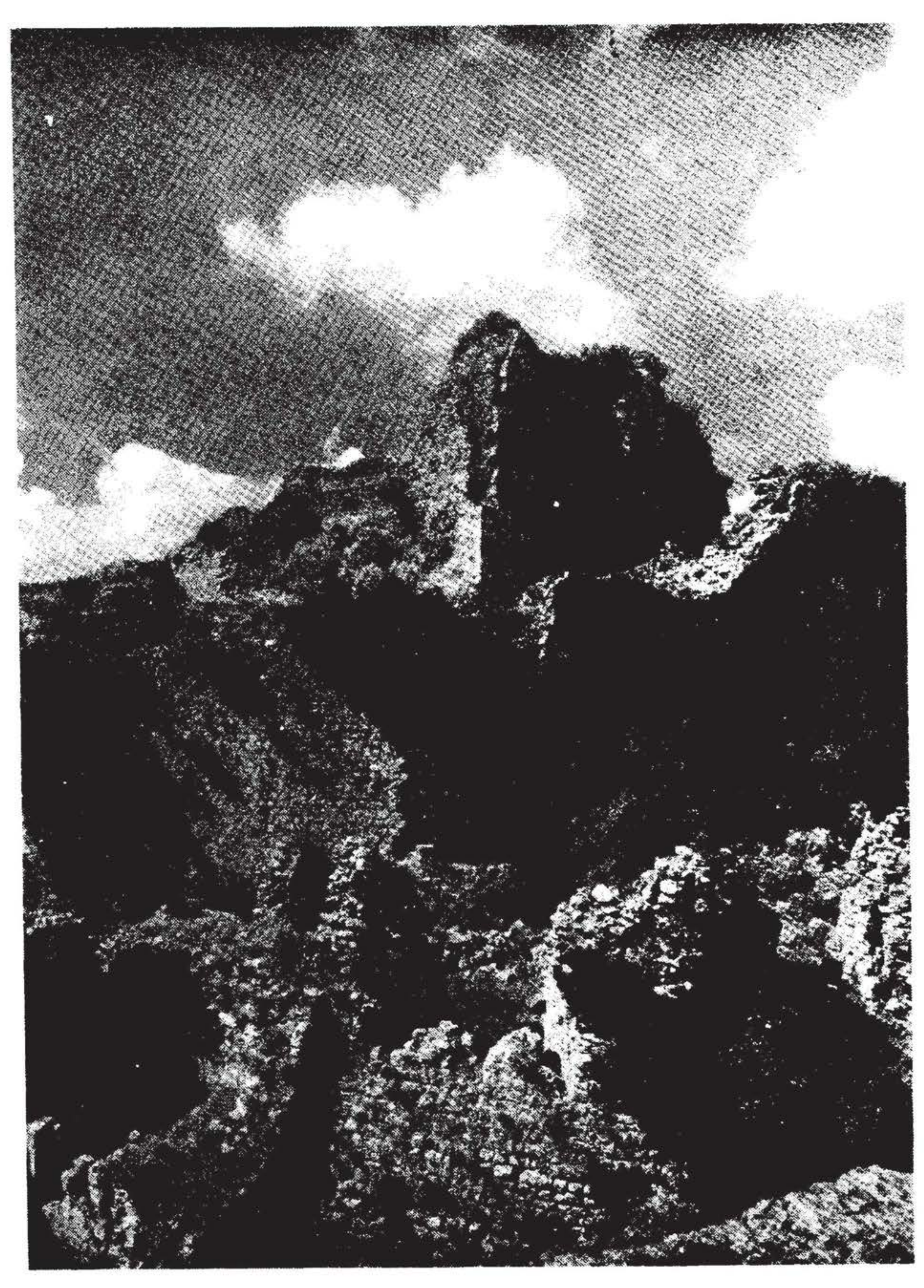
قلعة صهيون (صلاح الدين)



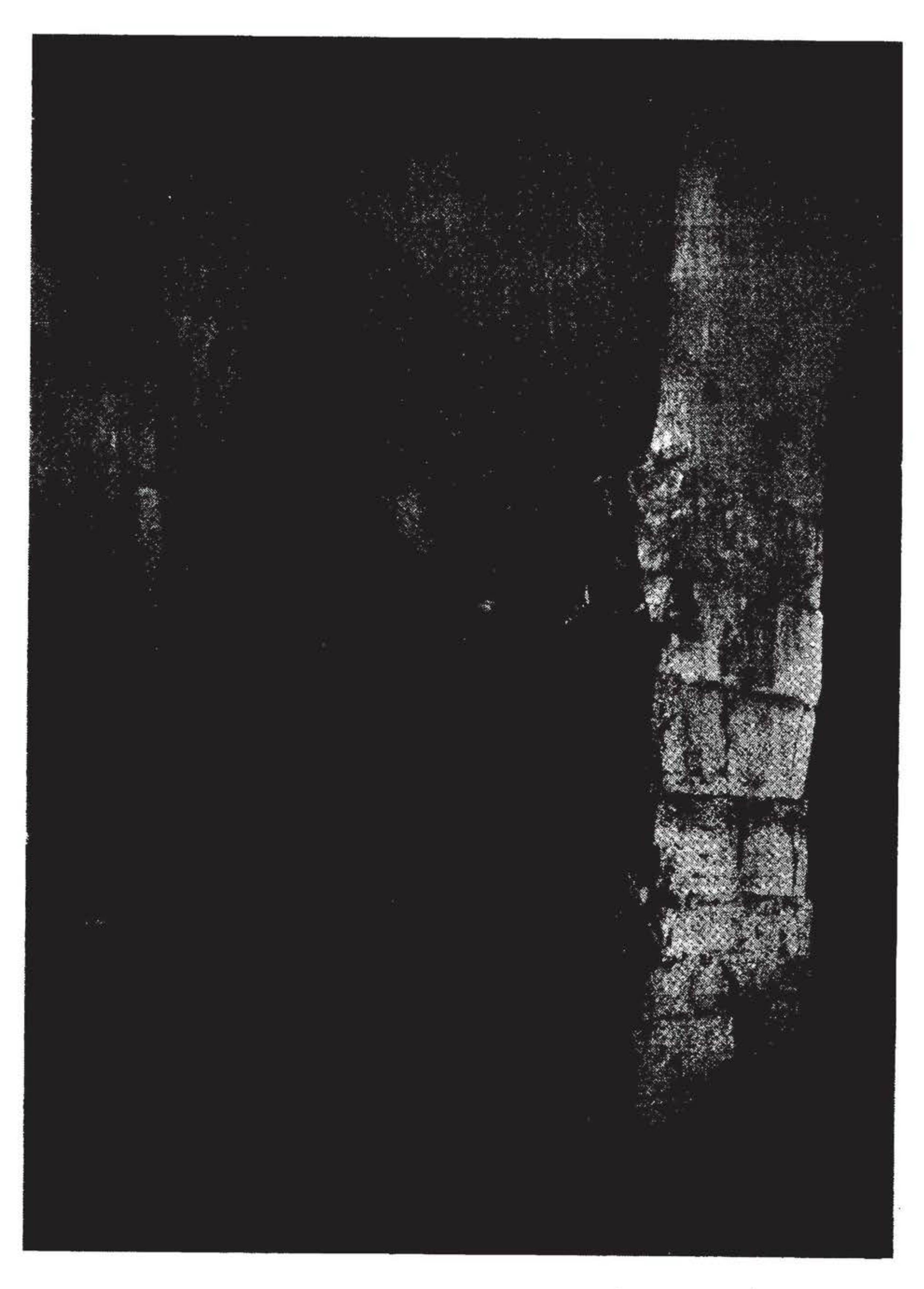
قلعة صلاح الدين (صهيون)



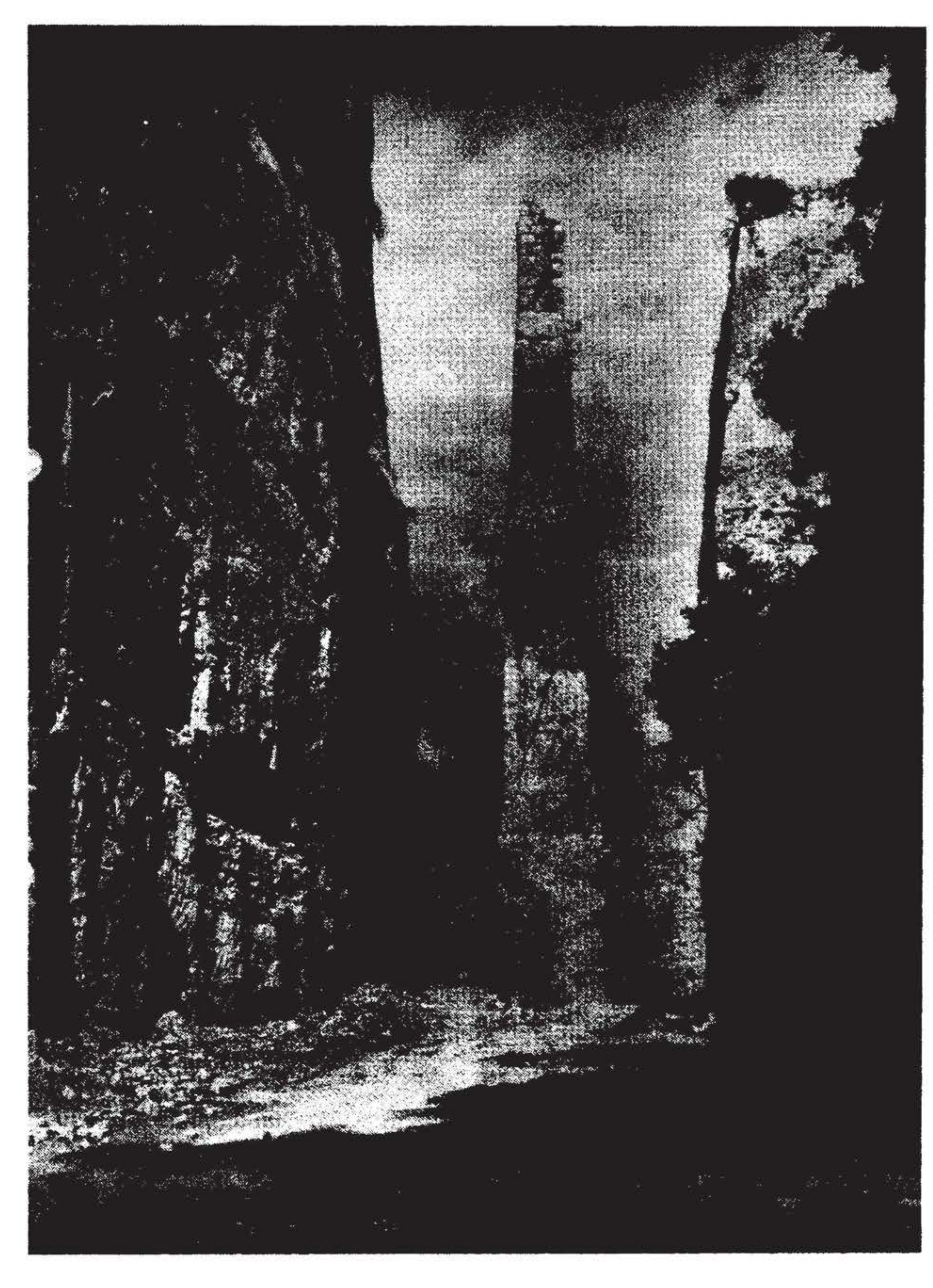
قلعة صلاح الدين (صهيون)



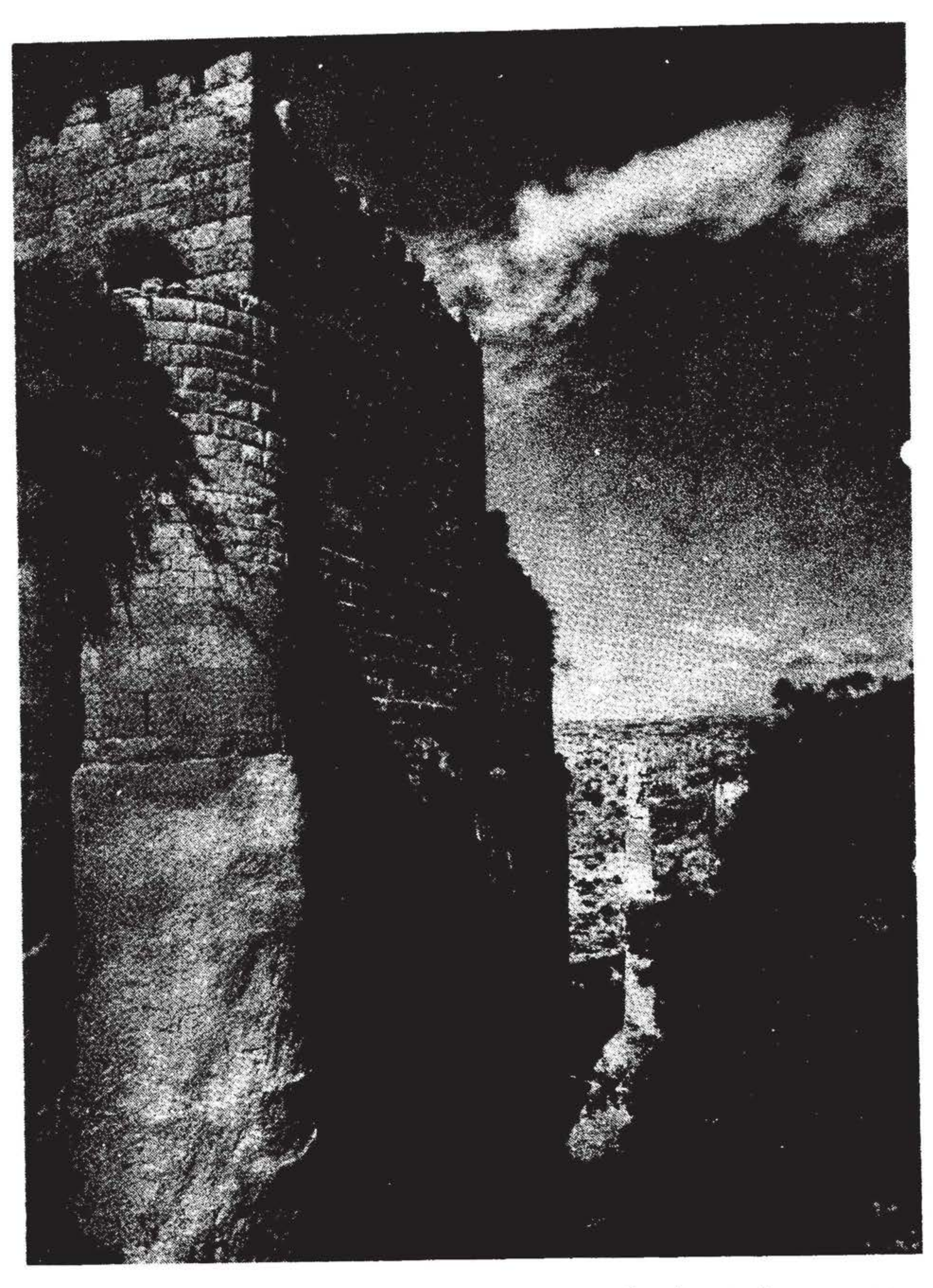
قلعة صهيون (صلاح الدين)



قلعة صهيون (صلاح الدين)



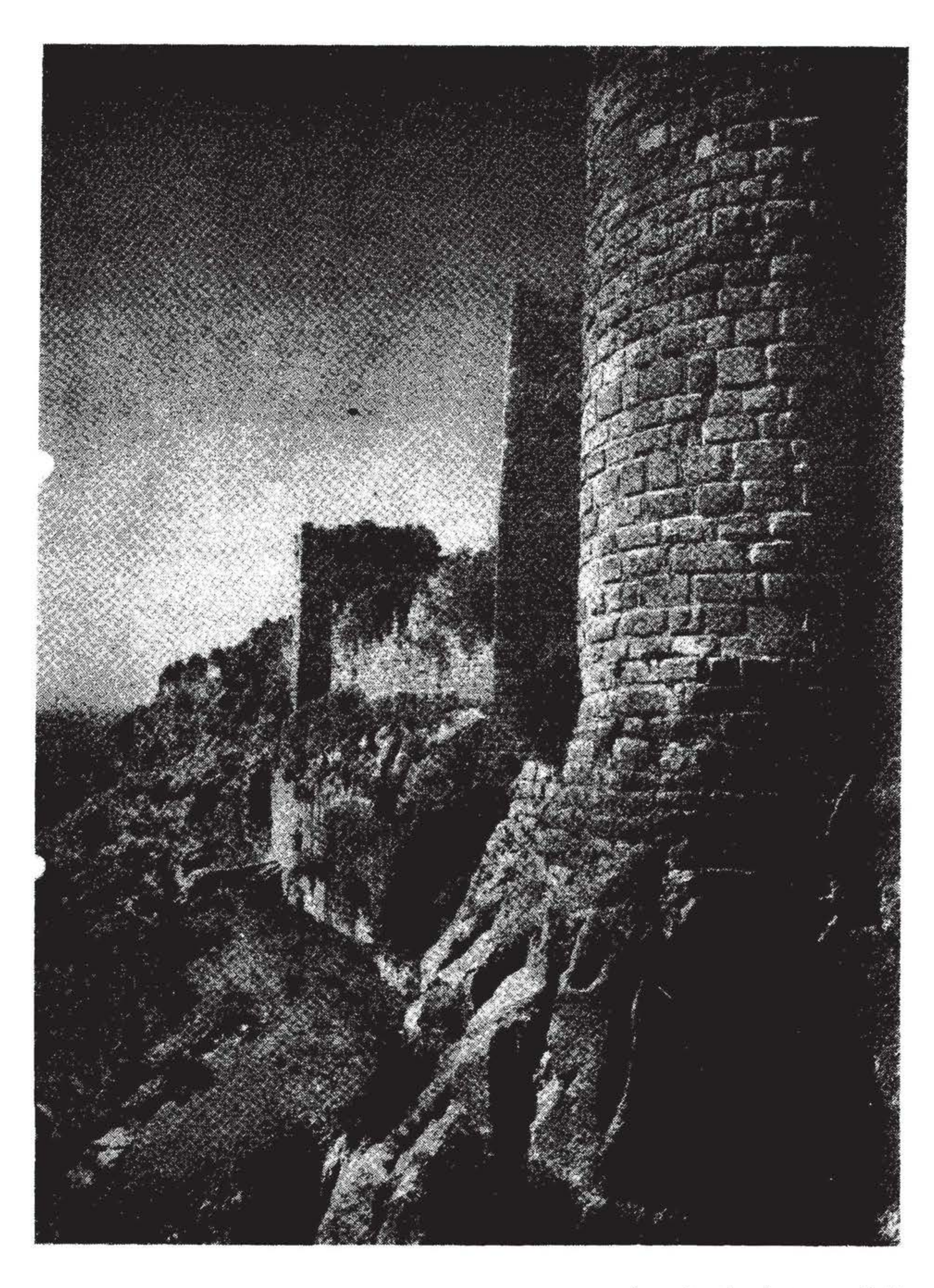
قلعة صهيون (صلاح الدين)



قلعة صهيون (صلاح الدين)



قلعة صلاح الدين (صهيون)



قلعة صهيون (صلاح الدين)

ما بين خانقين عميقين في جبال النصيرية، على مسافة خمسة عشر ميلاً تقريباً شمال شرق مرفأ اللاذقية البحري، وعلى استقامة واحدة، وتغطي التحصينات نحواً من ١٢,٥ فدان، ويفصلها عن باقي الهضبة من الشمال قناة منحوتة في الصخر يقارب طولها ١٦٠ ياردة، ولها من العرض في حدود ستين قدماً، وعمقها ٩٠ قدماً تقريباً. والقلعة التي تمتد على طول الجرف في سلسلة مصاطب منفصلة، تتتابع من الشمال الشرقي وحتى الجنوب الغربي بطول يزيد على ٧٦٠ ياردة وعرض يتراوح بين ٥٥ و ١٦٠ ياردة، وتحف بها السفوح الصخرية شديدة الانحدار حتى واديي النهرين الواقعين تحتها.

لقد كانت هذه القلعة أيام الروم البيزنطيين واحدة من اللمات (ومفردها ليم) والتي تنتظم في خط متناسق مع بقية القلاع على امتداد جبال الشام وحتى مصر وأفريقية. ولما كانت هذه القلاع مخصصة لاقامة الحاميات، وللدفاع ضد هجمات الفرس وضد اغارات العرب المباغتة، فقد جهزت بمتطلبات الحياة الضرورية، وحصنت على الطريق البيزنطية، حيث السور المضاعف المقام على مسافة جانبية قصيرة، مع بعض الأبراج النصف الدائرية، الى جانب قلعة صغيرة في الداخل. وقد دخلت القلعة في طاعة العرب المسلمين (سنة ١٥ هـ = ٦٣٦ م) فعملوا على تحصينها لمجابهة الأعمال العدوانية المحتملة للروم البيزنطيين. ويحتمل ألا يكون العرب المسلمون قد جهزوا القلعة بأكثر مما تحتاجه الحياة في القلعة، مع صيانة الأسوار ودعمها عند الضرورة، حيث لا تتوافر هناك شواهد تاريخية تشير الى اهتمام العرب المسلمين اهتماماً خاصاً ببناء الحصون والقلاع الداخلية التي لم تكن معرضة بصورة مباشرة للهجمات وللأعمال العدوانية. ولقد تعرضت قلعة صهيون لهجوم الامبراطور البيزنطي جان الأول (سنة ٣٦٥ هـ = ٩٧٥ م). ولعلها المرة الوحيدة التي جابهت فيها هذه القلعة مثل هذا العدوان. ولكن وعندما جاء الفرنج الصليبيون واحتلوها (سنة ٥٠٢ هـ = ١١٠٨ م) عملوا على دعم الواجهة الشمالية الشرقية المرتكزة على الهضبة.

وقد أقام الفرنج الصليبيون برجاً محصناً ضخماً وأسواراً ملاصقة له إلى جانب القناة التي يصعب تخطيها أو تجاوزها، وقد عززت هذه الأسوار بحصون بارزة نصف دائرية. ونظراً لأن الواجهة الشمالية الطويلة محمية بصورة طبيعية بواسطة الجروف

الصخرية ومنحدراتها الحادة. فقد ركز الفرنج الصليبيون اهتمامهم لحماية الواجهة الجنوبية الضعيفة نسبياً، فعملوا على بناء سور قوي مجهز بأبراج مستطيلة سميكة الجدران. وكذلك فقد تم قطع الفناء العلوي للسور الشديد التحصين عن الفناء الأدنى فيه، الأكثر تعرجاً، بجدار عرضي يستغل وهدة طبيعية عميقة استغلالاً ماهراً. وأمنت المواصلات بين الفناءين العلوي والسفلي عن طريق ممرين جانبيين، أحدهما كبير والآخر صغير. وللقلعة السفلية بوابتان خاصتان بها، واحدة على كل جانب. أما الأسوار المحيطية للفناء السفلي، والتي تمتد بعيداً بالاتجاه الجنوبي - الغربي وترتبط بشدة بالأرض الصخرية، فقد دعمت بحصون بارزة صغيرة في عدة نقاط منها فقط، ولا زالت الجدران العرضية قائمة في معظمها حتى الآن، لتشير نحو دور البيزنطيين ومن تبعهم من الفرنج الصليبيين في بلاد الشام. غير أن معظم ما بقي من الآثار يعود إلى أيام العرب المسلمين الذين كان حكمهم طويلاً ومستمراً. ويظهر ذلك واضحاً في بناء المسجد والحمامات وسوى ذلك من المرافق، المرتبطة بحياة المسلمين. ويظهر أن حجم القلعة لم يكن على قدر كاف من الاتساع لاستيعاب الجند الإسلامي المدافع عن القلعة، وكذلك العاملين في المنطقة المحيطة بالقلعة من رعاة ومزارعين وصنّاع وسواهم، فتم بناء قرية صغيرة خارج القلعة مباشرة، لا زالت بقاياها رابضة فوق الجرف الطويل القائم على الأرض المرتفعة الواقعة إلى الشمال الشرقي من القلعة.

ذلك هو بعض ما يتضمنه حديث الأطلال والآثار، ولقد حفظت أوابد التاريخ العربي - الإسلامي ما عجزت عن حفظه الأطلال والآثار من القصص والأحاديث. فقد عاشت القلعة قصة ذلك الصراع المرير الذي عرفته الثغور طوال قرون متتالية، وشهدت قوات الروم البيزنطيين من جهة وقوات العرب المسلمين من الجهة المقابلة، وهي تجتاح الأقاليم لتدمر وتحرق في عمليات انتقام متبادلة. ولقد أبرزت هذه العمليات أسماء عدد كبير من القادة، لعل من أكثرها شهرة من جانب الروم (الدمستق نقفور)[1] والحمدانيون وفي طليعتهم سيف الدولة من جانب العرب المسلمين. ففي سنة

---

(١) نقفور: (NICEPHORE) هو اسم عدد من أباطرة الروم، أبرزهم هنا نقفور الثاني الذي ولد سنة ٩١٢م وأصبح امبراطوراً من سنة ٩٦٣ حتى سنة ٩٦٩م. وجاء بعده جان الأول تزيميسكيس: =

٣٥١ هـ = ٩٦٢ م. حشد الروم جيشاً من مائتي ألف مقاتل، منهم ثلاثون ألف رجل بالجواشن وثلاثون ألفاً للهدم واصلاح الطرق من الثلج، وأربعة آلاف بغل يحمل الحسك الحديد. وقاد الدمستق هذا الجيش، فاستولى على أربعة وخمسين حصناً للمسلمين ـ كما هاجم حلب واستباحها ـ. وأعاد سيف الدولة في السنة التالية بناء بعض الحصون، وسير جيشاً من طرسوس إلى بلاد الروم، فغنموا وقتلوا وسبوا، وأوغلوا في تقدمهم حتى وصلوا قونية. ولقد استمر النصر نوباً بين الروم والمسلمين[1]. حتى إذا ما كانت سنة ٣٥٩ هـ = ٩٧٠ م. أنفذ الروم جيشاً كبيراً الى حلب، فملكوا المدينة، وملكوا أيضاً حماه وحمص وكفرطاب والمعرة وأفامية وشيزر وما بين ذلك من الحصون والقرايا. لكن الروم لم يستقروا، فقد أجمع المسلمون أمرهم وأفادوا من تمزق الروم، فأعادوا فتح الحصون والقلاع التي ملكها الروم. ولقد استنزفت هذه الحروب قدرة الروم بقدر ما استنزفت قدرة المسلمين. ولهذا شهدت المواقع على الحدود نوعاً من الهدوء ـ إلا من بعض العمليات الصغرى وفي فترات متباعدة ـ. غير أنه حدث في سنة ٣٨١ هـ = ٩٩١ م. أن قام الروم بهجوم كبير بقيادة أمبراطورهم (باسيل) ووصلوا الى حمص، كما اجتاحوا شيزر ونهبوها ثم عادوا إلى بلادهم.

يظهر العرض الوجيز السابق أن القلاع ـ بما فيها القلعة التي حملت بعدئذ اسم صلاح الدين ـ لم تكن ذات أهمية كبرى عند وقوع هجوم كبير وشامل. فقد نجح الروم مرات متتالية في الوصول الى وسط بلاد الشام (حمص). واجتاحوا كافة القلاع والحصون ونهبوها ودمروها. وكذلك فعل الفرنج الذين اجتاحوا عدداً كبيراً من هذه

= (JOHN-TZIMISKES) الذي كان دمستقاً ـ والدمستق عند الروم هو الذي كان يحكم بلاد الروم التي هي شرقي خليج القسطنطينية ـ وتذكر المصادر العربية أن نقفور هذا لم يكن ملكاً للروم. أو من أهل بيت المملكة، وإنما كان دمستقاً، وهو من ولد رجل مسلم من أهل طرطوس يعرف بكنية (ابن الفقاس) تنصر وكان شديداً على المسلمين. فلما عظم أمره قتل ملك الروم وتزوج امرأته (الامبراطورة تيوفانو) ولكن الامبراطورة لم تلبث أن اتفقت مع الدمستق جان الأول المعروف باسم (ابن الشمشقيق) فقتلت نقفور سنة ٩٦٩ م. وتزوجت جان الأول الذي بقي امبراطوراً حتى سنة ٩٧٥ م. (الكامل في التاريخ: أحداث سنة ٣٥٦ هـ و ٣٥٩ هـ).

(١) لمطالعة تفاصيل هذه الأحداث في الكامل في التاريخ ـ أحداث السنوات من ٣٥١ حتى ٣٦٠.

المواقع، وجعلوا منها قواعد للهجوم على الأقاليم الإسلامية المجاورة في اطار سياسة استراتيجية استعمارية توسعية ـ بحسب مصطلحات لغة العصر ـ. وكان من الصعب على المسلمين مجابهة هذه الأعمال، أو تنظيم دفاع ناجح، إلا في اطار سياسة استراتيجية هجومية ـ دفاعية شاملة. وليس التوقف عند حدود الدفاع عن قلعة، أو التمسك بحصن. وكان لا بد لهذه التحولات من أن تأخذ أبعادها عبر التفاعلات التي يفرزها الحوار بين الارادات المتصارعة فبقيت قلعة صهيون نتيجة لذلك تحت حكم الفرنج طوال ثمانين عاماً من عمر الزمن.

تعرضت بلاد الشام خلال تلك الفترة لهزات أرضية عنيفة، كان من أبرزها زلزال سنة ٥٥٢ هـ = ١١٥٧ م. وزلزال سنة ٥٦٥ هـ = ١١٦٩ م. فتهدمت أسوار القلاع وتحصيناتها. وهذا هو ما يفسر بالدرجة الأولى وجود تلك البصمات التي تركها الفرنج على قلاع بلاد الشام وحصونها. وصحيح أن الفرنج قد أجروا بعض التعديلات بمجرد احتلالهم للقلاع، مثل تحويل المساجد إلى كنس، وتخصيص أماكن للعبادة، غير أن إعادة تحصين الأسوار قد جاءت بصورة اضطرارية. فقد كانت الزلازل من القوة ما حمل الفرنج على هجر القلاع، والفرار عنها من شدة الذعر. مما أرغم الفرنج على إعادة بناء القلاع ودعم ابراجها وتحصيناتها، واصلاح ما دمرته الهزات الأرضية. ولم يكن الفرنج يخافون وهم يعيدون تشييد ما تهدم من القلاع والتحصينات قيام المسلمين بهجمات مباغتة وكبيرة. فقد كان المسلمون بدورهم يعملون على إعادة تحصين قلاعهم ودعم اسوارها واصلاح ما تهدم منها. فكان الخوف المتبادل عاملاً في الامتناع عن ممارسة الهجوم ضد الدفاع.

لقد خسر الفرنج الصليبيون قلاع بلاد الشام وحصونها بمثل ما اكتسبوها، ولكن بنهج مضاد. ففي أعقاب انتصار المسلمين في حطين (٥٨٣ هـ = ١١٨٧ م) تم إعادة فتح القدس. وبدأت قلاع الجنوب وحصونه في العودة الى أهلها المسلمين، حيث أعيد فتح عكا ومجدل يابا والناصرة وقيسارية وصفورية ومعليا والشقيف والفولة ويافا وتبنين وصيدا وجبيل وبيروت وعسقلان وما يجاورها من بلاد الرملة ودامور وغزة وبيت لحم وبيت جبريل والنطرون. وكل ما كان لطائفة فرسان الداوية من قلاع في فلسطين، مثل

صفد وكوكب والكرك. حتى إذا ما كانت السنة التالية (٥٨٤ هـ = ١١٨٨ م) سار صلاح الدين الأيوبي بجيشه شمالاً. فأغار على حصون صافيتا والعريمة ويحمور وفتح جبلة واللاذقية. ثم رحل عنها وقصد قلعة صهيون، فنزل على الجبل الملتصق بها، ونصب عليه المنجنيقات ورماها، وتقدم إلى ولده الظاهر صاحب حلب، فنزل على المكان الضيق من الوادي، ونصب عليه المنجنيقات فرمى الحصن منه، وكان معه من رجال حلب خلق كثير، وهم في الشجاعة بالمنزلة المشهورة. ودام رشق السهام من قسي اليد والجرخ والزنبوك والزيار. فجرح أكثر من بالحصن، وهم يظهرون التجلد والامتناع. وزحف إليهم المسلمون - ثاني جمادى الآخرة - فتعلقوا بقرنة من ذلك الجبل قد أغفل الفرنج إحكامها. وتسلقوا منها بين الصخور حتى وصلوا إلى السور الأول، فملكوا منها ثلاثة، وغنموا ما فيها من أبقار ودواب وذخائر وغير ذلك. واحتمى الفرنج بالقلعة فقاتلهم المسلمون عليها، فنادوا وطلبوا الأمان. فلم يجبهم صلاح الدين إليه، فقرروا على أنفسهم مثل قطيعة أهل القدس. وتسلم صلاح الدين الحصن وسلمه إلى أمير يقال له (ناصر الدين منكورس - صاحب قلعة أبي قبيس)[١] فدعمه وحصنه وجعله من أقوى القلاع. ولما ملك المسلمون صهيون. تفرقوا في تلك النواحي، فملكوا حصن بلاطنوس. وكان من به من الفرنج قد هربوا منه وتركوه خوفاً ورعباً. وملك المسلمون أيضاً حصن العيد وحصن الجماهرتين. فاتسعت المملكة الإسلامية بتلك الناحية. إلا أن الطريق إليها من البلاد الإسلامية على عقبة، بكسر جبل شاق شديد، لأن الطريق السهلة كانت غير مسلوكة، حيث كان بعضها بيد الباطنية - الاسماعيلية - وبعضها بيد الفرنج. ثم فتح المسلمون حصن بكاس والشغر

---

(١) حكم ورثة ناصر الدين منكورس القلعة حتى ربيع الأول سنة ٦٧١ هـ = ١٢٧٢ م وقد ذكر ذلك ابن كثير - البداية النهاية - حوادث سنة ٦٧١ هـ - بقوله: «توفي في هذه السنة الأمير سيف الدين محمد ابن مظفر الدين عثمان بن ناصر الدين منكورس صاحب صهيون. ودفن في تربة والده. وكان له في حكم صهيون وبرزية إحدى عشرة سنة وتسلمها بعده ولده سابق الدين. وأرسل الى الملك الظاهر - بيبرس - يستأذنه في الحضور فأذن له. فلما حضر أقطعه خبزاً. وبعث الى البلدين نواباً من جهته» وانظر الكامل في التاريخ - حوادث سنة ٥٨٤ هـ.

وسرمنية وبرزية ودرب ساك وبغراس. ولم يبق في قبضة الفرنج إلا أنطاكية التي أسرع أميرها بيمند - الكونت بوهمند - الى عقد هدنة مع صلاح الدين مدتها ثمانية أشهر.

عادت قلعة (صهيون) إلى أهلها، وأطلق عليها اسم فاتحها - صلاح الدين -. وجاء بعد ذلك السلطان قلاوون، فشيد مسجداً داخل القلعة. ولم تعرف القلعة بعد ذلك حدثاً مثيراً - باستثناء ما تعرضت له من قصف سنة ١٨٤٠ عندما جاء ابراهيم باشا فاصطدم مع الحامية التركية التي كانت مقيمة في القلعة.

لقد انهارت مقاومات الفرنج في قلعة صهيون، كما انهارت في القلاع الكثيرة التي أعاد المسلمون الظافرون فتحها. فقد كانت هذه القلاع على قوتها ومنعتها ضعيفة في عزلتها عن امكانات الدعم الخارجي. ولقد نجح المسلمون في تدمير الجيوش في المعارك التصادمية - وأبرزها معركة حطين - فبات من المحال على حاميات القلاع أن تصمد في وجه الهجمات الشاملة والقوية. وكان ذلك هو عكس ما حدث عندما جاء الفرنج الصليبيون في حملتهم الأولى. فقد تمكنوا من تدمير جيوش المسلمين في المعارك التصادمية - وأبرزها معركة أنطاكية - مما أرغم حاميات القلاع على الاستسلام. وكانت التجربة بكاملها برهاناً ثابتاً على علاقة الهجوم بالدفاع.

١١ ـ قلعة طرابلس

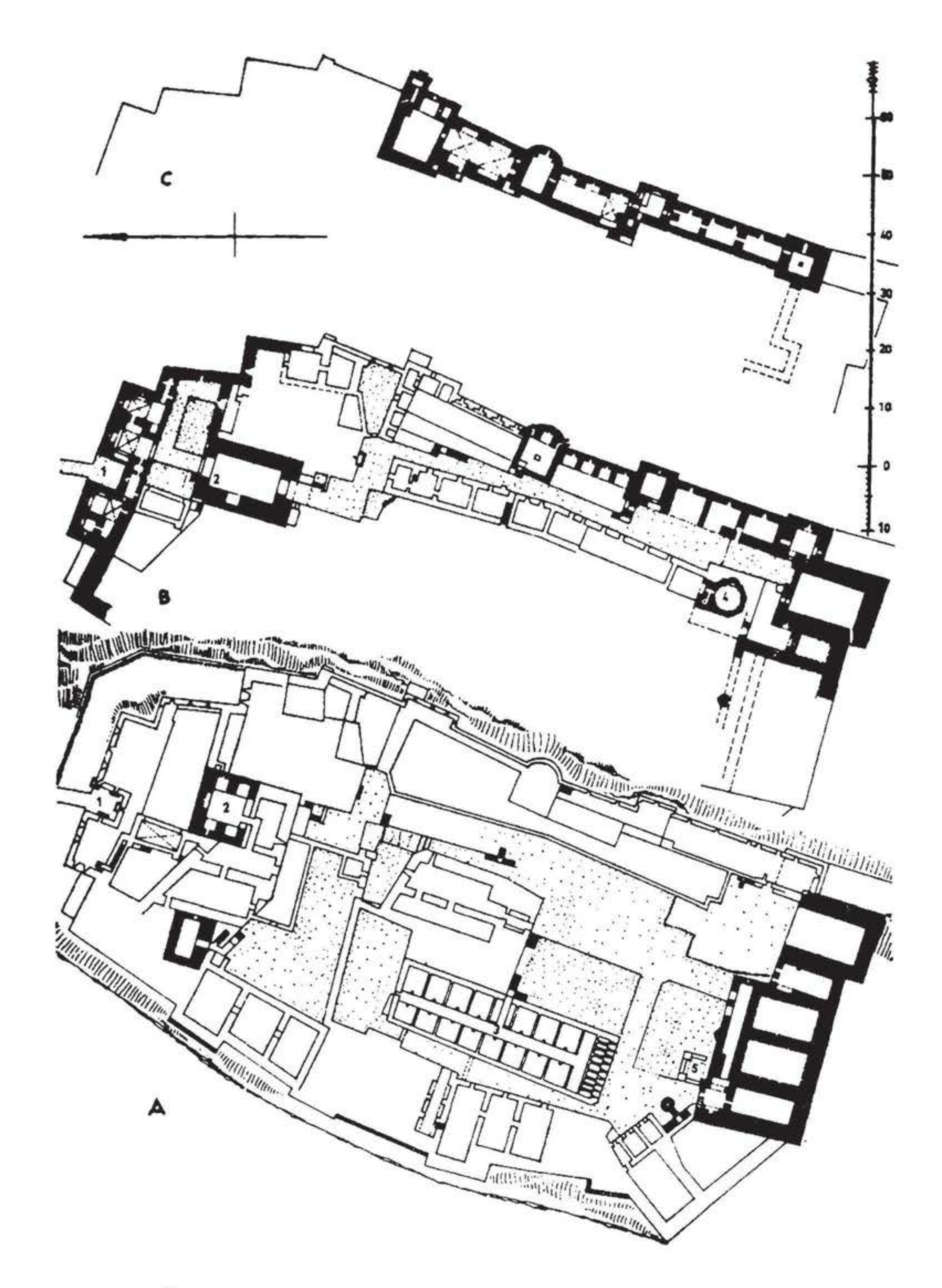
مدينة أطرابلس هي من مدن العالم القديم، وصفها المؤرخ أبو الفداء بقوله: « مدينة أطرابلس[١] هي مدينة رومية، على طرف داخل البحر، فتحها المسلمون ـ سنة ١٥ هـ = ٦٣٦ م. وخربوها في سنة ثمان وثمانين وستمائة وعمروا على نحو ميل منها مدينة سموها باسمها[٢] ولها بساتين وأشجار كثيرة، ويزرع بها قصب السكر ولها نهر ـ قال المتنبي: وقصرت كل مصر عن طرابلس. وفي العزيزي: وبين طرابلس وبعلبك أربعة وخمسون ميلاً. وبين طرابلس ودمشق تسعون ميلاً. ومنها إلى أنطرطوس ثلاثون ميلاً »[٣] وقد أصبح اسم (طرابلس) بحذف الألف من أوله ـ هو الشائع ـ وهي مدينة ومرفأ على ساحل بلاد الشام. وبقيت مرفأ هاماً لدمشق طوال عهود عديدة. ويوجد الميناء الآن في موقع المستوطنة القديمة ومستوطنة العصور الوسطى. وهو عبارة عن شبه جزيرة صغيرة مع مرفأ محمي جيداً بريف صخري. أما الحي السكني الحديث والواقع على السفوح الجبلية، أعلى من الميناء، فهو يتجمع حول القلعة العائدة للعصور الوسطى. ويخترقه نهر قاديشا ـ أو نهر أبو علي كما يسمى أيضاً ـ. وقد شيد هذا

---

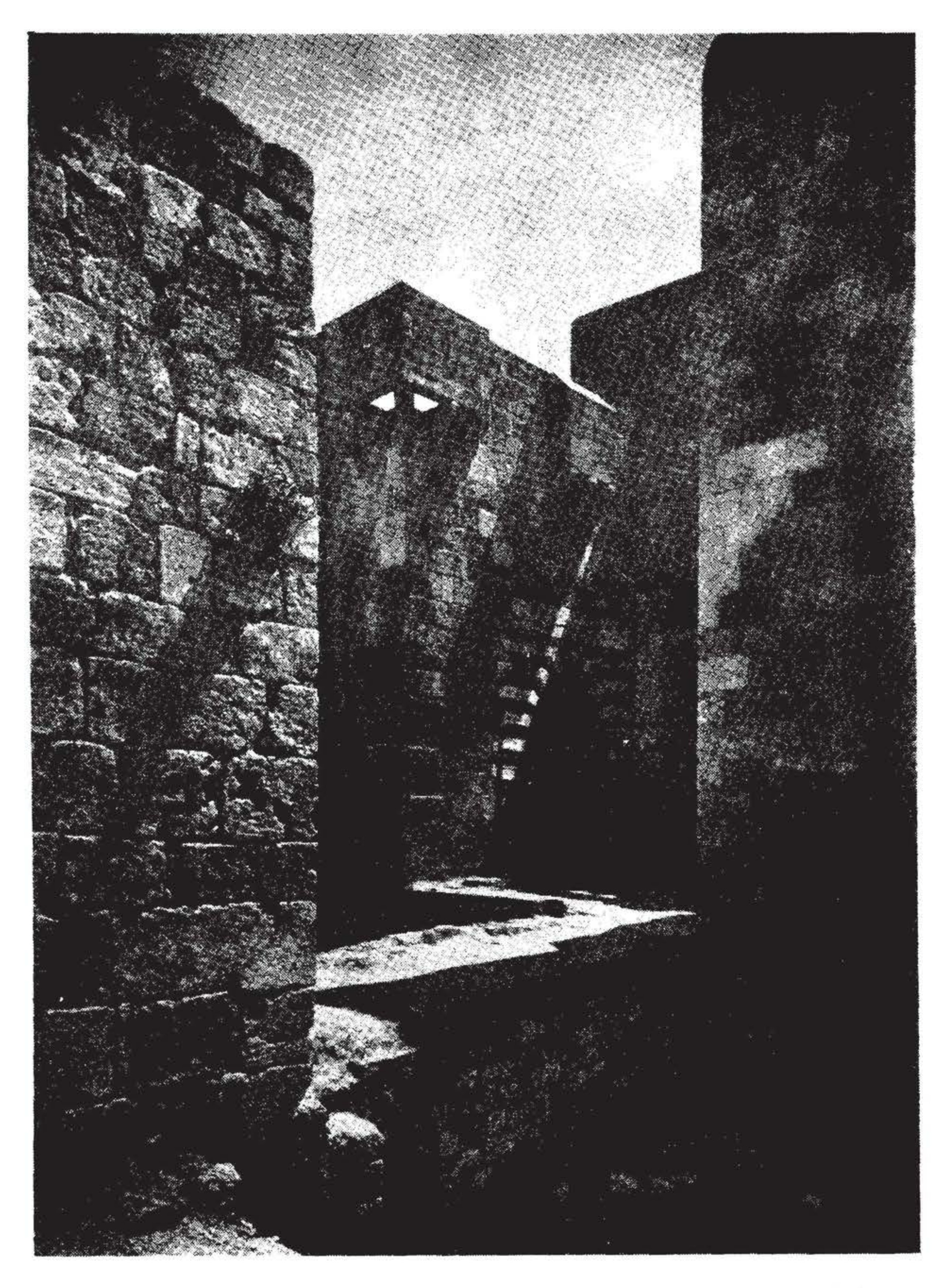
(١) مدينة أطرابلس ـ أو طرابلس ـ TRABLUS) وباليونانية: 'TRIPOLIS و (TRIPOLE) بالفرنجية. أما القلعة فقد أطلق عليها الفرنج اسم (قلعة صنجيل) نسبة الى ريموند كونت تولوز سانت جيل (RAYMOND IV ST. GILLES) الذي كان أحد كبار قادة الحملة الصليبية الأولى ـ ومات أثناء حصار طرابلس سنة ١١٠٥ م وتذكره المصادر العربية باسم (صنجيل). وتذكر المصادر العربية أيضاً القلعة باسم (مرتفع الحجيج) (MONT PELERIN). أو مونت بيليرينوس (MONT PELLERINUS) ـ أو مونت بيريغرينوس (MONT PEREGRINUS).

(٢) لم يكن هذا التدمير الذي وقع سنة ٦٨٨ هـ = ١٢٨٩ م هو أول تدمير للمدينة بهدف إعادة بنائها في مكان أكثر منعة. فقد سبق للعرب المسلمين أن دمروها سنة ٦٩ هـ = ٦٨٨ م وأعادوا بناءها نحو الداخل ـ كما فعل السلطان قلاوون بعد ذلك.

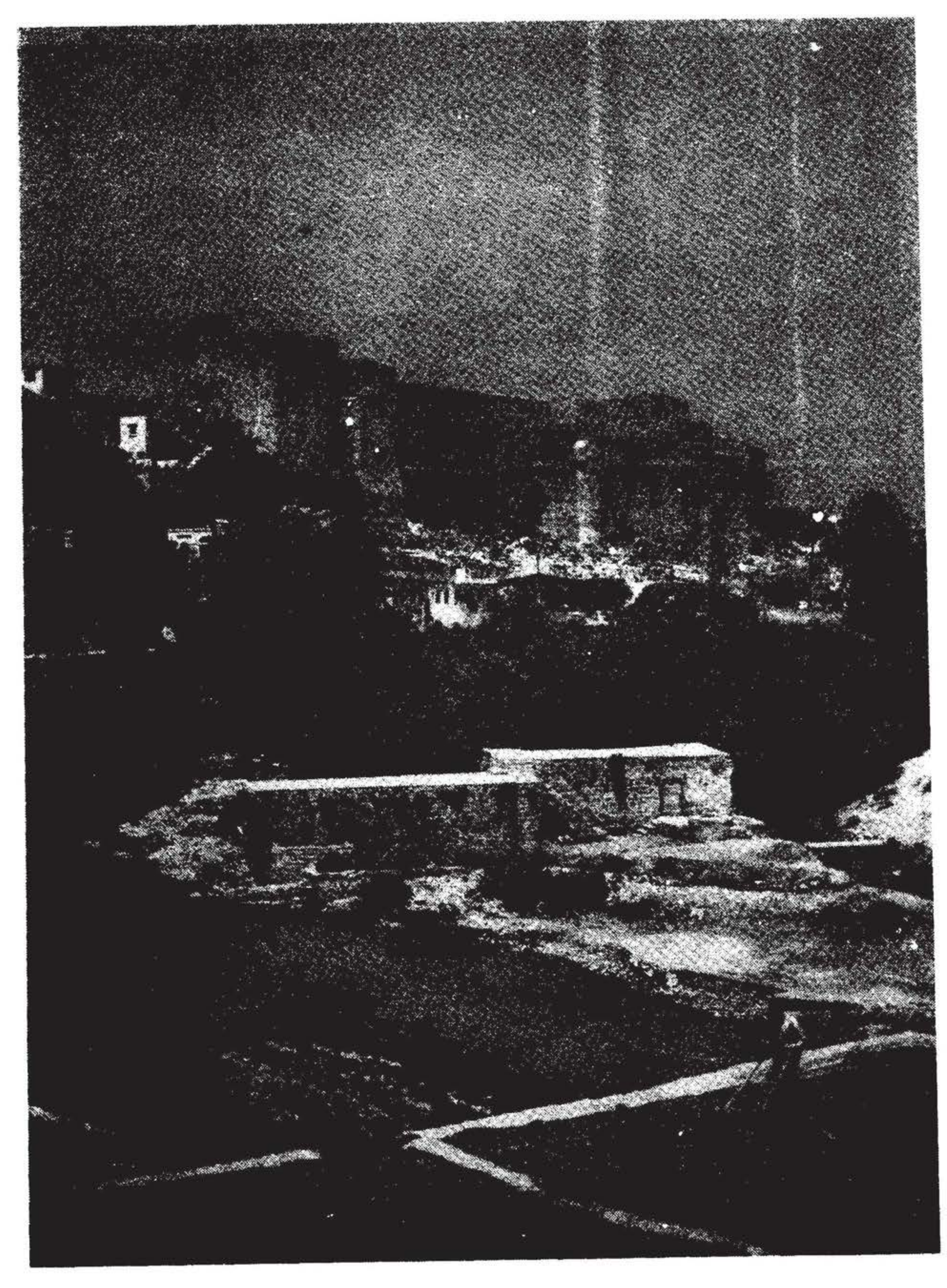
(٣) القلاع أيام الحروب الصليبية. ص: ٤٧ ـ ٤٨.



١ ـ طرابلس ـ قلعة صنجيل Tripoli-Mons Peregrinus . المخطط الأرضي للقلعة، المقياس ١/١٠٠٠، أ ـ مخطط المستوى الأرضي الحالي، ب ـ مخطط المستوى تحت الأرضي، جـ ـ مخطط المستوى تحت الأرضي الثاني. رسم ما أنشأه الفرنجة باللون الأسود، ورسمت الإضافات العربية الأولى والتعديلات بالتهشير المتقاطع، والإضافات العربية المتأخرة بالتهشير العادي، والإضافات التركية غير مهشرة. ١ ـ حصن البوابة. ٢ ـ برج محصن. ٣ ـ كتلة الإسطبلات. ٤ ـ كنيسة فرنجية (كشفت مجدداً). ٥ ـ مدافن إسلامية (أقيمت فوق أخرى مسحت).



قلعة طرابلس



قلعة طرابلس

الحي بعد أن أعاد المسلمون فتح المدينة وطردوا الفرنج منها. ولم تكن المدينة قوية التحصين، ولكنها كانت تعتمد في دفاعها على حماية القلعة لها. وهي تنتصب فوق جرف صخري قائم فوقها. ولم يبق من القلعة سوى قليلاً من الآثار التي تعود إلى أيام الحروب الصليبية القديمة. وقد تم تجديد القسم الأكبر منها بعد إعادة الفتح الإسلامي، وكذلك في أيام الحكم التركي العثماني.

تناوبت على حكم طرابلس منذ الفتح العربي - الإسلامي سلالات وعائلات عربية كثيرة لعل من أكثرها شهرة عائلة (بنو عمار) التي حكمت طرابلس منذ سنة ٤٦٣ هـ = ١٠٧٠ م. وعندما اجتاحت ريح الحكم الفاطمي ساحل بلاد الشام، سيطرت على طرابلس سنة ٤٩٣ هـ = ١٠٩٩ م. وعندما جاء الفرنج الصليبيون، فاستولوا على انطاكية سنة ٤٩١ هـ = ١٠٩٧ م. ثم أقاموا مملكتهم في القدس في السنة التالية. وجدوا أنه لا بد لهم من الاستيلاء على طرابلس لتأمين الاتصال بين اماراتهم في الشمال واماراتهم ومملكتهم في الجنوب. وهكذا توجه ريموند كونت تولوز سانت جيل بجيشه وألقى الحصار على طرابلس سنة ٤٩٦ هـ = ١١٠٢ م. وقد ذكرت المصادر العربية قصة هذا الحصار - ودور بنو عمار - بما يلي: «أرسل فخر الملك بن عمار صاحب طرابلس إلى الأمير ياخز خليفة جناح الدولة على حمص، وإلى الملك دقاق بن تتش. يستنصر بهما على صنجيل الفرنجي. فخرج الأمير ياخز بنفسه، وسير دقاق ألفي مقاتل. وأتتهم الامداد من طرابلس، فاجتمعوا على باب طرابلس. وصافوا صنجيل هناك، فأخرج صنجيل مائة من عسكره إلى أهل طرابلس ومائة إلى عسكر دمشق وخمسين إلى عسكر حمص. وبقي هو في خمسين فأما عسكر حمص فانهم انكسروا عند المشاهدة - قبل الصدام - وولوا منهزمين. وتبعهم عسكر دمشق. وأما أهل طرابلس فإنهم قاتلوا المائة الذين قاتلوهم. فلما شاهد ذلك صنجيل حمل في المائتين الباقية، فكسروا أهل طرابلس، وقتلوا منهم سبعة آلاف رجل. ونازل صنجيل طرابلس وحصرها. وأتاه أهل الجبل فأعانوه على حصارها. وكذلك أهل السواد. وأكثرهم من النصارى. فقاتل من بها أشد قتال. فقتل من الفرنج ثلثمائة. ثم إنه هادنهم على مال وخيل. فرحل

عنهم إلى مدينة أنطرطوس - طرطوس - وهي من أعمال طرابلس، فحصرها، وفتحها وقتل من بها من المسلمين».

وفتح صنجيل أيضاً مدينة جبلة وهي من أعمال مدينة طرابلس، ثم عاد فأقام على طرابلس يحصرها، ولما لم يقدر على اقتحامها، فقد شيد بالقرب منها حصناً، وبنى تحته ربضاً، وأقام المراصد وهو ينتظر الفرصة المناسبة. فخرج صاحب طرابلس - القاضي فخر الملك أبو علي بن عمار - فأحرق ربضه. ووقف صنجيل على بعض سقوفه المحترقة ومعه جماعة من القمامصة والفرسان، فانخسف بهم، فمرض صنجيل من ذلك عشرة أيام ومات، وحمل إلى القدس فدفن بها. «ثم أن ملك الروم - البيزنطيين - أمر أصحابه باللاذقية وقبرص ليحملوا الميرة والمؤن إلى هؤلاء الفرنج الذين على طرابلس. فحملوها في البحر. فأخرج إليها فخر الملك ابن عمار اسطولاً، فجرى بينهم وبين الروم قتال شديد. فظفر المسلمون بمركب من مراكب الروم، فأخذوه وأسروا من كان به وعادوا. ولم تزل الحرب بين أهل طرابلس والفرنج خمس سنين، فعدمت الأقوات في طرابلس، وخاف أهلها على نفوسهم وأولادهم وحرمهم. فجلا الفقراء، وافتقر الأغنياء. وظهر من ابن عمار صبر عظيم وشجاعة ورأي سديد. فأجرى الجرايات على الجند والضعفاء. فلما قلت الأموال عنده، شرع يقسط على الناس ما يخرجه في باب الجهاد. وأخذ من رجلين من الأغنياء مالاً مع غيرهما. فخرج الرجلان إلى الفرنج، وقالا إن صاحبنا صادرنا، فخرجنا إليكم لنكون معكم. وذكرا أن الميرة تأتي الى طرابلس من عرقة والجبل. فجعل الفرنج جمعاً على ذلك الجانب يحفظه من دخول شيء إلى البلد. فأرسل ابن عمار وبذل للفرنج مالاً كثيراً ليسلموا الرجلين، فلم يفعلوا. فوضع عليهما من قتلهما غيلة. وكانت طرابلس من أعظم بلاد الإسلام. وأكثرها تجملاً وثروة. فباع أهلها من الحلي والأواني الغريبة ما لا حدّ له. حتى بيع كل مائة درهم نقرة بدينار. وصار الرطل من التمر يباع بدينار»[1]. وقرر صاحب طرابلس - القاضي فخر الملك أبو علي بن عمار - مجابهة هذا الموقف بالتوجه

---

(١) الكامل في التاريخ. (أحداث سنة ٤٩٥ هـ وسنة ٤٩٩ هـ وسنة ٥٠١ هـ) وتاريخ ابن خلدون (٤٠٣/٥ - ٤٠٤ و ٤٠٨ - ٤٠٩) وتاريخ الحروب الصليبية (٩٩/٢ - ١٠٦).

إلى عاصمة المسلمين ـ بغداد ـ لطلب الدعم والمعونة من الخليفة العباسي (المستظهر بالله)[1] ومن السلطان السلجوقي (محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان)[2] وقد أورد المؤرخ ابن الأثير قصة هذه الزيارة بما يلي: «قصد ابن عمار بغداد، مستنفراً على الفرنج، طالباً تسيير العساكر لازاحتهم، والذي حثّه على ذلك، أنه لما طال حصر الفرنج لمدينة طرابلس، وضاقت عليه الأقوات وقلت، واشتد الأمر عليه وعلى أهل البلد، فمن الله عليهم بميرة في البحر من جزيرة قبرص وأنطاكية وجزائر البنادقة، فاشتدت قلوبهم وقووا على حفظ البلد. فاستناب ابن عمه ذا المناقب، وأمره بالمقام بها، ورتّب معه الأجناد براً وبحراً، وأعطاهم جامكية ـ راتب ـ لمدة ستة أشهر سلفاً، وجعل على كل موضع من يقوم بحفظه، وبحيث أن نائبه ابن عمه ـ ذو المناقب ـ لا يحتاج إلى فعل شيء من ذلك».

ما إن غادر صاحب طرابلس مدينته في طريقه إلى بغداد، حتى علم أن ابن عمه الذي استخلفه على الحكم أثناء غيابه ـ ذو المناقب ـ قد اتصل بالفاطميين حكام مصر، وعرض عليهم تسليم مدينته، فكتب صاحب طرابلس ـ القاضي ابن عمار ـ إلى أصحابه وأمرهم بالقاء القبض عليه وحمله إلى حصن الخوابي، ففعلوا ما أمرهم. وتابع ابن عمار زيارته لبغداد، ثم عاد منها إلى دمشق، وفيها علم بأن جماعة من أهل طرابلس قد راسلوا الأفضل وزير الفاطميين، وأمير جيوشهم بمصر، وطلبوا منه تعيين أمير عليهم ـ والياً ـ فأرسل إليهم شرف الدولة بن أبي الطيب. فلما وصل هذا إلى طرابلس قبض على جماعة من أهل ابن عمار وأصحابه، واستولى على ما وجده من ذخائره وآلاته وغير ذلك، وحمل الجميع في البحر وأرسلهم الى مصر. وهكذا خرجت طرابلس من حكم بني عمار.

---

(١) الخليفة، أمير المؤمنين، المستظهر بالله، ولد سنة ٤٧٠ هـ، بويع بالخلافة سنة ٤٨٧ هـ وتوفي سنة ٥١٢ هـ. وهو أبو العباس أحمد بن المقتدي بأمر الله. اشتهر بالبر والإحسان، وبويع بالخلافة بعده ابنه المسترشد بالله.

(٢) السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان. ولد سنة ٤٧٤ هـ وتولى أمور السلطنة سنة ٤٩٢ هـ. وتوفي سنة ٥١١ هـ خاض في مدة سلطنته حروباً قاسية، كان أصعبها وأكثرها مشقة حربه ضد أخيه بركيارق. وقد استطاع السيطرة على الموقف والانفراد بالسلطة في النهاية. وخلفه ابنه محمود.

توفي ريموند كونت تولوز أمام أبواب طرابلس - كما سبق ذكره - وأدت وفاته الى ظهور خلاف مستحكم بين وريثيه (وليم جوردان) و(برتراند). ووقف ملك الروم البيزنطيين - الكسيوس - وأمير انطاكية تانكرد وأمير الرها جوسلين الى جانب وليم جوردان. كما وقف إلى جانب برتراند كل من الجنويين وملك القدس بلدوين. وتحرك الجميع بجيوشهم الى طرابلس لتسوية الخلاف على الارث. فجاء برتراند بجيشه، وجاء بلدوين من الجنوب بجيش ضم خمسمائة فارس وعدد كبير من الرجالة - المشاة -. كما رافق تانكرد سبعمائة من خيرة الفرسان، بالاضافة إلى قوات الرها. واجتمع كل امراء الفرنج وملوكهم خارج أسوار طرابلس في حزيران - يونيو - ١١٠٩م. وعقدوا مؤتمراً لهم في قلعة (جبل الحجيج - أو جبل الحاج). وتم الاتفاق على تقسيم إرث ريموند كونت تولوز. فتقرر أن يحتفظ وليم جوردان بطرطوس وحصن عرقة، وأن تكون جبيل وطرابلس - عند الاستيلاء عليها - من نصيب برتراند. ونهض جيش الفرنج الصليبيين بمجموعة للهجوم على طرابلس. وتعرض المسلمون في طرابلس لمعاناة لا توصف، لاسيما بعد أن شدد الفرنج حصارهم براً وبحراً. وقرر (شرف الدولة) تسليم المدينة للفرنج. وأرسل الى ملك القدس - بلدوين - وعرض عليه شروط التسليم، فطلب الأمان لكل من أراد أن يغادر المدينة من سكانها، بما يحمل من متاع. أما من أراد منهم البقاء، فيعتبر من رعايا الفرنج ويحتفظ بأملاكه على أن يؤدي ضريبة سنوية. وطلب لنفسه الاذن بالرحيل مع عساكره. ووافق بلدوين على هذه الشروط. ودخل الفرنج الى مدينة طرابلس، وشقوا طريقهم إلى داخل المدينة، وبعد أن تبين لهم خلوها من وسائل الدفاع، نكثوا عهدهم، وأخذوا ينهبون الدور ويحرقونها، ويقتلون كل من يصادفهم من المسلمين، وتم في غمرة هذه الفوضى احراق مكتبة بني عمار بكاملها، والتي كانت تعتبر من أروع مكتبات العالم في تلك الحقبة.

احتلت طرابلس وامارتها مكانة مميزة بين إمارات الفرنج، بسبب موقعها باعتبار أنها عقدة الاتصال بين الشمال وبين الجنوب، وبسبب ما توافر لها من موارد الثروة. وأصبحت من قواعد العدوان الثابتة ضد المسلمين. ومن ذلك على سبيل المثال ما حدث سنة ٥٢٨هـ = ١١٣٣م عندما خرج كونت طرابلس - بونز - للاغارة على

بلاد المسلمين، وبينما كان يجتاز جبال النصيرية ـ العلويين حالياً ـ وقع في كمين نصبه له فرسان التركمان، فهرب الى (قلعة بعرين)[1] الواقعة على حافة وادي نهر العاصي. فما كان من ملك القدس ـ فولك ـ وكان في طريقه لنجدة إمارة أنطاكية، إلا أن توجه الى قلعة بعرين، ورفع الحصار عن كونت طرابلس، وأنقذه من مأزقه.

ومقابل ذلك، كان العرب المسلمون يوجهون هجماتهم ضد قاعدة العدوان في طرابلس، كلما توافرت لهم الفرصة المناسبة، على نحو ما حدث ـ مثلاً ـ سنة ٥٣١ هـ = ١١٣٦ م عندما انطلق جيش دمشق عبر لبنان الى طرابلس. فهاجم جيش طرابلس وقتل ملكها ـ بونز ـ فما كان من وريثه (ابنه ريموند الثاني والذي تولى الحكم بعده) إلا أن جرَّد حملة انتقامية ضد المسلمين في القرى المجاورة لمدينة طرابلس، فقتل كل رجالها، وسبى النساء والأطفال فباعهم رقيقاً بطرابلس. ثم انضم بجيشه إلى جيش ملك القدس للهجوم على المسلمين، حيث وقعت معركة قاسية وحاسمة قرب قلعة بعرين، انتصر فيها المسلمون وقتلوا كونت طرابلس ـ ريموند الثاني ـ. أما ملك القدس ـ فولك ـ فقد هرب إلى قلعة بعرين، فأسرع جيش الرها وجيش القدس لانقاذ ملك القدس الملك فولك من الحصار الذي ضربه المسلمون على القلعة. ودارت مفاوضات وافق فيها فولك على تسليم القلعة للمسلمين مقابل إطلاق سراحه وسراح الفرنج الذين كانوا معه تحت الحصار.

قد يكون من غير المفيد الاطالة في البحث للاحاطة بمجموعة الأحداث التي عاشتها طرابلس تحت حكم الفرنج، وما تعرضت له من الزلازل الطبيعية ومن الصراعات الداخلية، ومن الحروب الخارجية، والمهم في الأمر هو أن هذه الأحداث جميعها لم تصرف حكام طرابلس المتتابعين عن العمل باستمرار لزيادة قوة تحصينات طرابلس ودعمها. فكان الحي السكني محمياً من جهة البحر بستة أبراج قوية. كما كان الميناء

---

(١) قلعة بعرين ـ هي القلعة المعروفة عند الفرنج باسم (MONTEFERRAND).

- رأس طرابلس - محمياً بكامله بسور متصالب، تدعمه أبراج وخنادق. ولم تكن كونتية - إمارة - طرابلس تعتمد على قوة دفاعها الذاتي قدر اعتمادها على القلاع والحصون المجاورة لها - والتي كانت بمثابة درع الوقاية مثل جبلة وبانياس وطرطوس. وعندما تحول المسلمون من الدفاع إلى الهجوم، وأخذوا في القضاء على وجود الفرنج وتصفية قواعدهم ومرتكزاتهم، عملوا بصورة معاكسة تماماً، ولهذا لم يتعرضوا لمدينة طرابلس مباشرة. وإنما بدؤوا بتجريدها من القلاع والحصون المجاورة لها. ففي سنة ٦٦٥ هـ = ١٣٦٦ م. وبينما كان الظاهر بيبرس يعمل على طرد بقايا الفرنج من الجليل في فلسطين. عمل الأمير قلاوون على حشد جيش كبير من المماليك في حمص. وانطلق به في هجوم عاصف على اتجاه طرابلس. ففتح حصني القليعة وحالبة ومدينة عرقة التي كانت تتحكم بالطريق القادم من البقيعة الى طرابلس ثم قاد الظاهر بيبرس بنفسه جيشاً ضخماً من المسلمين ففتح قلعة الشقيف في ١٥ نيسان - ابريل - ١٢٦٨ م (٦٦٧ هـ). ثم تابع الظاهر بيبرس[2] تقدمه شمالاً، فوصل طرابلس، ولكنه تجنب الاصطدام بها، وسار حتى وصل انطاكية، ففتحها بعد حصار طويل ومعارك ضارية. وتابع السلطان قلاوون[3] السير على نهج سلفه الظاهر بيبرس، ففتح حصن المرقب سنة ٦٨٤ هـ = ١٢٨٥ م. وفتح اللاذقية سنة ٦٨٦ هـ، وجاء دور طرابلس سنة ٦٨٨ هـ. حيث قاد السلطان قلاوون جيش مصر بكامله، ليظهر بصورة مباغتة وغير

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ٣/٥٥٢.

(٢) الظاهر بيبرس. هو الملك الظاهر ركن الدين (١٢٢٣ - ١٢٧٧ م) اشتهر بأنه من أقدر سلاطين المماليك البحرية في مصر. خدم في جيش الملك الصالح نجم الدين الأيوبي وتوران شاه. وبرز اسمه في معركة البحرية - المنصورة - سنة ١٢٥٨ م. حيث هزم الفرنج هزيمة منكرة، كما برز اسمه في معركة عين جالوت ضد المغول (سنة ١٢٦٠ م) وأمضى بقية حياته مجاهداً في سبيل الله ضد الفرنج في بلاد الشام (١٢٦٥ - ١٢٧٧ م) ففتح كثيراً من البلاد التي كانت تحت حكمهم. ومات ودفن بالظاهرية في دمشق.

(٣) السلطان قلاوون - الملك المنصور (١٢٢٣ - ١٢٩٠ م) مؤسس اسرة قلاوون في مصر اشتهر بكفاءته القيادية العليا، وإيمانه واخلاصه وشجاعته. انتصر على المغول. وهزم ملك النوبه. وخلفه في الحكم ابنه (الأشرف خليل).

متوقعة أمام أسوار طرابلس. وأسرع الفرنج لارسال الامدادات والدعم من قبرص وعكا. كما أرسلت الطوائف الدينية (الداوية والاسبتارية) أفضل قواتها. وجاءت سفن للبنادقة وبيزا وجنوة لتقديم الدعم البحري. وعلى الرغم من أنه صار للفرنج السيطرة على البحر، فان ما كان للمسلمين من التفوق في عدد افراد الجيش وفي توافر أدوات الحصار، قد برهن على أنه لا سبيل لمقاومتهم. فلما انهار برج الأسقف الواقع في الركن الجنوبي الشرقي للأسوار البرية، وبرج الاسبتارية الواقع بين برج الأسقف والبحر، بعد أن تعرضا للقصف الشديد، قرر البنادقة أنه من المحال المضي في الدفاع. فبادروا الى شحن سفنهم بكل أمتعتهم، ثم أقلعوا إلى خارج الميناء. ولحق بهم الجنويون على عجل، مما أثار الفوضى خلال تدفق المسلمين الى المدينة، حيث تمت إبادة المقاومات فيها. وعندما تم احتلال طرابلس، أمر السلطان قلاوون بتدمير المدينة ومساواتها بالأرض حتى لا يحاول الفرنج الاستيلاء عليها من جديد بقواتهم البحرية. وأصدر الأوامر بوضع أساس مدينة جديدة في سفح تـل الحاج (أو الحجيج) وعلى مسافة أميال إلى الداخل. ومضى جند المسلمين ـ المماليك ـ ففتحوا البترون ونيفين. وبذلك لم يبق في قبضة الفرنج من مدن الساحل إلا عكا وجبيل. ولهذا فقد تسبب فتح المسلمين لطرابلس بصدمة قوية لحامية عكا وللفرنج المقيمين فيها، إذ تبين لهم بوضوح المصير الذي ينتظرهم، وأن مصيرهم وبقاءهم على أرض بلاد الشام لم يعد أكثر من قضية وقت. وانزعج ملوك الغرب أيضاً لما حل بطرابلس من مصير، غير أنهم كانوا في حالة عجز تام عن القيام بعمل عسكري جديد. لقد استنزفت الحملات الصليبية المتتالية قدرة الغرب العسكرية، بمثل ما استنزفت قدرة المسلمين، لكن هؤلاء بقوا أكثر تصميماً على الوصول بالحرب الى نهايتها الظافرة، فحطموا أحلام المحرضين على الحروب الصليبية ومستثمريها، وماتت حماستهم للحرب ـ ولو بصورة مؤقتة ـ.

أسند السلطان قلاوون ـ وابنه الأشرف خليل من بعده ـ مهمة اعادة بناء طرابلس الى الأمير العربي ـ سيف الدين أسد مركوجي، المنصوري ـ الذي عمل على بناء طرابلس الجديدة. واستمر في العمل حتى سنة ٧٠٩ هـ = ١٣٠٩ م. وأجمع التجار الذين يجوبون البلاد أنه ما عمر مثلها في بلد من البلدان. وعادت الى طرابلس بهجتها

وطهرها، وعمر قيسارية كما شيد بعض القلعة، وأقام أبراجاً، فازدهرت طرابلس ورجعت قاعدة قوية للاسلام وأهله. وحفظت أطلال المدينة للمجاهدين ذكراهم الطيبة فاذا كان بنو عمار قد بذلوا أكثر مما هو مستطاع. فقد جاء قلاوون لينتقم للسلف من بني عمار، ولمن سار على دربهم من المجاهدين في سبيل الله.

١٨ - قلعة طرطوس.

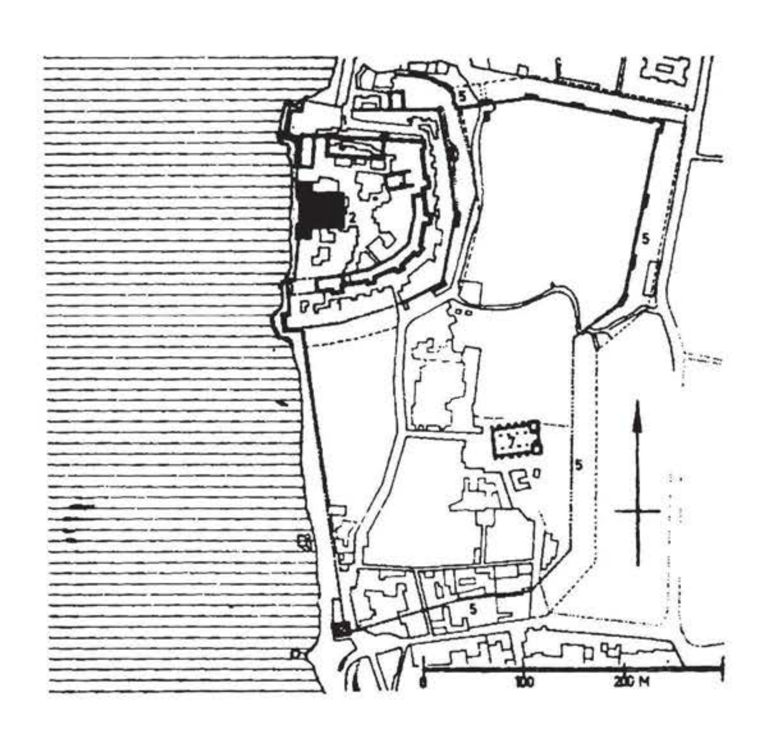
طرطوس[١] (أنطرطوس. قديماً) هي مدينة وميناء بحري ومحطة للقوافل. شغلت موقع مستوطنة كبيرة وقديمة على ساحل بلاد الشام. وكان للمدينة الصغيرة سور يحيط بها، تحرسه أسوار، مع قلعة قوية في الزاوية الشمالية الغربية. وثمة خنادق وأسوار خارجية تحيط بالسور الداخلي مدعمة بأبراج مستطيلة. وتتاخم - القاعة الكبيرة - القسم الداخلي من جهة الشمال. وتنتشر حول الجوانب الأخرى أحياء سكنية بسيطة مع حوانيت على شكل ممرات متطاولة ذات عقود. وإلى جوار البحر مباشرة ينتصب برج محصن قوي - لا تزال موجودة بعض الآثار من أساساته وقواعده. وتوجد في الحي السكني كنيسة (القديسة ماريا - كما يسمونها)★ والتي رممت حديثاً، وكانت من قبل كاتدرائية وكنيسة هامة عندما احتل الفرنج الصليبيون مدينة طرطوس وأقاموا فيها. ولا بد من التمييز بين طرطوس هذه، وبين طرطوس الأخرى التي حملت الاسم ذاته وهي تقع في قيليقية والتي بقيت ثغراً من ثغور العرب المسلمين مع المصيصة وأذنة ومرسين (في تركيا حالياً). وكان لها دورها أيضاً في الحروب الصليبية القديمة، مما خلق التشابه لا في الاسم فقط، وإنما في الدور التاريخي أيضاً، وقد وصف أبو الفداء أنطرطوس. بقوله: «أنطرطوس هو حصن على بحر الشام. وهو ثغر لأهل حمص. وكان به مصحف عثمان رضي الله عنه. قال في اللباب: هي بفتح الهمزة وسكون النون وفتح الطاء وسكون الراء وضم الطاء الثانية ثم واو وفي آخرها سين. فتحها العرب المسلمون. وخربوا أسوارها. وهي آهلة»[٢]. والمعروف أن معاوية بن أبي سفيان رضي

---

(١) طرطوس: (TARTUS) وبالفرنجية تورتوزا: (TORTOSA) أو تورتوس: (TORTOUSE) نسبة الى اسمها القديم، انطرطوس ANTARSUS وأنتاردوس: (ANTARDUS).

★ كنيسة القديسة ماريا: (CHURCH OF ST. MARY).

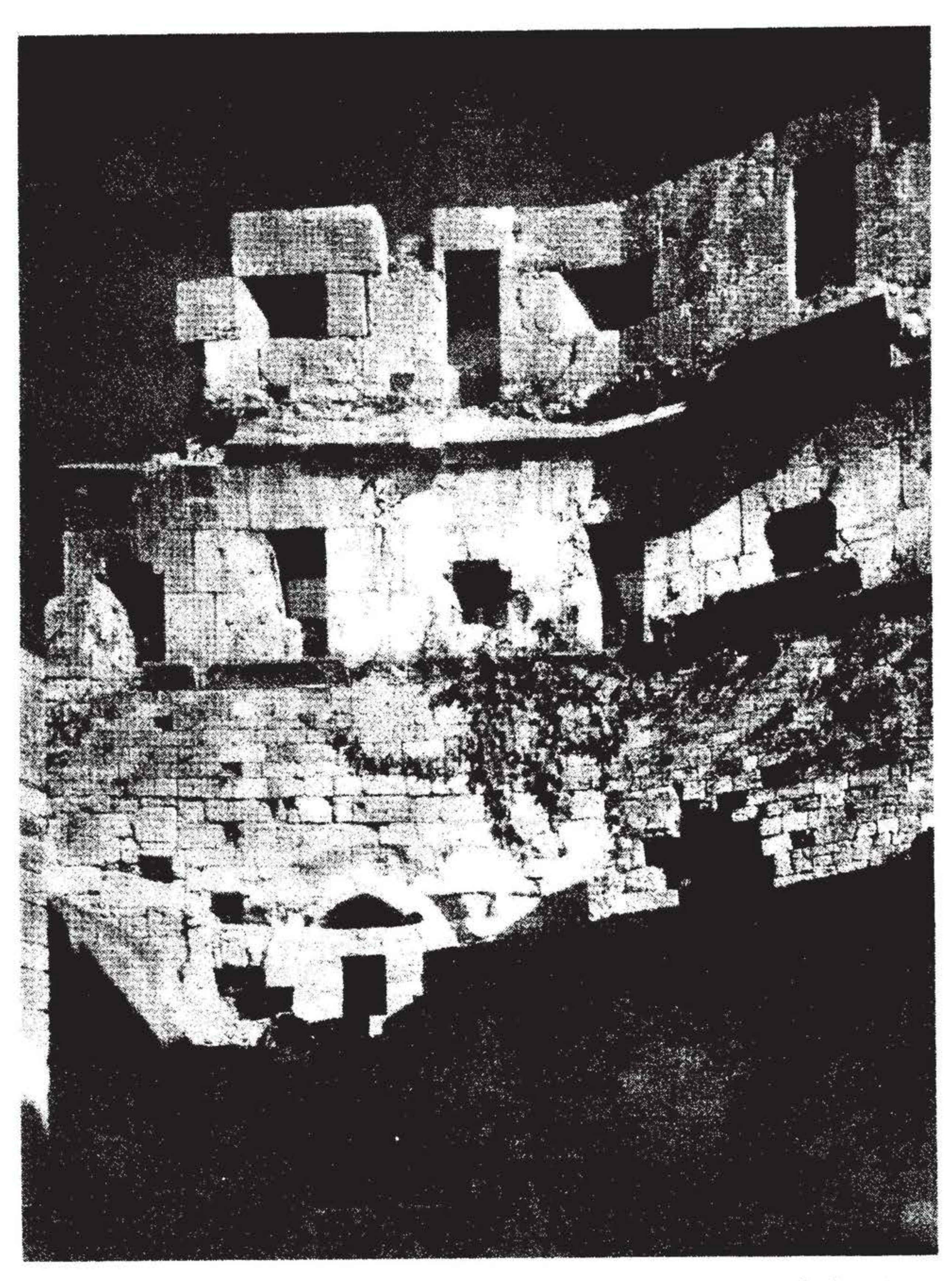
(٢) القلاع أيام الحروب الصليبية، ص: ٦١ - ٦٢.



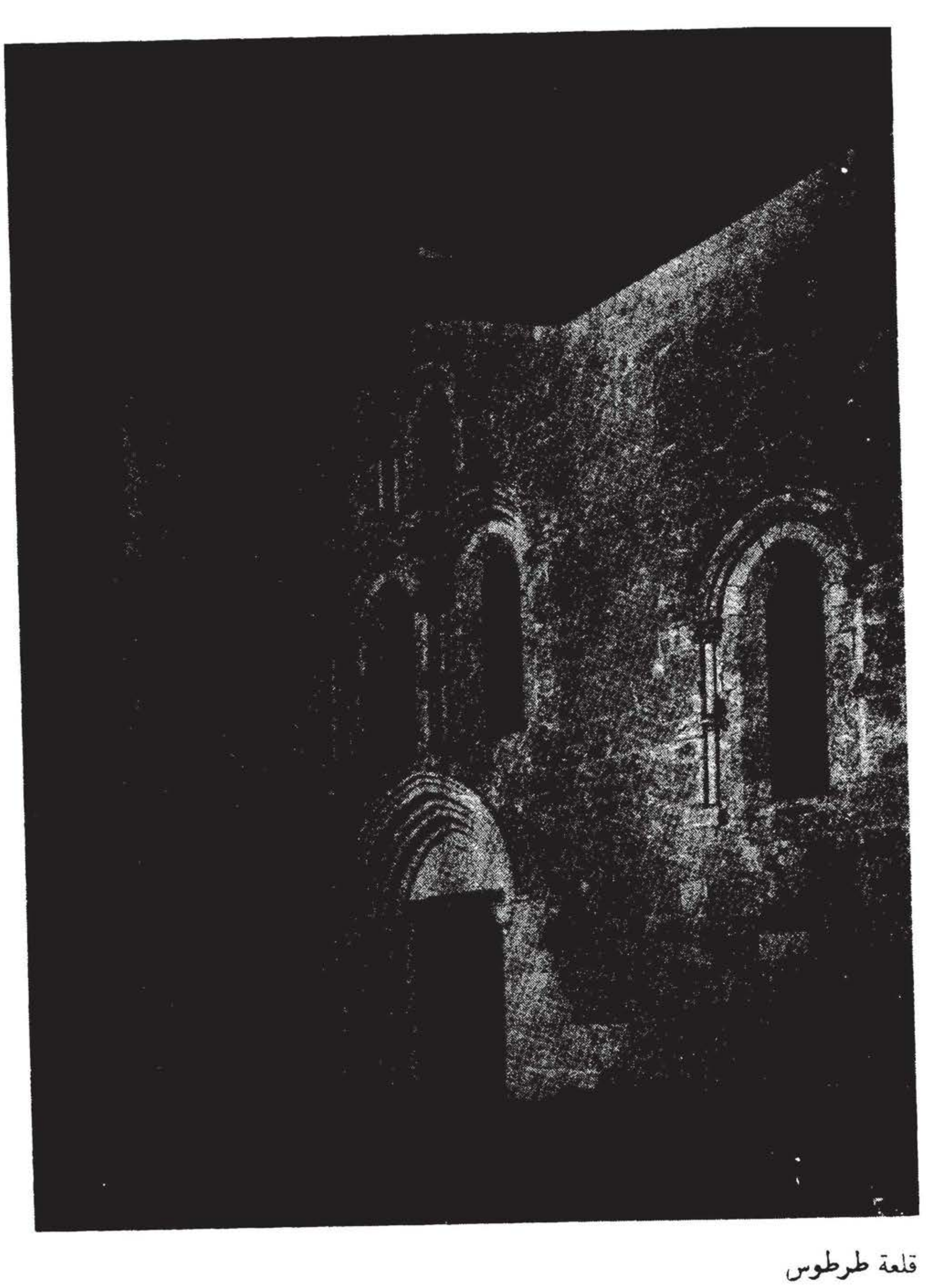
طرطوس Tartus

مخطط المدينة، المقياس ١/١٠٠٠٠ (الخطوط المنقطة تمثل مقاطع السور التي لم تعد موجودة).

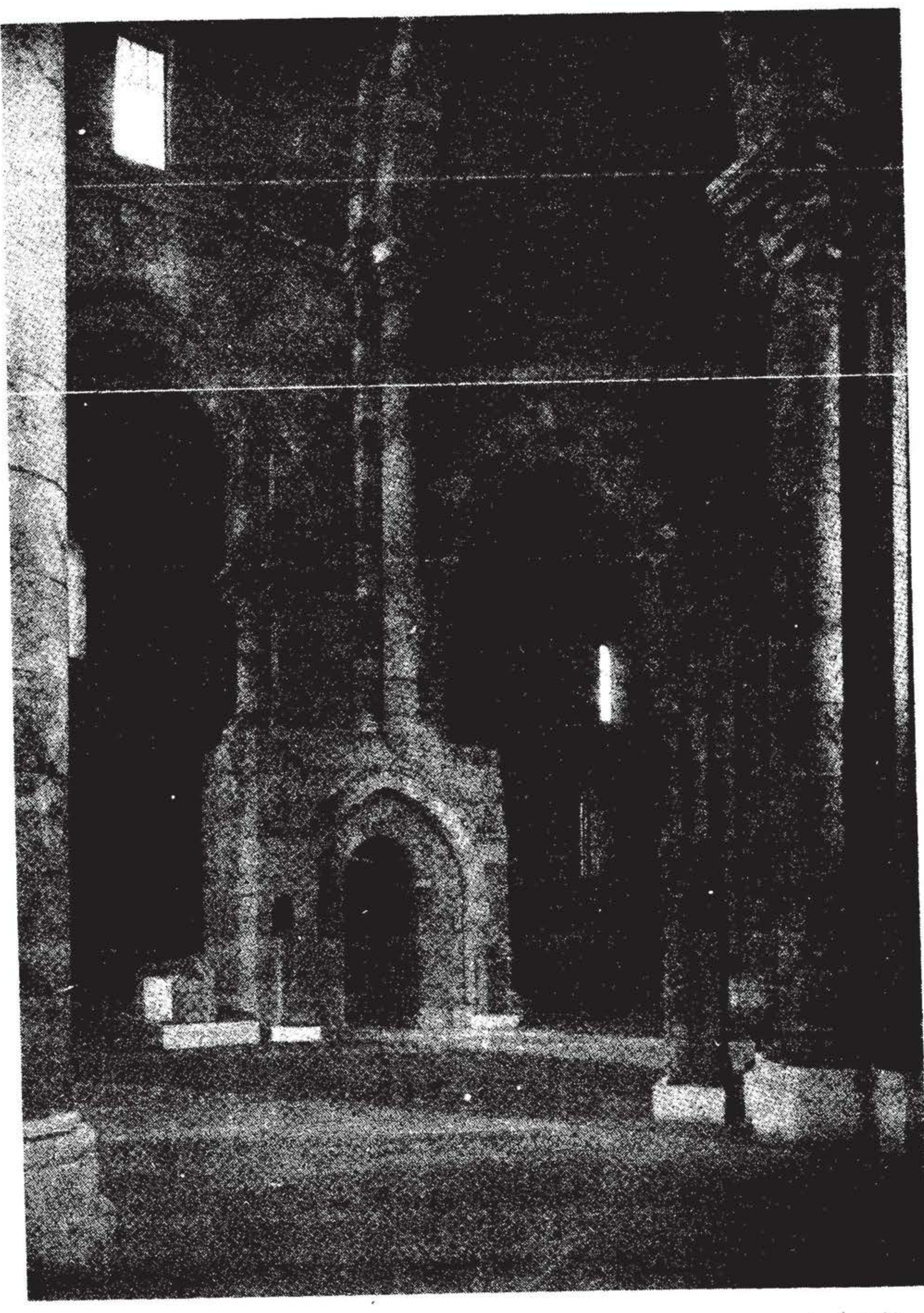
١ - فناء أمامي لقلعة الداوية، ٢ - برج محصن، ٣ - كنيسة متصدعة، ٤ - القاعة الكبرى Chapter house ، ٥ - سور المدينة (مخرب جزئياً)، ٦ - بوابة المدينة، ٧ - كاتدرائية القديسة ماريا.



قلعة طرطوس



قلعة طرطوس



قلعة طرطوس

الله عنه قد جعل من طرطوس ثغراً بحرياً، وداراً لبناء السفن، وجلب إليها العمال، فاعتزت وازدهرت، واستمرت في ممارسة دورها في رفع راية الجهاد في سبيل الله. فكان لها شأن كبير أيام حرب الثغور. وتعرضت لحقد الروم، ولكنها صمدت في مواجهة التحديات. حتى إذا ما أقبل القرن الرابع للهجرة، ومزقت الصراعات المذهبية المجتمع الإسلامي شرّ تمزيق. وجدت طرطوس أنه ليس باستطاعتها، هي أو سواها من مدن بلاد الشام، الساحلية منها والداخلية على السواء. عزل نفسها عن ذلك الصراع، والدامي أحياناً، بين دار الخلافة ببغداد، حيث الطاعة والجماعة والامامة لأهل السنة، وبين الفاطمية في القاهرة حيث التشيع وما تفرع عنه من المذاهب الباطنية (الاسماعيلية والدرزية).

وكان من طبيعة الأمور أن يرافق هذا الصراع ظهور حركات التمرد وأعمال الانشقاق والعصيان في إطار الولاء لهذا المعسكر أو ذاك مع وجود التحريض والتحريض المضاد، والذي يغذي النزعات الاستقلالية لامراء المدن وجيوشها كلما حانت الفرصة المناسبة. وقد عرفت طرطوس مثل هذه الأعمال عندما فرض عليها الفاطميون حكمهم، فأعلنت ثورتها المرة بعد المرة، مما حمل حاكم مصر الفاطمي - المستعلي بأمر الله - على ارسال اسطوله وجيشه سنة ٤٨٦ هـ = ١٠٩٣ م وسنة ٤٩٠ هـ = ١٠٩٦ م. من أجل اخضاع طرطوس الثائرة. وقد يكون من الصعب تقدير مدى الضعف الذي نزل بجيوش المدن وأهلها نتيجة لهذا الصراع الطائفي - المذهبي - على أن الأمر الثابت هو أن الغزاة من الفرنج الصليبيين قد استثمروا هذا الواقع، وأفادوا منه حتى أبعد الحدود. مما ساعدهم على احتلال انطاكية ومعرة النعمان (سنة ٤٩١ هـ = ١٠٩٧ م) ثم القدس وقيسارية (سنة ٤٩٤ هـ = ١١٠٠ م) وأصبحت للفرنج السيطرة على فلسطين كلها - باستثناء عسقلان - مع اللاذقية. وبقيت طرطوس - مع طرابلس - صامدة في وجه غزو الفرنج. وقد تساقطت من حولها المدن الساحلية والداخلية، مع ما يتبعها من حصون وقلاع، وما يحيط بها من سهول وجبال.

كان (ريموند كونت تولوز) هو أغنى أمراء الحملة الصليبية الأولى. فلما استقر في

أنطاكية شرع في التفكير بإقامة إمارة تتحكم في الطريق الساحلي وطريق نهر العاصي. على أن تكون مدينة حمص هي عاصمة هذه الإمارة. وجعل هدفه الأول الاستيلاء على بقية المدن الساحلية، بالافادة من دعم أسطول جنوه الذي كان قد وصل إلى سواحل بلاد الشام. وتحرك ريموند من أنطاكية، حتى إذا ما وصل إلى مدينة اللاذقية، انضمت إليه القوات، فسار بها إلى طرطوس. ولما بلغ أسوار المدينة، كان اسطول جنوه قد وقف في عرض البحر تجاه الساحل. ووجد حاكم طرطوس أنه لا قبل له بمواجهة هذا الحصار البري والبحري. غير أنه بذل من المقاومة قدر استطاعته. ونجح لفرنج في اقتحام المدينة (في منتصف شهر شباط - فبراير - سنة ١١٠٢ م) وقتلوا على جري عادتهم كل من كان بها من المسلمين. وقرر ريموند أن يجعل من طرطوس عاصمة له ولامارته.

وكان سقوط أنطرطوس - طـرطـوس - في قبضة الفرنج هو البداية لانهيار بقية المقاومات في المدن الساحلية، إذ لم تلبث طرابلس وبيروت حتى لحقتا بطرطوس (سنة ٥٠٣ هـ = ١١٠٩ م) وتبعتهما صيدا وصور في السنتين التاليتين. وأصبحت مدن ساحل بلاد الشام تحت قبضة الفرنج الصليبيين. وكما كانت طرطوس نموذجاً للعناد في القتال، أيام المسلمين، فقد عمل الفرنج، بمجرد استيلائهم عليها، على تحويلها وجعلها قاعدة للعـدوان على بلاد المسلمين. فعمل (ريموند كونت تولوز) على تنظيم قواته في طرطوس، وانطلق بها لمهاجمة طرابلس. وقد أدرك المسلمون خطورة ما أراد تحقيقه ريموند، فسارع أمير حمص وأمير دمشق إلى ارسال بعض قواتها لقتال ريموند، وانضم جيش طرابلس اليهما، غير أن الانتصار الذي أحرزه ريموند وما نتج عن ذلك من مغانم مادية. قد ضمن لريموند القدرة على متابعة تنفيذ مخططه التوسعي. فخرج في ربيع السنة التالية (٤٩٧ هـ = ١١٠٣ م) للاستيلاء على قلعتي الطوبان والحصن بهدف عزل طرابلس والوصول الى حمص. غير أن هذه المحاولة باءت بالفشل. فأعاد ريموند محاولته واستولى على جبلة، وعاد لحصار طرابلس وهناك لقي مصرعه (٤٩٩ هـ = ١١٠٥ م) غير أنه حقق للفرنج كسباً كبيراً، إذ أقام لهم إمارة صليبية، وحدد لهم

النهج الذي يسيرون عليه. وجعل من طرطوس ثغراً للفرنج، وقاعدة للعدوان والتوسع على حساب بلاد المسلمين[1].

استأثرت الأعمال العدوانية للفرنج باهتمام قادة المسلمين، الذين حاولوا الرد عليها بشكل مناسب. حتى إذا ما جاء نور الدين زنكي، تولى قيادة جيشه وهاجم طرطوس (سنة ٥٤٧ هـ = ١١٥٢ م) وأمكن له فتحها وطرد الفرنج منها. فأسرع ملك الفرنج - بلدوين الثالث - لقيادة جيشه، واستطاع احتلال طرطوس من جديد (سنة ٥٥٣ هـ = ١١٥٨ م) ومنحها الى فرسان الداوية الذين جعلوا منها مقراً لقيادتهم، وقاعدة لأعمالهم العدوانية. وكان استيلاء نور الدين على طرطوس، ثم تحرك الفرنج بسرعة لاستعادة السيطرة عليها، بمثابة برهان على ما كانت تمثله طرطوس من الأهمية في مشاريع الفرنج ومخططاتهم. ولم يكن تسليمها لطائفة الفرسان الداوية - المتطرفين - إلا تأكيداً على تصميم الفرنج للتمسك بهذه القاعدة بقوة في وسط (ممتلكاتهم) كما كانوا يزعمون.

انصرف الفرسان الداوية لاستثمار موقع المدينة فعملوا على إعادة بناء المرفأ - الميناء - وأقاموا التحصينات الكاملة، ودعموا الدفاع، وتابعوا بناء الكنيسة التي كان الفرنج قد شرعوا باقامتها منذ سنة ١١٢٣ م (وأطلقوا عليها اسم كنيسة القديسة ماريا) وظنت طائفة الفرسان الداوية أنها أصبحت بمأمن من ويلات الحرب وهي متحصنة وراء أسوارها ومواقعها الدفاعية. غير أن المسلمين أفادوا من نتائج موقعة حطين لتطوير أعمالهم الهجومية. وسار صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٤ هـ = ١١٨٨ م. نحو الشمال: «فنزل بأنطرطوس، في السادس من جمادى الأولى، فرأى أن الفرنج قد أخلوا المدينة، واحتموا في برجين حصينين كل واحد منهما قلعة حصينة ومعقل منيع، فحصرهما صلاح الدين، فنزل إليه من في أحد البرجين بأمان، وسلموه بأمنهم. وضرب البرج، وألقى حجارته في البحر. وبقي الذي فيه الداوية لم يسلموه. و كان

---

(١) الكامل في التاريخ: احداث سنوات: ٤٨٦ و ٤٩٠ و ٤٩٩ و ٥٤٧ و ٥٥٣ و ٥٨٤ وتاريخ الحروب الصليبية: ٩٥/٢ - ١٠١.

معهم مقدمهم الذي أسره صلاح الدين يوم حطين. ثم أطلقه ملك القدس، فهو الذي حفظ هذا الحصن. فخرب صلاح الدين ولاية أنطرطوس. ورحل عنها». وما إن ابتعد صلاح الدين وجيشه حتى أسرع الداوية لترميم حصونهم وإصلاح قلاعهم، وعاودوا أعمالهم العدوانية. وفرضوا هيمنتهم على الريف المحيط بهم. كما فرضوا على طائفة الاسماعيلية - الباطنية أو الحشاشين - إتاوة ضخمة يؤدونها لهم سنوياً. وضاق الاسماعيلية ذرعاً بهذه الاتاوة، فدفعوا أحد رجالهم لاغتيال الكونت ريموند - أكبر أبناء أمير انطاكية بوهمند وذلك سنة ٦١٠ هـ = ١٢١٣ م. فلقي ريموند مصرعه في كاتدرائية طرطوس.

ولما كان الفرنج في أنطاكية وطرابلس قد أدركوا أن بقاءهم في بلاد الشام يرتبط بقدرتهم على التعايش مع المسلمين، فقد أخذوا في إقامة علاقات معهم بموجب هدنة يعقدونها لمدة طويلة (عشر سنوات). إلا أن المتطرفين من الفرنج، وفي طليعتهم طائفة فرسان الداوية، كانوا يثيرون المتاعب في وجه حكامهم ويدفعونهم للابقاء على جذوة العداء متقدة ضد المسلمين - على نحو ما حدث مثلاً سنة ٦٢٨ هـ = ١٢٣٠ م عندما انطلق فرسان الداوية من طرطوس، ومعهم طائفة فرسان الاسبتارية، فأغاروا على حماه، إلا أن المسلمين نصبوا كميناً للفرنج، وألحقوا بهم هزيمة ساحقة. ثم قام بوهمند الرابع أمير أنطاكية بهجمات على الداوية بطرطوس - ما بين حين وآخر - لكبح جماح تطرفهم، وحملهم على الالتزام بشروط الهدنة مع المسلمين، فتجددت الهدنة حتى سنة ٦٣٥ هـ = ١٢٣٧ م. حيث قام الداوية مجدداً بانتهاك شروط الهدنة عندما انقضوا على قبائل التركمان التي كانت ترتع آمنة إلى الشرق من بحيرة أنطاكية، مما دفع جيش حلب لمهاجمتهم، فتدخل أمير أنطاكية مرة أخرى وتجددت الهدنة. وأدرك الداوية أخيراً أنه لا قبل لهم بالتصدي لغضب المسلمين، ومجابهة هجماتهم، فاستكانوا. وعندما قام السلطان الظاهر بيبرس بشن هجماته الواسعة لطرد بقايا الفرنج من بلاد الشام، وأعاد فتح صيدا، ووصل في تقدمه الى شمال طرابلس (سنة ٦٦٧ هـ = ١٢٦٨ م) أسرع الداوية في طرطوس، فأعلنوا خضوعهم، والتمسوا من السلطان أن يبقي لهم بلادهم وتوسلوا إليه، فتركهم إلى حين، ومضى عنهم الى أنطاكية حيث أعاد فتحها.

أصبحت طرطوس هي القاعدة الأخيرة لتجمع بقايا الفرنج ـ وبصورة خاصة منهم فرسان الداوية ـ. فعندما أعاد الظاهر بيبرس فتح صافيتا (القلعة البيضاء) سنة ٦٧٠ هـ = ١٢٧١ م. سمح لمن بقي من فرسان الداوية بعد انتهاء القتال باللجوء إلى طرطوس. وأدرك مقدم الداوية (توماس بيرارد) أن مستقبل ما بقي للداوية من ممتلكات في طرطوس بات غامضاً ومحفوفاً بالمخاطر، فأخذ في البحث عن مكان أكثر أمناً، وتوجه ببصره نحو قبرص. وضاقت الأرض ـ أرض الشام ـ على رحبها ببقايا الفرنج. فعندما استولى السلطان قلاوون على حصن المرقب سنة ١٢٨٥ م خرج خمس وعشرون رجلاً لا أكثر ومعهم كل أمتعتهم، ولجؤوا إلى طرطوس. وعندما أعاد الأشرف خليل ـ ابن السلطان قلاوون ـ على عكا سنة ١٢٩١ م انسحب الداوية الى طرطوس، وتبعهم الفرنج من بقية مدن الساحل. وما لبث فرسان الداوية أن غادروا طرطوس الى جزيرة أرواد القريبة من الساحل ـ ولم ينسوا أن يحملوا معهم صورة العذراء مريم التي انتزعوها من الكنيسة. وظن الداوية أن باستطاعتهم البقاء في هذه الجزيرة المنعزلة، غير أن المسلمين تقدموا الى جزيرة أرواد، وطردوا منها الداوية بقيادة السلطان المملوكي الناصر محمد. وعاد الفرنج للهجوم على طرطوس في مرات متباعدة، منطلقين في هجومهم من جزيرة قبرص. غير أن الفشل كان من نصيب هذه الهجمات. وبقيت طرطوس ومعها أرواد قاعدة ثابتة من قواعد الإسلام وأهله.

١٩ ـ قلعة عكا.

تقول أوابد العرب المسلمين التاريخية بأن أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، هو أول من عرف أهمية عكا بعد الفتح: «ولقد كان اهتمام معاوية بركوب البحر، قد دفعه لاستنفار العمال، ومن لهم خبرات في صناعة السفن، وحشرهم في عكا. ورمم الحصن والمرفأ. وجعله داراً لصناعة السفن وتجهيز الاسطول العربي واعداده. وقد كانت الصناعة بساحل الاردن على عهد معاوية في مدينة عكا. كما كانت السفن تبني في أيام معاوية في سواحل الشام. صور وعكا وطرابلس»[١] وهكذا شهدت عكا ولادة أول أسطول للعرب المسلمين. وعاشت أحداث الفتوح البحرية الاسلامية المثيرة. ولقد أقام العرب المسلمون بعد ذلك دوراً لصناعة السفن على سواحل البحر الأبيض المتوسط، مثل جزيرة الروضة في مصر وفي تؤنس وفي الأندلس. غير أن عكا لم تفقد أهميتها. وبقيت ثغراً رئيساً من ثغور العرب المسلمين. وقد وصف مؤرخ حماه ـ أبو الفداء ـ مدينة (عكا)[٢] بقوله: «عكا هي مدينة كبيرة من سواحل الشام. وداخلها عين تعرف باسم عين البقر، وبها مسجد ينسب إلى صالح عليه السلام. ومن كتاب المسالك: وبين عكا وبين طبرية أربعة وعشرون ميلاً. ومنها إلى مدينة صور اثنا عشر ميلاً. وقد حل بها الخراب بعدما استرجعها المسلمون من أيدي الفرنج سنة تسعين وستمائة»[٣]. ويصلح ميناء عكا لرسو السفن في كل الفصول.

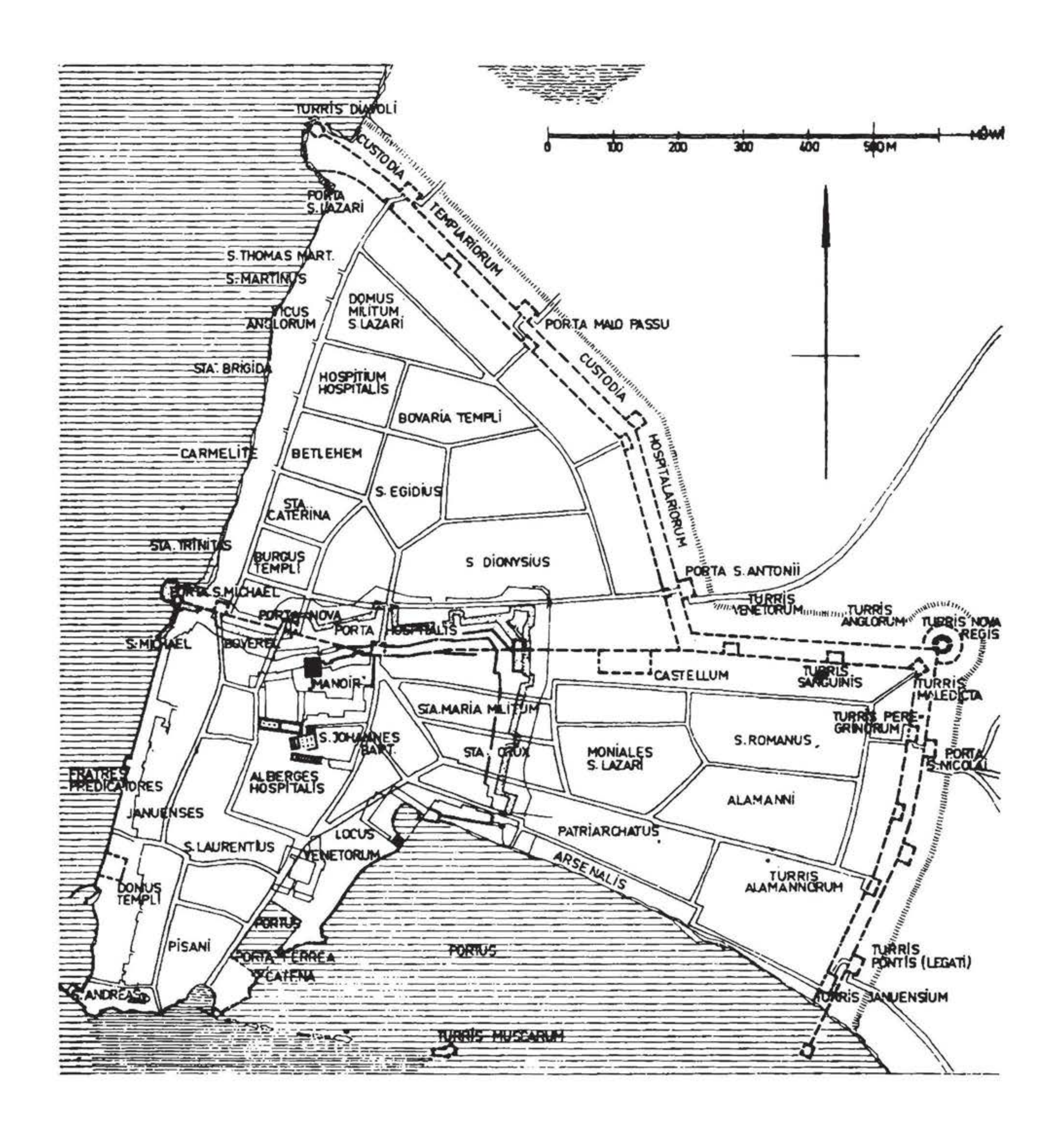
وتبعد عكا عن القدس مسافة تزيد على مائة ميل، وهذا الميناء هو الميناء الرئيسي

---

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص: ١٢٤.

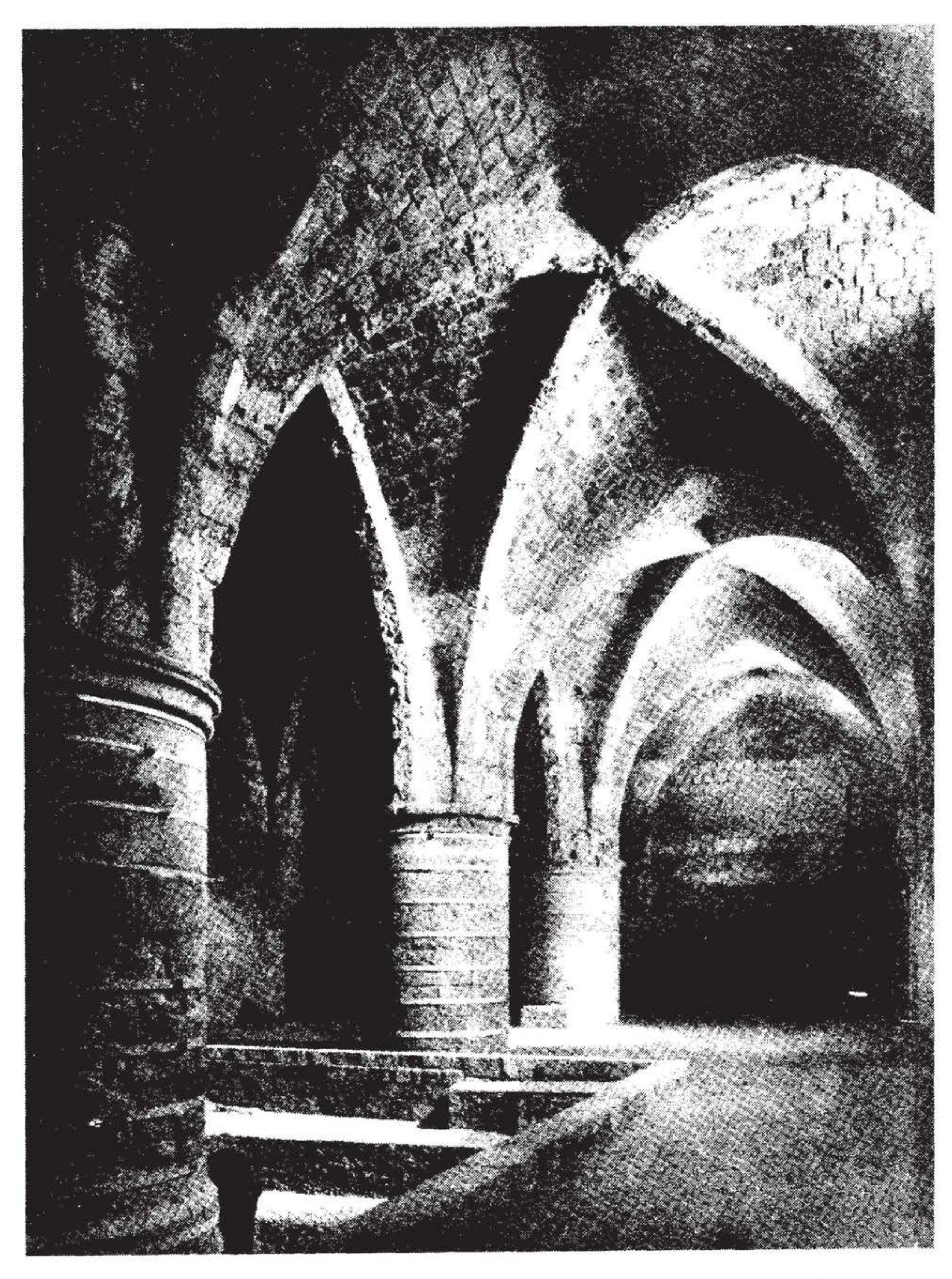
(٢) عكا: (ACRE-AKKON) وباليونانية بتولومايس (PTOLEMAIS) وبالفرنجية: (SAINT-JEAN D'ACRE) وآكري: (ACRI).

(٣) القلاع أيام الحروب الصليبية ص: ٩٤ ـ ٩٦.



عكا Acre

مخطط المدينة يشمل محاولة لإعادة تركيب الأسوار القديمة، المقياس ١/١٠٠٠٠، بالاستناد إلى مخطط المدينة الحالي (أشير إلى التحصينات الجديدة بخطوط متقطعة) ولكنه يبين الأحياء التي أشير إليها في الخرائط القديمة للقرون ١٤ ـ ١٨ مع أسمائها اللاتينية «الأصلية!!». استند تمديد الشوارع على الخرائط المذكورة جزئياً وإلى الآثار المتبقية التي ما تزال قابلة للتمييز في المدينة الحديثة. إن المباني القائمة أو التي جرى التنقيب عنها مؤخراً مرسومة باللون الأسود (أي بقايا حي الأسبتارية والبرج المسمى برج السلطان والذي ما يزال قائماً بجانب المرفأ).



قلعة عكا



لفلسطين. وقد بقي كذلك طويلاً، لأن ميناء يافا لم يكن عميقاً إلى درجة كافية لرسو السفن الضخمة. كما كان ميناء حيفا أكثر عمقاً. وكانت حافة جبل الكرمل تحميه من الرياح الجنوبية الغربية، إلا أنه كان معرضاً لأعاصير الرياح الشمالية. وبقي ميناء عكا هو الوحيد المحمي من الرياح الهوجاء، وله العمق الكافي لرسو السفن الضخمة. ولهذا حرص الفرنج الصليبيون على امتلاك عكا والسيطرة على مينائها منذ وصولهم الى فلسطين. لتأمين أغراضهم التجارية ومتطلباتهم العسكرية. ورغم أن عكا بقيت هي المرفأ الرئيسي للفرنج طوال أيام الحروب الصليبية القديمة، فانها لم تحتفظ إلا بالقليل من آثارهم. ولعل كل ما بقي من آثار تذكر بذلك الاحتلال الذي استطال لمدة قرنين - تقريباً - من عمر الزمن، لا يتجاوز بعض العقود لكنيسة من الكنس، أو بقية قصر، أو برج واحد من مجموعة الأبراج التي شكلت جزءاً من الدفاعات عن المدينة. ولقد كانت عكا هي أول مدن الساحل التي استعمرها الفرنج، ثم كانت آخر مدينة من المدن التي أعاد المسلمون فتحها. فتلخص بها تاريخ الفرنج الصليبيين الذي بدأ على أرض الشام سنة ٤٩٣ هـ = ١٠٩٩ م. حيث هاجم الفرنج عكا، غير أنهم فشلوا في اخضاع المدينة. فلما كان ربيع سنة ٤٩٦ هـ = ١١٠٢ م. قام ملك القدس بلدوين بفرض الحصار على عكا. وساعده في ذلك ما كان تحت تصرفه من السفن الانكليزية. وكادت الحامية تستسلم لولا أن أقلع من صور وصيدا اسطول من اثنتي عشرة سفينة ضخمة تابعة للاسطول المصري - الفاطمي -. وأسرع هذا الاسطول لنجدة حامية عكا ومعه القوات وآلات قذف النار الاغريقية - الحراقات والعرادات - مما أرغم الفرنج على الانسحاب.

ولكن حدث في السنة التالية (٤٩٧ هـ = ١١٠٣ م) أن وصل إلى ميناء حيفا أسطول جنوي ضخم مؤلف من سبعين سفينة، فأسرع ملك القدس بلدوين للاجتماع بقادة الأسطول في حيفا، وظفر بمحالفتهم لاخضاع عكا بعد أن بذل لهم الأجر المألوف - وهو ثلث الغنيمة وامتيازات تجارية وحي في السوق. وبدأ الحلفاء حصار عكا يوم ٦ - أيار - مايو -. واشتدت مقاومة المسلمين بقيادة المملوك زهر الدولة الجيوشي - نسبة إلى الملك الجيوش الأفضل الفاطمي - ولكنه اضطر بعد عشرين يوماً

من الحصار ، وبعد أن فقد الأمل بالحصول على دعم من مصر - بقبول التسليم بشرط السماح لمن يرغب من السكان بمغادرة المدينة آمناً ومعه أمتعته، أما من رغب في البقاء فيصبح من رعايا ملك الفرنج. وقبل بلدوين هذه الشروط. ووافق أن يحتفظ المسلمون بمسجدهم. ولكن ما إن ملك الفرنج البلد حتى انقضوا على من كان يريد الهجرة وذبحوا عدداً كبيراً منهم، وسلبوهم كل ما معهم. وفعلوا بهم الأفعال الشنيعة. وسار الوالي زهر الدولة الجيوشي إلى مصر. واعتذر إلى الأفضل، فقبل عذره »[1] وهبط على عكا ليل الاستعمار الصليبي الطويل. غير أن هذا الليل لم يكن هادئاً، بل انتابته العواصف الهوجاء، وهيمنت عليه الأحداث المثيرة. فقد أصبحت عكا مركز انطلاق قوات الفرنج للهجوم على الاقاليم الاسلامية المجاورة، ومقابل ذلك، دأب امراء دمشق وحكام مصر على ارسال قواتهم للهجوم على الفرنج كلما توافرت الفرصة للاغارة على عكا وأرباضها. وكان من أكثر الأحداث اثارة مما شهدته تلك البداية قصة زواج ملك القدس - بلدوين - من كونتيسة صقلية - أديلايدسالونا - التي كانت بالغة الثراء، مما أطمع فيها ملك القدس الذي لم يكن يرغب في بائنتها فحسب، بل إنه كان يطمع أيضاً في الافادة من دعم النورمان في صقلية، وبما يتوافر لهم من قدرة بحرية. وعندما تم الاتفاق على الزواج. أبحرت الكونتيسة من صقلية سنة ٥٠٧ هـ = ١١١٣ م في أبهة وروعة لم يشهدها البحر الأبيض المتوسط منذ أن أقلعت كليوباترا إلى نهر البردان لتلتقي بانطونيوس - إذ افترشت في سفينتها بساطاً منسوجاً من خيوط الذهب، بينما ترصعت مقدمة السفينة بصفائح الفضة والذهب. ورافقتها اثنتان من الشواني الحربية. وعزز كل منهما ثلاثة صفوف من المجاذيف لدفعها. وزينت أيضاً مقدمتاهما، وحملتا حرسها العسكري. وكان أكثر ما لفت النظر هو حرس ابنها الخاص من العرب المسلمين، بوجوههم السمراء، وأرديتهم الناصعة البياض. وسار في أثرها سبع سفن أخرى حملت كل ما ملكت من الكنوز والثروة. وهبطت الكونتيسة في عكا، فاستقبلها الملك بلدوين بكل ما عرضته مملكته من الأبهة، إذ خرج الملك ورجاله في

---

(١) الكامل في التاريخ - أحداث سنة ٤٩٧. وتاريخ الحروب الصليبية: ٢/١٤١ - ١٤٤.

ثيابهم الحريرية الفاخرة، وتزينت خيولهم وبغالهم بالارجوان والذهب. وجرى فرش الشوارع بالبسط الثمينة، ورفرفت من نوافذ الدور وشرفاتها الأعلام الأرجوانية».

بقيت عكا هي مركز الثقل في مملكة القدس، رغم اعتراف الفرنج بالقدس عاصمة لاماراتهم ومملكتهم في بلاد الشام. فعندما حاول كونت طرابلس - بونز - التمرد على ارادة ملك القدس (سنة ٥١٦ هـ = ١١٢٢ م) خرج ملك القدس بجيشه من عكا. ولكنه لم يكد يقترب من طرابلس حتى أعلن بونز ولاءه وخضوعه للملك. وعندما وقع ملك القدس - بلدوين - في أسر المسلمين قرب الفرات (سنة ٥١٧ هـ = ١١٢٣ م) انعقد مجلس المملكة في عكا - وليس في القدس - لتعيين مجلس إدارة المملكة خلال فترة غياب الملك في أسر المسلمين.

كانت عكا هي قاعدة انطلاق الاسطول العربي - الاسلامي لضمان السيادة العربية الاسلامية على شرق البحر الأبيض المتوسط. وأخذ الفرنج الصليبيون منذ استيلائهم عليها بالعمل لاستخدامها ضد الأساطيل الاسلامية. وإذا كان الفرنج قد أفادوا من تجزئة العالم العربي - الاسلامي وانقساماته لتحقيق مثل ذلك النجاح في حملتهم الأولى - فباتوا وهم لا يخشون أي تهديد بري، إلا أن الاسطول الاسلامي - المصري - بقي قوياً في البحر. وشكل تهديداً قوياً لأساطيل الفرنج وللمدن الساحلية التي سيطروا عليها. وللحد من هذا الخطر، تحرك أسطول البندقية - بناء على طلب ملك القدس وموافقة البابا - وقد ضم أكثر من مائة سفينة حربية كبيرة، حملت عدداً كبيراً من الرجال والفرسان فضلاً عن أدوات الحصار، فوصل عكا في نهاية شهر أيار - مايو - سنة ١١٢٣ م (٥١٧ هـ). ثم تحرك نحو عسقلان بعد أن توافرت له المعلومات عن وجود أسطول اسلامي - مصري - يجوب البحر قريباً من عسقلان. ودفع اسطول البندقية أمامه مجموعة من السفن الصغيرة، خفيفة التسليح، كيما تدفع الاسطول المصري للاشتباك في معركة. ووقع الاسطول المصري في الفخ، فما كان من ظنهم إحراز انتصار سهل، حملهم على أن يخرجوا بسفنهم إلى عرض البحر، فاضحوا بين اسطولين للبنادقة يفوقان الاسطول المصري عدداً. ولم تفلت سفينة اسلامية واحدة

من الكارثة، إذ غرق بعضها، ووقع بعضها الآخر في أيدي البنادقة. وأضاف البنادقة إلى انتصارهم ما استولوا عليه من اسطول تجاري مؤلف من عشر سفن كانت تحمل سلعاً ثمينة، وذلك عند التقائهم به أثناء ابحارهم راجعين إلى عكا. وكان وجود الاسطول الاسلامي - المصري - عاملاً حاسماً في حرمان الفرنج من الاستيلاء على عسقلان. فلما زال خطر الاسطول الاسلامي، قام الفرنج في السنة التالية (٥١٨ هـ = ١١٢٤ م) بحصار عسقلان براً بينما انطلق اسطول البنادقة من عكا لاحكام الحصار البحري، فأمكن لهم الاستيلاء عليها. وأعقب ذلك استيلاء الفرنج على صور - بالطريقة ذاتها - فأصبح ساحل فلسطين بكامله تحت قبضة الفرنج»[١].

تابعت عكا، تحت حكم الفرنج، دورها في إدارة الحرب دون هوادة ضد المسلمين. فعندما جاءت الحملة الصليبية الثانية بقيادة ملك فرنسا (لويس السابع)[٢] وامبراطور الغرب (كنراد - أو كونراد)[٣] جرى استقبالهم في عكا في احتفالات مثيرة، وانضم إليهم جميع الفرنج الصليبيين في بلاد الشام. ووجهت ملكة القدس - ميلسيند - وابنها بلدوين الثالث - الدعوة إلى أمراء الحملة وقادتها لعقد مجلس كبير في عكا في ٢٤ حزيران - يونيو - سنة (١١٤٨م=٥٤٣هـ) وتميَّز هذا المجلس بظواهر الأبهة والعظمة. فقد ضم ملوك وامراء الصليبيين الذين تجمعت تحت قيادتهم أضخم ما حشده الفرنج من جيوش وقوات، وقرر المجلس مهاجمة دمشق، والاستيلاء عليها. غير أن هذه الحملة لم تبلغ غايتها، وتحطمت أمام أسوار دمشق[٤]. وعاد كنراد فركب البحر من عكا ورجع إلى بلاده. والمهم في الأمر هو أن عكا - وليست

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ٢/١٦٧ - ١٦٨ و ٢٦٥ - ٢٦٨.

(٢) لويس السابع (LOUIS VII LE JEUNE) - ابن لويس السادس وأديلايد دوسافوا - ولد سنة ١١٢٠ م. وأصبح ملكاً لفرنسا سنة ١١٣٧ م حتى توفي سنة ١١٨٠ م. تزوج اليانور - داكيتانيا (ALL ENOR D'AQUITAINE)- وحاول عبثاً الاستيلاء على كونتية تولوز - وأسهم مع امبراطور الغرب كونراد في الحملة الصليبية الثالثة. غير أنه فشل في الاستيلاء على دمشق.

(٣) كنراد - أو كونراد: (CONRAD) اسم عدد من الملوك الجرمان. والمقصود هنا هو كونراد الثالث الذي ولد سنة ١٠٣٩، وأصبح امبراطوراً للغرب سنة ١١٣٨ ومات سنة ١١٥٢ م.

(٤) انظر قلعة دمشق (البحث ١٠ من هذا الفصل).

القدس - هي التي عاشت الأحداث المثيرة لقيادة قوات الفرنج ومؤتمراتهم ومؤامراتهم ومخططاتهم العدوانية ضد المسلمين في البر والبحر على حد سواء.

عرفت عكا أقسى صراع، وأعنف قتال، طوال الفترة من سنة ٥٨٣ هـ = ١١٨٧ م وحتى سنة ٥٨٧ هـ = ١١٩١ م. فخلال مرحلة الحشد التي سبقت معركة حطين، أرسل صلاح الدين الأيوبي إلى ابنه الأفضل وأمره بتوجيه قوة كافية من جيشه إلى عكا، لنهبها وتدميرها. فأرسل قوة بقيادة مظفر الدين كوكبري زين الدين - صاحب حران - وأضاف إليه قايماز النجمي ودلدرم الياقوتي وهما من أكابر الأمراء وغيرهما. فساروا ليلاً وصبحوا (صفورية) أواخر صفر سنة ٥٨٣ هـ - فخرج إليه الفرنج في جمع من الداوية والاسبتارية وغيرهما. فالتقوا هناك، وجرت بينهم حرب تشيب لها المفارق السود. ثم أنزل الله نصره على المسلمين. فانهزم الفرنج وقتل منهم جماعة وأسر الباقون. وفيمن قتل مقدم الاسبتارية وكان من فرسان الفرنج المشهورين. وله النكايات العظيمة في المسلمين. ونهب المسلمون ما جاورهم من البلاد، وغنموا وسبوا وعادوا سالمين إلى طبرية. وكان فتحاً عظيماً، فقد كان الداوية والاسبتارية هم جمرة الفرنج، وسيرت البشائر إلى البلاد بذلك [1].

سارت جيوش المسلمين بعد ذلك إلى حطين، فلما أحرز المسلمون انتصارهم الحاسم، توجه صلاح الدين إلى عكا، فإذا بأهلها وقد صعدوا على سورها يظهرون الامتناع والحفظ، فعجب هو والناس من ذلك، لأنهم علموا أن عساكرهم من فارس وراجل قد سقطوا بين قتيل وأسير، وأنه لم يسلم منهم إلا القليل. فركب صلاح الدين وقد صمم على الزحف إلى البلد وقتاله. فبينما هو ينظر من أين يزحف ويقاتل، إذ خرج كثير من أهلها يضرعون ويطلبون الأمان فأجابهم إلى ذلك، وأمنهم على أنفسهم وأموالهم. وخيرهم بين الاقامة والظعن، فاختاروا الرحيل خوفاً من المسلمين، وساروا عنها متفرقين، وحملوا ما أمكنهم حمله من أموالهم. وتركوا الباقي على حاله. ودخل المسلمون إليها يوم الجمعة مستهل جمادي الأولى سنة ٥٨٣ هـ، وصلوا بها الجمعة في

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ٢/٧٣١ - ٧٣٤ (وقعة عيون كريسون) والكامل في التاريخ - احداث سنة ٥٨٣ هـ.

جامع كان للمسلمين قديماً ثم جعله الفرنج بيعة ـ كنيسة ـ ثم أعاده صلاح الدين جامعاً. وهذه الجمعة أول جمعة أقيمت بالساحل الشامي بعد أن ملكه الفرنج. وسلم صلاح الدين البلد إلى ولده الأفضل، وأعطى جميع ما كان فيه للداوية من أقطاع وضياع وغير ذلك للفقيه عيسى. وغنم المسلمون ما بقي مما لم يطق الفرنج حمله. وكان من كثرته يعجز الاحصاء عنه. فرأوا فيها من الذهب والجوهر والسلاح وغير ذلك من أنواع الأمتعة كثيراً. ذلك أن عكا كانت مقصداً للتجار الفرنج والروم وغيرهم من أقصى البلاد وأدناها. وكان كثير منها قد خزنه التجار وسافروا عنه لكساده، فلم يكن له من ينقله.

ففرق صلاح الدين وابنه الأفضل ذلك جميعه على أصحابها، وأكثر ذلك فعله الأفضل لأنه كان مقيماً بالبلد، وكانت شيمته في الكرم معروفة. وأقام صلاح الدين بعكا، وفرق منها عسكره الى الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعليا والشقيف والفولة وغيرها من البلاد المجاورة لعكا، فملكوها وأسروا رجالها، وسبوا نساءها وأطفالها، وقدموا من ذلك بما سدّ الفضاء. وفتح المسلمون يافا وتبنين وصيدا وجبيل وبيروت، ولم يبق في قبضة الفرنج إلا صور التي احتشد فيها الفرنج من كافة المدن التي فتحها المسلمون [1]. ولما علم البابا ايربان الثالث بما أحرزه المسلمون من انتصارات، مات كمداً يوم ٢٠ تشرين الأول ـ اكتوبر ـ سنة ١١٨٧. وجاء خلفه البابا جريجوري ـ أو غريغوري الثامن ـ فوجه رسالة إلى المؤمنين في الغرب [2] لحشد

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ٢/٧٤٣ ـ ٧٤٧ والكامل في التاريخ ـ أحداث سنة ٥٨٣ هـ.

(٢) كان مما تضمنته رسالة البابا: «فليكفر كل انسان عن خطاياه، وليدخر لنفسه كنزاً في السماء، بأن يتخد الصليب، مع الوعد لجميع الصليبيين بقدر وفير من غفران الذنوب. وأن ينعموا بالحياة الأبدية في السماء. بينما تصير سلعهم في الدنيا في حماية المقر المقدس» واختتم رسالته بالدعوة إلى الصيام كل يوم جمعة لمدة خمس سنوات، والامتناع عن اللحم يومي السبت والأربعاء. وأقسم جميع الكرادلة على أن يرفعوا الصليب. وأن يتولوا قيادة الجيوش الصليبية الى فلسطين، باعتبارهم مبشرين متسولين. وتقرر أن يتوجه من روما مبعوثون ليفرضوا على جميع ملوك العالم المسيحي وأمرائه هدنة ـ فيما بينهم ـ لمدة سبع سنوات. وعقد مجلس في (لومانز) سنة ١١٨٨ م. تقرر فيه أن تؤدي الضريبة المعروفة باسم (عشر صلاح الدين) والتي حددت بعشرة بالمائة من ضريبة الدخل والأموال المنقولة. =

القوى - وتوجيه حملة صليبية جديدة. وانطلق دعاة الحروب الصليبية ومستثمريها، من أساقفة وأمراء لاستثارة المشاعر والتحريض على الحرب. وأفلحت الجهود بتنظيم أكبر حشد صليبي تولى قيادته ملك انكلترا (ريتشارد قلب الأسد)[1] وملك فرنسا (فيليب اوغست)[2] وملك ألمانيا (كنراد) علاوة على عدد كبير من أمراء الغرب.

وبدأت الامدادات في التدفق على صور وكان أول ما وصلها (في أواخر خريف سنة ١١٨٨ م (٥٨٤ هـ) أسطول قوي التسليح أرسله ملك صقلية ومعه مائتين من خيرة الفرسان تدريباً وإعداداً. كما أرسل البيازنه - نسبة إلى بيزا - اسطولاً من اثني وخمسين سفينة (وصل في ٦ نيسان - ابريل - ١١٨٩ م) وبدأ الفرنج تحركهم نحو عكا. واشتبك المسلمون مع الفرنج، وقاتلوهم، ومنعوهم. وجرى لهم معهم حرب شديدة يشيب لهولها الوليد. وأسروا من الفرنج جماعة، وقتلوا جماعة، وقتل من المسلمين أيضاً جماعة. وتوقف الفرنج. ثم عاودوا محاولتهم ثانية ففشلوا بعد قتال عنيف. ونجحت المحاولة الثالثة، ووصل الفرنج إلى ظاهر عكا يوم ٢٨ - آب - أغسطس - سنة ١١٨٩ م (٥٨٥ هـ) وأقاموا معسكرهم على تل الفخار، وما لبثت أن وصلتهم إمدادات جديدة، حيث انضم اليهم اسطول ضخم للدانيين والغريزان، بالاضافة إلى سفن نقل نقلت قوات فلمنكيه وفرنسية. ودارت معركة طاحنة يوم ٤ تشرين الأول - اكتوبر - كان النصر فيها حليفاً للمسلمين. غير أنه لم يكن نصراً كاملاً. إذ

= لتغطية نفقات الحملة. وفرضت هذه الضريبة على رعايا انكلترا وفرنسا. (تاريخ الحروب الصليبية: ٢٢/٣ و ٢٤).

(١) ريتشارد قلب الأسد: (RICHARD COEUR DE LION) ملك انكلترا. ولد في اكسفورد سنة ١١٥٧ م. أصبح ملكاً سنة ١١٨٩ م ومات سنة ١١٩٩ م اشترك في الحملة الصليبية الثالثة. ووقع أسيراً في قبضة ملك النمسا - ليوبولد - أثناء عودته من فلسطين. وعندما عاد الى بلاده. قاد الحرب ضد ملك فرنسا فيليب أوغست سنة ١١٩٤ م. ومات تحت أسوار قصر شالو في فرنسا.

(٢) فيليب أوغست - أو فيليب الثاني: (PHILIPPE II-AUGUSTE) ولقبه الفاتح، أو الغازي، وهو ابن لويس السابع. ولد في غينيس سنة ١١٦٥ م. وأصبح ملكاً سنة ١١٨٠ م. ومات سنة ١٢٢٣ م. اشترك في الحملة الصليبية الثالثة. حارب ملكي انكلترا - هنري الثاني، ثم ريتشارد قلب الأسد، وانتصر عليهما.

احتفظ الفرنج بمواقعهم وهم يحاصرون عكا . غير أن الاسطول الاسلامي ـ المصري ـ نجح في دفع خمسين سفينة في وسط أساطيل الفرنج ، مما ضمن للحامية المدافعة عن عكا كميات كافية من المؤن والذخائر . وحدث نوع من التوازن مما أدى الى حدوث استقرار نسبي ، تخللته معارك قاسية في بعض الأحيان ، وذلك على نحو ما حدث يوم ٢٥ ـ تموز ـ يوليو ـ سنة ١١٩٠ م حيث قام الفرنج بهجوم جريء لم يسفر عن نتائج تذكر ، سوى وقوع خسائر فادحة في قوات الطرفين المتحاربين . واستمر القتال سجالاً بين المسلمين والفرنج طوال سنة ١١٩٠ م . إلى أن حدث التحول الحاسم عندما هبط ملك فرنسا فيليب اوغست على أرض عكا يوم ٢٠ نيسان ـ ابريل ـ سنة ١١٩١ م . ولحق به ملك انكلترا بعد سبعة أسابيع (حيث نزل ريتشار قلب الأسد في عكا يوم ٨ حزيران ـ يونيو) . ومقابل ذلك ، انضم الى معسكر صلاح الدين المقابل لعكا ، جيش سنجار وجيش شيزر وحماه وجيش من مصر . على أن أكثر ما أضر بالمسلمين هو حرمانهم من الدعم البحري ، بعد أن جاءت أساطيل الفرنج من كل أرجاء أوروبا لحصار عكا ، مما حرم الحامية الاسلامية المدافعة عن عكا من الامدادات التي كانت تصلها بانتظام ، فباتت مهددة بالمجاعة . وبقي القتال مستمراً في كل يوم وطوال هذه الفترة . ونصب الفرنج المجانيق ، وأحضروا أدوات حصار كثيرة منها مقلاع ضخم أطلقوا عليه اسم (مقلاع الله) وسلماً لتسلق الأسوار حمل اسم (سلم الهر) . وأخذت المقاليع ترمي الحجارة ليلاً ونهاراً . ودارت معارك دامية ، تخللتها مفاوضات متطاولة ، تم فيها الاتفاق على تسليم عكا للفرنج بكل ما تحتويه . مع تسليمهم صليب الصلبوت أيضاً . وإطلاق سراح الأسرى من الجانبين . ودخل الفرنج عكا عندما غادرها آخر جندي من الحامية الاسلامية التي كانت تدافع عنها . وكما هي عادة الانكليز بالغدر ، فقد تظاهر ريتشارد قلب الأسد بأن صلاح الدين قد أخل بشروط الاتفاق ، واتخذ من ذلك حجة لذبح أسرى المسلمين وعددهم سبعمائة وألفي أسير . واشتدت حماسة الجند الانكليز لتنفيذ المجزرة ، ولقيت زوجات الأسرى وأطفالهم مصرعهم الى جوارهم . وشهد المسلمون المرابطون في أقرب المعاقل إلى عكا ما كان يحدث ، فاندفعوا لانقاذ اخوانهم وذويهم . وعلى الرغم من أنهم ظلوا يقاتلون حتى

حلول الظلام، فانهم لم يستطيعوا الوصول اليهم. ولما انتهت المذبحة، غادر الانكليز البقعة، فتقدم المسلمون لدفن شهدائهم[1].

تتابعت الأحداث، متسارعة أحياناً، ومتباطئة في أحيان أخرى، وظهر التحول لمصلحة المسلمين بشكل واضح، لاسيما بعد فشل هجوم المغول التتار، ووقفت عكا وسط دوامة الأحداث وهي تحاول السيطرة عليها لمصلحتها ولدعم مركزها بعد أن أخذ بناء الفرنج في الانهيار من حولها. وعرف الفرنج في عكا أن النهاية قد اقتربت، فأسرعوا لعقد هدنة مع السلطان قلاوون لمدة عشر سنوات (تبدأ من سنة ٦٨٢ هـ = ١٢٨٣ م) ولكن حدث في سنة ٦٨٩ هـ = ١٢٩٠ م. أن قام الفرنج الصليبيون باجراء مذبحة في عكا، سقط فيها عدد كبير من شهداء المسلمين ـ التجار ـ. مما أغضب السلطان قلاوون، ودارت مناظرة بين الفقهاء في القاهرة أقنعت السلطان قلاوون بأنه لا إثم عليه من الناحية الشرعية إن هو نقض الهدنة. فأصدر أوامره إلى جيشه في مصر بالاستعداد، كما أصدر أمره إلى دمشق باعداد جيشها، وصدرت أوامر مماثلة إلى جيوش الأقاليم. واتخذت الاحتياطات لابقاء الاستعدادات في طي الكتمان. وعندما انتهت الاستعدادات، وشرع في التحرك، أعلن أنه أقسم بألا يترك في عكا ولو واحداً من الفرنج على قيد الحياة. إلا أن السلطان قلاوون توفي يوم ٤ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ سنة ١٢٩٠ م. فأخذ ابنه ـ الأشرف خليل ـ على عاتقه انجاز ما بدأ به والده. وشرع الجيش الإسلامي في التحرك من مصر في شهر آذار ـ مارس ـ سنة ١٢٩١ م. وذلك بعد أن اكتملت استعدادات الأشرف، فأضحت بالغة الدقة. إذ تم جمع آلات الحصار من جميع البلاد. وبلغت أمتعة الجيش عند خروجه من حماه، من الثقل، ما جعله يحتاج شهراً للوصول الى عكا، وتعرض خلاله لطقس ممطر، وخاض تربة تراكم فيها الطين وذلك عند مسيره من حمص الى حصن الأكراد، حيث توقف فيها فترة من الوقت لينقل معه عرادة ضخمة حملت اسم (المنصورة) بالاضافة إلى مائة من آلات الحصار الأخرى التي تم صنعها في دمشق والقاهرة. وكان مع الجيش أيضاً

---

(١) الكامل في التاريخ. احداث سنة ٥٨٥ وسنة ٥٨٧ هـ. وتاريخ الحروب الصليبية: ٢/٤٥ - ١٠٩.

عرادة كبيرة أخرى اسمها (الغاضبة). ومناجيق اشتهرت باسم (الثيران السوداء) وكانت أخف وزناً، ولكنها من طراز بالغ القوة والتأثير.

ووصل الأشرف بجيشه إلى أمام عكا، وتحدث الناس أن جيشه قد ضم ستين ألف فارس ومائة وستين ألف راجل - وقد يحمل هذا التقدير بعض المبالغة. غير أن الأمر الثابت هو أن جيشه قد تجاوز حدود كل ما استطاع الفرنج حشده من قوات.

ما إن علم الفرنج في عكا بتحرك الجيش الاسلامي حتى أرسلوا نداء الاستغاثات المستعجلة الى أوروبا، فوصلتهم بعض النجدات. وتقرر في عكا تجنيد كل قادر على حمل السلاح ليقوم بدوره في الدفاع. وكان باستطاعة الحامية الاعتماد على تحصينات المدينة التي بقيت سليمة وقوية، وجرى تعزيزها مؤخراً لزيادة منعتها وقدرتها، فضمت خطاً مكوناً من سورين مزدوجين لحماية شبه الجزيرة التي تقوم عليها المدينة وضاحيتها الشمالية حيث تقع قلعة عند التقاء السورين المزدوجين. وانتصب اثني عشر برجاً على أبعاد متساوية على امتداد السورين الداخلي والخارجي.

بدأ الحصار يوم ٦ نيسان - ابريل - سنة ١٢٩١ م، فصارت منجنيقات المسلمين وعراداتهم تقذف يوماً بعد يوم الأحجار الضخمة، والقدور المليئة بالمواد الحارقة، على أسوار المدينة. أو تلقيها من فوق الأسوار إلى داخل المدينة. وأمطر رماة المسلمين بسهامهم المدافعين فوق أفاريز الأبراج وردهاتها وممراتها. بينما تحرك المهندسون المسلمون لنقب مواضع الضعف في الاستحكامات. وتردد القول بأن السلطان الأشرف خليل قد خصص لكل برج ألف مهندس. واستمر الفرنج الصليبيون في مقاومتهم وذلك بفضل ما توافر لهم من الامدادات عبر البحر. وقام رجال الطوائف الدينية - فرسان الداوية والاسبتارية - بهجومين ليليين على معسكر المسلمين، كان الفشل من نصيبهما. ومضى شهر على الحصار عندما وصل ملك قبرص إلى عكا حاملاً معه امدادات جديدة، أسهمت في رفع الروح المعنوية للفرنج، غير أنها لم تغير من موقف المسلمين الذين كانوا قد نجحوا في نقب بعض الأبراج التي أخذت في التداعي والتساقط تباعا. وحاول الفرنج مفاوضة السلطان الأشرف خليل، غير أنه رفض المفاوضات إلا

على أساس الاستسلام الكامل. وأصدر الأشرف خليل أمره بشن هجوم عام صباح يوم الجمعة ١٨ ـ أيار ـ مايو ـ سنة ١٢٩١ م. وجرى الهجوم على امتداد الأسوار، ولكنه تركز على اتجاه (البرج الملعون) الواقع في زاوية الحصن. وقذف السلطان بكل قواه في المعركة، ولم تتوقف المنجنيقات عن القذف. أما سهام الرماة فكانت أشبه ما تكون بكتلة صلبة عند سقوطها داخل المدينة. واندفعت كتائب المسلمين الواحدة بعد الأخرى بقيادة امرائهم الذين لبسوا العمائم البيضاء وهم يقتحمون تحصينات المدينة. وكان الضجيج يثير الرعب والجزع، فقد كان المسلمون يرفعون أصواتهم بالتهليل والتكبير، فيتردد مجلجلاً وهو يختلط بقرع الطبول وأصوات الكوسات والشبابات التي حملها ثلثمائة جمل. ودار قتال عنيف عند الأسوار والأبراج وفي شوارع المدينة. وبدأت المقاومة في الانهيار، وسقط جند الفرنج صرعى، فيما توجه الباقون بحثاً عن طريق للهرب، وقد ضاقت بهم الأرض، وأسرع الرجال والنساء والأطفال إلى الميناء عسى أن يجدوا فيهم مركباً ينقذهم وينقلهم الى قبرص. وشهد الرصيف زحاماً مرعباً. وغرق أحد المراكب بمن كان يحملهم، لأنه حمل أضعاف ما يستطيع حمله. واغتنم المغامرون هذه الفرصة للحصول على الثروة ـ ومنهم المغامر روجرفلور ـ الذي قاد سفينة كبيرة للداوية، وحقق ثروة ضخمة بما ابتزه من أموال نبيلات عكا. ووصل جند المسلمين، فأسروا من لم يتمكن من الهرب. ووفروا عليهم عناء البحث عن طريقة للهرب.

ما إن صارت عكا في قبضة المسلمين حتى شرع الأشرف خليل في تدميرها وفقاً لخطة موضوعة حتى لا يفكر الفرنج الصليبيون في الافادة منها لتعود موقعاً متقدماً إذا ما أرادوا توجيه حملة جديدة ضد بلاد المسلمين في الشام. فتقرر استباحة دورها وأسواقها ثم اشعال النار بها. وجرى تدمير استحكامات دور الطوائف الدينية العسكرية والأبراج والقلاع المنيعة. وجرى نقل حجارة الكنيس لبناء مسجد السلطان الأشرف خليل في القاهرة. وما إن انتهى وجود الفرنج في عكا، حتى انطلقت جيوش المسلمين وهي تجوب بلاد ساحل الشام من أقصاه إلى أقصاه، لتدمر كل ما تعتبره مفيداً للفرنج فيما إذا حاولوا مرة أخرى النزول إلى البر. لقد أخذت الحركة الصليبية يوم سقوط عكا في الخروج من مجال السياسة العملية للغرب ـ ولو بصورة مرحلية ـ.

لقد جاء نابليون بونابرت على رأس حملة صليبية جديدة، وألقى الحصار على عكا من ٩ كانون الثاني - ديسمبر - حتى ٦ - أيار - مايو - ١٧٩٩ م (١٢١٣ هـ) وقد قاوم والي عكا - أحمد باشا الجزار - الحصار ببطولة. مما حمل بونابرت على الاستنجاد باليهود ووعدهم باقامة وطن لهم في فلسطين إن هم قدموا له المساعدة. ولكنهم كانوا أضعف من أن يقدموا لجيش بونابرت ما يحتاجه، فاضطر للانسحاب خائباً. وبقيت عكا وأهلها حصناً للاسلام والمسلمين حتى احتلها اليهود سنة ١٣٦٨ هـ = ١٩٤٨ م. لقد عادت الصليبية من جديد تحت الاعلام اليهودية.

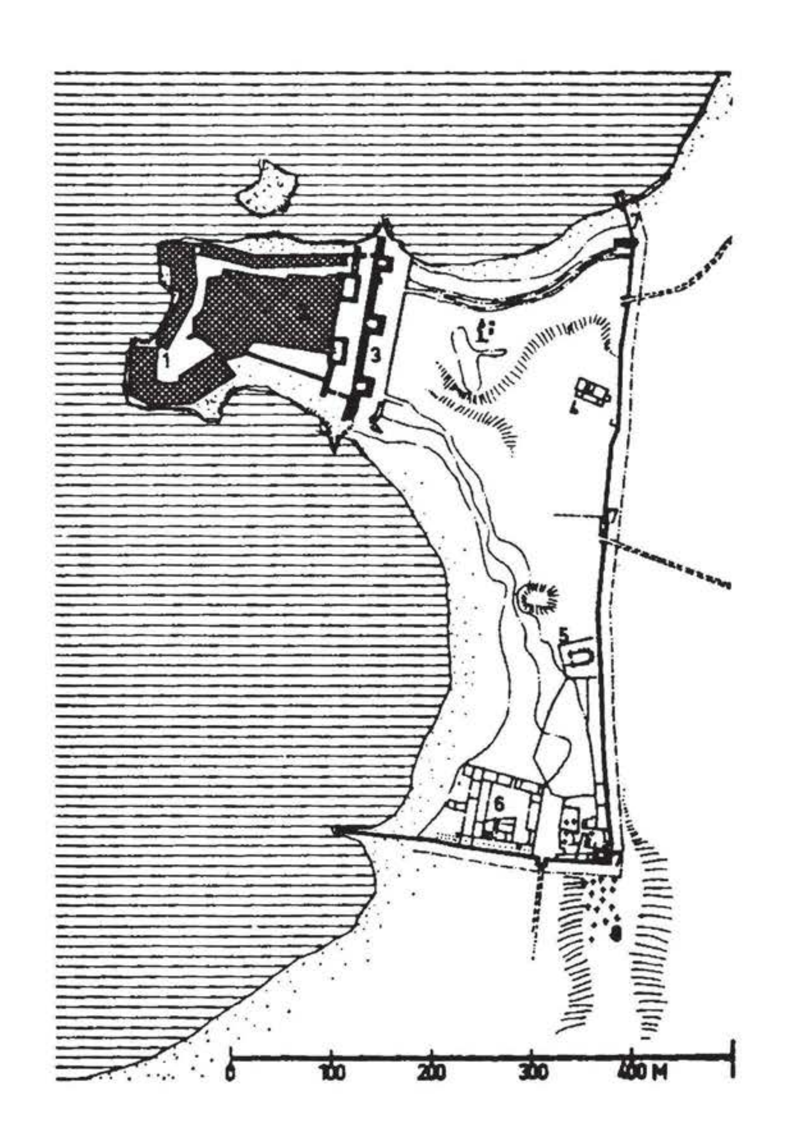
٢ ـ قلعة عتليت [قصر الحجيج].

تقع القلعة التي حملت اسم (قلعة عتليت ـ أو قصر الحجيج)[١] فوق شبه جزيرة صخرية صغيرة، على بعد نحو عشرة أميال جنوبي ميناء حيفا في فلسطين. وكانت القلعة محمية من جهة البر بخندق مائي عميق، وسور متقاطع قوي له ثلاثة أبراج متينة مبنية في داخله. أما التحصينات من جهة البحر، فقد كان هناك برج محصن خلف السور الخارجي والفناء الأمامي الذي يتخلله، وقد عززت جوانب هذا البرج المحصن بأبراج بارزة (مثل البرج المحصن في قلعة الداوية في طرطوس). بينما اختصت الاسطبلات والأحياء السكنية والمستودعات بالأبنية المتاخمة للشاطىء الصخري. وقد شيدت القلعة على أنقاض قلعة قديمة بمساعدة الحجاج الفرنج ـ ولهذا حملت أيضاً اسم قصر الحجيج ـ وباشتراك طائفتي فرسان الهيكل (الداوية) والفرسان الألمان (التيوتون) لتحل محل القلعة القديمة التي أقامها فرسان الداوية والتي تبعد حوالي ميل واحد عنها ـ وحملت اسم (قلعة ديترا)[٢]. واكتشف فرسان الداوية أثناء العمل، أساسات الأسوار التي كانت تعود في يوم من الأيام إلى مستوطنة فينيقية قديمة صغيرة. وعثروا فيها على كنز من النقود المعدنية. وأعيد استخدام تلك الأساسات، بينما صرفت النقود الذهبية من ضمن نفقات البناء. وكانت الأسوار التي ترتفع مباشرة من البحر هي القطاعات الأطوال، وحيث يجتاز السور الدائري المزدوج والمعقد، شبه الجزيرة التي تصل عتليت بالبر. وحرص الذين شيدوا قلعة عتليت أن تكون واجهة الأسوار مصقولة حتى يتعذر على السلالم المتحركة أن تستقر عليها، مع التوسع في

---

(١) قلعة عتليت: (ATLIT) أو قصر الحجيج: (CHASTEL PELERIN) وقصرُ بلغرينو (CASTLE PELLEGRINO) وكاستروم فيلي داي (CASTRUM FILII DEI).

(٢) قلعة ديترويت: (CHASTEL DESTROIT) أو ديستريكتوم: (DISTRICTUM) أو بيترا انتشيزا: (PETRA INCISA) وقد شيد القلعة الكونت غوتيه دافين: (GAUTEIR D'AVESNES).



عتليت ـ قصر بيليرين (قصر الحجيج) Chastel Pelerin

مخطط أرضي عام للمستوطنة، المقياس ١٠٠٠٠/١

١ ـ القلعة الداخلية، ٢ ـ الموقع المحتمل للحصن الكبير، ٣ ـ السور والخندق، ٤ ـ الحمامات، ٥ ـ كنيسة متهدمة، ٦ ـ الإسطبلات، ٧ ـ سور البلدة والخندق، ٨ ـ المدافن الفينيقية.



عتليت (قصر الحجيج)

استخدام ساتر الأسياخ الحديدية، والمزاغل اللازمة للرماة، بالاضافة إلى زيادة التعقيد في أبواب الدخول.

ما إن استقر الفرنج الصليبيون في القدس، وأعلنوا عن إقامة مملكتهم فيها، حتى وجه ملكها ـ بلدوين ـ دعوة إلى رجال الكنيسة وكبار المقطعين في المملكة لحضور مجلس في نابلس، بهدف رفع المستوى الديني ـ الأخلاقي ـ لرعاياه، والاهتمام برخائهم المادي. وتقرر تنظيم طائفة من الفرسان الذين يعاهدون ربهم على التقشف والطهارة والطاعة، وينذرون أنفسهم لقتال المسلمين. ويظهر أن فكرة إنشاء طائفة تلتزم بالجانبين الديني والعسكري قد جاءت على لسان فارس من شمبانيا ـ اسمه هيوباينز ـ استطاع سنة ١١١٨ أن يقنع الملك بلدوين الأول بأن يسمح له ولفئة قليلة من رفاقه بالنزول في جناح بالقصر الملكي بساحة المعبد (وهو المسجد الأقصى). فحملوا اسم (فرسان المعبد)★. وخضع فرسان المعبد في البداية للبابا مباشرة ـ في روما ـ وذلك قبل أن يصبحوا طائفة مستقلة. وتشكلت طائفة فرسان المعبد (الداوية) من ثلاث طبقات: الفرسان، وكلهم من أصل نبيل، ثم الأجناد من البورجوازية، واعتبروا أنهم هم ساسة الجماعة ومراقبيها. وأما الطبقة الثالثة فهي طبقة رجال الدين الذين شغلوا المناصب الدينية، والذين كان واجبهم هو القيام بكل ما لا يمت إلى العسكرية بصلة من الصلات. واتخذ فرسان الداوية من الصليب الأحمر شعاراً لهم. فجعله الفرسان على أرديتهم البيضاء. واتخذه الأجناد على ستراتهم السوداء. وكان من أول الواجبات التي اضطلع بها فرسان الداوية، هي ضمان الأمن على امتداد الطريق ما بين ساحل البحر الأبيض المتوسط وبين القدس. غير أنهم لم يلبثوا أن اشتركوا في كل حملة قام بها الفرنج الصليبيون. وأمضى مقدم الطائفة زمناً طويلاً في أوروبا لحشد المتطوعين لطائفته. وبذل ملك القدس ـ بلدوين ـ للداوية كل دعم وتأييد، رغم استقلال الطائفة عن سلطانه وخضوعها للبابا، وقدم لها الأحباس ـ الأوقاف ـ دون أن يفرض عليها الالتزام بالقتال مع جيشه. ولكن الطائفة لم تبلغ من الثراء ومن القوة ما

★ فرسان المعبد: (KNIGHTS-TE MPLAR).

يسمح لها بتحدي سلطة الملك خلال تلك المرحلة الأولى - ومقابل ذلك، فقد قدمت الطائفة لمملكة القدس ما كانت تحتاج إليه، وهو جيش منتظم يضم إليه العساكر المدربين والذين أضحى وجودهم الدائم حاجة ملحة، ذلك أنه في الاقطاعات التي حازها الأمراء - الكونتات - كانت تحدث اضطرابات عند انتقال الارث إلى سيدة أو طفل إذا ما مات السيد الاقطاعي بصورة مباغتة. فكان الفرسان الرهبان هم القوة التي تضمن الاستقرار، نظراً لما اشتهر به هؤلاء من نظام قوي، ولما عرف عنهم في الغرب من المكانة ومن الهيبة، مما كان يضمن لملك القدس باستمرار مدداً منتظماً من المحاربين الأوفياء الذين لا يصرفهم عن واجبهم طموح شخصي أو ربح ذاتي[1].

وهكذا حصل فرسان الداوية على إقطاع منطقة عتليت، وأقاموا قلعتهم هناك، وهي القلعة التي تميزت على ما عداها في فن العمارة. ذلك أن معظم قلاع بلاد الشام - في الشمال والجنوب - كانت قائمة منذ أيام الروم - البيزنطيين - أو كانت مما شيده العرب المسلمون، ثم جاء الفرنج فعملوا على تحويلها أو اصلاحها بما يناسب احتياجاتهم. في حين شيدت قلعة عتليت تلبية لمتطلبات فرسان الداوية. فتم تشييد البرج المتوسط الذي اعتبر أقوى وأمنع جانب في القلعة، عند أضعف قطاع بدائر القلعة. وأضحى البرج مدوراً لا مستطيلاً، نظراً لأن السطح المدور كان بالغ الصلابة في مقاومة ما يتعرض له من قذف. وتزايد عدد ما جهزت به القلعة من الأبواب والأبواب الخلفية. ونزع حجم القلعة إلى الضخامة. ولم يكن للنساء مأوى في قلاع الفرسان الداوية - وفي قلاع طوائف الفرسان الداوية بصورة عامة - وقد خصصت لكبار الموظفين والقادة حجرات أنيقة، رغم أنه لم ينزل ضيفاً بها إلا لغرض حربي. واعتبرت قلعة عتليت عبارة عن مدينة عسكرية، تستطيع أن تؤوي إليها عدة آلاف من المقاتلين والخدم اللازمين لهذا الجمع. غير أنه قل أن امتلأت هذه القلعة عن آخرها[2].

ولعل أغرب ما في قصة (قلعة عتليت) هو أن تشييدها قد جاء في وقت متأخر

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ٢٤٧/٢ - ٢٥١.

(٢) تاريخ الحروب الصليبية: ٦٣٠/٣ - ٦٣١.

جداً من تاريخ الحملات الصليبيْة القديمة. فقد احتل الفرنج مدينة القدس سنة ٤٩٢ هـ = ١٠٩٨ م. ووقعت معركة حطين الخالدة سنة ٥٨٣ هـ = ١١٨٧ م. وأعيد فتح القدس في السنة التالية، وهاجم الفرنج مصر واستولوا على دمياط سنة ٦١٥ هـ = ١٢١٨ م وطرد المسلمون الفرنج من مصر بعد معركة المنصورة الظافرة سنة ٦١٨ هـ = ١٢٢١ م وفي هذه السنة شرع فرسان الداوية في تشييد قلعة عتليت، على أرض الساحل. أي أن تشييد قلعة عتليت قد تأخر مقدار القرن وربع القرن تقريباً عن بداية الحملات الصليبية القديمة. كما كان الفرنج - وفرسان الداوية منهم بصورة خاصة - يهتمون بالقلاع ذات الأهمية الجيو - استراتيجية. والتي تتحكم بالسهول ومحاور المواصلات. في حين تم بناء قلعة عتليت على أرض الساحل، وبعيداً عن السهول أو الأهداف الهامة. وقد كان لذلك أسبابه وعوامله. فقد خرج من قبضة الفرنج كثير من القلاع الحصينة والمدن الداخلية، عبر صراعهم المستمر مع المسلمين. ولم يبق للفرنج إلا عدد قليل من المدن الساحلية مع مجموعة متفرقة من القلاع. ولهذا فقد جاء بناء قلعة عتليت، وجرى تشييدها، وسط العواصف الهوجاء التي هزت كيان الفرنج وزعزعت وجودهم. فحاول - فرسان الداوية - من خلال تشييد القلعة التأكيد على تصميمهم للاحتفاظ بما بقي لهم من المواقع على أرض بلاد الشام. وإن التوسع الكبير في بناء القلعة إنما جاء استجابة لأكثر من هدف. مثل الاستعداد لضم اللاجئين والنازحين والمهاجرين ممن يطردهم المسلمون من المدن والقلاع التي يتم إعادة فتحها. ومثل ضمان الأمن للحجاج الذين يفدون إلى بلاد الشام للحج. بالاضافة إلى ضرورة التوسع في تأمين الخدمات والمواد التموينية حتى تستطيع القلعة الصمود والمقاومة في وجه الحصار لأطول فترة ممكنة.

ولقد عرف المسلمون هدف فرسان الداوية من بناء قلعة عتليت. ففي سنة ٦١٥ هـ = ١٢١٨ م. «وبينما كان فرسان الداوية والفرسان التيوتون يشيدون قلعة عتليت الضخمة - جنوبي جبل الكرمل - وهي المعروفة بقلعة الحجاج - قام حاكم مصر - السلطان العادل - بالهجوم على قلعة عتليت. كما دمر الحصن الذي تم تشييده على جبل الطور، نظراً لأنه سهل المتناول. وليس ثمة ما يدعو للابقاء عليه». وفي السنة ذاتها،

وخلال مرحلة استعداد الفرنج لغزو مصر. أقلع اسطولهم إلى عتليت كيما يجلب مؤناً أخرى. ثم رفعت السفن مراسيها بعد بضع ساعات، غير أن الرياح ألزمتها بالبقاء، فلم تغادر الميناء إلا سفن قليلة اتجهت الى مصر». وفي سنة ٦١٧ هـ = ١٢٢٠ م. وخلال هجوم الفرنج على مصر. عمل حاكم دمشق - المعظم الأيوبي - على بذل الجهد لتخفيف الضغط عن مصر. فهاجم قلعة قيسارية التي لم يفرغ من بنائها وإعادة ترميمها إلا منذ زمن قصير. ثم تحرك لحصار عتليت - معقل الدفاع لفرسان الداوية - فما كان من فرسان الداوية المشتركين في الحملة على مصر، إلا أن انسحبوا عائدين من دمياط، للدفاع عن قلعتهم. واستمر المعظم في حصار عتليت من شهر آذار - مارس - حتى تشرين الثاني - نوفمبر - سنة ١٢٢٠ م». وعندما وصل الامبراطور الالماني فريدريك الثاني الى فلسطين سنة ٦٢٧ هـ = ١٢٢٩ م. بدأ جولته من عكا. فقام بزيارة عتليت ثم زار القدس، وعقد مع حاكم مصر السلطان الكامل الأيوبي معاهدة استعاد بموجبها الفرنج الحكم في القدس وبيت لحم مع شريط من الأرض يخترق اللد وينتهي عند يافا، على أن يحتفظ المسلمون بالمسجد الأقصى وقبة الصخرة، وللمسلمين الحق في التردد إليها، والعبادة فيها بحرية. وحددت مدة المعاهدة بعشر سنوات وخمسة شهور بالتاريخ الهجري. ولكن هذه المعاهدة اصطدمت برفض المسلمين في دمشق ومقاومتهم لها. كما رفضها فرسان الداوية. فما كان من الامبراطور (فريدريك الثاني)[1] إلا أن جمع ممثلي مملكته كلها، واجتمع بهم، وعرض عليهم تقريراً عن أعماله. ولم تلق كلماته إلا الرفض والغضب من قبل الحاضرين. وعندئذ لجأ فريدريك إلى القوة، فأقام نطاقاً من الحرس حول مقر الفرسان الداوية، ووضع الحرس على منافذ مدينة القدس حتى لا يخرج منها، أو يدخل إليها، إلا من كان يحمل تصريحاً بذلك. وأشاع أنه يعتزم مصادرة - حصن عتليت الكبير وانتزاعه من قبضة الداوية. غير أنه علم أن الحصن مشحون بحامية بالغة القوة، فلم يحاول الاقدام على هذه

---

(١) فريدريك الثاني: (FREDERIC II) ابن فريدريك الأول (١١٩٤ - ١٢٥٠ م) أصبح ملكاً على صقلية سنة ١١٩٧ م ثم ملكاً للجرمان سنة ١٢١٦، ثم امبراطوراً للغرب سنة ١٢٢٠ م. ودخل في صراع مستمر ضد البابا والكنيسة البابوية، واشترك في الحملة الصليبية السادسة.

المخاطرة، لاسيما وأن مقدم الداوية قد اتخذ الاجراءات الضرورية، واحتفظ بحرس لحماية نفسه. وانتهت الأزمة بعودة فريدريك إلى ايطاليا.

أصبح الموقف سنة ٦٦٤ هـ = ١٢٦٥ م لمصلحة المسلمين بشكل واضح، فقد انحصر وجود الفرنج بعدد محدود من المدن والقلاع، وأمكن الانتصار على المغول التتار والقضاء على خطرهم. فتولى الظاهر بيبرس قيادة جيشه، وانطلق به من مصر، ففتح قيسارية وقلعتها، ثم فتح حيفا، وهاجم قلعة عتليت الضخمة فأحرق قريتها الواقعة خارج الأسوار. أما القلعة فانها نجحت في مقاومتها، فتخلى الظاهر بيبرس عن حصارها. وترك لفرسان الداوية، حماة القلعة، فرصة العيش لفترة اضافية أخرى وهم أسرى تحصيناتهم وأسوارهم. وما هي إلا ثلاث سنوات، حتى لم يبق للفرنج من ممتلكات جنوب عكا سوى قلعة عتليت ومدينة يافا التي أعاد الظاهر بيبرس فتحها سنة ٦٦٨ هـ = ١٢٦٩ م. وعندما وقع السلطان قلاوون الهدنة مع الفرنج سنة ١٢٨٣ م ولمدة عشر سنوات، وقع على هذه الهدنة من جانب الفرنج حاكم عكا والداوية في عتليت وصيدا. وجاء الأشرف خليل - ابن السلطان قلاوون - فقرر وضع حد نهائي لوجود الفرنج في بلاد الشام، فطردهم من عكا سنة ٦٩٠ هـ = ١٢٩١ م. ثم انتقل بجيشه الى طرطوس فأعاد فتحها. وجاء دور عتليت، فاستسلمت حاميتها التي لم تعد تمتلك من القوة ومن القدرة ما يمكنها من المقاومة، فركبت البحر الى جزيرة أرواد المقابلة لطرطوس، ثم ارتحلت منها الى قبرص. لقد انتهى دور (فرسان المعبد - الداوية) ولم يعد لهم معبد يعملون من أجله ويتذرعون بذريعته، فضاعت منهم عتليت، آخر معاقلهم في بلاد الشام. وخسروا كل شيء، ولم يبق أمامهم إلا العيش على أحلام الماضي. وصحيح أنهم امتلكوا ثروات ضخمة ساعدتهم على المحافظة على ما بقي من وجودهم المادي خلال فترة معينة - في قبرص - إلا أن هذا الوجود بقي مضطرباً وقلقاً. إذ تألب ضدهم ملوك أوروبا وأمراءها، حتى أولئك الذين عملوا بالأمس على دعمهم وتنظيمهم. فكانت نهايتهم كمثل نهاية معظم التنظيمات المتطرفة الارهابية التي عاشت لفترة محدودة، وتلبية لمتطلبات فترة معينة، ثم ماتت عندما انتهت

حجة وجودها وزالت الحاجة اليها [1].

عاشت عتليت مدة ٧٦ سنة هجرية (٦١٤ - ٦٩٠هـ) أو ٧٤ عاماً ميلادياً تقريباً (١٢١٧ - ١٢٩١م) وهي مدة قصيرة جداً من عمر الزمن، لعله أقصر عمر عاشته قلعة من القلاع على أرض الشام. ولقد احتفظت كثير من القلاع على بعض هياكلها أو رموزها، من خلال ما بقي على سطح الأرض من حجارتها. غير أن عتليت فقدت معالمها الكاملة، ولم يعد لوجودها أثر. ذلك أنها برزت من أجل هدف معين، فزالت بزوال هذا الهدف، شأنها في ذلك كشأن أولئك الذين عملوا على تشييدها وأقاموا فيها.

لقد عمل فرسان المعبد - الداوية - وهم يشيدون قلعتهم عتليت، على الافادة من تجارب حروب الحصار مع المسلمين طوال قرن وربع قرن، كما أفادوا من بناء القلاع على نحو ما كانت عليه قلاع بلاد الشام وحصونها. فجاء فن عمارة قلعة عتليت فريداً في تكامله وقوته وتناسقه، وجاء المسلمون فصدمتهم جدران القلعة الملساء وأبراجها القوية وتحصيناتها المنيعة: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ★ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا﴾ [2] صدق الله العظيم.

وهكذا انهارت مقاومة فرسان الداوية، واستسلمت قلعتهم عندما جاء وعدها، ودخل المسلمون قلعة عتليت، فأزالوها من عالم الوجود. غير أن اسم (عتليت) سيبقى مقترناً باسم فرسان المعبد - الداوية - حيث يعتبر هذا الاسم رمزاً لتجربة تاريخية فريدة، لا في فن الحرب فحسب، بل في القيم التي ترتبط بتلك الحرب. ذلك أنه من طبيعة الحرب أن تفرز بعض القيم وبعض التنظيمات التي تشكل نتوءاً بارزاً وغير طبيعي، مما يحتم زوالها والقضاء عليها عندما تزول عوامل وجودها.

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ٢٦٦/٣، ٢٦٩، ٢٩٣، ٣٣٧، ٥٤٦، ٥٥٦، ٦٣١، ٦٦٥ وعن نهاية الداوية بعد خروجهم من عتليت انظر المرجع ذاته: ٧٣١/٣ - ٧٣٥.

(٢) الجزء السادس عشر - سورة الكهف - الآيتين: ٩٧ و ٩٨.

٢١ - قلمة قيسارية.

كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى عامله وقائد جنده في الشام يزيد بن أبي سفيان رضي الله عنهما: «أما بعد! فقد وليتك أجناد الشام كله. وكتبت لهم أن يسمعوا لك ويطيعوا، ولا يخالفوا لك أمراً. فأخرج فعسكر بالمسلمين، ثم سر بهم الى - قيسارية -[١] فانزل عليها، ثم لا تفارقها حتى يفتحها الله عليك، فانه لا ينبغي افتتاح ما افتتحتم من أرض الشام مع مقام أهل قيسارية فيها، وهم عدوكم، وإلى جانبكم، ولا يزال قيصر طامعاً في الشام ما بقي فيها أحد من أهل طاعته ممتنعاً. ولو قد فتحتموها قطع الله رجاءه من جميع الشام. والله عزّ وجل فاعل ذلك به. وصانع للمسلمين إن شاء الله»[٢]. وجهز يزيد بن أبي سفيان جيشاً كبيراً أسند قيادته الى أخيه معاوية. وسار معاوية في جنده حتى نزل على أهل قيسارية، فهزمهم وحصرهم في قيسارية، ثم إنهم جعلوا يزاحفونه، فكان في كل مرة يهزمهم ويردهم إلى حصنهم، ثم زاحفوه آخر ذلك، وخرجوا من صياصيهم. فاقتتلوا في حفيظة واستماتة فبلغت قتلاهم في المعركة ثمانين ألفاً، وكملها في هزيمتهم مائة ألف وبعث بالفتح إلى أخيه يزيد[٣] الذي أرسل إلى أمير المؤمنين عمر يعلمه بما تم من فتح قيسارية التي ذكرها أبو الفداء بقوله: «قيسارية مدينة بساحل الشام وتعد من أعمال فلسطين وكانت من أمهات المدن

---

(١) قيسارية: (CAESAREA) وتذكر أيضاً قيصرية: (QESARI) - أو - (QAISARIYA) وباليونانية: (KAISAREIA) أو ستراتونوس: (STRATONOS) وباللاتينية قيسارية البحر: (CAESAREA-MARITIMA) وبالفرنجية سيزارية: (CESAREE) وسيزارية تعني قيصر: (SEZARE) وسيزير: (SEZAIRE, CEZAIRE) و: (SESSAIRE) الخ...

(٢) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ص: ٤٩١ - ٤٩٣.

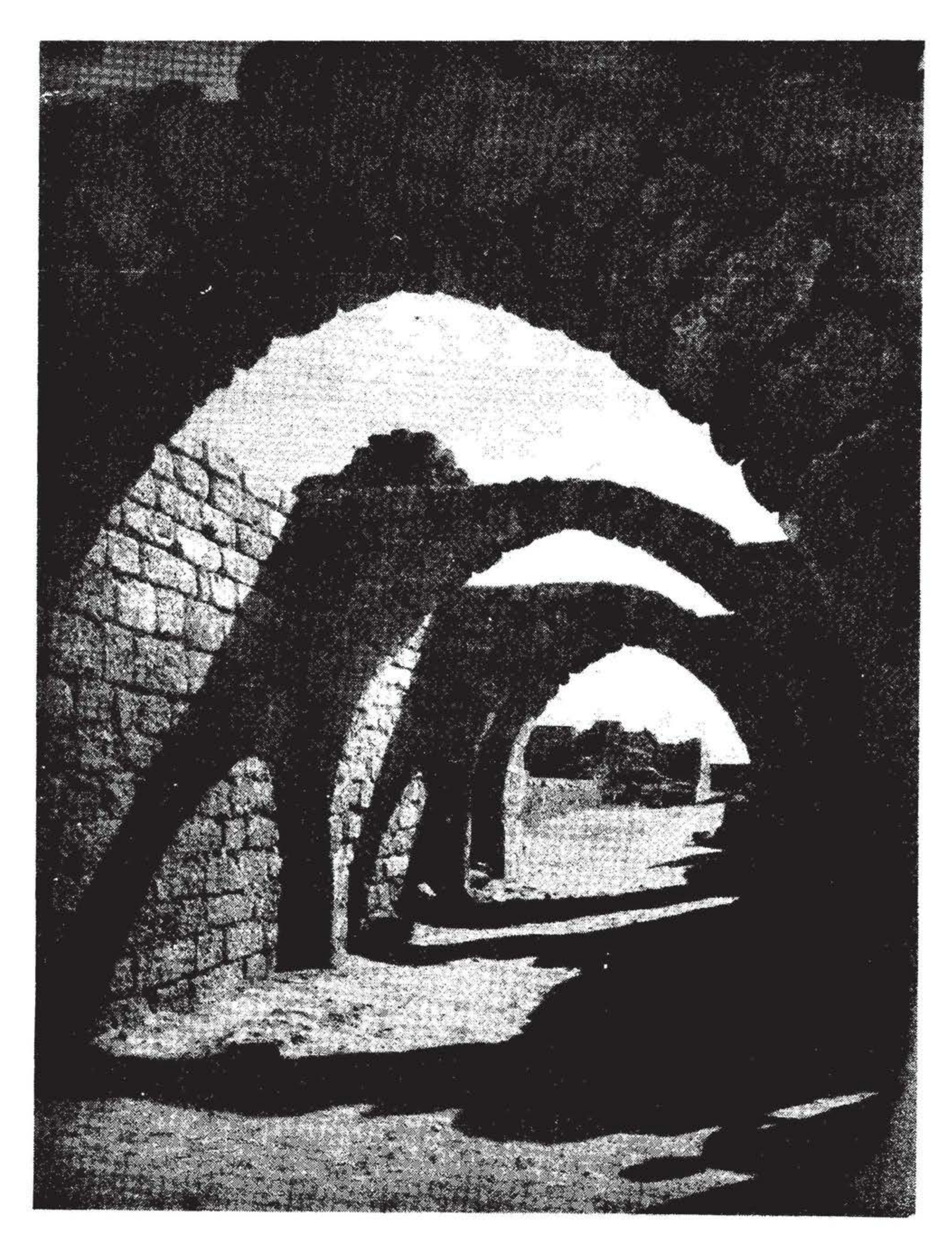
(٣) تاريخ الطبري. أحداث سنة ١٥ هـ - وهذا أقرب للصحة، وفقاً لتطور الأحداث. وهناك روايات تذكر أن الفتح قد حدث سنة ١٦ هـ أو ١٩ هـ.



قلعة قيسارية



٨٣ قلعة قيسارية



قلعة قيسارية

العظام. وبها مرسى كبير. وقال العزيزي: بينها وبين الرملة على ضفة البحر اثنان وثلاثون ميلاً. ومنها إلى عكا ستة وثلاثون ميلاً »[١].

كانت قيسارية مرفأ هاماً من مرافىء فلسطين، منذ أقدم العصور، وبقيت كذلك حتى القرون الوسطى، ذلك أنها احتلت موقعها على خليج طبيعي، يشكله نتوءان صخريان كبيران داخل البحر، ما بين حيفا ويافا. وكانت الدفاعات المتينة تحيط بمنطقة ذات شكل شبه منحرف تقريباً من جانب الخليج. وكانت متصلة من جهة الجنوب بقلعة قديمة، كانت تشغل حيزاً من الأرض عند الطرف الجنوبي للمرفأ. ويحميها من جهة البر سور قوي[٢]. غير أن صمود قوات الروم البيزنطيين بعد فتح بلاد الشام، لا يعود إلى قوة التحصينات والأسوار. فقد انهارت أسوار أضخم وأقوى: مثل دمشق. وخضعت قلاع وحصون أمنع وأصعب: مثل بصرى وبعلبك. وانما كان يعود لقوة الحامية. فقد تجمعت في قيسارية فلول جند الروم من سائر بلاد الشام وقلاعها بعد أن فتحها العرب المسلمون. وكان هذا الحشد الضخم في قيسارية يتلقى الدعم والامداد عن طريق البحر، حيث كانت للروم السيطرة الكاملة على البحر. مما كان يساعدهم على تأمين متطلبات الحامية المدافعة عن قيسارية، وذلك على أمل استخدامها في هجوم مضاد وشامل على العرب المسلمين. وقد أدرك أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه هذه الحقيقة، فأمر باقتلاع جذور الروم منها حتى لا يبقى لهم أمل بالعودة إليها.

بقيت قيسارية ثغراً هاماً من ثغور العرب المسلمين على امتداد خمسة قرون تقريباً من عمر الزمن. حتى إذا ما وصل الفرنج إلى بلاد الشام، أخذوا في البحث عن الموانىء التي تضمن لهم الاتصال ببلادهم عن طريق البحر. وظن المسلمون من سكان المدن الساحلية أن باستطاعتهم التعايش مع هذه الوافدة الجديدة التي حملت راية الصليبية. فأرسلت مدن أرسوف وقيسارية وعكا وصور وفوداً عنها وهي تحمل الهدايا الثمينة الى

---

(١) القلاع أيام الحروب الصليبية ص: ٩٧ - ٩٨.

(٢) تجدر الاشارة إلى أنه قد بدأت الأبحاث في موقع قيسارية منذ سنة ١٩٥٨ م. وأمكن الكشف عن أجزاء من تحصينات القرون الوسطى، مع بعض المباني التي ترجع للعصور القديمة والقرون الوسطى.

ملك القدس ـ بلدوين ـ. غير أن محاولة ـ المجاملة، أو التقية ـ لم تضمن لقيسارية الأمن أو السلام. فالحملات الصليبية القديمة ـ شأنها كشأن كل حركة استعمارية استيطانية. (بحسب المصطلحات الحديثة) كانت تريد الحصول على أرض فارغة من السكان حتى تقيم عليها مدنها ومستوطناتها ومجتمعها، ثم تعمل بعد ذلك على الافادة ممن تحتاجهم من اليد العاملة من أهل البلاد.

وهكذا كان مصير قيسارية التي وصلتها جحافل الفرنج الصليبيين بقيادة ملك القدس ـ بلدوين ـ وألقت عليها الحصار (يوم ٢ ـ أيار ـ مايو ـ سنة ١١٠١ م). ورفضت حامية قيسارية الاستسلام، وقاومت قدر استطاعتها مستفيدة من منعة تحصيناتها وأسوارها، إلى أن تمكن الفرنج من اقتحام قيسارية عنوة يوم ١٧ ـ أيار ـ مايو ـ. وجرى الاذن للجند المنتصرة بأن تنهب المدينة كيفما شاءت، وصحب النهب من الأهوال ما ارتاع له قادة الجند أنفسهم، ووقعت أعنف مذبحة بالمسجد الجامع ـ الذي زعم الفرنج أنه كان قديماً يحمل اسم معبد هيرود أجريبا ـ وقد لجأ إليه عدد كبير من سكان المدينة، والتمسوا الرحمة، غير أنهم لقوا مصرعهم رجالاً ونساء على السواء. حتى صار صحن الجامع بحيرة من الدماء. ولم ينج من الذبح من سكان المدينة إلا عدد قليل من الفتيات والأطفال، وقاضي القضاة، وقائد الحامية، اللذين أبقى بلدوين على حياتهما ليحصل على فدية كبيرة. وكانت القسوة والشدة عن قصد واصرار **«وأراد بلدوين بذلك أنه لا يرحم من لا يسالمه»** [1].

اقتسم الفرنج الصليبيون الغنيمة فيما بينهم، شأنهم في ذلك هنا كشأنهم في كل مكان انتزعوه من المسلمين. فحصلت كل قوة من القوى التي شاركت في الحملة على نصيبها من قيسارية، حيث استوطنت في حي خاص بها ـ تجمعاً أو كومونا ـ. وتم تنصيب بطريرك لقيسارية يتبع لملك الفرنج ـ ملك القدس ـ. وكان على هذا البطريرك أن يحتفظ بقوة جاهزة للقتال. بصورة مستمرة، لاستخدامها من أجل الدفاع عن قيسارية، أو لارسالها إلى حيث تدعو الحاجة وهكذا اشتركت قوة قيسارية في عدد من المعارك

(١) الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة ٤٩٤ وتاريخ الحروب الصليبية: ١٢١/٢.

على أرض مصر والشام، ومنها معركة حطين الخالدة حيث حشد الفرنج قواتهم من جميع المدن والقلاع، فلما انتهت المعركة بانتصار المسلمين وبتدمير قوات الفرنج، أصبحت حاميات المدن ضعيفة، بحيث أن جحافل المسلمين الظافرة لم تتوقف عند قيسارية، وانما اجتاحتها دون جهد ولا عناء، ولم يكن للأسوار أو التحصينات دور يذكر في الدفاع عن قيسارية بغياب من يدافع عنها أو يحميها. وما إن خضعت قيسارية مجدداً للمسلمين حتى عمل صلاح الدين الأيوبي على تدمير التحصينات القديمة فيها حتى لا تكون عقبة في طريق حرب الحركة التي كان يمارسها المسلمون [١].

ما إن وصلت أخبار انتصارات المسلمين في حطين، وفي القدس، وفي كل مكان من بلاد الشام، إلى أسماع الغرب، حتى تسارع دعاة الحروب الصليبية لاستنفار الملوك والأمراء، ولحشد القوى. وجاءت الحملة الصليبية الثالثة التي نجحت قواتها بعد صراع مرير استعادة عكا (سنة ٥٨٧ هـ = ١١٩١ م) وتابعت قوات الحملة تحركها على درب الساحل حيث سبق لصلاح الدين أن عمل على تدمير استحكامات المدن وتحصيناتها وأسوارها. حتى إذا ما وصل الفرنج الى قيسارية أضحى الالتحام وشيك الوقوع بين المسلمين والفرنج. وأخذ القتال الحاد ينشب كل يوم. ولقي الفرنج صعوبات كبيرة. وأخذوا يرددون: «كن لنا عوناً أيها القبر المقدس» [٢] وحشد صلاح الدين قواته في موضع يمتد أمامه سهل فسيح يسمح باستخدام الفرسان، وتغطيه الغابات التي كانت تمتد حتى مسافة ميلين من البحر. وهناك دارت يوم ٧ - ايلول - سبتمبر -

---

(١) كان من عادة العرب المسلمين تدمير الأسوار والتحصينات التي قد يستخدمها العدو للامتناع وراءها، وإعاقة حرب الحركة التي أتقن العرب المسلمون فنونها وأساليبها. ولعل أوضح نموذج مبكر لهذا النهج هو ما قام به عمرو بن العاص رضي الله عنه في فتح الاسكندرية الثاني سنة ٢٥ هـ - فقد جاء الروم وأنزلوا قواتهم في الاسكندرية، واعتصموا بها، فسار إليهم عمرو بن العاص، واقتتلوا قتالاً شديداً وأصاب المسلمين ضيق شديد، فأقسم عمرو بن العاص لئن أظهره الله عليهم ليهدمن سورها حتى تكون مثل بيت الزانية تؤتى من كل مكان. فلما نصره الله عليهم وانهزموا - هدمه. (تاريخ الطبري - والكامل في التاريخ - أحداث سنة ٢٥ هـ. وكذلك فتوح مصر - ابن الحكم).

(٢) كن لنا عوناً أيها القبر المقدس: (SANCTUM SEPULCHRUM ADJUVA).

١١٩١ م. المعركة المعروفة باسم (معركة أرسوف) والتي حقق فيها الفرنج نصراً أمكنهم من إعادة فرض هيمنتهم على قيسارية. وتمكن صلاح الدين من سحب الحامية التي كانت تدافع عن قيسارية والتي لم يكن أفرادها يزيدون على الخمسين فارساً. وقد تم سحبهم مع نسائهم وأطفالهم ومتاعهم. ودارت بعد ذلك مفاوضات بين صلاح الدين الأيوبي وريتشارد قلب الأسد، أمكن في نهايتها الاتفاق على أن تكون قيسارية هي الحد الفاصل بين ممتلكات الفرنج وبين بلاد المسلمين. وعاد حكام الفرنج السابقون الى حيفا وقيسارية وأرسوف. وشرع الفرنج على الفور باعادة بناء استحكامات قيسارية وتحصينها. وقد تطلب بناء الأسوار الجديدة في قيسارية جهداً كبيراً وأموالاً ضخمة. وأفاد ملك القدس (يوحنا بريين)[١] من الحملة الصليبية الخامسة، حيث حصل على المال من ليوبولد - دوق اوستريا - ومن جاي امبرياكو سيد جبيل. وعهد الى (غوتييه دافين)[٢] باكمال تحصينات قيسارية. غير أن الملك الأفضل علي بن صلاح الدين عمل سنة ٦١٧ هـ = ١٢٢٠ م - وكان يومها ملكاً على دمشق - على مهاجمة البلاد الساحلية، فاستولى على قيسارية وخرب تحصيناتها. وعاد الفرنج فشيدوها وحصنوا أسوارها، ولما كان الفرنج يومها يحاصرون دمياط في مصر. فقد قام جيش دمشق بالهجوم على ممتلكات الفرنج الساحلية، وهاجم قيسارية التي لم يفرغ من إعادة بنائها إلا منذ زمن قريب. ولكن الفرنج أعادوا إصلاح ما تهدم من الأسوار، وأضيفت إليها تحسينات جديدة، مثل إضافة الدعم لحصن البوابة، وشق القناة الكبيرة المكسوة، والجدار المائل المتواصل الخ... وقد ظهر أن الاحتفاظ بقيسارية والدفاع عنها ودعمها يتطلب نفقات باهظة، الأمر الذي دفع سيد قيسارية - يوحنا - إلى بيع نصيبه في قيسارية الى طائفة الفرسان الرهبان (الداوية). وبقيت قيسارية في قبضة الفرنج حتى سنة ٦٦٤ هـ = ١٢٦٥ م. حيث خرج الظاهر بيبرس من مصر على رأس جيشه الكثيف، حتى إذا ما وصل إلى فلسطين، أقام معسكره في الجنوب، وتظاهر أنه سيقوم بحملة صيد في التلال الواقعة وراء أرسوف. ثم ظهر بصورة مباغتة أمام

---

(١) يوحنا بريين: (JEAN DE BRIENNE).

(٢) غوتييه دافين: (GAUTIER D'AVESNES).

قيسارية، فسقطت المدينة على الفور في قبضته (يوم ٢٧ شباط ـ فبراير ـ سنة ١٢٦٥ م) غير أن القلعة صمدت لمدة أسبوع. ثم أذعنت الحامية للمسلمين، وسمح بيبرس لأفراد الحامية بالخروج. ولم يتعرض لهم أحد بأذى. غير أنه أمر بتدمير المدينة والقلعة وتسويتها بالأرض. ولم تلبث القلاع المجاورة لقيسارية (عتليت وأرسوف) أن خضعت بدورها لجحافل المسلمين الظافرة.

وتابع الظافر بيبرس أعمال الفتح، حتى إذا لم يبق في قبضة الفرنج إلا بعض المدن والقلاع، أسرعوا يلتمسون الهدنة. فتم في قيسارية عقد هدنة لمدة عشر سنوات وعشرة شهور (بدأت يوم ٢٢ ـ أيار ـ مايو ـ سنة ١٢٧٢ م) وضمنت للفرنج البقاء بالساحل الضيق الممتد من عكا إلى صيدا. وأن يكون لهم الحق في استخدام طريق الحجاج الى الناصرة. وعاد الفرنج عندما انتهى أجل الهدنة فالتمسوا من السلطان قلاوون تجديدها (سنة ١٢٨٣) غير أن الفرنج في عكا نقضوا الهدنة (سنة ١٢٩٠). فسار الأشرف خليل لطرد بقايا الفرنج من بلاد الشام. وقام جيش دمشق بفتح قيسارية، فأمر الأشرف خليل بتدمير أسوار قيسارية وتحصيناتها تدميراً كاملاً. وكذلك فعل بجميع الحصون والقلاع الساحلية. ذلك أن الأشرف خليل علم بتجمع قوات للفرنج في قبرص. ووصلته معلومات عن قيام ملك قبرص وامراء الفرنج باجراء الاتصالات مع ملوك الغرب لتنظيم حملة صليبية جديدة. فقرر تدمير جميع القواعد والمرتكزات التي يمكن للفرنج الاستناد إليها في أي حملة جديدة.

٢٢ ـ قلعة مصياف.

تقع (قعلة مصياف) [١] ومدينتها في وسط ـ غرب ـ سورية. وتحتل مكانتها فوق تل متدرج الانحدار في الشعاب الشرقية من جبال النصيرية ـ العلويين حالياً ـ والمدينة صغيرة محاطة بسور واق بسيط. تقع القلعة عند نهايتها الشرقية. وتتماشى أسوارها الخارجية مع الخطوط العامة للمرتفع الصخري المتطاول الذي تتربع فوقه. وهي محمية بشكل مثير للعجب باستغلال الطبيعة الطبوغرافية استغلالاً تاماً. وتتألف هذه القلعة المتضامة للغاية من جناح علوي محاط بقلعة خارجية. يتميز كل عنصر من عناصرها بتنوع أسلوب البناء فيه على نطاق واسع، وشتات من حقب متباعدة جداً. ذلك أن تاريخ القلعة يعود إلى أيام الروم البيزنطيين. ثم عاشت حياة العهود الاسلامية المتتالية، ثم أيام الحملات الصليبية القديمة. وتعرضت خلال العهود المتتالية لأحداث كثيرة ومثيرة، لم يكن أقلها شأناً أو خطورة تلك الزلازل أو الهزات الطبيعية التي كانت تترك في كل مرة خراباً ودماراً، يعقبه اصلاح وبناء. ولقد كان من أكثر ما عرفته القلعة من أحداث مثيرة هو أنها كانت قاعدة رئيسة لجماعة الاسماعيلية ـ الباطنية أو الحشاشين ـ والذين مارسوا دوراً هاماً في مجال الارهاب، أيام الحروب الصليبية القديمة. وقد وصف أبو الفداء مدينة مصياف بقوله: «مصياف هي بلدة جليلة، وبها أنهر صغار من أعين، ولها بساتين، ولها قلعة حصينة، وهي مركز دعوة الاسماعيلية، وهي في لحف جبل اللكام الشرقي. ومصياف تقع في جهة الشمال من قلعة بعرين وعلى مسافة فرسخ منها. وكذلك فهي تقع الى جهة الغرب من مدينة حماه وعلى مسيرة يوم منها. وجبل اللكام، بضم اللام وتشديد الكاف وألف وميم» [٢].

---

(١) مصياف: (MASYAF) ومصياد: (MASYAD) وبالفرنجية مصياط: (MESSIAT).

(٢) القلاع أيام الحروب الصليبية: (ص ـ ٨٨ ـ ٨٩).



قلعة مصياف

ويظهر من ذلك أن قلعة مصياف قد ارتبطت ـ أو اقترنت ـ باسم طائفة الاسماعيلية، خلال فترة الحروب الصليبية. وهذا ما أشار إليه مصدر عربي ـ اسلامي بقوله: «ملك الاسماعيلية حصن مصيات ـ مصياف ـ بالشام، وكان واليه مملوكاً لبني منقذ، أصحاب شيزر، فاحتالوا عليه ومكروا به حتى صعدوا إليه وقتلوه وملكوا الحصن. فصار بأيديهم سنة خمس وثلاثين وخمسمائة»[١]. وإذن فقد يكون من الضروري التعرض لهذه الطائفة بقدر ما يتطلبه البحث هنا. ولقد ضمت المراجع العربية الاسلامية فيضاً من أخبار الاسماعيلية ومعتقداتهم وأعمالهم وممارساتهم. ويتركز البحث في هذا المضمار على الجانب العسكري المتعلق بقلعة مصياف. وقد ورد بشأن طائفة الاسماعيلية أصحاب القلعة ما يلي: «الاسماعيلية هم الباطنية، وهم الذين كانوا يعرفون قبل ذلك بالقرامطة. وكان أول ظهورهم بأصبهان ـ في بلاد فارس ـ وكان من أول أعمالهم قتل نظام الملك السلجوقي. واجتمعوا عند قاين ـ بلد في فارس أيضاً ـ وعلموا بمرور قافلة عظيمة من كرمان إلى قاين، فتعرضوا لها، وقتلوا أهل القافلة أجمعين. وصاروا يسرقون من قدروا عليه من مخالفيهم ويقتلونهم. وفعلوا هذا بخلق كثير. وزاد الأمر حتى أن الانسان كان إذا تأخر عن بيته عن الوقت المعتاد تيقن أهله من قتله وقعدوا للعزاء. فحذر الناس وصاروا لا ينفرد أحد منهم. وكان الباطنية إذا اجتاز بهم إنسان أخذوه إلى دار منها وقتلوه وألقوه في بئر الدار، قد صنعت لذلك. وكان على باب درب منها رجل ضرير، فإذا اجتاز به انسان، يسأله أن يقوده خطوات إلى باب الدرب، فيفعل ذلك، فإذا دخل الدرب أخذ وقتل. ثم استولى الاسماعلية على عدة حصون منها قلعة أصبهان ـ استولى عليها أحمد بن عطاش ـ ونال المسلمين منه ضرر عظيم من أخذ الأموال وقتل النفوس وقطع الطريق والخوف الدائم. ومنها قلعة ألموت، من نواحي قزوين (ومعنى ألموت تعليم العقاب بلغة الديلم) وقد استولى عليها الحسن بن الصباح، أحد تلامذة أبن العطاش، وقد زار ابن الصباح مصر وبايع المستنصر الفاطمي الذي أمره بدعوة الناس إلى إمامته، فعاد وكثر أتباعه،

---

(١) الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة: ٥٣٥ هـ.

واستولى على قلاع سنمكوه وخالنجان وأستوناوند وكردكوه وقلعة الناظر بخوزستان وقلعة الطنبور وقلعة خلادخان الخ..». «وقد انبسط ـ انتشر ـ جماعة منهم في عسكر المسلمين ـ عسكر بركيارق ـ واستغووا كثيراً منهم وأدخلوهم في مذهبهم، وكادوا يظهرون بالكثرة والقوة. وحصل بالعسكر منهم طائفة من وجوههم وزاد أمرهم. فصاروا يتهددون من لا يوافقهم بالقتل. فصار يخافهم من يخالفهم، حتى أنه لم يعد أحد يتجاسر على الخروج من منزله حاسراً. سواء كان أميراً أو متقدماً. بل يلبس تحت ثيابه درعاً، حتى أن الوزير الأعز أبا المحاسن كان يلبس زردية تحت ثيابه».

تعاظمت قوة الاسماعيلية بعد ذلك: «وسار جمع كثير منهم من طريثيث عن بعض أعمال بيهق، وشاعت الغارة في تلك النواحي، وأكثروا القتل في أهلها والنهب لأموالهم والسبي لنسائهم، وكان من جملة فعلهم أن قافلة للحجاج تجمعت فيما وراء النهر وخراسان والهند وغيرها من البلاد، ووصلوا إلى جوار الري، فأتاهم الاسماعيلية وقت السحر، فوضعوا فيهم السيف، وقتلوهم، وغنموا أموالهم ودوابهم، ولم يتركوا شيئاً وقتلوا أيضاً أبا جعفر بن المشاط، وهو من شيوخ الشافعية، وكان يدرس بالري ويعظ الناس. فلما نزل من كرسيه أتاه باطني فقتله... وتفرغ السلطان محمد السلجوقي لحربهم. وأرسل من يناظرهم لاستنزالهم من قلعة شاهدز ـ القريبة من أصبهان ـ فقالوا: **إنا نخاف على دمائنا وأموالنا من العامة فلا بد من مكان نحتمي به منهم...**

وامتد نفوذ الاسماعيلية إلى الشام، وأهلها منصرفون لحرب الفرنج الصليبين، فتابعوا سيرتهم ضد المسلمين وقادتهم. وكان من أول أعمالهم قتل أمير الجيوش الأفضل ابن بدر الجمالي ـ صاحب الأمر والحكم بمصر، **وذلك لأن الاسماعيلية قد كرهوه بسبب عدم معارضته لأهل السنة في اعتقادهم. والنهي عن التعرض لهم. وإذنه للناس في إظهار معتقداتهم»** [1].

كما واصل داعي الاسماعيلية (بهرام ابن أخت الأسد أباذي) الى بلاد الشام، وأخذ يتردد في البلاد، ويدعو أوباش الناس وطغامهم إلى مذهبه، فاستجاب له منهم

---

(١) الكامل في التاريخ ـ أحداث سنوات: ٤٩٥ و ٤٩٨ و ٥٠٠ و ٥١٥ و ٥٢٠ هـ.

من لا عقل له، فكثر جمعه، إلا أنه يخفي شخصه فلا يعرف. وأقام بحلب مدة، واتصل بصاحبها ايلغازي الذي أراد أن يعتضد به لاتقاء الناس شره وشر أصحابه، لأنهم كانوا يقتلون كل من خالفهم. وأشار ايلغازي على صاحب دمشق ـ طغتكين ـ بأن يجعله عنده لهذا السبب، فقبل رأيه وأخذه إليه. فأظهر حينئذ شخصه وأعلن عداوته، فكثر أتباعه من كل من يريد الشر والفساد، وأعانه الوزير أبو طاهر بن سعد المرغيناني قصداً للاعتضاد به على ما يريد، فعظم شره واستفحل أمره. وصار أتباعه أضعافاً مما كانوا.

فلـولا أن عامة دمشق يغلب عليهم مذاهب أهل السنة، وأنهم يشددون عليه فيما ذهب إليه، لملك البلد. ثم إن بهرام رأى من أهل دمشق فظاظة وغلظة عليه، فخاف عاديتهم، فطلب من طغتكين حصناً يأوي إليه هو ومن اتبعه. فأشار الوزير بتسليم قلعة بانياس إليه. فلما سار إليها اجتمع إليه أصحابه من كل ناحية. فعظم حينئذ خطبه، وجلت المحنة بظهوره. واشتد الحال على الفقهاء والعلماء وأهل الدين. لاسيما أهل السنة والستر والسلامة. إلا أنهم لا يقدرون على أن ينطقوا بحرف واحد خوفاً من الاسماعيلية. فتربصوا بهم الدوائر ينتظرون الفرصة المناسبة للفتك بهم.

لقد عمل الاسماعيلية على خدمة الصليبية. وهذا ما تضمنه بحث لمستشرقين جاء فيه: «كان أمير انطاكية ـ كونت تانكرد ـ من أشد الصليبيين عداء للإسلام وأهله. فأخذ في العمل للكيد للمسلمين. وكان ما هو أكثر عوناً له، وما هو أشد خطراً على كل محاولة لقتال الصليبيين، ظهور مذهب جديد يعتمد على التدمير ـ هو مذهب الاسماعيلية الذي اشتهر فيما بعد باسم الحشيشيـة، والذي استخـدم لتحقيـق أغـراض سياسية، حيث وجه لمناهضة الخلفاء العباسيين ببغداد، والى السلاجقة الذين دعموا الخلافة. فكان لقوتهم دورها في إطالة عمر الخلافة العباسية. وقد صار للاسماعيلية معاقل في الشام، وكان أول حادث اغتيال قاموا به في الشام، هو ما وقع سنة ٤٩٧ هـ = ١١٠٣ م عندما اغتالوا أمير حمص جناح الدولة. ولم تمض ثلاث سنوات على هذا الحادث حتى قتلوا أمير أفامية ـ ابن ملاعب ـ الذي لم يفد من مصرعه إلا الفرنج في

أنطاكية. ومع أن الباطنية لم يكشفوا حتى ذلك الوقت عن سياستهم، إلا بما أقدموا عليه من اغتيالات متفرقة، فإنهم أضحوا عاملاً في السياسة الإسلامية، لم يسع المسيحيون أنفسهم إلا تقديره»[1].

تابع الاسماعيلية دورهم، فعملوا في سنة ٥٢٠ هـ على اغتيال أكبر عدو للفرنج الصليبيين، وهو أمير الموصل قسيم الدولة آقسنقر البرسقي: «وقد اغتالوه وهو يصلي الجمعة. وكان ابنه عز الدين مسعود بحلب يحفظها من الفرنج. فكان من العجب أن صاحب أنطاكية - تانكرد - أرسل الى عز الدين بن البرسقي يخبره بقتل والده، قبل أن يصل إليه الخبر». وفي السنة التالية (سنة ٥٢١ هـ) قتل معين الملك أبو نصر أحمد ابن الفضل، وزير السلطان سنجر - قتله الباطنية. وفي سنة ٥٢٣ هـ - قام أهل دمشق بقتل الباطنية، وكان سبب ذلك أنه لما سار بهرام الى قلعة بانياس وتملكها، ترك في دمشق خليفة له، يدعو الناس الى مذهبه، فكثروا وانتشروا، وملك هو عدة حصون من الجبال منها القدموس وغيره. وكان بوادي التيم من أعمال بعلبك أصحاب مذاهب مختلفة من النصيرية والدرزية والمجوس وغيرهم... فسار إليهم بهرام فقاتلهم، فهزموه وقتلوه.

وجاء خليفته - أبو الوفا - الى دمشق، فراسل الفرنج ليسلم إليهم مدينة دمشق، ويسلموا إليه مدينة صور، واستقر الأمر بينهم على ذلك. وتقرر بينهم الميعاد يوم الجمعة، وقرر الاسماعيلية أن يحتاطوا ذلك اليوم بأبواب الجامع. فلا يمكنون أحداً يخرج منه حتى يصل الفرنج ويتسلموا البلد. فبلغ الخبر تاج الملوك - صاحب دمشق يومئذ - فنادى في البلد بقتل الباطنية، فقتل منهم ستة آلاف نفس. وخاف الاسماعيلية في بانياس أن يثور المسلمون، فيهلكوا. فراسل مقدمهم اسماعيل الفرنج واتفق معهم على تسليم بانياس اليهم. والانتقال الى بلادهم. فأجابوه. فسلم القلعة إليهم. وانتقل هو ومن معه من أصحابه إلى بلاد الفرنج.

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ٢/١٩٣ - ١٩٥.

عامل الفرنج الاسماعيلية معاملة سيئة، فقرروا اعتزالهم. وفي سنة ٥٢٧ هـ = ١١٣٢ م. اشترى الاسماعيلية بالشام قلعة حصن القدموس من صاحبه (ابن عمرون) وصعدوا إليه، وأقاموا بحرب من يجاورهم من المسلمين والفرنج، وكانوا كلهم يكرهون مجاورتهم.

يمكن بعد ذلك تجاوز مجموعة الأحداث الصغرى، للوصول الى موقف الاسماعيلية من صلاح الدين الأيوبي، بسبب كراهيتهم له لاقدامه على الغاء الخلافة الفاطمية بمصر والتي كانوا يزعمون ارتباطهم بها معنوياً. وبسبب التحريضات والاغراءات التي كانت تدفعهم لمناصبة العداء. ففي سنة ٥٧٠ هـ، أرسل مقدم الاسماعيلية في مصياف ـ سنان شيخ الجبل ـ جماعة لقتل صلاح الدين وهو يحاصر حلب. فلما وصلوا رآهم الأمير خمارتكين ـ صاحب قلعة بوقيس ـ فعرفهم لأنه كان جارهم في البلاد وكثير الاجتماع بهم والقتال لهم. فلما رآهم قال لهم: ما الذي أقدمكم؟ وفي أي شيء جئتم؟ فهاجوه، وجرحوه جراحات مثخنة، وحمل أحدهم على صلاح الدين ليقتله، فقتل دونه، وقاتل الباقون من الاسماعيلية، فقتلوا جماعة من رجال صلاح الدين، وقتلوا. وفي السنة التالية (٥٧١ هـ) وبينما كان صلاح الدين يقيم على حصار قلعة أعزاز، دخل ذات يوم الى خيمة مقدم الطائفة الأسدية. فوثب عليه باطني ـ اسماعيلي ـ فضربه في سكين في رأسه فجرحه، فلولا أن المغفر الزرد تحت القلنسوة لقتله، فأمسك صلاح الدين يد الباطني بيده، إلا أنه لا يقدر على منعه من الضرب بالكلية، إنما يضرب ضرباً خفيفاً. واستمر الباطني بضرب صلاح الدين في رقبته بالسكين. وكان عليه كراغند، فكانت الضربات تقع في زيق الكراغند فتقطعه، والزردية تمنعها من الوصول إلى رقبته، حتى جاء أمير من أمراء صلاح الدين فأمسك بالسكين في كفه، فجرحه الباطني، ولم يطلقها من يده إلى أن قتل الباطني. وجاء آخر من الباطنية فقتل أيضاً، وثالث فقتل وركض صلاح الدين إلى خيمته كالمذعور، لا يصدق بنجاته. ثم اعتبر جنده، فمن أنكره أبعده. ومن عرفه أقره على خدمته [1].

---

(١) لمطالعة المزيد عن تفاصيل الأحداث المذكورة، يمكن الرجوع الى الكامل في التاريخ ـ أحداث سنوات ٥٢٠ و ٥٢١ و ٥٢٣ و ٥٢٧ و ٥٧٠ و ٥٧١ و ٥٧٢.

لم يكن باستطاعة صلاح الدين الأيوبي تجاهل استفزازات الاسماعيلية وتحدياتهم. فسار إليهم سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة (١١٧٦ م) فنهب بلدهم وخربه وأحرقه وحصر قلعة مصياف ـ وهي أعظم حصونهم وأمنع قلاعهم. فنصب عليها المنجنيقات. وضيق على من بها. ولم يزل كذلك، فأرسل مقدم الاسماعيلية سنان إلى صاحب حماه ـ شهاب الدين الحارمي ـ وهو خال صلاح الدين. يسأله أن يدخل بينهم ويصلح الحال ويشفع فيهم. وأنذره بقوله: إن لم تفعل قتلناك وجميع أهل صلاح الدين. فشفع فيهم، وسأل الصفح عنهم. فأجابهم إلى ذلك وصالحهم ورحل عنهم. وبقيت مصياف في قبضة الاسماعيلية ـ وتابع مقدم الاسماعيلية دوره للافادة من ظروف الصراع بين المسلمين والفرنج الصليبيين. ففي سنة ٦٥٠ هـ = ١٢٥٢ م. وبعد أن فشلت حملة ملك فرنسا لويس التاسع[1]. على مصر. وانسحب لويس التاسع إلى عكا. فأرسل اليه زعيم الاسماعيلية سفارة طلبت من لويس مالاً مقابل التزام الاسماعيلية ـ الحشيشية ـ الحياد. غير أن السفارة لم تنجح لأن الملك الفرنسي طلب ارجاء التحالف معها. فأرسل مقدم الاسماعيلية سفارة ثانية، طلبت بصفة خاصة أن تتحلل من الالتزام بدفع جزية للاسبتارية، وحملت السفارة معها إلى الملك الهدايا الثمينة، ووافقت على إقامة تحالف وثيق مع الفرنج. ونظراً لما كان يعلمه الملك لويس من العداوة التي تضمرها الاسماعيلية للمسلمين السنة، فقد شجع خطوتهم. وأنفذ (ييف البريتوني) للاتفاق على عقد معاهدة. وأعجب (ييف البريتوني) بالمكتبة التي اقتناها الحشيشية في مصياف، إذ عثر فيها على موعظة من سفر الاخبار، كان السيد المسيح قد وجهها الى القديس بطرس، والذي اعتبر بحسب ما قاله رجال الحشيشية تجسيداً آخر لهابيل ونوح وابراهيم. وتم

---

(١) لويس التاسع: (LOUIS IX-OU-SAINT LOUIS) ابن ملك فرنسا لويس الثامن وملكتها بلانش كاستيل. ولد في بواسي ـ فرنسا ـ سنة ١٢١٤ م. وأصبح ملكاً لفرنسا من سنة ١٢٢٦ حتى وفاته سنة ١٢٧٠ م. حكم في البداية تحت وصاية أمه. قاد حملة صليبية سنة ١٢٤٩ للاستيلاء على مصر. غير أنه هزم في معركة المنصورة سنة ١٢٥٠ م فافتدى نفسه ومن بقي من حملته. وخرج من مصر الى عكا حيث أقام فيها أربع سنوات (١٢٥٠ ـ ١٢٥٤ م) عاد بعدها الى بلاده. وفي سنة ١٢٦٩ حمل الصليب، وقاد الحملة الصليبية الثامنة التي تحطمت على أبواب تونس. ومات لويس التاسع هناك.

بينهم ابرام معاهدة للدفاع المشترك»[1]. ولكن هذه المعاهدة لم تمكن الفرنج أو الاسماعيلية من ايقاف المد الظافر للمسلمين. فقد تعاظمت قوة المسلمين، وأخذوا في التضييق على الفرنج في كل مكان. غير أن خطراً جديداً جاء من الشرق. فقد انطلق المغول من جوف آسيا، وعملوا خلال سيرهم على اقتلاع جذور الاسماعيلية وإبادة أصحابها. وبدؤوا بقلعة آلموت، ثم تابعوا ذبح اتباع الاسماعيلية، والاستيلاء على حصونهم وقلاعهم في بلاد فارس كلها. وعندما وصلوا إلى بلاد الشام استولوا على مصياف في جملة ما استولوا عليه من القلاع. حتى إذا ما انتصر المسلمون في عين جالوت (٦٥٩ هـ = ١٢٦٠ م) وانسحب المغول، عملوا قبل انسحابهم على تدمير مصياف وقلعتها.

خسر الاسماعيلية قلاعهم وحصونهم جميعاً، وأصبحوا شتاتاً، فوجدوا أن من مصلحتهم الوقوف إلى جانب الأقوياء للمحافظة على ما بقي من شتاتهم. وكان الظاهر بيبرس قد أخذ بانزال العقاب بالفرنج الذين تحالفوا مع المغول (إمارتي أنطاكية وأرمينية) فوقف الاسماعيلية الى جانب الظاهر بيبرس الذي حارب أعداءهم التتار فهزمهم، والذي حرر الاسماعيلية من الاتاوة - الجزية - التي كانوا يدفعونها لفرسان الاسبتارية. فنظم الاسماعيلية مجموعة من الكتائب التي اشتركت مع المسلمين في فتح عدد من الحصون والقلاع[2]. ولم يكن السلطان بيبرس ليسمح باعادة مصياف الى الاسماعيلية. فوضع فيها حامية من المسلمين، وأتبعها الى قيادة قلعة الحصن. ثم أتبعها إلى ولاية طرابلس.

يظهر العرض الوجيز السابق، أن قلعة مصياف قد انفردت عن كل ما عداها من قلاع بلاد الشام وحصونها بدورها المميز. فإذا كانت قلاع البلاد الساحلية قد انتظمت في إطار دفاعي متكامل لحماية المناطق التي احتلها الفرنج. وإذا كانت قلاع البلاد الداخلية وحصونها قد انتظمت بدورها في إطار دفاعي متكامل لحماية بلاد المسلمين.

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ٤٨١/٣ - ٤٨٢.

(٢) المرجع السابق: ٥٧٠/٣ - ٥٧١.

فقد ارتبطت مصياف وقلعتها بمجموعة القلاع المتناثرة والمتباعدة والممتدة حتى عمق بلاد فارس. ولقد اختار الاسماعيلية حياة العزلة في القلاع نظراً لما كان يفصلهم عن محيطهم من غرابة في التفكير وشذوذ في المعتقدات. وانحراف في ممارساتهم الاجرامية. ولهذا حاربهم المسلمون وتنكر لهم الفرنج، وأجهز عليهم المغول التتار. ولئن تعرض تنظيم الاسماعيلية - الحشاشين - للضربة القاضية على أيدي المغول، إلا أن المسلمين والفرنج قد أخضعوهم من قبل لقيود صارمة. وإذا كان بقاء قلعة مصياف في قبضة الاسماعيلية طوال فترة الحروب الصليبية القديمة، على حدود خط الصراع بين المسلمين والفرنج. هو برهان على كفاءتهم الديبلوماسية العالية. وبرهان أيضاً على مرونتهم في التحرك بين مراكز القوى المتصارعة. فان نهايتهم انما هي البرهان الثابت على عجزهم عن إقامة كيان مميز لهم، رغم ما توافر لهم من الثراء الفاحش، والامكانات الضخمة. ذلك لأن مصدر ثرائهم قد اعتمد على النهب والسلب والابتزاز والقتل والارهاب - وهي وسائل كفيلة في حد ذاتها بالقضاء على كل كيان حتى لو تمكن مثل هذا الكيان الظهور لبعض الوقت، في أي وقت، على سطح الأرض.

٢٢ ـ قلعة نمرود [الصبيبة].

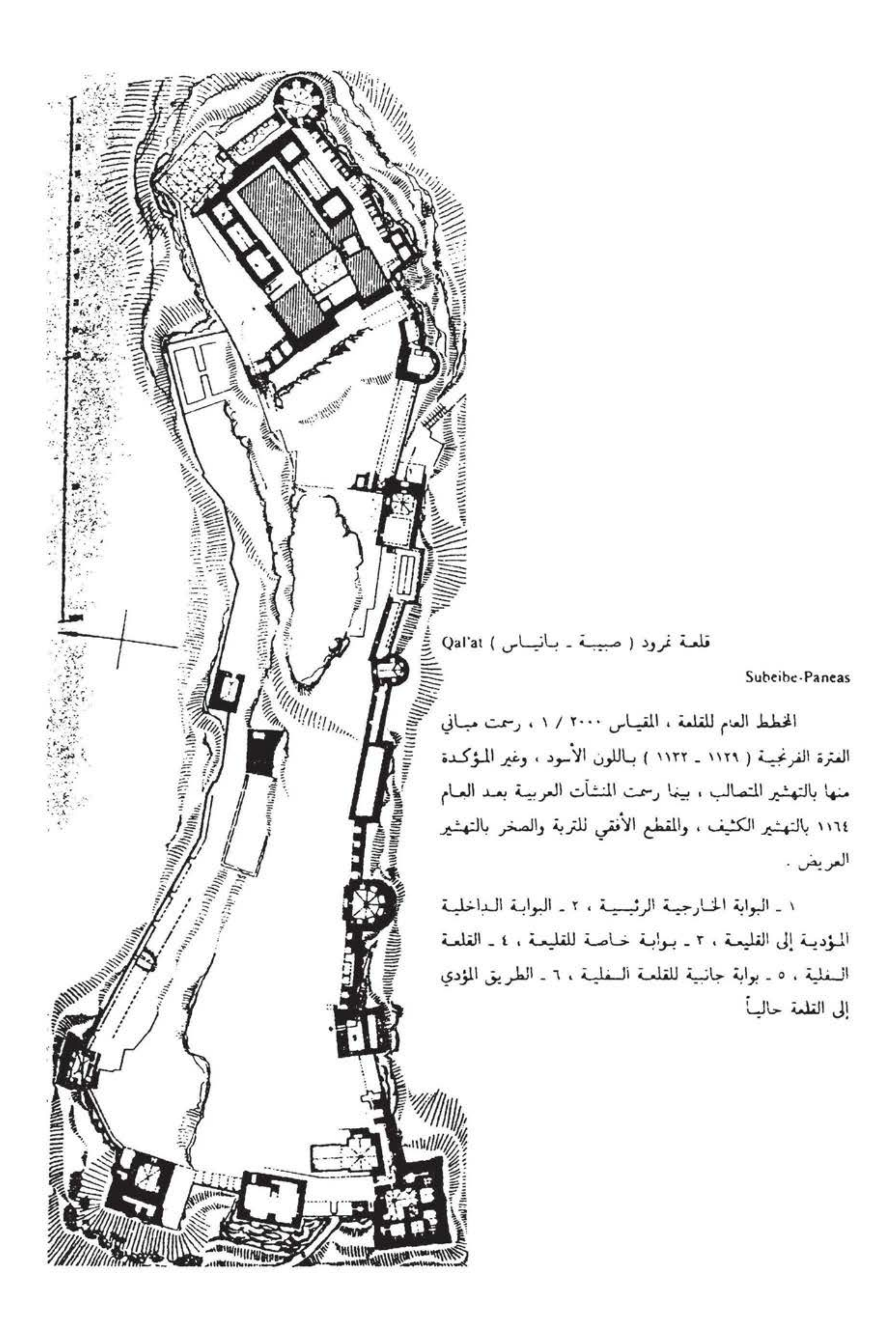
تقع (قلعة نمرود)[1] في الشعاب الجنوبية لجبال لبنان الشرقية، وهي الى الشمال مباشرة من بلدة بانياس الصغيرة في الجولان، على الحدود بين سورية وفلسطين التي تحتلها اسرائيل، قرب ينابيع الاردن. وتحتل جرفاً صخرياً متطاولاً، يشرف على هضبة عالية. ترتفع تدريجياً نحو الشمال. وتواجه دفاعاتها الرئيسة الجبال في الشمال. وإن درجة الانحدار ـ الميل ـ المتواضعة على السفوح الجنوبية قد تطلبت إقامة تحصينات أقوى على هذا الجناح الذي كانت تحميه ثمانية أبراج وحصون بارزة من أحجام متباينة وتصميم مختلف. أما الجناح الشمالي، فيتمتع بحماية طبيعية على سفح صخري شديد الانحدار، ولم يكن يحميه سوى سور بسيط مضلع السطوح، بينما كان الجناح الغربي متكيفاً مع الطبيعة الطبوغرافية، وهو محمي بعدد من الأبراج القوية، مثله كمثل الجناح الجنوبي. ونظراً لوجود هذه القلعة على مسافة متوسطة بين الشام ـ دمشق ـ وفلسطين. فقد كانت مركزاً للصراع بين دمشق وجيشها من جهة، وبين الفرنج وجيشهم من جهة أخرى. وقد وصفها أبو الفداء بقوله: «بانياس ـ اسم لبلدة صغيرة ذات أشجار محمضات وغيرها. وذات أنهار. وهي على مرحلة ونصف من دمشق، من جهة الغرب، بميلة الى الجنوب. والصبيبة اسم لقلعتها. وهي من الحصون المنيعة. قال العزيزي: ومدينة بانياس في لحف جبل الثلج ـ المعروف باسم جبل الشيخ أو جبل حرمون ـ وهو مطل عليها. والثلج على رأسه كالعمامة، لا يعدم منه صيفاً ولا شتاء»[2].

عندما استقر الفرنج الصليبيون في القدس (سنة ٤٩٢ هـ = ١٠٩٨ م) شرعوا على

---

(١) قلعة الصبيبة: (QAL'AT SUBEIBE) أو قلعة بلنياس أو بانياس: (PENEAS)-(BELINAS).

(٢) القلاع أيام الحروب الصليبية. ص: ٥٢ ـ ٥٤.



قلعة نمرود (صبيبة - بانياس) Qal'at Subeibe-Paneas

المخطط العام للقلعة ، المقياس ٢٠٠٠ / ١ ، رسمت مباني الفترة الفرنجية (١١٢٩ - ١١٣٢) باللون الأسود ، وغير المؤكدة منها بالتهشير المتصالب ، بينما رسمت المنشآت العربية بعد العام ١١٦٤ بالتهشير الكثيف ، والمقطع الأفقي للتربة والصخر بالتهشير العريض .

١ - البوابة الخارجية الرئيسية ، ٢ - البوابة الداخلية المؤدية إلى القليعة ، ٣ - بوابة خاصة للقليعة ، ٤ - القلعة السفلية ، ٥ - بوابة جانبية للقلعة السفلية ، ٦ - الطريق المؤدي إلى القلعة حالياً

قلعة صبيبة بانياس (نمرود)

الفور بالعمل على توسيع حدود مناطقهم التي احتلوها. فعهد ملك القدس - بلدوين - بامارة الجليل الى (هيوسانت أومر) وشجعه على أن ينتهج سياسة توسعية عدوانية ضد المسلمين. فكان أول عمل قام به - هيو - هو تشييد قلعة على الجبل (قلعة تورون - والمعروفة باسم قلعة تبنين) للتحكم بالطريق الذي يربط بين صور وبانياس ودمشق. وذلك حتى يعد أفضل الظروف للاغارة على الأراضي الخصيبة الواقعة إلى الشرق من بحر الجليل. ثم شيد قلعة أخرى على التلال الواقعة إلى الجنوب من بحيرة طبرية - أطلق عليها العرب اسم قلعة علعال - واكتمل بناء القلعتين (سنة ٤٩٩ هـ = ١١٠٥ م) غير أن حصن علعال لم يبق في أيدي الفرنج سوى فترة قصيرة. إذ أن أمير دمشق - طغتكين - لم يسمح بأن تتعرض بلاده للتهديد، فقاد جيشه سنة ٤٩٩ هـ - بينما كان أمير الجليل هيو عائداً إلى علعال بغنيمة ثقيلة بعد إغارة قوية على أملاك المسلمين. وانقض طغتكين بجيشه، فأصيب هيو بجراح أودت بحياته، وتفرق رجاله، ولم يجد طغتكين صعوبة في الاستيلاء على قلعة علعال[١].

هكذا أصبحت بانياس وقلعتها (قلعة نمرود أو الصبيبة) على خط الصدام المباشر بين جيش دمشق المدافع عن جنوب فلسطين، وبين جيش الفرنج الصليبيين في القدس والجليل. وكان مقدم طائفة الاسماعيلية (بهرام الاسترابادي)[٢] قد حصل من تاج الملك بوري بن طغتكين على قلعة بانياس. فقام الاسماعيلية بتسليمها الى الفرنج. فلما كان من أمير دمشق - شمس الملوك بن تاج الملك واسمه اسماعيل - إلا أن حشد جيشه دون أن يعلم أحد مقصده، ثم سار وسبق خبره - أواخر المحرم من سنة سبع وعشرين وخمسمائة - فنزل على بانياس، وقاتله لساعته، وزحف إليه زحفاً متتابعاً. وكان الفرنج غير متأهبين وليس في القلعة من يدافع عنها. واقترب شمس الملوك من سور المدينة، وترجل بنفسه، وتبعه الناس من الفارس والراجل، ووصلوا الى السور، فنقبوه ودخلوا البلد عنوة. والتجأ من كان فيها من جند الفرنج الى الحصن وامتنعوا به، فقتل من البلد كثير من الفرنج، وأسر كثير، ونهبت الأموال، وقاتل المدافعين عن

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ٢/١٥٥.

(٢) انظر (قلعة مصياف) و(قلعة دمشق).

قلعة نمرود ـ الصبيبة قتالاً شديداً، واتصل القتال ليلاً ونهاراً. حتى ملكها شمس الملوك بالأمان، وعاد إلى دمشق. وكان الفرنج عندما علموا بهجوم جيش دمشق على بانياس وقلعتها قد شرعوا بحشد جندهم، والسير اليها. فأتاهم خبر فتحها، فبطل ما كانوا فيه.

حدث بعد ذلك تطور مؤلم بالنسبة لبلدة بانياس وقلعتها نمرود. ففي سنة أربع وثلاثين وخمسمائة (١١٣٩ م) كان نور الدين زنكي قد قطع شوطاً بعيداً في توحيد بلاد الشام، وحشد القوى لقتال الفرنج. ويظهر أن حاكم دمشق ـ مجير الدين آبق ـ قد خاف من استيلاء نور الدين على دمشق وإخراجه منها ـ وفي الوقت ذاته أدرك الفرنج أن نور الدين قد بات وهو يشكل أكبر خطر يتهددهم. فلما جاء نور الدين بجيشه الى دمشق اتفق مجير الدين آبق ومتولي ترتيب دولته ـ معين الدين أنز ـ مع الفرنج على تبادل الدعم والمساعدة ضد نور الدين، وذلك مقابل تسليم بانياس وقلعتها نمرود الى الفرنج. وحشد الفرنج جيشهم، وساروا إلى دمشق، فانسحب نور الدين الى الشمال، ولم يصطدم بهم، وسار جيش دمشق مع الفرنج الى بانياس، فقاومت حامية قلعة نمرود قدر استطاعتها، غير أنها اضطرت للاستسلام. فقام مجير الدين بالوفاء بوعده، وسلم بانياس وقلعتها الى الفرنج الصليبيين، وعاد جيش دمشق الى دمشق. وأقام الفرنج حامية لهم في قلعة نمرود بقيادة ـ رينيه بروس ـ الذي أقاموه حاكماً عليها. وتم تعيين رئيس شمامسة عكا ـ آدم ـ أسقفاً لها[1].

تعلم الفرنج من تجربتهم هذه درساً يقضي بأنه كيما يعيش الفرنج في بلاد الشام، فانه ينبغي عليهم عدم الامتناع عن التفاهم مع المسلمين، بل يجب عليهم أن يظهروا استعدادهم للتعاون مع من هم أقل خطراً عليهم ضد من هو أكثر خطراً. وحمل ملك القدس ـ فولك ـ نبلاءه على أن يتبنوا سياسته، وأن يسيروا على نهجه، وظن فولك

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ٢/٢٨٧ ـ ٢٨٨ و ٣٦٤ ـ ٣٦٧ والكامل في التاريخ ـ أحداث سنة ٥٢٣ هـ وسنة ٥٣٤ هـ.

والفرنج أنه باستطاعتهم استثمار التناقضات بين أمراء المسلمين لتحقيق هدفهم بالاستيلاء على دمشق، بعد أن أصبحت بانياس وقلعتها نمرود في قبضتهم، فانطلقوا منها (سنة ١١٤٨ م) بأضخم جيش زج به الفرنج في القتال، وتوجهوا نحو دمشق. واتخذ معين الدين أنز ما هو ضروري من الاجراءات للدفاع. وأرسل الى نور الدين زنكي بحلب يستنجد به، وأسرع نور الدين بالتحرك، وصمد جيش دمشق. وفشل هجوم الفرنج. ثم قامت جماعة من التركمان وجهها أمير بعلبك سنة ٥٤٦ هـ = ١١٥١ م فأغارت على بانياس. ورد الفرنج على ذلك بتوجيه قوة من بانياس للاغارة على بعلبك، ولم يلبث نور الدين زنكي أن نظم بالتعاون مع أمير دمشق مجير الدين آبق، إغارة على بانياس سنة ٥٤٨ هـ = ١١٥٣ م. وقد برهنت هذه الاغارة على أن جهود الفرنج للتفريق بين المسلمين لم تسفر إلا عن زيادة التعاون فيما بينهم، مما أدى بالتالي إلى خضوع دمشق لنور الدين زنكي (سنة ٥٤٩ هـ = ١١٥٤ م). وعقد الفرنج هدنة مع نور الدين زنكي حتى يوجهوا جهدهم ضد مصر. غير أنهم لم يلبثوا حتى عادوا لاستفزاز دمشق. وحدث في سنة ٥٥٢ هـ = ١١٥٧ م أن عمل ملك القدس - بلدوين - على نقض الهدنة، وهاجم الرعاة الذين جاؤوا بقطعانهم من الخيول والأغنام لانتجاع المراعي الغزيرة والقريبة من بانياس - وحصل بذلك على أثمن غنيمة أمكن للفرنج الحصول عليها طوال عشرات السنوات السابقة. فما كان من نور الدين زنكي إلا أن شهر سيف الانتقام. وتمكن قائده شيركوه من انزال الهزيمة بجماعة من الفرنج كانوا يغيرون على البقيعة. كما تمكن نصرة الدين - شقيق نور الدين - من انزال هزيمة مماثلة بجماعة من فرسان الاسبتارية قرب بانياس. وجاء نور الدين بجيشه فحاصر بانياس التي لم تلبث أن استسلمت له، غير أن قلعة نمرود - الصبيبة - والواقعة على بعد ميلين من بانياس، قاومت الهجوم بضراوة بقيادة الكندسطبل همفري سيد تبنين. وأسرع ملك القدس - بلدوين - بقيادة جيشه لانقاذ حامية قلعة نمرود، والتي كانت على وشك الاستسلام للمسلمين. فما كان من نور الدين إلا أن أحرق بلدة بانياس وانسحب منها، ونصب كميناً لجيش الفرنج أثناء عودته من بانياس الى القدس، وأنزل به خسائر فادحة. حتى أن الملك بلدوين لم ينج إلا بأعجوبة، وعاد

المسلمون لمحاصرة قلعة بانياس، غير أنهم ما لبثوا أن رفعوا الحصار عنها، انتظاراً لفرصة أفضل[1].

كانت الأوضاع في مصر تتدهور بصورة خطيرة خلال هذه المرحلة، مما أفسح المجال أمام الفرنج لارسال قواتهم إلى مصر. فأرسل الخليفة الفاطمي الى نور الدين يستنجد به ويستمده. وأسرع نور الدين فجهز جيشاً ووجهه إلى مصر بقيادة أسد الدين شيركوه. وقام نور الدين بقيادة جيشه الى طرف بلاد الفرنج مما يلي دمشق ليمنع الفرنج من التعرض لأسد الدين، ثم هاجم بانياس. حتى إذا ما تجاوزت الحملة سيناء، توجه نور الدين بجيشه صوب الشمال، حيث دمر جيشاً للفرنج كان قد احتشد عند حارم. وعاد بعد ذلك من أقصى الشمال الى الجنوب، ليظهر بصورة مباغتة أمام بانياس، وقد وردت قصة المعركة عند ابن الأثير - كما يلي: «فتح نور الدين محمود قلعة بانياس سنة تسع وخمسين وخمسمائة - ١١٦٣ م. وكان نور الدين بعد أن فتح حارم، قد أذن لعسكر الموصل وديار بكر بالعود إلى بلادهم. وأظهر أنه يريد طبرية، فجعل من بقي من الفرنج همتهم في حفظها وتقويتها. فسار نور الدين الى بانياس لعلمه بقلة من فيها من الحماة المانعين عنها، ونازلها وضيق عليها وقاتلها.

وكان في جملة عسكره أخوه نصرة الدين أمير أميران. فأصابه سهم فأذهب إحدى عينيه، فلما رآه نور الدين قال له: لو كشف لك عن الأجر الذي أعد لك لتمنيت ذهاب الأخرى.

وجد في حصارها، فسمع الفرنج، فجمعوا، فلم تتكامل عدتهم حتى فتحها. على أن الفرنج كانوا قد ضعفوا بقتل رجالهم بحارم وأسرهم، فملك القلعة، وملأها ذخائر وعدة ورجالاً. وشاطر الفرنج في أعمال طبرية، وأقروا له على الأعمال التي لم يشاطرهم عليها مالاً يؤدونه له في كل سنة. ووصل خبر ملك حارم وحصن بانياس - نمرود - الى الفرنج بمصر، فصالحوا أسد الدين شيركوه. وعادوا ليدركوا بانياس، فلم يصلوا إلا وقد ملكها.

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية: (٢/٤٧٣ و ٥٤٣ و ٥٤٨ و ٥٥٢ و ٥٩٤ - ٥٩٩.

ولما فتح حصن نمرود - الصبيبة - كان مع نور الدين ولد معين الدين أنز، الذي سلم بانياس الى الفرنج، فقال له نور الدين: للمسلمين بهذا الفتح فرحة واحدة ولك فرحتان. فقال كيف؟ فأجابه نور الدين: لأن اليوم برد الله جلد والدك من نار جهنم» [١].

كان فتح نور الدين لبلدة بانياس وقلعتها، بمثابة ضربة عنيفة لأحلام الفرنج بالتوسع في بلاد الشام ومصر. فلما توفي نور الدين (سنة ٥٦٩ هـ = ١١٧٣ م). ظن ملك الفرنج في القدس - املريك - أن باستطاعته اغتنام الفرصة لاستعادة سيطرته على بانياس. فزحف بجيشه إلى بانياس. وخرج حاكم دمشق (محمد ابن المقدم) يقود جيشه. فالتقى الجيشان، غير أنه لم يحدث صدام بينهما، إذ سرعان ما تم عقد هدنة تعهد فيها ابن المقدم بدفع مبلغ كبير من المال للفرنج، مع التعهد باطلاق سراح أسرى الفرنج المحتجزين في دمشق. وما لبث ملك القدس املريك أن مات، وخلفه بلدوين، الذي قرر تشييد استحكامات متينة على امتداد حدود امارة دمشق. حيث أدى ضياع بانياس وقلعتها نمرود، إلى قلب نظام الدفاع في مملكة القدس رأساً على عقب، فبينما انصرف همفري سيد تبنين الى تحصين (تل هونين) على الطريق الممتد من بانياس الى تبنين، شرع الملك بلدوين في تشييد قلعة على المجرى الأعلى لنهر الأردن، بين بحيرة الحولة وبحر الجليل، كيما تتحكم في المخاضة والتي يزعمون أنه دارت عندها المصارعة بين يعقوب الملاك فأطلق الفرنج عليها اسم (مخاضة الأحزان). وحدث في سنة ٥٧٥ هـ = ١١٧٩ م وحينما بدأ موسم حركة قطعان الغنم في الربيع أن نهض ملك القدس بلدوين ليعترض الأغنام القادمة من سهول دمشق نحو بانياس ليسوقها أمامه. وكان صلاح الدين في مرصده في قلعة نمرود، فوجه قواته ودارت معركة انتصر فيها المسلمون انتصاراً حاسماً [٢].

قدر صلاح الدين أهمية قلعة نمرود بحكم موقعها المشرف على الجليل، والذي

---

(١) **الكامل في التاريخ** - أحداث سنة تسع وخمسين وخمسمائة.

(٢) **انظر بحث** (قلعة شقيف أرنون وهو البحث رقم ١٢).

يشكل مرصداً رائعاً لتحركات الفرنج. فوضع فيها حامية قوية بقيادة ابنه الأفضل. وكان يكلفه بتنفيذ بعض المهمات القتالية.

تعرضت وحدة المسلمين للتمزق بين الاخوة الأيوبيين - بعد وفاة صلاح الدين وجاءت الحملة الصليبية الخامسة. وخاف أمير دمشق - المعظم الأيوبي - أن يعود الفرنج لاستخدام بانياس وقلعتها نمرود - الصبيبة - قاعدة للهجوم على دمشق. فأمر بتخريبها، غير أن أمراء دمشق عادوا سراعاً وعملوا على اعادة ترميم القلعة واصلاحها وتحصينها. وجاء الظاهر بيبرس فقدر أهمية القلعة، فأمر بدعمها وزيادة قوتها، حتى تبقى عقبة قوية على طريق التقدم من فلسطين الى دمشق.

انتهت الحروب الصليبية القديمة. وفقدت قلعة بانياس أهميتها، وتجاوزها الزمن، فتداعت أركانها، ولم يبق منها سوى أطلال تشهد بما عاشته قلعة نمرود من أمجاد يوم دافعت عنها سيوف المسلمين. وجاءت الحملة الصليبية الجديدة تحت راية اليهودية (الصهيونية). وسارت على خطوات الحملات التي سبقتها. وأمكن لها الاستيلاء على بانياس وقلعتها (يوم ٩ حزيران - يونيو - ١٩٦٧). وأسرع قادة جيش العدوان الصهيوني لاجراء الحفريات - تحت قلعة نمرود أو الصبيبة - على أمل الوصول الى ثروات يمكن نهبها واضافتها الى ما يتم نهبه من ثروات سطح أرض فلسطين.

٢٤ ـ قلعة رودس .

كان لا بد للعرب المسلمين من أن يفتحوا جزيرة رودس، وهم ينازعون الروم البيزنطيين نفوذهم في البحر ويشدون عليهم الخناق ليضبطوا أمم الأرض ـ كما قال معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، ففي سنة ٥٣ هـ = ٦٧٢ م. وبينما كان العرب المسلمون يحاصرون عاصمة الروم ـ القسطنطينية « توجهت قوة بحرية بقيادة جنادة بن أبي أمية الأزدي الى رودس[١] ففتحتها، ونقل معاوية إليها جماعة من العرب المسلمين، فزرعوا الأرض، وشيدوا المساكن وكانوا إذا أمسوا دخلوا الحصن. ولهم ناطور يحذرهم ما في البحر ممن يريدهم بكيد، فكانوا على حذر منهم، وكانوا أشد شيء على الروم. فيعترضونهم في البحر، فيقطعون سفنهم. فخافهم العدو. وكان معاوية يدر لهم الأرزاق والعطاء »[٢] وقد يكون من الطبيعي أن يظهر العرب المسلمون اهتمامهم بجزيرة رودس، وأن يعملوا على فتحها، نظراً لما تتميز به من موقع جيواستراتيجي قد ضمن لها الهيمنة على مدخل بحر ايجة. وكان حصار القسطنطينية مرتبط بالهيمنة على بحر ايجة.

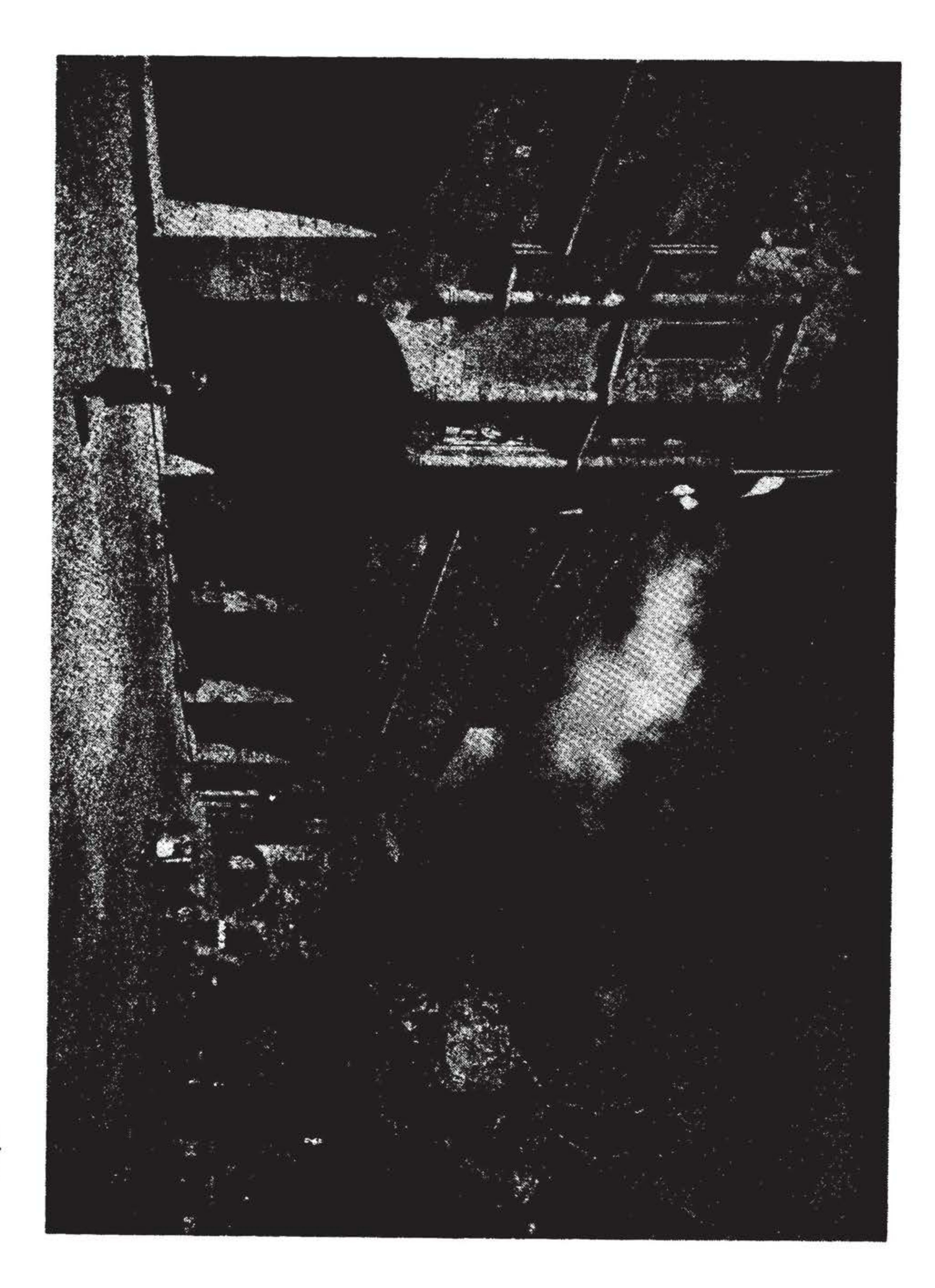
وهكذا بقيت أهمية رودس مرتبطة بصراع المسلمين ضد الروم، ثم بصراع العثمانيين ضد قوى الصليبية وضد قوى الغرب فيما بعد. وقد وصف أبو الفداء الجزيرة بقوله: « جزيرة رودس، فتحها المسلمون في زمن معاوية، وامتداد هذه الجزيرة إلى الجنوب بانحراف نحو خمسين ميلاً. وعرضها نصف ذلك، وبين هذه الجزيرة وبين ذنب اقريطش ـ كريت ـ مجرى واحد. وبعض رودس للفرنج. وبعضها لصاحب

---

(١) رودس: (RHODES) وباليونانية: (RHODOS) وباللاتينية: (RODI) وهي مدينة وقلعة تقع على الطرف الشمالي لجزيرة رئيسة من جزر الدوديكانيز: (DODECANESE) وتحمل الاسم ذاته.

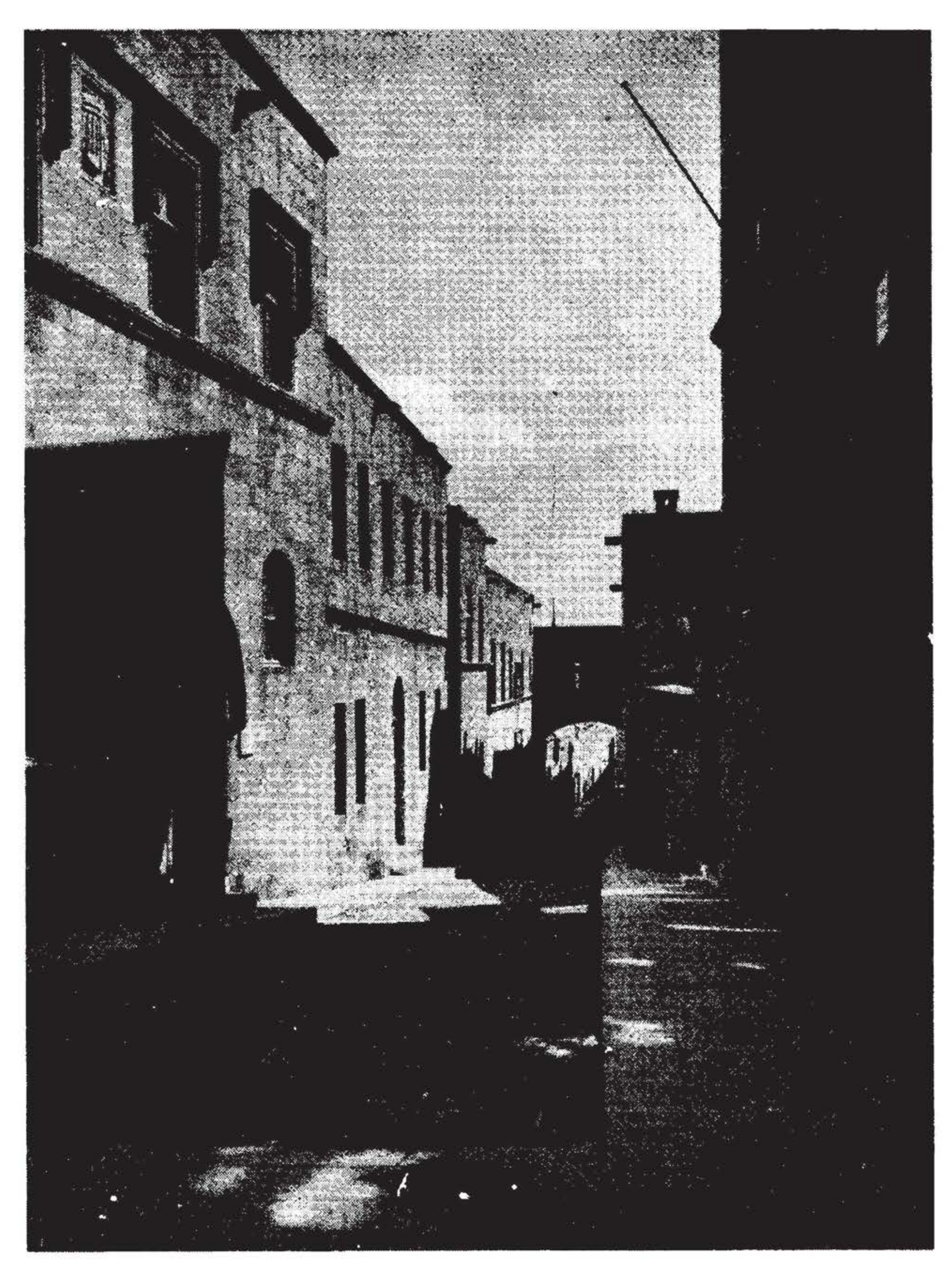
(٢) تاريخ الطبري. والكامل في التاريخ. أحداث سنة ٥٣ هـ.

رودس البلدة وقصر مقدم الطائفة



رودس

مستشفى فرسان القديس يوحنا الاورشليمي



رودس

رودس الشارع الرئيسي للرباط - كاستروم، ونزل فرنسا الى اليسار.



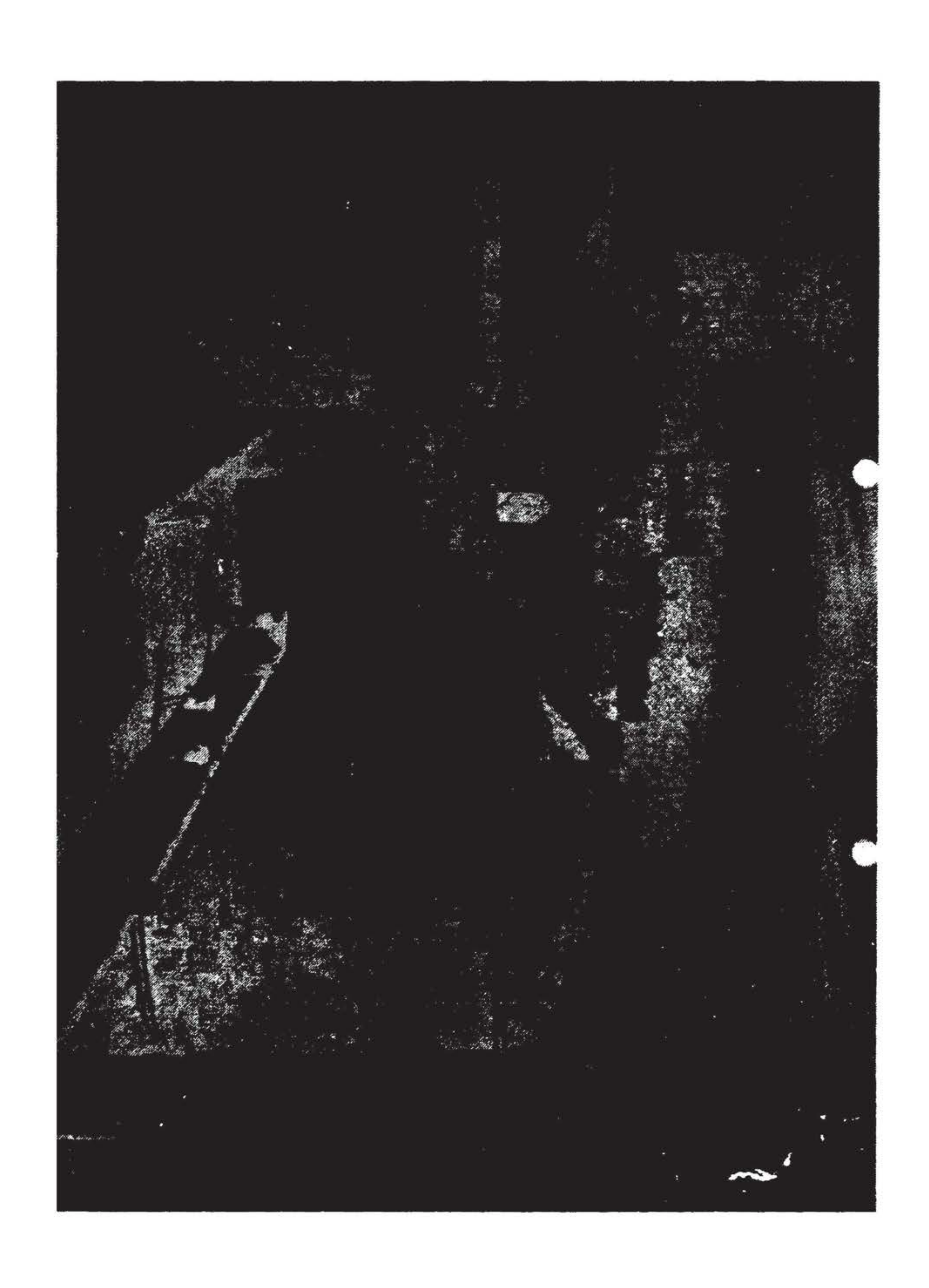
رودس

رودس بوابة دخول صغيرة في غربي المدينة.



جبهة التحصينات الخارجية للقديس نيقولا

[illegible]



رودس البوابة مع قصر المقدم



رودس سيد . تراسبورغ (١٢٩٠) لويس التاسع ملك فرنسا مع زوجته مارغريت دوبروفتس.

اصطنبول. ورودس في الغرب عن قبرص، بانحراف الى الشمال. وهي بين جزيرة المصطكي وبين جزيرة أقريطش »[1].

وقد يكون بالمستطاع تجاوز مجموعة الأحداث التي عرفتها جزيرة رودس عبر الصراع البحري المتطاول بين العرب المسلمين من جهة وبين الروم البيزنطيين من جهة ثانية فقد تداولت أيدي المسلمين والروم هذه الجزيرة مرات كثيرة. حتى جاءت الحروب الصليبية فجعلت من رودس قاعدة ـ في جملة قواعد الفرنج للهجوم على بلاد الشام، وعندما انتهت الحملات الصليبية الى الفشل وطردت بقايا الفرنج من بلاد الشام، ظهرت مشكلة الطوائف الدينية، وهي الجناح الصليبي المتطرف ـ إذ أن هذه الطوائف قد نظمت وعاشت للحرب ومن أجل الحرب ـ ولهذا فقد شرعت هذه الطوائف في البحث عن قواعد لها حتى تتابع دورها الوظيفي. فذهب فرسان التيوتون ـ الألمان ـ إلى بحر البلطيق واستقروا هناك، بينما ذهب فرسان الداوية الى قبرص. وكان فرسان الاسبتارية أكثر تعقلاً وحكمة، فقد توجهوا باسطولهم الصغير إلى جزيرة رودس، ونزلوا على أرضها، وشرعوا في اخضاعها. واستبسلت الحامية اليونانية بالجزيرة في القتال. ولم تسقط قلعة فيليرمو الكبيرة في أيدي الغزاة الاسبتارية إلا بالخيانة (سنة ٧٠٦ هـ = ١٣٠٦ م) بينما استمرت رودس المدينة ـ في مقاومتها لمدة سنتين أخريين. وعندها شرع الاسبتارية بتنظيم أمورهم وجعلوا من المدينة ـ بمينائها الرائع، أمنع حصن في شرقي البحر الأبيض المتوسط.

فقد بدأ مقدم الاسبتارية (فولكو دوفيلاريـه)[2] على الفـور بتحسين دفـاعـات المدينة واستمر في عمله بدعم التحصينات وتقويتها بدون انقطاع ولا توقف، سواء في مدينة رودس أو في قلعة بودروم. وغالباً ما كان البناء محصوراً في الجزء الحصين من المدينة، أي البلدة الداخلية التي ضمت قصر مقدم الطائفة والأحياء السكنية للجاليات القومية المختلفة من تلك الطائفة، وقد زيدت مساحة المدينة باضافة الحي السكني

---

(١) تقويم البلدان ـ أبو الفداء ـ ص: ١٩٥.

(٢) فولكو دوفيلاريه: (FULCO DE VILLARET).

الخارجي الذي أطلق عليه اسم (برغس)[1]. وجرى هذا التوسع تحت اشراف مقدم الطائفة (ديودونية دوغوزون)[2] وذلك في القرن الرابع عشر. ثم أضيفت أجزاء عديدة من الدفاعات وأعيد تحصينها، أو شيدت مجدداً أثناء قيادة مقدمي الاسبتارية (فيليبر دونایاك) و(أنتونيو فلاڤيانو)[3] حيث تم بناء برج الحصار الضخم عند المرفأ، وعززت البوابتان الجنوبيتان لمجابهة احتمال غزو الاسطول المصري لجزيرة رودس. والمعروف أن ملك قبرص والبابا ايربان قد عملا باستمرار على تحريض ملوك أوروبا وقادتها من أجل توجيه حملة صليبية جديدة - بعد اعادة فتح المسلمين لمدينة عكا -. ونجحت الجهود المبذولة فتم حشد قوات حملة صليبية جديدة في جزيرة رودس (سنة ٧٦٧ هـ = ١٣٦٥ م) وعندما انتهت الاستعدادات جاء ملك قبرص - بطرس - الى جزيرة رودس وقاد الاسطول الذي ضم ثمان ومائة سفينة، بالاضافة الى السفن الضخمة التي اشتركت بها البندقية، وبالاضافة أيضاً الى سفن الاسبتارية، بحيث وصل عدد سفن الاسطول الى خمس وستين ومائة سفينة، وسار هذا الاسطول الى الاسكندرية. ونزلت قوات الحملة بصورة مباغتة فاستولت على المدينة. واحتفل الفرنج الصليبيون بانتصارهم، بأن أجروا مذبحة وحشية لا مثيل لها. وما وقع في الحروب الصليبية التي استمرت مائتي سنة تقريباً لم تعلم الصليبيين شيئاً عن الانسانية، فما ارتكبوه من الجرائم في الاسكندرية، لم يضارعها سوى تلك التي حدثت في القدس سنة ٤٩٢ هـ = ١٠٩٨ م وفي القسطنطينية سنة ٦٠٠ هـ = ١٢٠٣ م[4]. وكان من طبيعة الأمور، وقد فشلت الحملة الصليبية في هجومها على الاسكندرية، أن يتوقع مقدم الاسبتارية في رودس (جان دولاستيك)[5] قيام الاسطول المصري بعملية انتقامية ضد رودس.

---

(١) برغس: (BURGOS)

(٢) ديودونيه دوغوزون: (DIEUDONN DE GOZON).

(٣) فيليبر دونایاك: (PHILIBERT DE NAILLAC).

وأنتونيوفلاڤيانو: (ANTONIO FLAVIANO).

(٤) تاريخ الحروب الصليبية: ٣/٧٢٩ - ٧٣١ و ٧٤٣ و ٧٥٠.

(٥) جان دولاستيك: (JEAN DE LASTIC).

فعمل على دعم الجناحين الغربي والجنوبي من دفاعات المدينة. ولم يتأخر اسطول مصر في الرد. فأغار على رودس سنة ٨٤٤ هـ = ١٤٤٠ م. وعاد الاسطول المصري سنة ٨٤٨ هـ = ١٤٤٤ م فأنزل قواته على أرض الجزيرة، وحاصرت قوات المسلمين مدينة رودس لمدة زادت على ستة أسابيع. غير أن أسوار رودس وتحصيناتها صمدت للحصار، وأحبطت كافة الهجمات. مما حمل قوات المسلمين على الانسحاب. وتبع ذلك تعزيز دفاعات المدينة باضافة سور خارجي متواصل، حيث شيد مقدم الاسبتارية (ريموند زاكوستا)[١] الحصن الخارجي سنة ٨٦٥ هـ = ١٤٦٠ م، وهو الحصن الذي حمل اسم (سان نيقولا) والذي احتل موقعه فوق بقعة الأرض الفاصلة بين المرفأ الرئيسي. و(مرفأ ماندراكي)[٢]. ثم استمر العمل في دعم التحصينات والدفاعات بعدئذ في عهد مقدمي الاسبتارية (جيوفاني أورسيني، وبيير دوبوسون)[٣] حيث ظهرت الحاجة لتطوير وسائل الدفاع بسبب تعاظم قدرة الاتراك العثمانيين الذين أخذوا على عاتقهم قيادة أعمال الجهاد في سبيل الله ضد الفرنج الصليبيين، فنقلوا الحرب الصليبية إلى أرض أوروبا. وأفاد فرسان الاسبتارية من موقع جزيرتهم لمتابعة اذكاء روح الحرب الصليبية، وللاشتراك فيها بقواتهم واسطولهم.

لقد بدأ الاتراك العثمانيون بالظهور على مسرح الأحداث مع نهاية الحروب الصليبية في المشرق[٤]. وأدرك الأوروبيون - اللاتين - سراعاً خطر هذه القوة المتعاظمة. فلما احتل الفرسان الاسبتارية جزيرة رودس، زاد الاهتمام ببحر ايجة، وحاول أمير آيدين - التركي - إنشاء اسطول في أزمير لمجابهة خطر فرسان

---

(١) ريموند زاكوستا: (RAYMOND ZACOSTA).

(٢) مرفأ ماندراكي: (MANDRAKI HARBOUR).

(٣) جيوفاني أورسيني: (GIOVANNI ORSINI).
وبيير دوبوسون: (PIERRE D'AUBUSSON).

(٤) طرد المسلمون بقايا الفرنج من عكا، ومن آخر المعاقل التي بقيت في أيديهم سنة ٦٩٠ هـ = ١٢٩١ م. في حين ولد مؤسس الدولة العثمانية - عثمان - سنة ٦٥٨ هـ = ١٢٥٩ م وأصبح سلطاناً سنة ٦٨٧ هـ = ١٢٨٨ م وتوفي سنة ٧٢٦ هـ = ١٣٢٦ م.

الاسبتارية، فأسرعت البندقية وفرسان الاسبتارية وملك قبرص والبابا، بتجهيز اسطول مشترك (من ٣٤ سفينة) ووجهوا حملة استولت على أزمير، (سنة ٧٤٥ هـ = ١٣٤٤ م) وأقام الاسبتارية في أزمير إلى أن طردهم تيمور الأعرج - تيمورلنك - منها (سنة ٨٠٥ هـ = ١٠٤٢ م). ولكن وقبل هذا التاريخ بقليل كان الفرنج الصليبيون - من فرنسيين وانكليز ومجر وألمان واسبان وايطاليين - قد جهزوا جيشاً مشتركاً زاد عدد أفراده على مائة ألف مقاتل، للقيام بحملة صليبية جديدة ضد المسلمين. وتولى فرسان الاسبتارية قيادة اسطول الحملة الى البحر الأسود بقيادة مقدمهم فيليبير دوناياك. والمعروف أن السلطان العثماني بايزيد[1] قد دمر هذا الهجوم، وشتت قوات الفرنج في معركة نيقوبوليس[2] الشهيرة. وقد أكدت هذه المعركة للاتراك العثمانيين مجدداً خطورة الدور الذي يمارسه فرسان الاسبتارية من جزيرة رودس، وذلك في مجال التحريض ضد المسلمين، وممارسة العدوان عليهم. كما أن انتصار السلطان بايزيد في نيقوبوليس قد وضع فرسان الاسبتارية وجزيرة رودس على خط القتال الأول ضد الأتراك العثمانيين. ولكن هؤلاء كانوا غير قادرين في تلك الفترة على توجيه الجهد ضد رودس، إذ كانت لهم متاعبهم الكبيرة سواء على جبهة أوروبا أو على جبهتهم الداخلية، فصرفوا النظر مؤقتاً عن الجبهة البحرية. حتى إذا ما جاء السلطان محمد الفاتح، وفتح القسطنطينية، وأطلق عليها اسم مدينة الإسلام (اسلام بول) ثم انتصر على تحالف المجر والنمسا، أصبح باستطاعته توجيه الجهد البحري، فأرسل سنة ٨٨٥ هـ = ١٤٨٠ م عمارة بحرية لفتح جزيرة رودس وانتزاعها من قبضة (رهبنة القديس حنا الاورشليمي) والتي كانت يومها بقيادة مقدمها (بييردوبوسون -

---

(١) بايزيد خان الأول - رابع السلاطين العثمانيين. ولد سنة ٧٦١ هـ = ١٣٦٠ م وتولى السلطنة بعد قتل أبيه في معركة قوص اوه - الواقعة جنوب يوغوسلافيا بين البانيا وبلغاريا واليونان، سنة ١٣٨٩ م. وتوفي سنة ٨٠٥ هـ = ١٤٠٣ م بعد أن انتصر عليه تيمور الأعرج - تيمورلنك - وأخذه أسيراً، وسجنه في قفص حديد حتى مات.

(٢) نيقوبوليس: (NICOPOLIS') مدينة بلغارية، تقع على نهر الدانوب، وفيها انتصر القائد البيزنطي تراجان على الداسيين والبارثيين (١٠١ - ١٠٥ م). وفيها كان النصر أيضاً للسلطان بيازيد على الفرنج الصليبيين سنة ٧٩٩ هـ = ١٣٩٦ م.

الفرنسي الأصل). ولما كانت هذه الطائفة في حالة حرب مع المماليك في مصر ومع والي تونس. فقد عمل مقدمها على ابرام صلح مع مصر وتونس حتى يتفرغ لحرب الأتراك العثمانيين الذين وصلوا إلى رودس وألقوا الحصار عليها (يوم ١٣ ربيع الأول سنة ٨٨٥ هـ = ٢٣ ـ أيار ـ مايو ـ سنة ١٤٨٠ م) وظلت المدافع تقذف عليها القنابل الحجرية، لتهدم أسوارها. لكن حامية القلعة كانت تعمل في الليل على إصلاح ما تخربه المدافع بالنهار. ولذلك استمر حصارها ثلاثة أشهر.

حاول العثمانيون خلالها الاستيلاء على أهم قلاعها ـ وهي قلعة القديس نيقولا ـ ولكن المحاولة باءت بالفشل، مما دفع القائد العام للقوات التركية لاصدار أمره بالهجوم على القلعة واقتحامها عبر الثغرة التي فتحتها قنابل المدافع في أسوارها. وقامت القوات التركية بالهجوم على القلعة (يوم ٢٠ جمادي الأولى سنة ٨٨٥ هـ = ٢٨ تموز ـ يوليو ـ سنة ١٤٨٠ م) غير أن حامية فرسان الاسبتارية قاومت بشجاعة خارقة الهجمات المتتالية للأتراك العثمانيين، مما اضطر هؤلاء للانسحاب، بعد أن تعرضوا للخسائر الفادحة، وتم رفع الحصار عن رودس، وشرع فرسان الاسبتارية بقيادة مقدمهم ـ بييردوبوسون ـ على الفور باعادة ترميم القلاع والحصون والأسوار. وجاءت الهزات الأرضية ـ الزلازل في السنة التالية (٨٨٦ هـ = ١٤٨١ م) فأنزلت برودس ودفاعاتها أضراراً بالغة. مما دفع حامية المدينة وأهلها لادخال تحسينات أخرى على الدفاعات في الجناحين الجنوبي والغربي، بما في ذلك تشييد حصن ايطاليا (سنة ٩٢١ هـ = ١٥١٥ م) وحصن القديس جورج (٩٢٨ هـ = ١٥٢١ م) وأعيد بناء جميع البوابات، وزيد في سماكة الأسوار من ١٧ قدماً حتى ٤٠ قدماً تقريباً. كما شقت قناة أخرى مع متراس بين الخندقين الموجودين سابقاً.

كان السلطان سليم الأول ـ الغازي ـ يعتزم فتح جزيرة رودس، فجهز أسطولاً لهذه الغاية وحشد القوات الكافية لتنفيذ العملية، غير أن انشغاله بفتح بلاد الشام ومصر (سنة ٩٢٢ ـ ٩٢٤ هـ ١٥١٦ ـ ١٥١٨ م) حمله على تأجيل عملية فتح رودس. فلما فرغ من حروبه في بلاد الشام، وافته المنية. وأصبح باستطاعة رودس أن تنعم بفترة أخرى من الراحة. لكن العاصفة ما لبثت أن عادت إل رودس في عهد

السلطان الغازي سليمان خان الأول ـ القانوني ـ[1] . **فقد عمل السلطان سليمان على** اكمال الاستعدادات البرية والبحرية الضرورية لعملية الغزو. ثم أخذ ينتظر الظروف السياسة الدولية المناسبة. ووجد أن الفرصة المناسبة قد حانت في سنة ٩٢٩ هـ = ١٥٢٢ م. حيث كان ملك فرنسا (فرنسوا الأول) مشغولاً بحربه ضد ملك اسبانيا وامبراطور الغرب (شارلكان) كما أن البابا ليون العاشر (جان مديتشي) كان مشغولاً في صراعه مع البروتستانتية (لوثر) في حين كانت بلاد المجر مضطربة في الداخل بسبب عدم اتفاق امرائها وأعيانها، وصغر سن ملكها لويس الثاني.

هكذا باتت الظروف مناسبة لفتح رودس وتحويلها إلى قاعدة اتصال بين اسلام بول ـ أو استامبول ـ وبين مصر والمغرب العربي ـ الإسلامي، وحرمان الصليبيين من مركزهم الحصين في قلب بلاد المسلمين، والذي طالما استخدموه لحشد أساطيلهم وقواتهم ضد بلاد المشرق الإسلامي. وحاول السلطان سليمان تجنب الحرب فأرسل الى مقدم الاسبتارية (فيليه دوليسل آدم)[2] كتاباً عرض عليه إخلاء الجزيرة، والانسحاب منها بكل من معه من المحاربين الصليبيين وأنصارهم من المسيحيين الذين يرغبون في الهجرة على البقاء، وذلك مقابل التعهد بعدم التعرض لهم أو لأموالهم وممتلكاتهم. ولما رفض مقدم الاسبتارية هذا العرض، أمر السلطان سليمان أسطوله بالتوجه الى رودس. وسافر هو عن طريق البر إلى خليج (مرمورا ـ أو مار ماريس) المقابل للجزيرة من جهة آسيا. ووصلت قطع الاسطول الى رودس يوم ٢٦ حزيران ـ يونيو ـ سنة ١٥٢٢ م. وأرسلت الى البر مدافع الحصار والمؤونة والذخائر. ووصل اليها السلطان سليمان يوم ٢٨ تموز ـ يوليو ـ فبدأ الحصار المحكم فور وصوله. ودافع من بها دفاع الأبطال، خصوصاً الفرسان الرهبان. وقيل أن النساء كنّ يساعدن الرجال في

---

(١) السلطان الغازي سليمان خان الأول القانوني ـ عاشر السلاطين العثمانيين. ولد سنة ٩٠٠ هـ (١٤٩٥ م) وتولى دست السلطنة بعد وفاة والده سنة ٩٢٦ هـ = ١٥٢٠ م. وبلغت الدولة العثمانية في عهده أوج قوتها وازدهارها. وتوفي سنة ٩٧٤ هـ = ١٥٦٦ م.

(٢) فيليه دوليسل آدم: (VILLIERS DEL'ISLE ADAM) فرنسي الأصل تولى قيادة طائفة رهبان القديس حنا الاورشليمي ـ الاسبتارية ـ. ولد سنة ١٤٦٤ م. ومات سنة ١٥٣٤ م.

الدفاع، بالقاء الحجارة على المحاصرين، وصب الزيوت الحارة على رؤوسهم، لكن هذا الجهد كله لم يكن ناجعاً أمام المدافع العثمانية الضخمة التي لازالت بعض حجارتها حتى الآن في الجزيرة. والتي تثير الاستغراب لضخامتها. وأدرك مقدم طائفة الاسبتارية أن الاستمرار في المقاومة قد بات ضرباً من الانتحار. وتبين له بوضوح أنه ما من أحد من دول الغرب سيهرع لنجدة رودس وانقاذ الطائفة من محنتها. كما نفدت المؤن والذخائر وتدهورت الحالة المعنوية للمقاتلين بعد طول حصار.

فأرسل مقدم الطائفة فارسين من رهبانه الى السلطان يوم ٢ صفر سنة ٩٢٩ هـ (٢١ كانون الأول - ديسمبر - ١٥٢٢ م) والتمسا السماح لهم باخلاء الجزيرة في مدة اثني عشر يوماً، بشرط أن تبتعد القوات التركية عن المدينة المحصورة مسافة ميل من كل جهاتها، حتى لا يتعرض أحد من المحصورين للضرر أو الأذى عند خروجهم. فقبل السلطان ذلك. لكن قوة من الانكشارية تدفقت إلى المدينة يوم ٥ صفر، وذلك رغم أوامر السلطان، واحتلوا المدينة، وأجروا مذبحة وقع ضحيتها بعض الجند، مما أغضب السلطان. فأمر بمراعاة شروط التسليم. وأنزل العقوبة بالمفسدين. فعاد الأمن وسادت السكينة. وقابل السلطان في اليوم التالي رئيس الرهبنة، وأنعم عليه بخلعة سنية. وانتقل فرسان الاسبتارية الى مدينتي (فيتربو - وسيفيتافيتشيا) [١].

كان ملك اسبانيا شارل الخامس (شارلكان) يبحث عن أي قوة يمكنه الافادة منها في حربه الصليبية الشاملة ضد المسلمين. فعمل على منح جزيرة مالطا لهذه الفئة الدينية المتطرفة حتى تتابع دورها في التحريض ضد المسلمين، فاستخدمت الجزيرة لممارسة أعمال القرصنة ضد سفن المسلمين. مما دفع الدولة العثمانية لتوجيه قوة بحرية من مائتي سفينة تقريباً وذلك سنة ٩٧٣ هـ = ١٥٦٥ م لفتح جزيرة مالطا والقضاء على طائفة رهبان القديس حنا الأورشليمي الذين أخذوا في فرض سيطرتهم على الخانق البحري بين جنوب ايطاليا وتونس. وقامت هذه القوة البحرية بحصار مالطا لمدة أربعة أشهر،

---

(١) فيترجو: (VITERBO) مدينة ايطالية على بعد ٤٨ كيلومتر من روما. أما سيفيتافيتشيا. (CIVITA-VECCHIA) فهي مدينة ايطالية أيضاً تقع على البحر الأبيض المتوسط.

اضطرت بعدها للانسحاب. وبقي رهبان القديس حنا في مالطا حتى احتلها نابليون بونابرت عند قدومه الى مصر سنة ١٢١٣ هـ = ١١٧٩٨ م.

بقيت رودس قاعدة للمسلمين طوال قرون أخرى، حتى إذا جاءت الهجمة الصليبية الجديدة باسم (الاستعمار الغربي) تحولت رودس وسواها من جزر شرق البحر الأبيض المتوسط الى قواعد ألحق بعضها باليونان، وبعضها بايطاليا، وخضعت بعضها للغرب - بريطانيا -. غير أن رودس فقدت أهميتها العسكرية منذ أن سيطر الأتراك العثمانيون على بحر ايجه وعلى ما احتواه هذا البحر من الجزائر والخلجان. وتعطي تجربة رودس التاريخية نموذجاً لارتباط أهمية الجزر بما تشغله من موقع جيواستراتيجي في إطار الصراعات البحرية. إذ لولا اهتمام العرب المسلمين بالتضييق على الروم. ولولا توجه الحملات الصليبية لحرب المسلمين، لما برزت أهمية رودس. ولما احتلت قلاعها وتحصيناتها تلك المكانة المرموقة في تاريخ فن الحرب.

٢٥ - قبرص وقلاعها.

لم تكن (جزيرة قبرص)[١] إلا حجر المرتقى لكل من يقصد بلاد الشام أو مصر أو آسيا الصغرى (تركيا) فهي بحكم موقعها المتوسط، وبحكم مساحتها الصغيرة، لا تتمتع بمميزات خاصة[٢] وإنما اكتسبت أهميتها عبر التاريخ من خلال دورها في تأمين الاتصال لقوات البحر. ولهذا تداولتها الأيدي كثيراً، منذ ظهور امبراطوريات العالم القديم من رومان ويونان وقرطاجيين وسواهم. وارتبط تاريخها منذ ظهور الإسلام، بالعرب المسلمين، الذين ما إن فتحوا بلاد الشام ومصر، حتى تطلعوا الى البحر. ويعود فضل ركوب البحر وانشاء البحرية العربية - الإسلامية الى أمير المؤمنين معاوية ابن أبي سفيان رضي الله عنه - فهو الذي عمل منذ كان والياً لبلاد الشام على تنظيم البحرية العربية الاسلامية. مما اضطره للسير شوطاً بعيداً عبر مجموعة غير متناهية من الصعوبات والعقبات، التي لم يكن أقلها شأناً الافتقار إلى الأيدي العاملة الاختصاصية، ولم يكن أقلها شأناً أيضاً تآمر الروم البيزنطيين لاحباط كل جهد عربي - اسلامي لركوب للبحر. غير أن أمير المؤمنين، وهو القائد الصلب، تمكن من تذليل كل العقبات التي واجهته بتحدياتها الثقيلة حتى أمكن له بلوغ الهدف العظيم، وفتح أمام العرب المسلمين مجال البحر الواسع. فانطلق المجاهدون في سبيل الله يقارعون الروم

---

(١) قبرص: (CYPRE) أو (CHYPRE).

(٢) تبلغ مساحة قبرص ٣٦٠٠ ميل بحري وهي:
تبعد عن اللاذقية - سوريا - ١٠٠ ميل بحري.
وتبعد عن سلوقية - تركيا - ٥٠ ميل بحري.
وتبعد عن بور سعيد - مصر - ٢٣٦ ميل بحري.
وتبعد عن رودس ٢٠٠ ميل بحري.
وتبعد عن كريت ٣٢٥ ميل بحري.

البيزنطيين في البحر وينازعونهم نفوذهم الذي انفردوا به دون منازع على امتداد قرون متتالية. وكان غزو قبرص هو أول عمل بحري سجله التاريخ لمعاوية بن أبي سفيان. ففي سنة ٢٨ هـ = ٦٤٨ م أكمل معاوية استعداداته، وعين لقيادة البحر رجلاً من رجال البحر المعروفين (هو عبدالله بن قيس الجاسي - حليف بني فزارة) وحشد من تطوع لركوب البحر. وركب مع زوجه - أم حرام بنت ملحان الأنصارية - وركب معه نفر من كبار الصحابة - فيهم أبو ذر الغفاري وعبادة بن الصامت والمقداد وأبو الدرداء وشداد بن أوس، ومضى معاوية والمسلمون على بركة الله الى قبرص. ففتحوها صلحاً. وتضمنت معاهدة الصلح: «أن يؤدي أهل قبرص للمسلمين جزية مقدارها سبعة آلاف دينار كل سنة، يؤدون الى الروم مثلها لا يمنعهم المسلمون عن ذلك، وليس على المسلمين منعهم ممن أرادهم ممن وراءهم. وعليهم أن يؤذنوا - ينذروا - المسلمين بمسير عدوهم من الروم إليهم. ويكون طريق المسلمين الى العدو عليهم. وأن يقوم إمام المسلمين باختيار البطريق عليهم منهم»[1].

يظهر واضحاً من نص المعاهدة أن معاوية بن أبي سفيان قد رغب في ضمان ترتيبات أمنية لحماية بلاد العرب المسلمين من خطر اسطول الروم. ولهذا فقد فرض عليهم الجزية دون أي التزام بالدفاع عن قبرص، وحدد مقدار هذه الجزية بمثل ما كانت تدفعه قبرص للروم التي عجزت عن حمايتها من المسلمين، وضمن معاوية لاسطول العرب المسلمين حق استخدام الجزيرة، والافادة من الانذار عن تحركات اسطول الروم، وتأمين الامداد والتموين لقوات الاسطول. هذا الى جانب فصل الكنيسة القبرصية عن هيمنة الروم بتعيين بطريرك من أهل قبرص لا يكون معادياً للمسلمين، مع عدم التدخل في الشؤون الكنسية - الدينية - لأهل الجزيرة.

بقيت قبرص درعاً لبلاد المسلمين في الشام ومصر. حتى إذا ما ضعف شأن البحرية العربية الإسلامية في العصر العباسي. أسرع الروم لاغتنام الفرصة، فاحتلوا الجزيرة سنة

---

(١) تاريخ الطبري - والكامل في التاريخ - أحداث سنة ٢٨ هـ (غزو قبرص).

٢٦٣ هـ = ٨٧٦ م، وبسطوا سيطرتهم عليها. ولكن الاسطول الاسلامي في مصر - في عهد الطولونيين - استطاع أن يستعيد فتح قبرص (سنة ٢٩٣ هـ = ٩٠٥ م). وبقيت تحت حكم المسلمين حتى سنة ٣٥٤ هـ = ٩٦٥ م حيث أعاد الروم قبرص لحكمهم. وكان ذلك قبل ثلاثة عقود تقريباً من وصول قوات الحملة الصليبية الأولى الى بلاد الشام.

ظهرت أهمية قبرص وفائدتها بعدئذ، إذ أصبحت سنداً بالغ الجود والكرم للفرنج الصليبيين حيث كانت كميات المؤن تصل إلى ميناء السويدية - سان سيمون - ومعظمها من قبرص. واتخذت بحرية الروم - البيزنطيين - من قبرص قاعدة لها أثناء الحملات الصليبية المتتالية. وكان الفرنج يستأجرون السفن من الجنويين لقطع المسافة مابين قبرص واللاذقية. وكان دور قبرص كبيراً في فرض هيمنة البيزنطيين على الفرنج الصليبيين، وعلى سبيل المثال، فعندما حاول كونت طرابلس الامتناع عن إرسال الأموال التي فرضها عليه الامبراطور البيزنطي، هدد السفير البيزنطي بقطع ما يرد على طرابلس - من قبرص - من المؤن والتموين. مما أرغم كونت طرابلس على الاذعان. ولقد حصلت قبرص بنتيجة ذلك على ثروات طائلة. وازدهرت تجارتها، الأمر الذي استثار شهية الفرنج، فقام أمير انطاكية رينالد شاتيون - أو أرناط كما تذكره المصادر العربية - بالاغارة على قبرص ونهبها ثم تدميرها (سنة ٥٥١ هـ = ١١٥٦ م) ولم تنتعش جزيرة قبرص بعد هذا التخريب لمدة طويلة، والذي نفذته العناصر الفرنسية بالتحالف مع العناصر الأرمنية. وتبع ذلك قيام المصريين بالاغارة على الجزيرة التي باتت محرومة من وسائل الدفاع. وعندما توجهت الحملة المشتركة من الفرنج والصليبيين لمهاجمة مصر (سنة ٥٦٥ هـ = ١١٦٩ م)[١] جعلت من قبرص قاعدة لها حيث أقلعت سفن الاسطول الأساسي الى جزيرة قبرص، وانتظرت فيها حتى أواخر أيلول -

---

(١) ورد في كتاب التواريخ الهجرية: (سارت الافرنج بقصد دمياط في شهر صفر سنة ٥٦٥ هـ ووصلت إلى دمياط في ربيع أول فأقامت الحرب خمس وخمسين يوماً بين الافرنج وبين تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين والأمير شهاب الدين الحازمي. وقد بارحت الافرنج دمياط في ٢٥ ربيع الثاني، لما علمت بمسير نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام. على املاكها. وانظر تاريخ الحروب الصليبية (١/٥١ و ٣١٥) و (٣/٢٤ و ٦١ و ٢٢٣ و ٥٦١ - ٥٦٣ و ٦٢٤ - ٦٢٦).

سبتمبر - ثم توجهت منها لحصار دمياط والهجوم على مصر. وكذلك، فعندما قاد ملك انكلترا ريتشارد قلب الأسد حملته الصليبية للانتقام من المسلمين الذين انتصروا في حطين وأعادوا فتح القدس، كان أول عمل له هو اتخاذ جزيرة قبرص قاعدة له، فاستولى عليها سنة ٥٨٧ هـ = ١١٩١ م بحجة ما تملكه الجزيرة من الأهمية للدفاع عن الساحل السوري، وما سينجم من الخطر لو قام ملكها باجراء تحالف وثيق مع صلاح الدين. وأصبحت الجزيرة بذلك تحت حكم ملك انكلترا.

إلا أن الاضطرابات التي اجتاحت قبرص أرغمت ريتشارد - ملك انكلترا - على بيعها لطائفة فرسان المعبد - الداوية - وذلك سنة ٥٨٨ هـ = ١١٩٢ م. وعندما أخذ المسلمون بطرد الفرنج الصليبيين من بلاد الشام، أضحت الجزيرة موطن اغراء متصل، لا بالنسبة للمهاجرين القادمين من الغرب، للنزول بهذه الجزيرة فحسب، بل أيضاً بالنسبة للبارونات الذين كانوا أمراء وحكاماً في بلاد الشام ثم جردوا من اقطاعاتهم وإماراتهم وأصبح لزاماً عليهم عبور البحر الضيق للوصول إلى مرفأ الأمان - قبرص -. وإذا كان سادة الجزيرة يودون اجتياز البحر للقتال من أجل الصليب كلما اقترب الخطر، فسوف تكون قبرص بالغة الأهمية للشرق. ولهذا تقرر أن تلتزم حكومة قبرص بالقوانين التي كانت سائدة في مملكة القدس. بما في ذلك تنظيم الكنيسة وإقامة الاسقفيات في نيقوسيا وبافوس وفاماغوستا وليماسول. مع إقامة دار للمحفوظات والوثائق بجزيرة قبرص. وتم الاعتراف بمملكة القدس سنة ٥٩٤ هـ = ١١٩٨ م. وبذلت محاولات لتوحيد مملكتي القدس وقبرص. إلا أن ملك قبرص رفض هذا التوحيد حتى لا تتكفل قبرص بنفقات القدس. وتحولت قبرص إلى مركز للصراع بين ممالك الغرب التي هيمنت عليها المنافسة للسيطرة على الجزيرة. وشهدت أرض الجزيرة صراعات دامية واضطرابات مثيرة، وأخذت القبضات القوية في تناوب السيطرة عليها.

وكانت قبرص هي قاعدة ملك فرنسا - لويس التاسع - الذي قاد الحملة الصليبية ضد مصر سنة ٦٤٦ هـ = ١٢٤٨ م **فوصل الى الجزيرة في ١٧ - أيلول - سبتمبر - سنة ١٢٤٨ م وأقام فيها. وكان ملك قبرص قد أصبح هو الموجه للتعاون مع المغول**

التتار للقضاء على المسلمين. وأمضت الحملة الفرنسية في قبرص سنة كاملة، بحيث أنها لم تستأنف تحركها نحو مصر إلا في شهر أيار - مايو - سنة ١٢٤٩ م. وحشد الصليبيون خلال هذه الفترة جميع ما توافر لهم القدرات لفتح مصر. وعندما انتصر المسلمون في المنصورة، انسحب اسطول الفرنج الى قواعده في قبرص، وكان قادة سفنه في معظمهم من البيازنة والجنويين.

تولى الحكم في قبرص سنة ٦٦٢ هـ = ١٢٦٣ م الملك هيو الذي عمل على توحيد مملكتي قبرص وعكا. فأصبحت مملكة قبرص هي المسؤولة عن حماية عكا، آخر قلاع الفرنج الصليبيين في بلاد الشام. وهكذا، فعندما تحرك الظاهر بيبرس للهجوم على عكا سنة ٦٦٤ هـ = ١٢٦٥ م. قام ملك قبرص بارسال النجدات إلى عكا، كما انتقل هو إليها لقيادة إغارة على الجليل. وقد انتهت هذه العملية الى الفشل، حيث ظهرت التحولات الحاسمة في المعارك البرية التي قادها الظاهر بيبرس ضد الفرنج الصليبيين في بلاد الشام. وأفاد الظاهر بيبرس من هذه التحولات فأرسل اسطولاً ضم ١٧ سفينة للهجوم على قبرص، وذلك عندما علم بأن ملك قبرص قد غادر عكا عائداً إلى جزيرته.

وظهر الاسطول الاسلامي بصورة مباغتة أمام ليماسول. وبالرغم من عدم تحقيق نتائج حاسمة، وبالرغم أيضاً من تعرض القوة البحرية الإسلامية لخسائر كبيرة، فان هذه العملية قد برهنت على تحول الموقف حتى في المجال البحري لمصلحة المسلمين. وعندما تمت اعادة فتح عكا وطرد الفرنج منها (سنة ٦٩٠ هـ = ١٢٩١ م). بقيت قبرص هي المملكة الصليبية الوحيدة التي ارتبط وجودها بالحملات الصليبية، وظل ملوك قبرص ولأجيال عديدة بعدئذ وهم يحرصون بعد أن يتم الاحتفال بتتويجهم ملوكاً على قبرص في نيقوسيا، على أن يتلقوا تاج مملكة القدس في (فاماغوستا) التي اعتبرت بأنها أقرب مدينة لمملكتهم المفقودة في بلاد الشام - على ما زعموا -. وبقي حلم العودة الى بلاد الشام ماثلاً أمام دعاة الصليبية في قبرص. مما حمل الأشرف خليل - محرر عكا وبقية بلاد الشام من الفرنج - على اتخاذ قرار بفتح قبرص. وأمر

بعمارة مائة سفينة. غير أن خطر المغول أعاقه عن غزو قبرص. وبقي هذا الغزو هو هاجسه بحيث أنه مات وهو يردد: قبرص. قبرص. قبرص.

تولى بطرس الأول عرش قبرص سنة ٧٦١ هـ = ١٣٥٩ م وشرع على الفور في التحريض لتنظيم حملة صليبية جديدة. وأفلحت جهوده فتم توجيه هذه الحملة الى الاسكندرية سنة ٧٦٧ هـ = ١٣٦٥ م وبالرغم من فشل هذه الحملة التي لم تنجح إلا في التدمير والنهب. فان قبرص تابعت دورها في التحريض الصليبي ضد المسلمين. ونظراً لتعاظم قوة الأتراك العثمانيين، فقد وجهت قبرص الانظار ضد تركيا. فكان لا بد للعثمانيين من العمل لاقتلاع قاعدة العدوان وإعادة فتح قبرص. غير أن المحاولات المتتالية التي قام بها الأتراك باءت بالفشل. حتى إذا ما كانت سنة ٩٧٨ هـ = ١٥٧٠ م تولى رئيس الوزراء لاله مصطفى باشا - في عهد السلطان سليم الثاني - قيادة قوة بحرية ضخمة ضمت مائة ألف جندي، وسار بها الى (ليماسول) التي أمكن فتحها بعد حصار قصير (يوم ٨ ربيع الآخر سنة ٩٧٨ هـ = ٩ - ايلول - سبتمبر - سنة ١٥٧٠ م). ثم توجهت القوات لحصار فاماغوستا. ولقد ساعد الشتاء على تأخير فتحها حتى أوائل الربيع. وعادت قبرص من جديد قاعدة بحرية للمسلمين، من أجل تأمين الاتصال بين تركيا وبلاد الشام ومصر وأقطار المغرب العربي - الإسلامي (الجزائر خاصة).

كان ضياع قبرص لطمة قوية للفرنج الصليبي الذي سارع كما جرت عليه عادته فحشد قوة للانتقام. وشكل اسطولاً ضخماً ضم سبعين سفينة اسبانية، ومائة وأربعين سفينة تابعة للبندقية، وأثنتي عشرة سفينة تابعة للبابا وتسعة سفن لطائفة الفرسان الرهبان - الداوية - الذين انتقلوا إلى مالطا بعد طردهم من قبرص. وسارت هذه القوة بقيادة ابن شارلكان ملك اسبانيا وامبراطور الغرب (دون خوان). فاصطدمت بالاسطول العثماني عند ليبانت وتمكنت من تدميره (٩٧٩ هـ = ١٥٧١ م). غير أن العثمانيين أفادوا من فصل الشتاء، فأعادوا بناء اسطولهم بأقوى مما كان عليه قبل معركة ليبانت [١].

---

(١) بقيت قبرص تحت حكم الاتراك المسلمين حتى سنة ١٨٧٨ م حيث تنازلت تركيا عنها في هذه السنة لبريطانيا مكافأة لها على ما قدمته من الدعم السياسي والعسكري للدولة العثمانية في حربها ضد روسيا =

قد يكون متوقعاً على ضوء العرض الوجيز السابق، أن تستأثر جزيرة قبرص بأكبر عدد من القلاع والحصون. إذ أنها عاشت على امتداد العصور القديمة والوسطى وحتى الحديثة، وهي في حالة الحرب الدائمة والاضطرابات المستمرة، فقد تداولت على السيطرة عليها أقوام وأقوام. وكان كل قوم يعملون على إقامة القلاع وتشييد الحصون، لضمان الحماية لقواتهم. وقد زالت تحصينات كثيرة وبادت، وبقيت تحصينات أخرى تروي قصص، أو بعض قصص، أحداث الماضي القريب والبعيد.

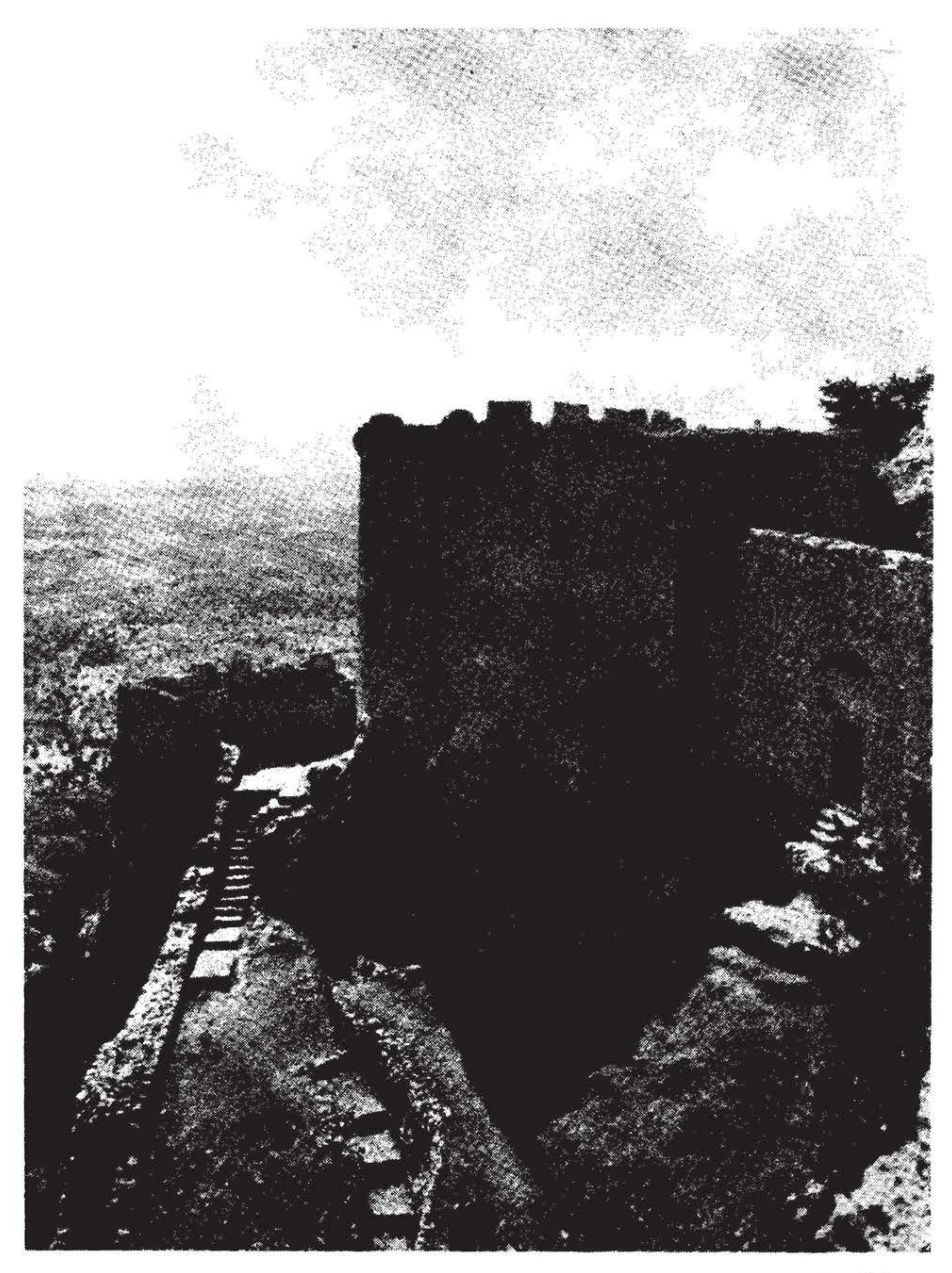
ولعل أكثر ما يثير الانتباه هو انتشار معظم القلاع على الواجهة الشمالية للجزيرة ـ في مواجهة تركيا ـ. الأمر الذي يبرز ملامح ذلك الصراع المرير الذي خاضه الأتراك العثمانيون ضد الفرنج الصليبيين وبقاياهم في الجزيرة. وهذا يؤكد بدوره أن هناك تحصينات كثيرة كانت تحتل مواقعها على الواجهة الشرقية ـ في مواجهة بلاد الشام ـ ومثلها على الواجهة الجنوبية ـ في مواجهة مصر ـ ثم زالت وبادت، إما بتأثير عامل الحروب والصراعات المتتالية، وإما بتأثير عامل الزمن والتقادم ـ أو بتضافر العاملين معاً. وعلى كل حال، فقد يكون بالمستطاع التوقف قليلاً عند بعض ملامح هذه القلاع والتحصينات.

أولاً: قلعة القنطرة [1].

وهي تقع على الساحل الشمالي من قبرص، على بعد ٣٨ ميلاً تقريباً من كيرينيا والى الشرق منها. وتحتل موقعها على ارتفاع حوالي ٢٢٠٠ قدم فوق جرف شديد الانحدار في السلسلة الشمالية، وهي على اتصال بالنظر مع بوفافنتو وفاماغوستا. ولقد دعم السور المحيط بأطراف ذلك الموقع شديد الانحدار، بشكله غير المنتظم، بعدد من الأبراج القوية والحصون البارزة ـ ولكن من الجهة الجنوبية والجهة الجنوبية الشرقية فقط.

= القيصرية (بموجب معاهدة سان ستيفانو). وأعلنت قبرص دولة مستقلة سنة ١٣٦٥ هـ = ١٩٤٥ م بعد ثورة منظمة أيوكا ـ الارهابية الدينية ـ.

(١) القنطرة: (KANTARA) وبالفرنجية لوكاندار: (LE CANDARE) ولوكاندير: (LE CANDAIRE) ولاكاندار: (LA CANDARE).



قلعة قنطرة

البوابة الرئيسة والبرج الغربي والحصن البارز الخارجي.

قلعة تنطرة

البرج الكبير الى جهة اليمين والبرج الشرقي من جهة اليسار .

وهناك ساعة برج صغيرة تشغل أعلى نقطة في القسم الداخلي، فتشكل ظاهرة مميزة للقلعة التي ما تزال محفوظة بحالة جيدة. ولعل أبرز ما عرفته هذه القلعة من الأحداث هو قيام قوات قبرصية بمحاصرتها سنة ١٢٢٨ ـ ١٢٢٩م من أجل طرد حامية الامبراطور الجرماني فريدريك الثاني، والتي كانت قد احتلت القلعة وأقامت فيها. وقد صمدت الحامية رغم ما أصاب السور من تدمير جزئي بقذائف المنجنيق. ثم تمكن رام ماهر من اصطياد المدافعين، وطردهم من صخرة مجاورة، غير أن أتباع الامبراطور فريدريك نجحوا في استعادة السيطرة على القلعة (سنة ١٢٣٢م) وقام القبارصة بعد ذلك بفترة قصيرة بهجوم جديد، ونجحوا في احتلال القلعة حتى إذا ما كانت سنة ١٣٧٣م. فرض الجنويون سيطرتهم على القلعة. وحولوها إلى قاعدة هامة من قواعدهم. وبقيت في حوزتهم حتى سنة ١٥٢٥ حيث فقدت القلعة كل أهمية لها.

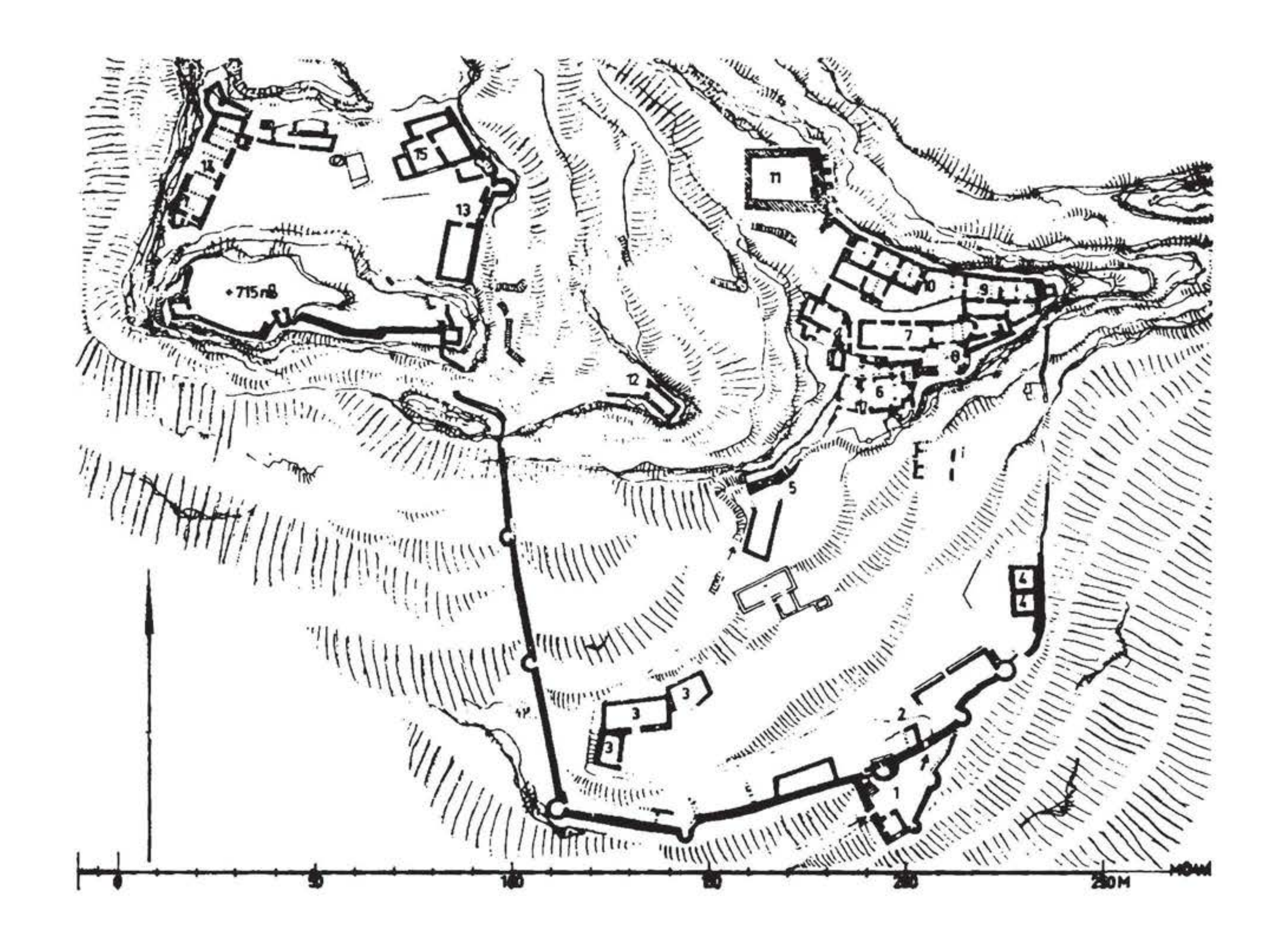
ثانياً: قلعة سانت هيلاريون [١].

وهي قلعة تقع على الساحل الشمالي من قبرص مباشرة إلى الجنوب ـ الغربي من كيرينيا، وتحتل مركزها على ارتفاع يتراوح بين ٢٣٠٠ و ٢٤٠٠ قدماً. وتسيطر على الطريق الواصل بين كيرينيا ونيقوسيا. وهي مثلها كمثل المعاقل الجبلية في قبرص، قد اعتمدت على الطبيعة الطبوغرافية المجاورة لها. وتتألف من قلعة خارجية فسيحة، تحوي مبان معزولة وجناحاً منخفضاً مغلقاً مع كنيسة وأحياء سكنية وخزان مياه مكشوف ضخم، وقلعة علوية تحوي أجنحة ملكية، وكانت منفصلة عن القلعة السفلية بسور تسنده الأبراج. ويقال بأن القلعة قد شيدت على الأرجح أثناء حملة الامبراطور البيزنطي (الكسيوس الأول) [٢] على حاكم الجزيرة الذي تمرد عليه. وقيل أيضاً في اسطورة بناء القلعة أنها اقيمت في موقع كان يشغله دير في السابق. وقد عمل الكسيوس الأول بعد هجومه على تحصين القلعة. غير أن أتباع الامبراطور الجرماني

---

(١) سانت هيلاريون: (ST. HILARION) وباليونانية ديديموس: (DIDYMOS) وبالفرنجية: (DIEUDAMUR) أي إله الحب: (DIEU D'AMOUR).

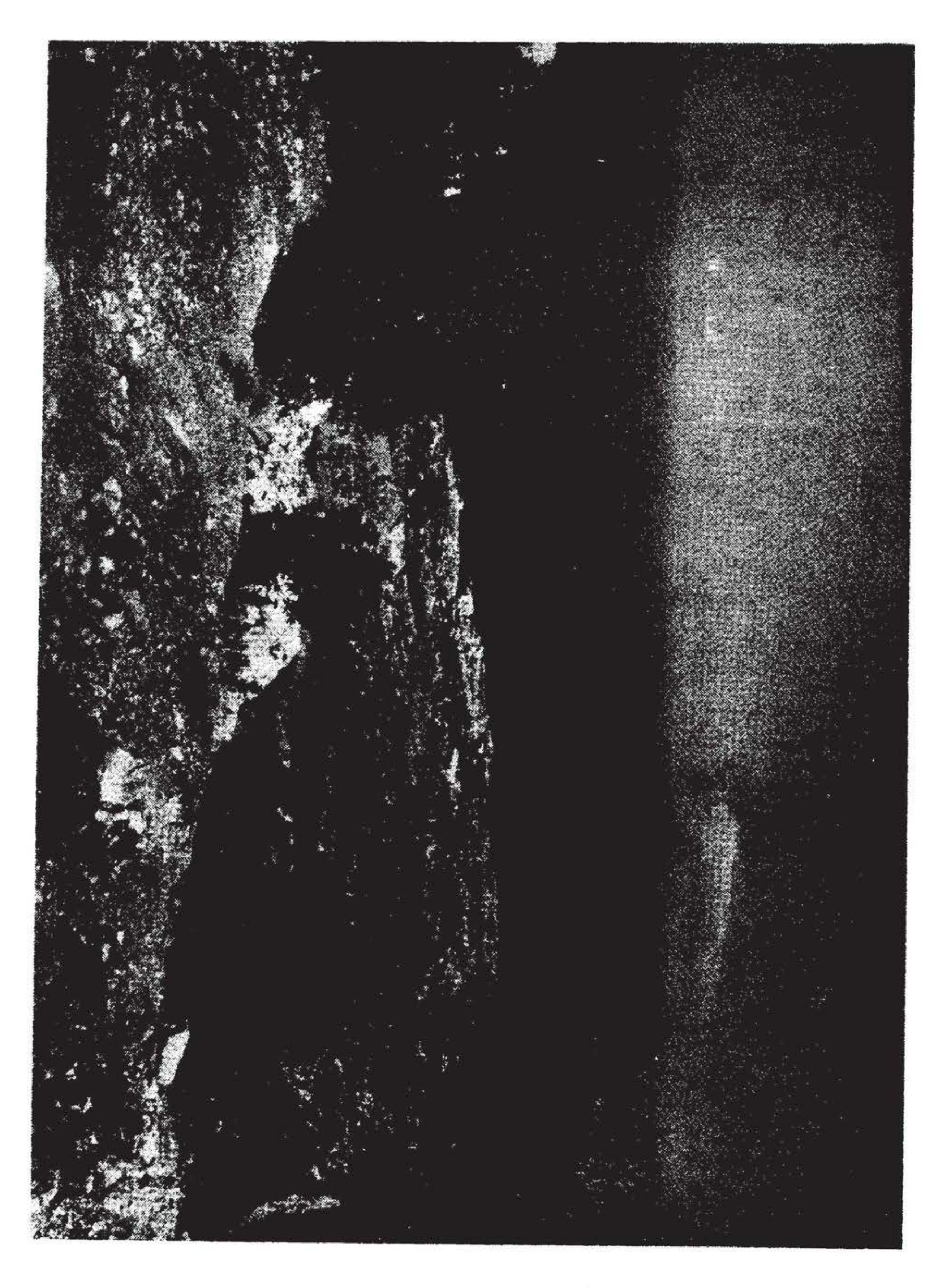
(٢) الكسيوس الأول: (ALEXIS I) امبراطور بيزنطي عرف باسم كومين: (COMMENE) عاصر الحملة الصليبية الأولى. وحكم من سنة ١٠٨١م حتى سنة ١١١٨م.



سانت هيلاريون ـ ديودامور (St Hilarion-Dieadamour

المخطط الأرضي للقلعة، المقياس ١/٤٠٠٠. رسمت مباني العهد البيزنطي (القرن العاشر) باللون الأسود، والإضافات الفرنجية الأولى بالتهشير المتقاطع، ومباني القرن الرابع عشر بالتهشير البسيط.

١ ـ حصن خارجي والبوابة الخارجية، ٢ ـ البوابة الداخلية المؤدية إلى الفناء المسور السفلي، ٣ ـ الإسطبلات، ٤ ـ الصهاريج، ٥ ـ البوابة الداخلية المؤدية إلى الفناء المسور الأوسط، ٦ ـ كنيسة بيزنطية (النصف الثاني من القرن العاشر)، ٧ ـ قاعة كبرى (القرن الرابع عشر فوق أساسات بيزنطية)، ٨ ـ منظرة (مَطَلْ) Belvedere، ٩ ـ شقق سكنية من أربع طبقات، ١٠ ـ أحياء سكنية (براكات)، ١١ ـ صهريج مياه، ١٢ ـ برج الأمير جون، ١٣ ـ بوابة الفناء العلوي المسور، ١٤ ـ الجناح الملكي، ١٥ ـ مكاتب ومطابخ.



إطلالة الى أسفل من القلعة. وبلدة كيرينا الصغيرة.



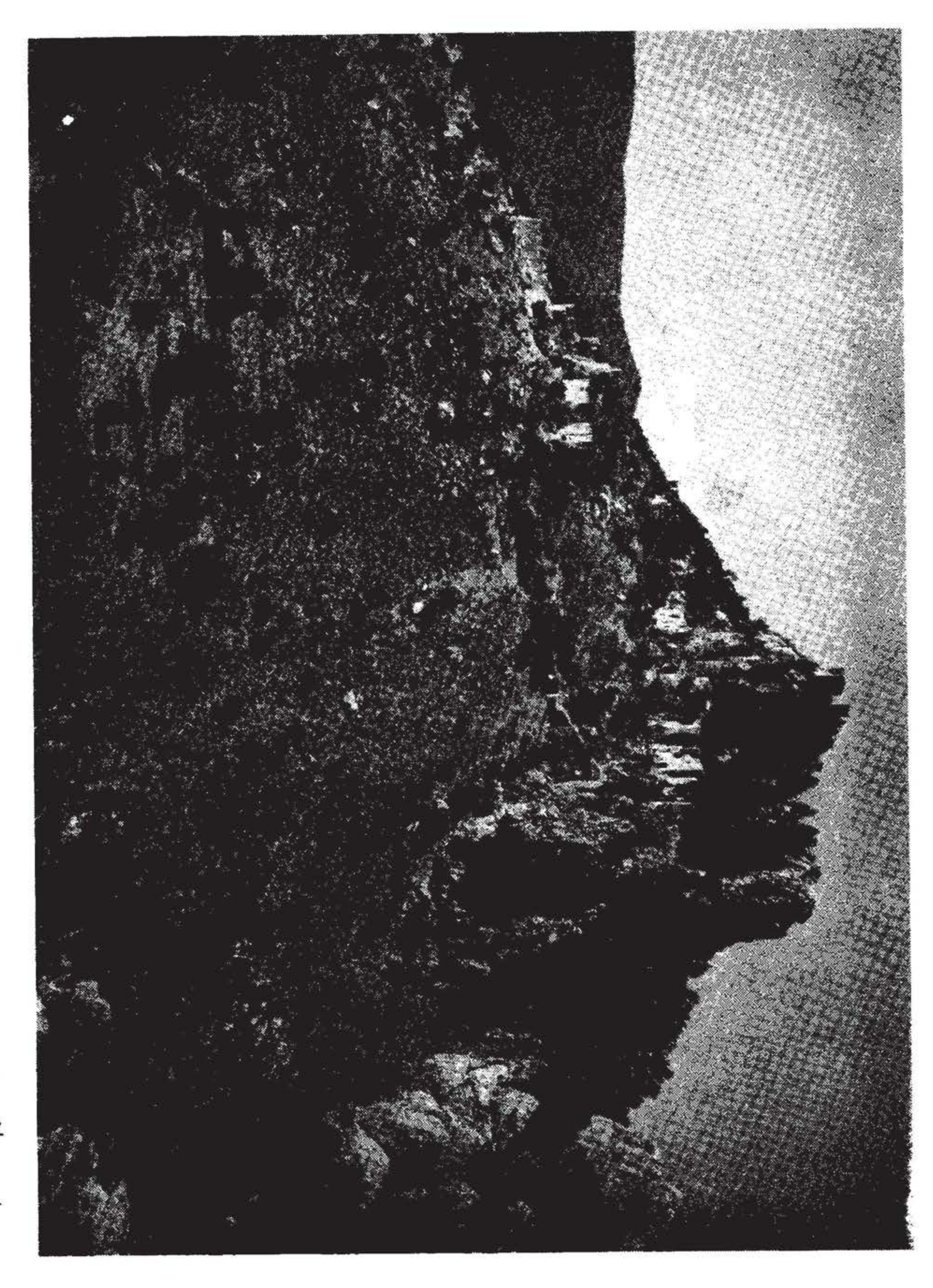
سانت هيلاريون

الجناح الغربي للقلعة. وبرج الأمير جون في المنتصف.



سانت هيلاريون

القلعة السفلية



أنت. هيلاريون

منظر عام من جهة الشرق. وتبدو الى اليمين القلعة السفلى وفوقها برج الأمير جون.

فريدريك الثاني استولوا عليها (سنة ١٢٢٩ م) بعد حصار استمر تسعة أشهر. ثم عملت العائلة الملكية بعدئذ على استخدام القلعة مقراً صيفياً لها. وقد حاول الجنويون غزو قلعة سانت هيلاريون (سنة ١٣٧٣) غير أن القلعة استطاعت مقاومتهم. ثم فرض البنادقة سيطرتهم عليها في مطلع القرن السادس عشر. وفي عهدهم فقدت القلعة أهميتها.

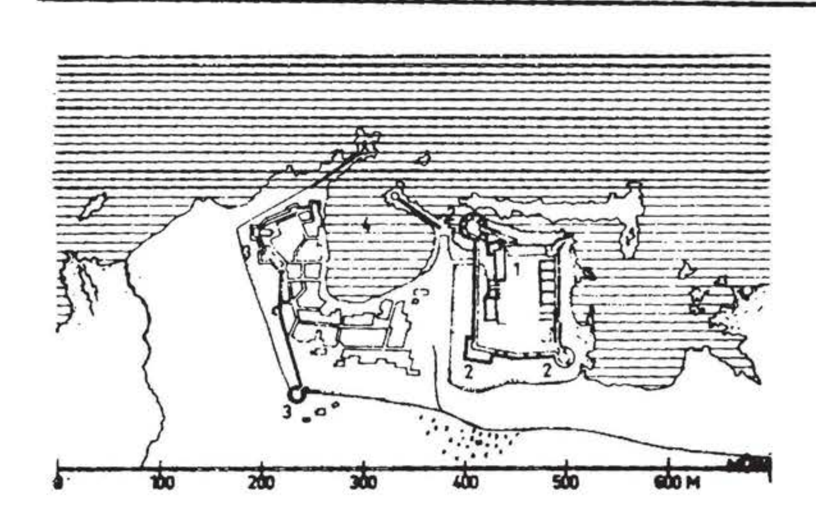
ثالثاً: قلعة كيرينيا[١].

هي قلعة هامة في بلدة صغيرة لها مرفأ يقع على الساحل الشمالي من قبرص. ولقد حدد البنادقة المظهر الخارجي للقلعة الضخمة، شبه المستطيلة، مع أبراجها المستديرة وحصنها المضلع البارز الضخم من الناحية الجنوبية الغربية، وأسوارها الساترة السميكة. أما البرج نصف الدائري الواقع في الزاوية الشمالية - الشرقية، والسور الواقي الملاصق له، بالاضافة إلى قسم كبير من أحياء السكن والمخازن التي تتاخم الفناء الداخلي الفسيح، فتعود إلى أيام الفرنج الصليبيين. ولم يبق من ذخائر العهد البيزنطي سوى القليل جداً من الأسوار الداخلية، والكنيسة الصغيرة التي طغى عليها البرج المدور البندقي في الشمال الغربي. وكل ما بقي من دفاعات البلدة الأصلية هو أطلال برجين نصف دائريين فقط. ولقد كانت بلدة كيرينيا من البلاد القديمة، إلا أن الأسطول البيزنطي استخدمها مرفأ له سنة ١٠٩٢ م. أثناء الحملة التي قام بها ضد الحاكم - رابسوماتيس - المتمرد. وقد قرر الحاكم البيزنطي لقبرص - اسحاق كومنين - أن يجد لنفسه ملاذاً في كيرينيا سنة ١١٩١ م. ولكنه وقع في الأسر قبل أن يصل إليها وعندما جاء الفرنج الصليبيون، حاصروا كيرينيا واستولوا عليها. وظلت دفاعات البلدة دون تطوير حتى سنة ١٢١١ م، حيث دعمت القلعة بشكل واضح.

تعرضت القلعة لهجوم أتباع الامبراطور فريدريك الثاني الذين استولوا عليها سنة

---

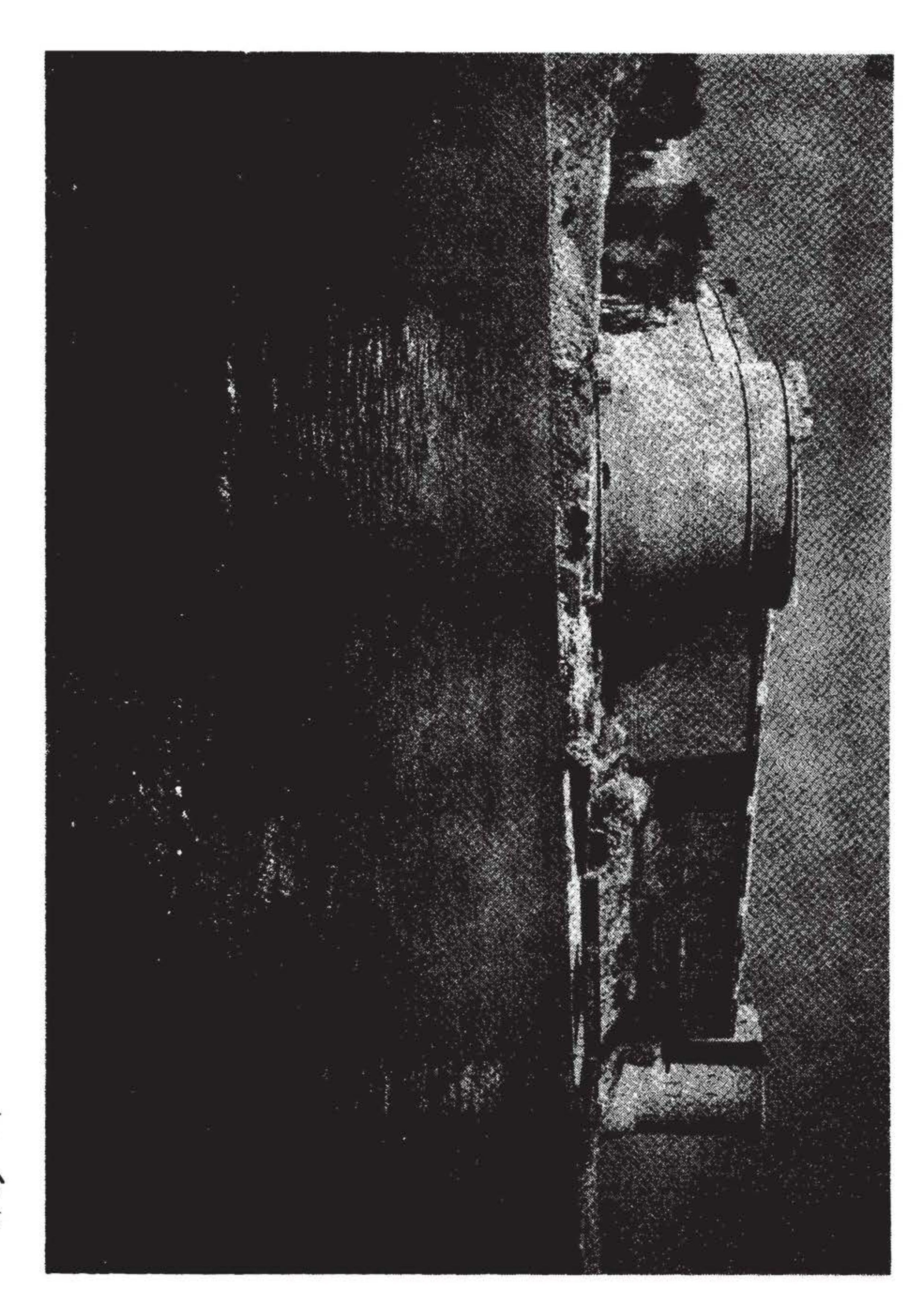
(١) قلعة كيرينيا: (KYRENIA) وباليونانية: (KERYNIA) وكيرين: (KYRENE) وباللاتينية: (CYRINIA) وبالفرنجية: (CERINA) وسيرين: (CERINES) وشيرنيس: (SCHERNIS) وسيروني: (CERAUNIE) الخ..



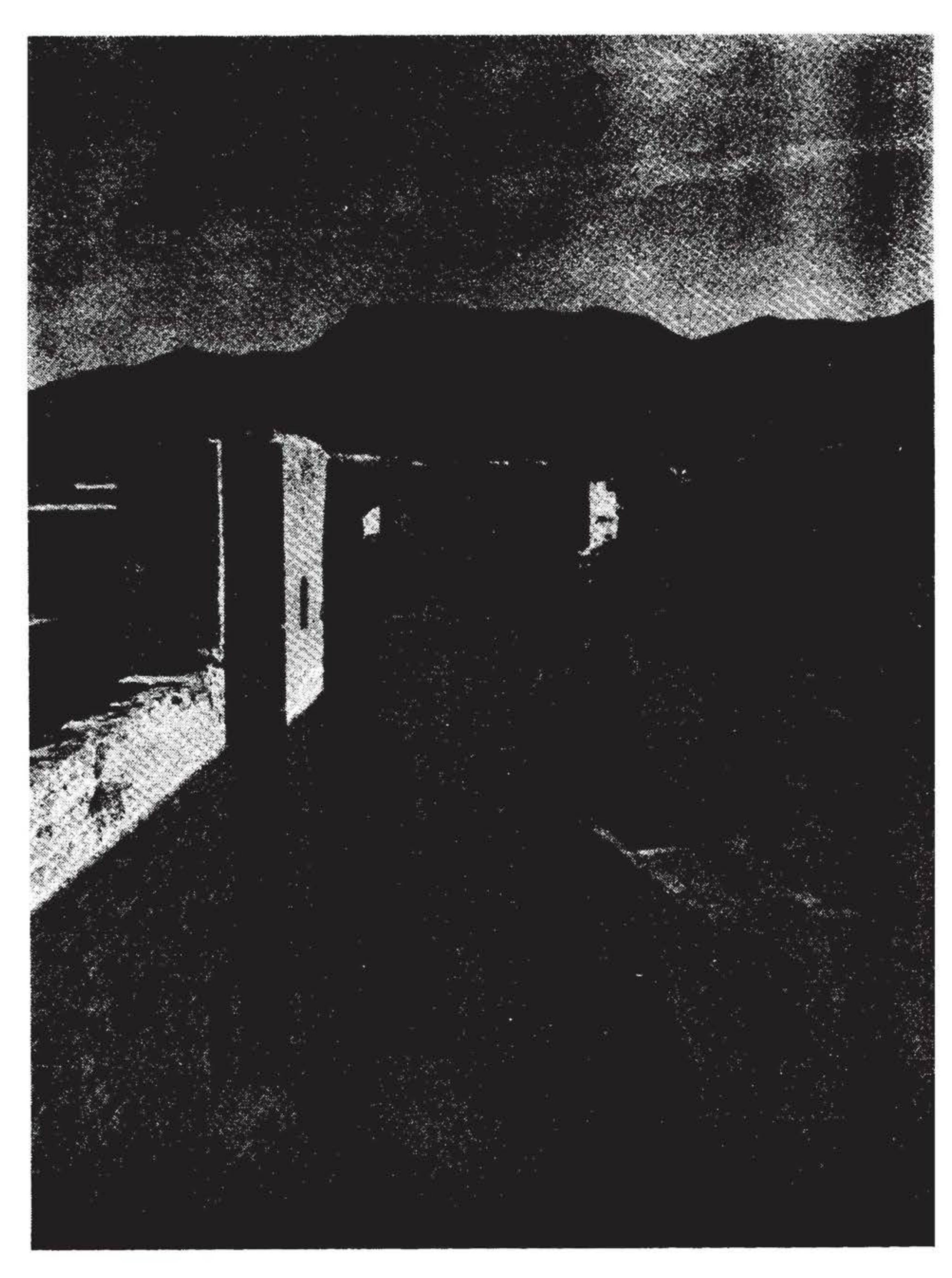
كيرينيا

مخطط المدينة (كما كانت عليه في نهاية القرن التاسع عشر). المقياس ١/١٠٠٠ رسمت التحصينات العائدة إلى العهدين البيزنطي والفرنجي باللون الأسود، وتلك التي تعود للعهد البندقي بدون تظليل.

١ ـ القلعة البيزنطية والفرنجية، ٢ ـ حصون بارزة من القرنين الخامس عشر والسادس عشر، ٣ ـ قطاعات أزيلت من سور البلدة، ٤ ـ المرفأ.

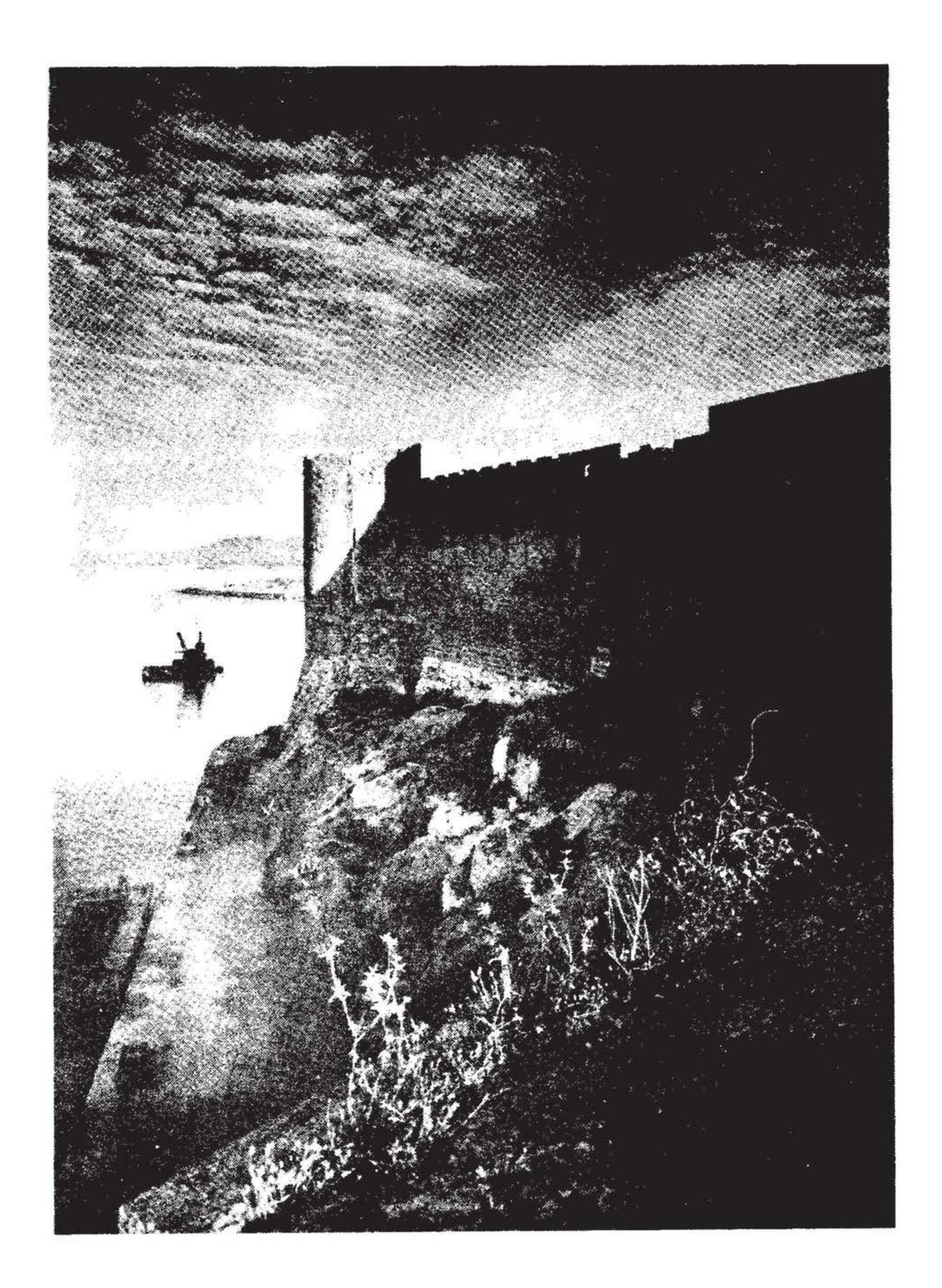


الجناح الشرقي للقلعة وبرج البنادقة الى اليسار والبرج الفرنجي الى اليمين.



كيرينيا

اطلالة الى الأسفل من منصة المدفعية.



كيرينيا ـ الامام: الجناح الشمالي للقلعة.



كيرينيا

الكنيسة البيزنطية الصغيرة.

١٢١٣ م، وتبع ذلك قيام القبارصة بحصارين للقلعة سنتي ١٢٢٨ و ١٢٣٤ م. ثم نجح القبارصة في استعادة القلعة التي ما لبثت أن تحولت إلى سجن لمملكة قبرص (في القرن الرابع عشر). وقام الجنويون بحصار كيرينيا سنة ١٣٧٤ م. ولكن الملك جيمس الأول صمد في القلعة رغم قصفها بمدافع الحجارة الثقيلة، وكان للقلعة دورها الحيوي في المحافظة على مؤخرة المدافعين. وعندما هاجم المماليك المسلمون قبرص سنة ١٤٢٦ م. وهزموا القبارصة في خير وكيتيا، انسحب الوصي (الكاردينال دي لوزينيان) الى كيرينيا. ولكن المماليك لم يهاجموا القلعة، وتجنبوا الصدام بدفاعاتها القوية. ثم نشأ نزاع حول حقوق الوراثة بين (شارلوت دي لوزينيان) وأخيها غير الشرعي (جيمس الثاني) وتعرضت كيرينيا لحصار طويل استمر ثلاث سنوات تقريباً (١٤٦٠ - ١٤٦٣ م) واضطر حاكم كيرينيا في النهاية للاستسلام. ثم جاء البنادقة فاحتلوا كيرينيا سنة ١٥٤٤ م. فبذلوا عناية خاصة لاعادة بناء القلعة وتحصينها بعد أن أضحت عتيقة متداعية. وهم الذين عززوا الأسوار الجنوبية والغربية، وأقاموا برجاً دائرياً وحصناً بارزاً ضخماً فيها. غير أن هذه التحصينات لم تمنع قلعة كيرينيا من السقوط في قبضة الاتراك العثمانيين دونما قتال (سنة ١٥٧٠ م) فعمل الأتراك المسلمون على استخدام القلعة قاعدة لحاميتهم وسجناً للعصاة والمجرمين.

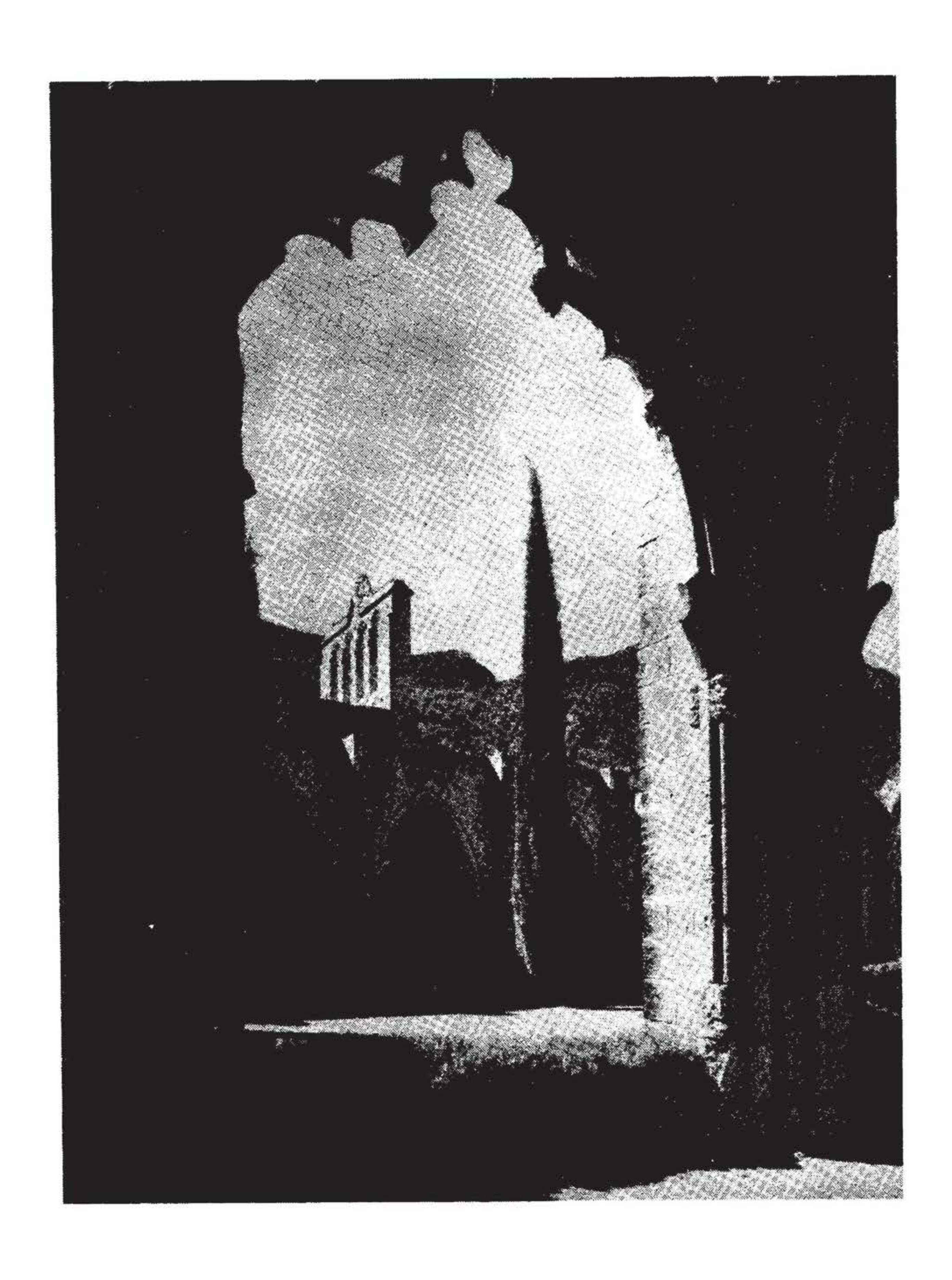
رابعاً: قلعة بيلابايس [١]

تقع في قرية شمال قبرص، وكانت ديراً - بيعة - لطائفة البرومنتريين [٢]. وقد احتلت القرية وقلعتها مركزها على مسافة أميال قليلة إلى الجنوب - الشرقي من كيرينيا. وقد صمم الدير الذي ما يزال في حالة جيدة جداً، وفقاً للنموذج التقليدي

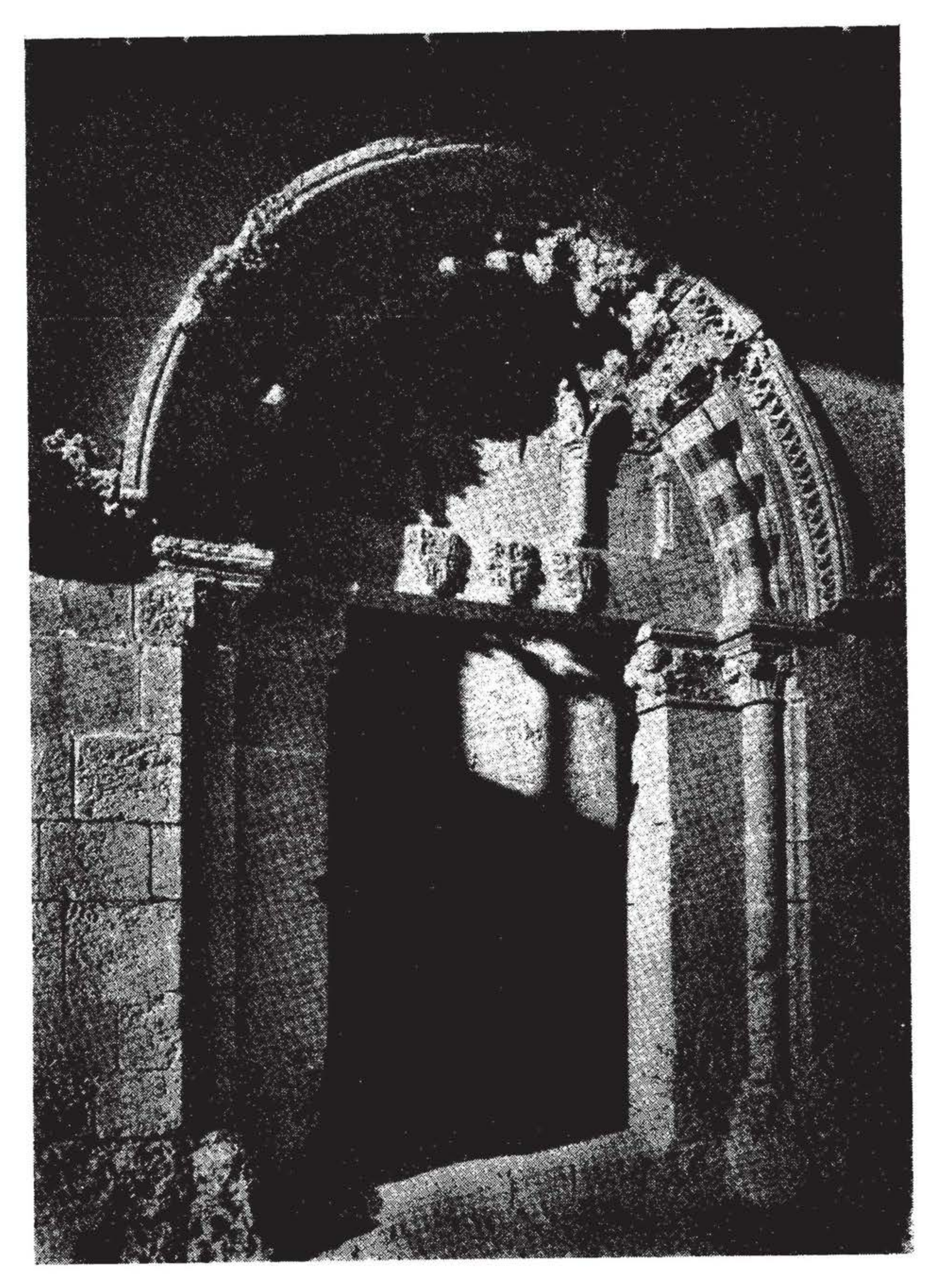
---

(١) بيلابايس: (BELLAPAIS) وبالفرنجية لابايس: (LAPAIS) ودير ابيسكوبي: (ABBAYE DE EPISCOPIE) وابيسكوبيا: (EPISKOPIA).

(٢) طائفة البرومنتريين: هي طائفة من الروم الكاثوليك. نظمها نوربرت دوكسانتين الموصوف بالقديس وذلك سنة ١١٢٠ م، وأقام لطائفته ديراً في بريمونتري - فرنسا - وتسمى أيضاً نظام بريمونتري: (ORDRE DES PREMONTRES) أو القانون الأبيض وهو نظام يقوم على تطبيق مبادىء القديس أوغستين SAINT AUGUSTIN) في الحياة.



بيلابايس: الواجهة الغربية للكنيسة.



بيلابايس

الباب الرئيسي لحجرة الطعام في الكنيسة .

المعروف، فالفناء الداخلي مكشوف وحوله الأروقة المعمدة. وتنتصب الكنيسة الصغيرة في الجهة الجنوبية منه، وفيها صحن وجناحان. وتوجد في الشمال قاعة الطعام الكبيرة. كما يوجد في الغرب قبو المؤونة والمطبخ الذي له فسحة خاصة منفصلة. ولقد ارتبط تشييد القلعة وبناء الدير بعملية إعادة فتح القدس وطرد الفرنج منها على أيدي المسلمين بقيادة صلاح الدين (سنة ٥٨٣ هـ = ١١٨٧ م) فقد عمل ملك القدس أملريك لوزينيان (١١٩٨ ـ ١٢٠٥ م) على تأسيس الدير لطائفة رهبان بريمونتري الذين هربوا الى قبرص. وبعد أن اكتمل بناء القلعة والدير خلال عهود متتالية، أضيفت إليه أقسام جديدة، وخصص لـه مـن الوقـت ـ الأحبـاس ـ مـا يكفيـه. وتعرضت القلعة والدير لأزمات حادة عبر صراع القبارصة والجنويين. وتصدع الدير كثيراً في عهد حكم البنادقة. حتى إذا ماجاء الأتراك العثمانيون، عملوا على طرد الطائفة الدينية. غير أنهم سمحوا للقرويين المسيحيين بالتردد على الكنيسة، وأقاموا حامية لهم في القلعة.

خامساً: فاماغوستا (أو فماغوستا)[1].

هي مدينة لها مرفأ، وتضم قلعة هامة على الساحل الشرقي من قبرص. ورغم أن داخل المدينة أصبح مهجوراً من السكان بسبب مناخها غير الصحي. فإن تحصيناتها التي تعود في معظمها إلى عهد حكم البندقية للجزيرة ما تزال في حالة جيدة، كما هو الحال بالنسبة لكنائسها العديدة أيضاً. وتقع فماغوستا فوق أرض مستوية تقريباً إلى جوار خليج محمي جيداً، بريف صخري بارز، ويمكن إغلاقه تماماً ـ في العصور الوسطى ـ بسلسلة حديدية تمتد من القلعة إلى برج الحصار. ولا يتفق تخطيط المدينة مع أي تخطيط معروف، فقد كانت محاطة بأسوار غير منتظمة، مدعمة بحصون بارزة. والقطاع

---

(١) فاماغوستا: (FAMAGUSTA) وباليونانية أموخوستوس: (AMMOCHOSTOS) وتعني (في الرمال) وقد ظلت هذه التسمية هي الشائعة حتى القرن الثالث عشر. وبعدها أصبحت تعرف باسمها الفرنجي فقط الذي هو فماغوستا: (FAMAGOSTA) وقد اقيمت فاماغوستا على أنقاض مستوطنة قديمة اسمها: (SALAMIS-CONSTANTIA) سالامبس كونستانتيا، وكانـت على بعـد أميـال قليلـة عـن الساحل ـ من جهة الشمال.

الوحيد المحصن جيداً من هذه الأطراف الدفاعية هما زاويتا المدينة. أي البوابة البرية الجنوبية ـ الغربية، مع الحصن الأمامي الذي يعود تاريخه الى سنة ١٥٤٤. وما يسمى بحصن مارتينينغو★ حوالي سنة ١٥٥٠ ـ ١٥٦٠ م. في الشمال الغربي المشيد بالاسلوب الايطالي القديم.

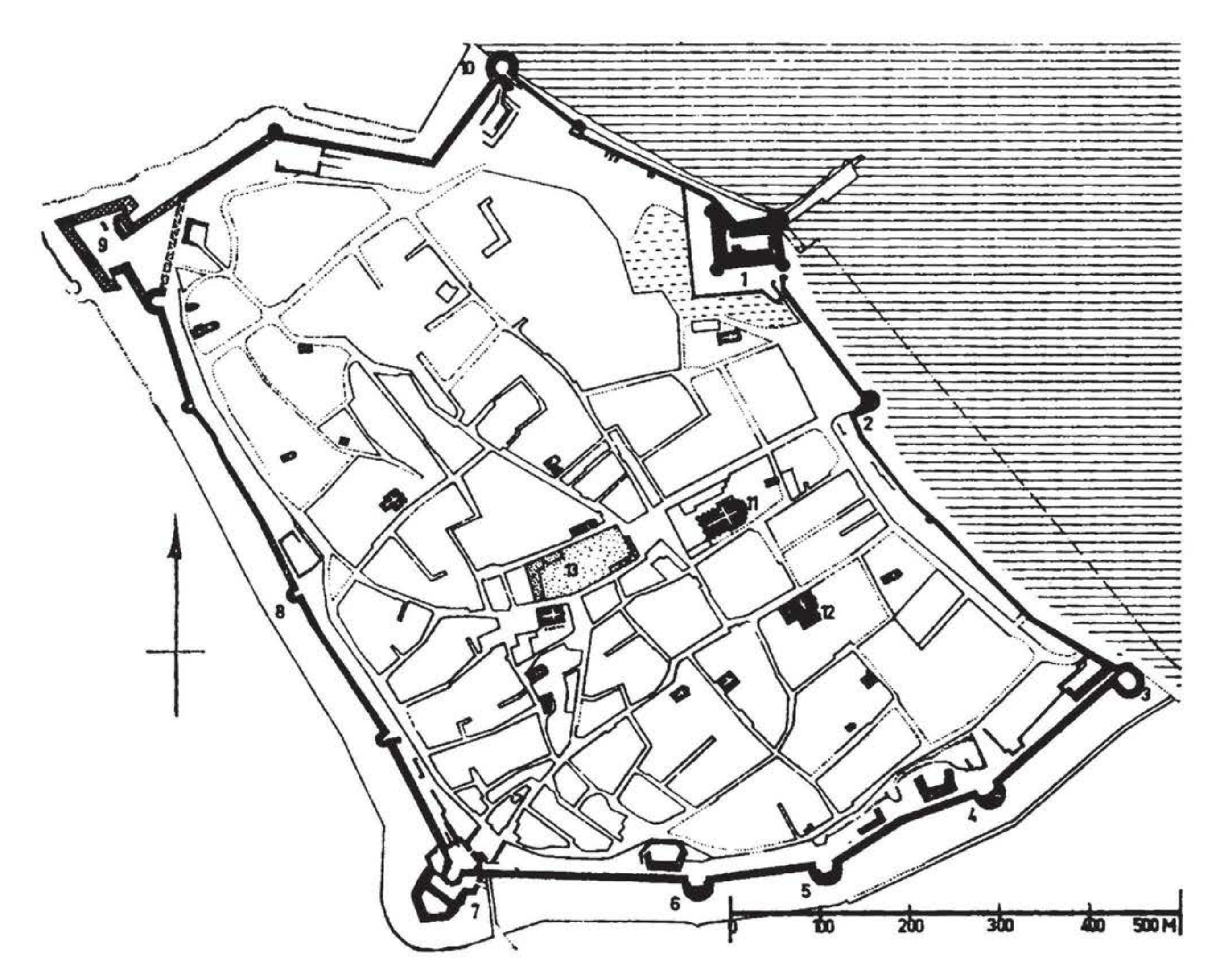
وتوجد القلعة في منتصف الواجهة المطلة على البحر ـ وهي القلعة التي عرفت في العهد التركي العثماني باسم (ايتش كال ـ أو القلعة الداخلية) ويعود قلب القلعة في تاريخه الى القرن الرابع عشر. بينما شيد السور الخارجي في العام ١٤٩٢ م وذلك بعد أن استولت البندقية على قبرص.

وعرفت فاماغوستا (أو فماغوستا) عبر تاريخها أحداثاً مثيرة، لم يكن أقلها شأناً وأهمية، قيام ريتشارد قلب الأسد وجي لوزينيان باحتلالها سنة ١١٩١ م. ثم قيام صراع بين القبارصة الملكيين وأتباع الامبراطور فريدريك الثاني سنة ١٢٣٢ م. وقد عرض ملك قبرص (هنري الثاني ١٢٨٥ ـ ١٣٢٤ م) على الفرنج الذين طردهم المسلمون من عكا سنة ١٢٩١ م. أن يستقروا في فماغوستا. وبدأ العمل وقتها لاعادة تحصين القلعة وتقوية دفاعاتها. واستمر العمل في دعم الدفاعات بحماسة حتى سنة ١٣١٠ م حيث تم بناء القلعة مع إضافة أقسام جديدة الى القصر الملكي والى المدينة. كما تم تحسين السور البحري ما بين البوابة البحرية وحصن المدفعية في القسم الجنوبي الشرقي. وتم أيضاً حفر خنادق بمساعدة الفلاحين الذين جندوا من جميع أرجاء الجزيرة. ولم تلبث فماغوستا أن ازدهرت بسرعة حتى أصبحت في سنة ١٣٣٦ م واحدة من أغنى مدن الشرق وأجملها باكتمال بناء كاتدرائية القديس نيقولا الضخمة (التي شيدت بين سنة ١٣٠٨ وسنة ١٣١٥ م). وقد أثار غنى فماغوستا شهية دولة جنوه التي عملت على احتلالها بعد حصار قصير (سنة ١٣٧٣ م) وظلت ضمن ممتلكاتها حتى العام ١٤٦٣ م. وذلك رغم المحاولات العديدة التي بذلها ملوك قبرص من أجل استعادتها واتباعها لحكمهم. حتى إذا ما كانت سنة ١٤٦٤ م. وبعد ثلاثة أعوام من

★ مارتينينغو: (MARTINENGO).

الحصار، استردها البيت الملكي القبرصي بموجب معاهدة مع جيمس الثاني. غير أن البنادقة ـ فينيسيا ـ كانوا قد وطدوا أقدامهم فيها قبل ذلك بزمن طويل، حتى إذا ما كانت سنة ١٤٨٨ م، ارتفع علم البندقية على (فماغوستا). وفي السنة التالية، أرغمت جيوش جمهورية البندقية آخر ملكات قبرص (كاترينا كورنارو) على التنازل عن العرش، والتخلي عن حقوقها الشرعية بالجزيرة. وشرع البنادقة بتحسين مدينة فماغوستا ودفاعاتها، وأعادوا ترميم السور الخارجي للقلعة، وبوابة البحر. وتم تشييد (حصن موراتو) وذلك حتى سنة ١٤٩٦ م. وأضيفت تحسينات أخرى الى الدفاع (من سنة ١٥٤٤ حتى سنة ١٥٦٥ م) كان من بينها بوابة البحر وحصن مارتينينغو.

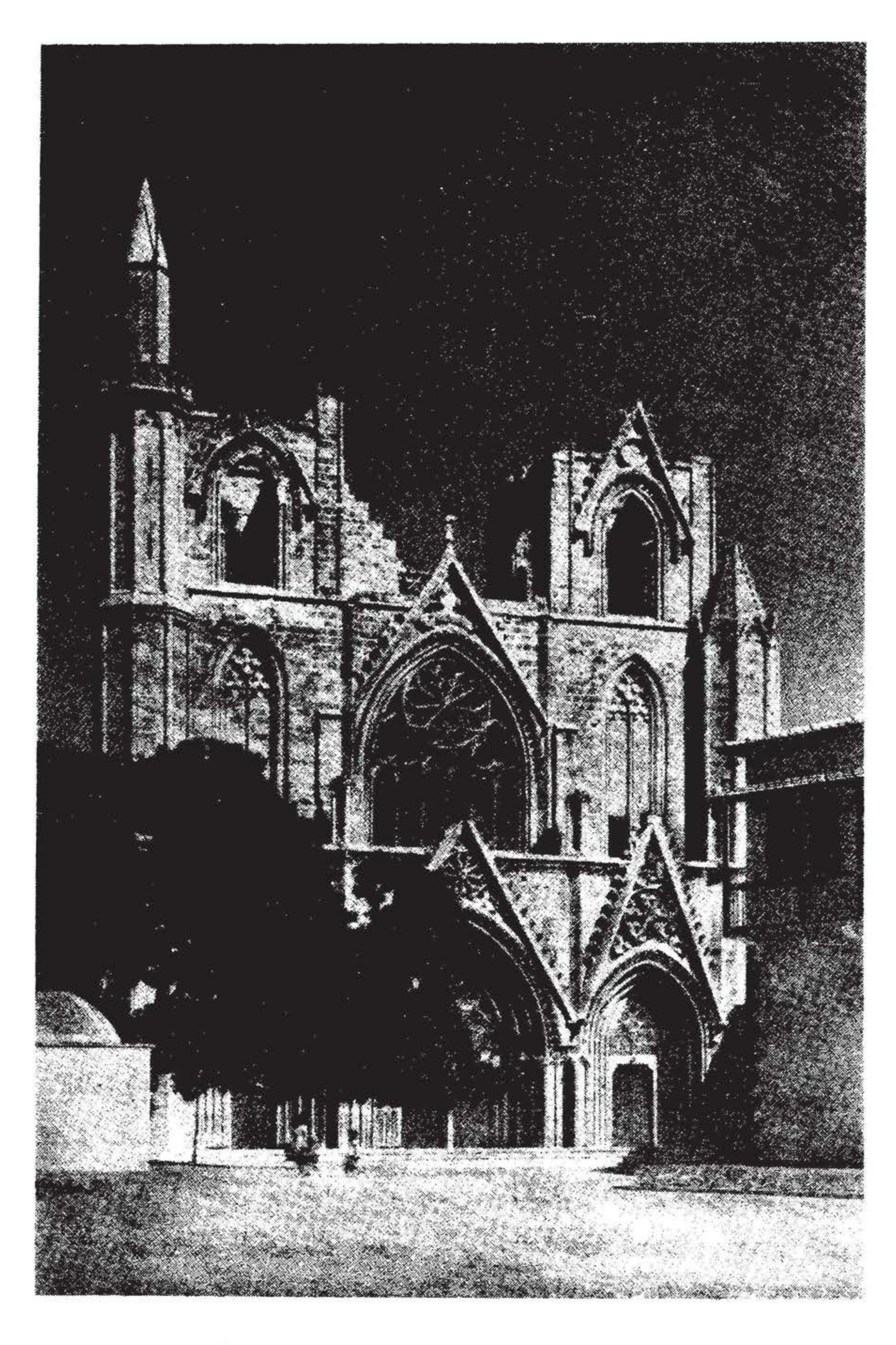
نزل الجيش التركي الإسلامي بقيادة لالا مصطفى باشا على أرض قبرص سنة ١٥٧٠ م. وأقام على حصار فماغوستا زهاء السنة، عمل الأتراك المسلمون خلالها على نقب الأسوار ـ عن طريق الانفاق ـ مما أدى الى انهيار الواجهة الجنوبية. فاستسلمت الحامية يوم ٢٩ تموز ـ يوليو ـ سنة ١٥٧١ م. بعد أن فقدت الحامية مؤونتها وذخائرها، وفقدت معها الأمل بأي دعم خارجي. فعمل الأتراك المسلمون على إعادة ترطين الصليبيين في قرية (ڤاروشا) الصغيرة، إلى الجنوب من فماغوستا، وحرم عليهم دخول أسوار المدينة عند حلول الظلام لعدة عقود من الزمن تلت ذلك. وعمل الأتراك على الفور. على اصلاح دفاعات فماغوستا. ثم ما لبثت هذه الدفاعات أن فقدت أهميتها.



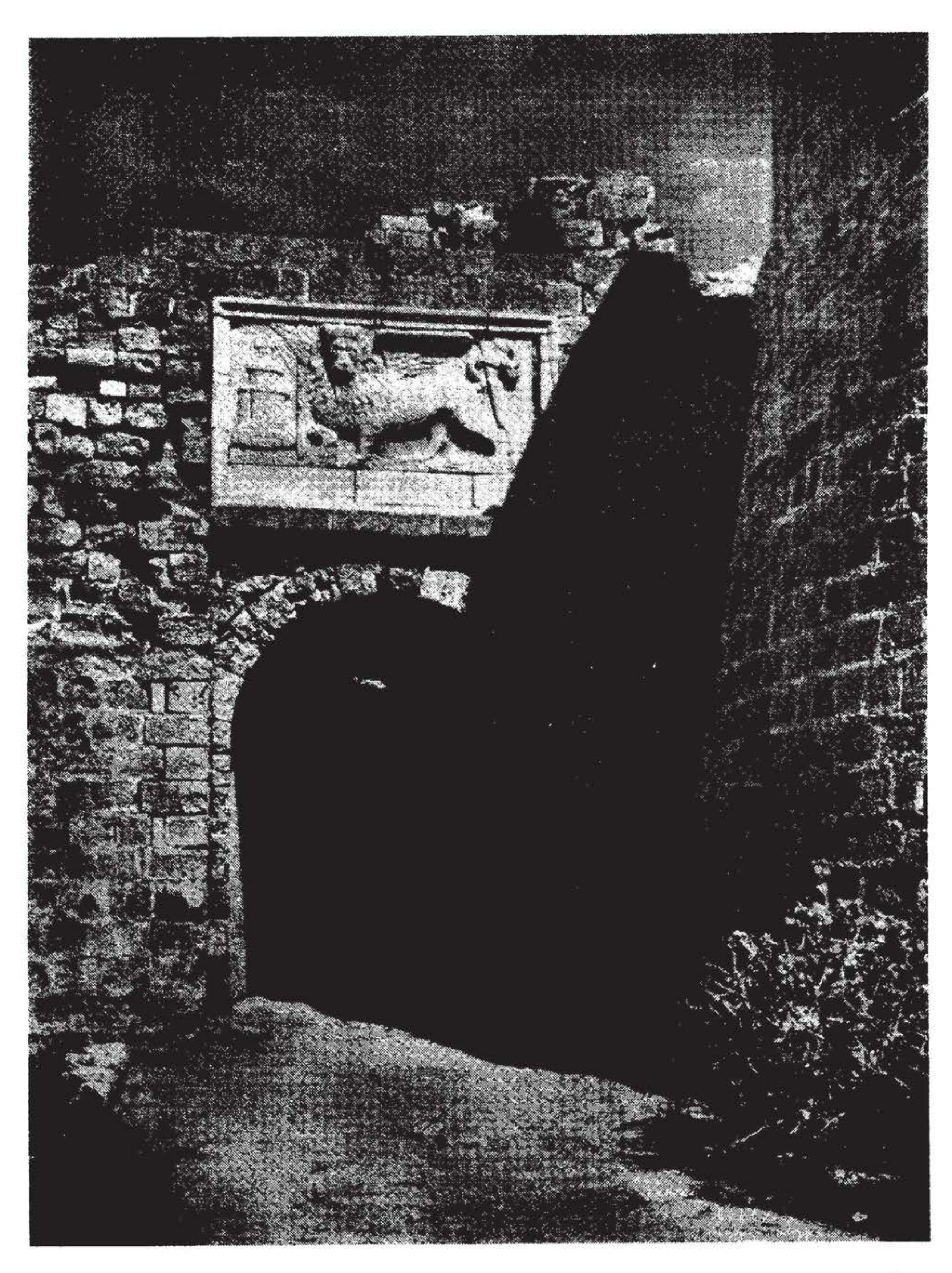
فماغوستا Famagusta .

إعادة تركيب للمدينة كما كانت في منتصف القرن السادس عشر، المقياس ١/١٠٠٠٠. رسمت تحصينات أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن التاسع عشر باللون الأسود. ومباني منتصف القرن السادس عشر بالتهشير المتقاطع Arsenal Bastion .

١ ـ القلعة (إينتش كال، أو حصن البحر)، ٢ ـ بوابة البحر، ٣ ـ حصن المدفعية، ٤ ـ حصن كامبو سانتو، ٥ ـ حصن أندروزي، ٦ ـ حصن القديسة ناپة، ٧ ـ بوابة البر ومعصم أمامي (Ravelin)، ٨ ـ حصن موراتّوا، ٩ ـ حصن مارتينينغو، ١٠ ـ حصن الجوهرة، ١١ ـ كاتدرائية القديس نيقولا للاتين (أيا صوفيا كامي Camii Aya Sofya)، ١٢ ـ كاتدرائية القديس جورج لليونان، ١٣ ـ موقع القصر الملكي السابق وأطلاله (بالاستناد إلى تقرير مديرية الآثار ـ قبرص).

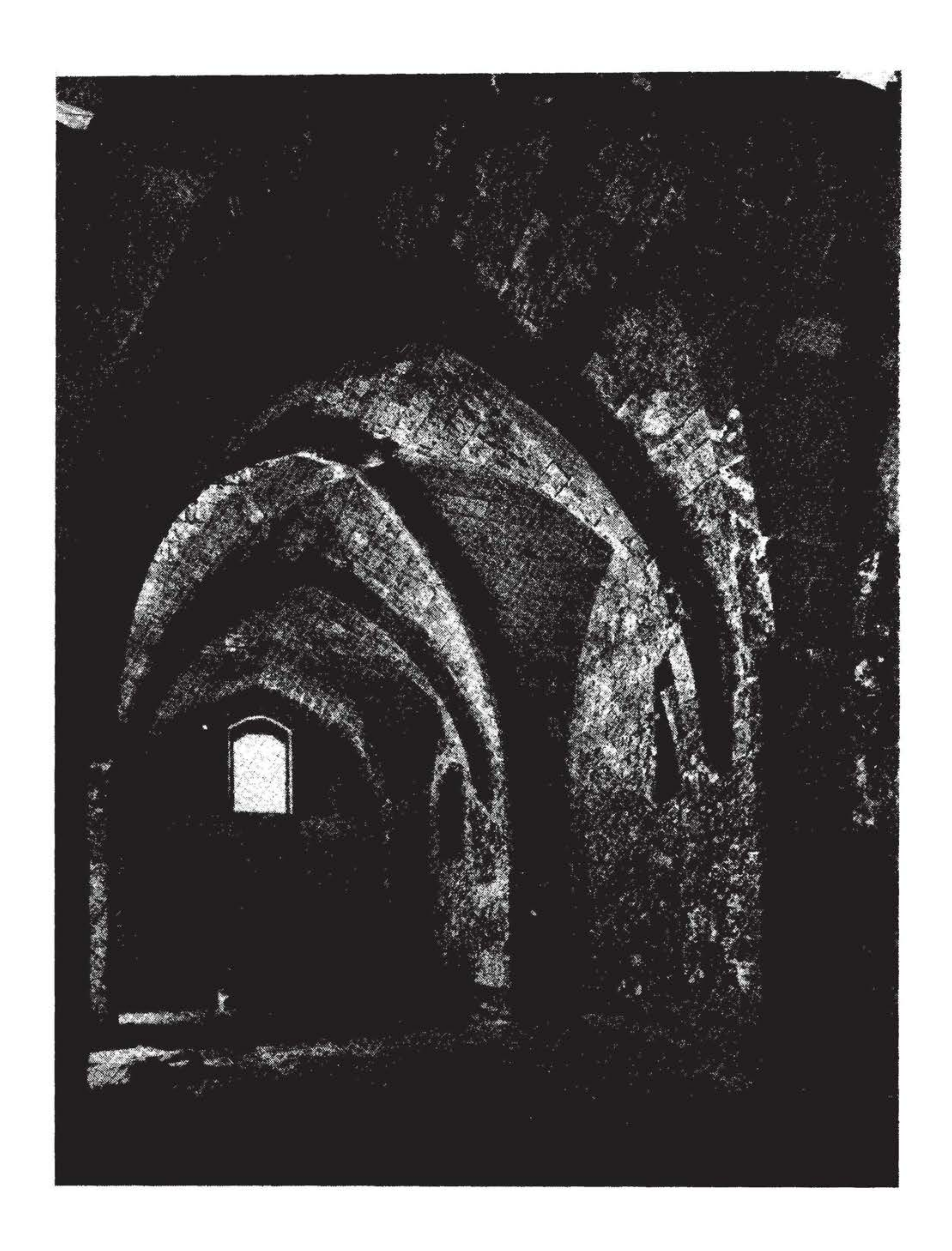


فماغوستا : الامام - كاتدرائية القديس نيقولا

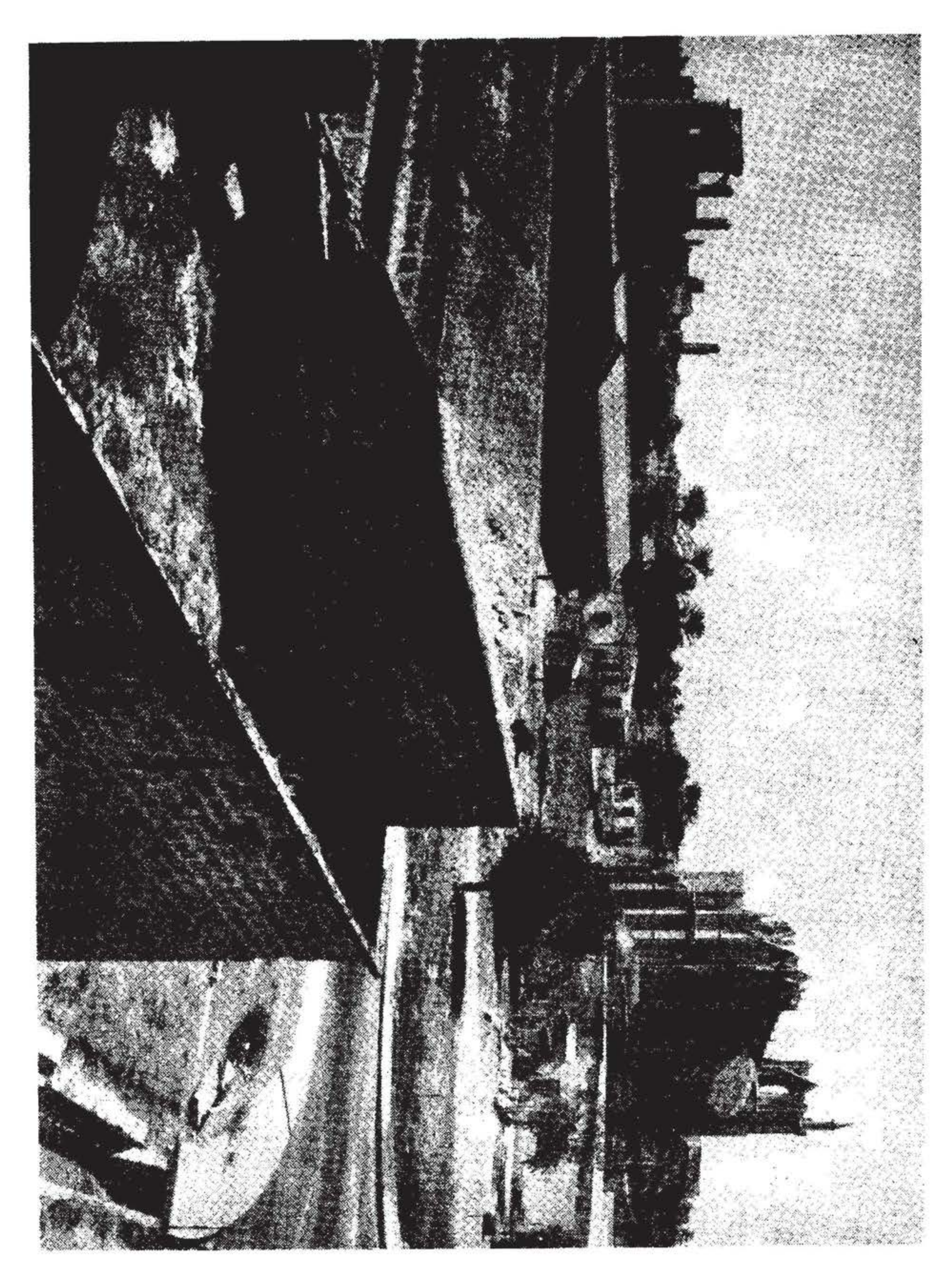


فماغوستا

الخلف - البوابة الرئيسة للقلعة. ويعلوها أسد القديس مارك.



فماغوستا - الامام - غرفة الطابق الأرضي - على الجانب الشمالي لحصن البحر.



فماغوستا

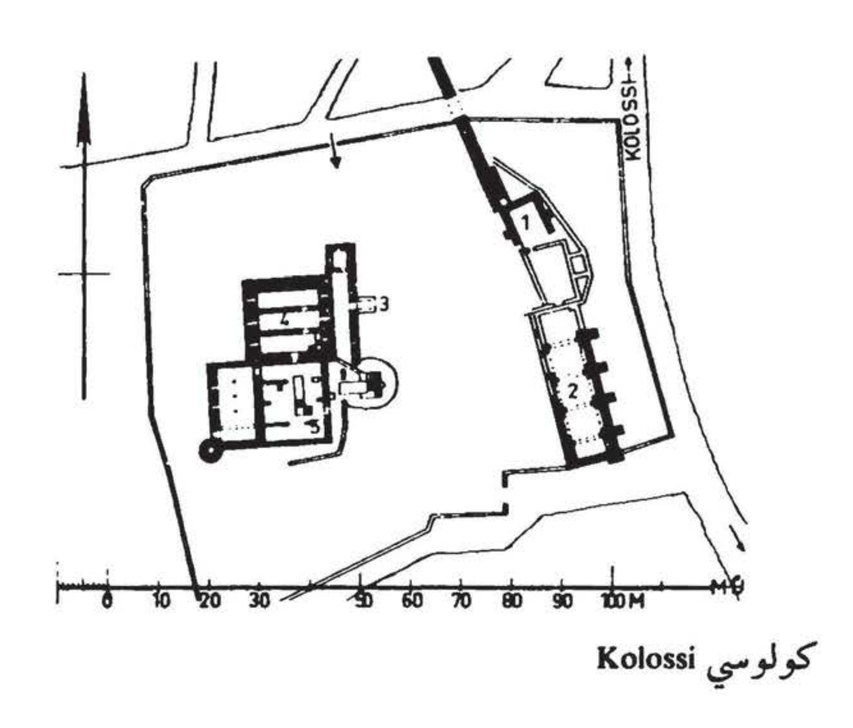
الخلف ـ منظر حصن بوابة البحر ـ والى اليسار كاتدرائية القديس جورج.

سادساً: قلعة كولوسي[1] .

هي قلعة تقع في قرية جنوب قبرص. وتبعد ستة أميال غربي ليماسول، على الطريق الى بافوس. وقد زالت معظم معالم القلعة، ولم يبق منها سوى برجها المحصن الضخم. وتوجد إلى الجنوب من هذا البرج بعض مبان متهدمة. كما يقوم بناء ذو عقود مع اكتاف داعمة قوية - هو بناء معمل السكر سابقاً - مع أطلال مطحنة تكملها ساقية الطاحون، الى الشرق من البرج المذكور مباشرة. وثمة صهاريج مياه في قبو البرج المحصن والمؤلف من ثلاث طبقات، ومخازن في الطابق الأرضي، وحجرة استقبال - انتظار -. ومطبخ في الطابق الأول. وغرفتي نوم بسقف ذو عقود في الأعلى. ولم تتوافر معلومات دقيقة عن القلعة الأولى التي شيدت في كولوسي. ولكن من المحتمل أن يكون الموقع قد شغل قديماً بمعقل بزنطي صغير. إلا أن القلعة كانت موجودة بالتأكيد عندما قرر ملك قبرص منحها للفرسان الرهبان بعد أن طردهم المسلمون من عكا، فعمل مقدم الطائفة على جعل قلعة كولوسي مقراً له، ومركزاً لممتلكات الطائفة الغنية التي كانت تضم العديد من القرى والكروم. وقد تعرضت كولوسي بعدئذ لاغارات الجنويين سنة ١٣٧٣ م وسنة ١٤٠٢ م، ثم لهجوم المماليك من مصر سنة ١٤٢٥ م. فعمل مقدم الطائفة على تشييد البرج المحصن (١٤٥٠ - ١٤٦٨ م) والذي حمل الى جانب شعار من بناه، شعارات مملكة القدس وقبرص وأرمينيا وسواها. وقد أصابت هزة أرضية القلعة بأضرار بالغة سنة ١٥٦٨ م. وفي سنة ١٥٧٠ م، انتقلت قبرص وممتلكات الطائفة الى الأتراك العثمانيين الذين أعادوا بناء معمل تكرير السكر.

---

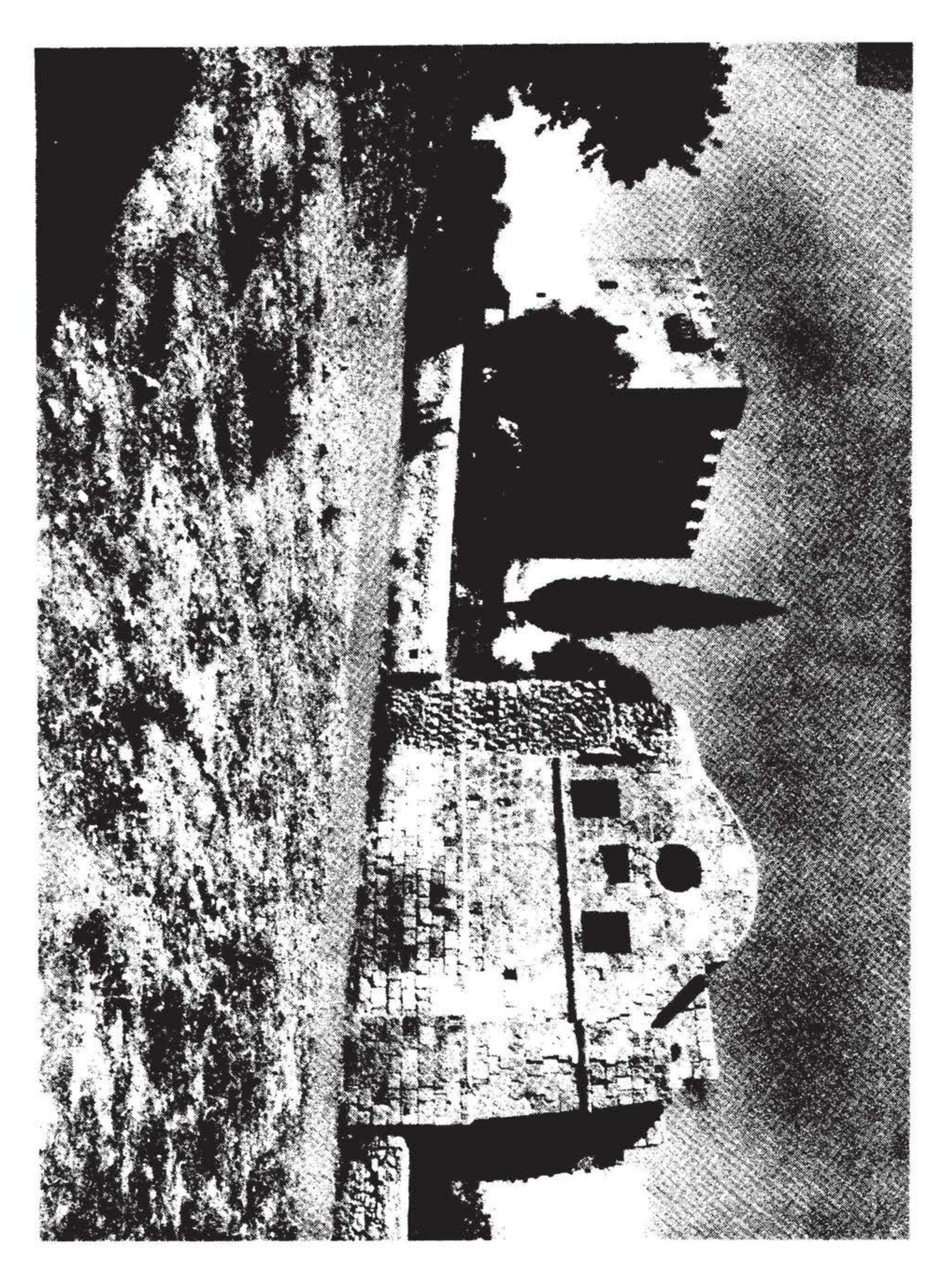
(١) كولوسي: (KOLOSSI) باليونانية، وبالفرنجية كولوسو: (COLOSSO).



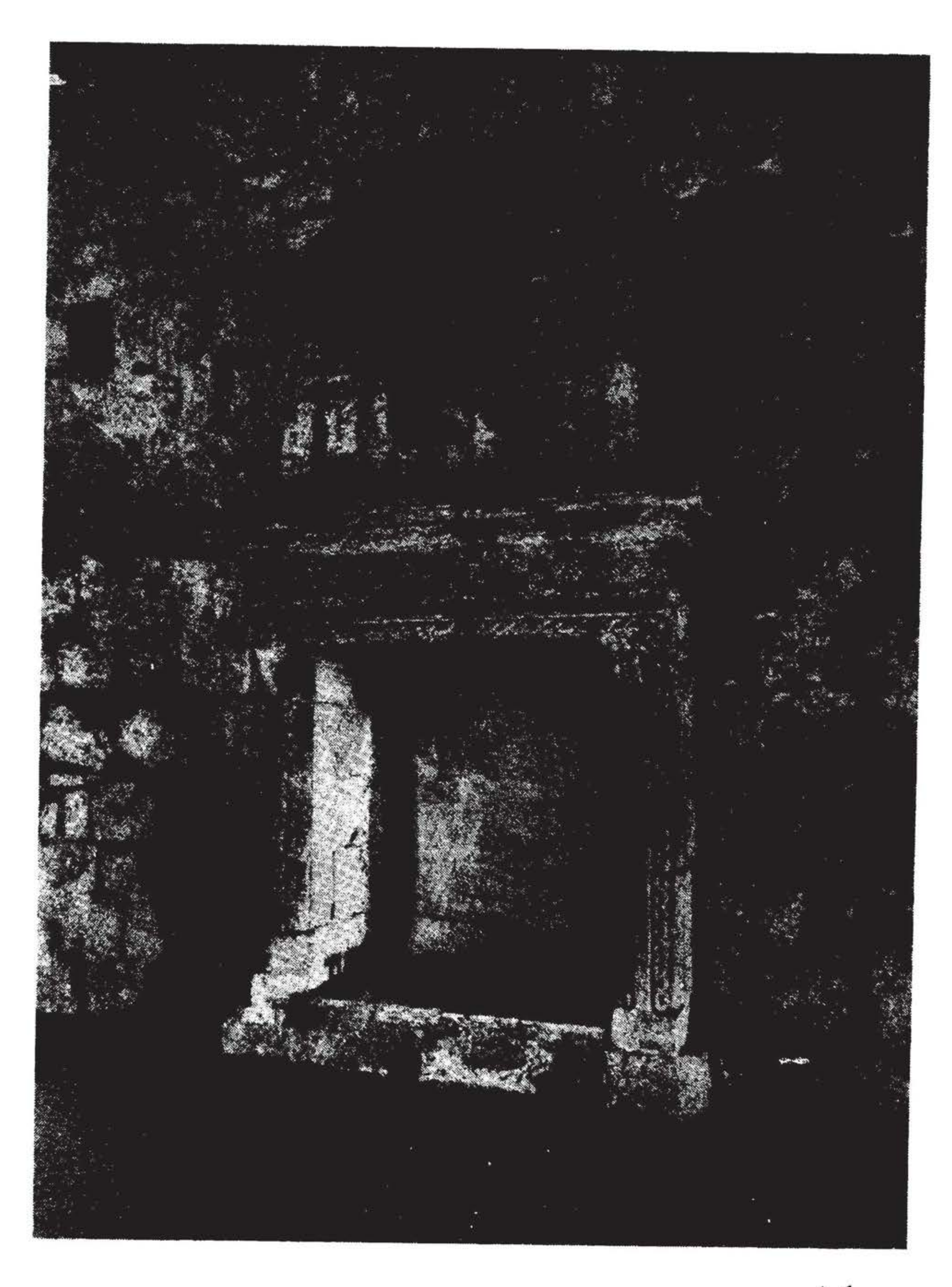
كولوسي Kolossi

مخطط أرضي لأملاك الأسبتارية، المقياس ١/٢٠٠٠.

١ ـ الطاحون وساقية الطاحون، ٢ ـ معمل تكرير السكر السابق، ٣ و ٥ ـ مبان خارجية، ٤ ـ البرج المحصن.



كولوسي: الامام ـ منظر عام من جهة الجنوب الشرقي مع **معمل تكرير السكر في مقدمة** الصورة.



كولوسي

سابعاً: قلعة بوفاڤنتو [١] .

وهي قلعة تقع على الساحل الشمالي من قبرص، على بعد نحو ستة أميال إلى الجنوب الشرقي من كيرينيا. وقد تمركزت القلعة بين الجروف شديدة الانحدار، من السلسلة الشمالية، على ارتفاع زاد على ثلاثة آلاف متر. وهي على اتصال مباشر بالنظر مع كيرينيا ومع قلعة القنطرة. وقد استخدمت لفترة طويلة، بسبب موقعها الملائم، مركزاً لاضرام النيران، كإشارات انذار وتحذير، عند اقتراب السفن الغريبة من الجزيرة. وهي تتألف من قلعة سفلية مبنية فوق السفح الجنوبي. وتحوي مخازن وأماكن لإقامة الحامية، ومن قلعة علوية على ارتفاع ثمانين قدماً تقريباً عن الأولى. وقد صمم مخططها المحروم من التناظر والتناسق ليتكيف مع طبيعة الأرض الجبلية. ولقد كان دور قلعة بوفاڤنتو مشابهاً لدور سواها من قلاع قبرص وتحصيناتها.

---

(١) بوفاڤنتو: (BOUFFAVENTO) بالفرنجية - وباللاتينية بوفيڤنت: (BUFEVENT) وبوفاڤان: (BUFFAVENT) الخ... كذلك تسمى ليونته: (LEONTE) وقصر الأسد: (CHATEAU DU LION) وقصر الملكة: (CHATEAU DE LA REINE).



يوفاڤنتو المظهر الجنوبي للأطلال